

الجامعة الإسلامية — غزة
عمادة الدراسات العليا
كلية الآداب
قسم اللغة العربية

الإعجاز البياني في نظم خواتم الآيات (المشتملة على أسماء الله الحسنى)

رسالة ماجستير مقدمة من الطالب :
عاطف رجب جمعة القانونوع

إشراف

أ.د. محمد شعبان علوان
أستاذ البلاغة والإعجاز القرآني
الجامعة الإسلامية — غزة

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير
من قسم اللغة العربية بكلية الآداب في الجامعة الإسلامية — غزة

العام الجامعي

١٤٢٧هـ — ٢٠٠٦م

الإهداء

إلى والدي ...
شيء من رغبة جاءت متأخرة ... لكنها ممتدة خالدة
على مدارج الربيع

ووالدتي...
مواقد الصباح... والتفاتة... لموعد جميل
وزوجتي...
رحلة تمايزت... ومرفأ ومسكن نبيل

وعمي وخالي...
تقلب على متون الشمس
رحلة البقاء في الضمير

وعبد اللطيف أخي...
وإخوتي ومن أحبهم...
مسارب الفؤاد
وموكب الهديل

شكر وتقدير

أتقدم بوافر الشكر وجزيل التقدير لأستاذي ومشرفي:

أ.د. محمد شعبان علوان

على ما منحني من جهد ووقت...و تشجيع

وما وفر لي من مصادر ومراجع

فله الثناء وخالص الدعاء

وأدامه الله ذخرا لهذا الدين

عاطف رجب القانون

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي كرم الإنسان بالقرآن، فوهبه من أجل فهمه العقل والبنان؛ فكانت (اقرأ) طليعة موكب النور من السماء إلى الأرض في رحلة الإيمان. والصلاة والسلام على من كانت معجزته آية، ونطقه هداية، ولقياه على الحوض غاية الغاية، وبعد...

ظل القرآن الكريم بسحره وعذوبته، وأحكامه وشريعته، وبنائه وعبارته... منهلاً عذبا، وقمة سامقة، يرده الواردون، ويتطلع إليه الناظرون منذ أن تنزل كحبات الندى على قلب الحبيب - صلى الله عليه وسلم .

وقد وقفت آياته المحكمة، وألفاظه المتناسقة ، وأسلوبه الرصين، وجمال نظمه، وحسن سبكه، شواهد على أن هذا القرآن العظيم رسالة الله لعباده، ونوره المتدفق لقلوب هدها الظلم، ونفوس مزقها الشرك، وعقول أتلفها الجهل.

﴿ الرِّكَابُ أَزْكَاهُ إِلَيْكَ تُخْرِجُ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ .

وعبر العصور والأزمان ظل العلماء الأفذاذ ينهلون من رحيقه، ويجنون من بريقه، ويغوصون في أعماقه: يلتقطون درره، ويبينون عن معان فيه احتجبت، ولطائف في أنحائه انتشرت، يتقربون إلى خالقهم، ويبرهنون على معجزة نبيهم. وعلى وقع أقدام هؤلاء العظماء نسير... وفي ظلالهم نكمل المسير.

وهذه دراسة سميتها: (الإعجاز البياني في نظم خواتم الآيات المشتملة على أسماء الله الحسنى) ، ولما كان العلم يشرف بشرف موضوعه، ويعظم بسبب بحثه ومضمونه... وكان أعظم ما نعلمه ونعتقد به هو العلم الذي يتعلق بالله سبحانه وتعالى ، لا إله إلا هو، رب العالمين وخالقهم - كان البحث في كلامه من أجل العلوم، والانقطاع لفهم صفاته وأسمائه من أشرف الغايات والفهوم.

فصار من الواجب على مضاعفة الحمد والشكر له أن صرفني إلى كتابه، ولم يجعلني من الذين صرفهم عنه، لقوله تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ

وَلَا يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ (الأعراف: ١٤٦).

وتلك نعمة يمنها على ، وما مثلي يستحقها إلا أنها كرم منه وفضل. وكذلك يقتضي الوفاء أن أشكر أستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور : محمد علوان، أن شجعتني ووجهني ومهد لي الطريق وأعانني عليه.

وكان سبب اختياري لهذا الموضوع بعد توفيق الله أموراً عدة منها:

أولاً: رغبتني الخاصة وحاجتي الملحة منذ زمن مبكر أثناء تلاوتي القرآن وتأملتي فيه لمعرفة أوجه الحكمة في حركة الأسماء الحسنی في خواتم الآيات، والبحث عن علل تجاورها...

وكنت عند كل تلاوة أتساءل عن حكمة ورود الأسماء في خاتمة الآية ومناسبتها للسياق، ويستقر في جوانحي شعور ما أن ثمة ظواهر بلاغية تكتنز بها الخواتم، وأن ثمة ملامح دلالية تنطوي عليها.

ولقد زاد هذا الشعور لدي قصة ذاك الأعرابي في عهد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - الذي سمع رجلاً يقرأ: (فإن زللت من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله غفور رحيم) فقال الأعرابي: إن كان هذا كلام الله فلا يقول كذا الحكيم، لا يذكر الغفران عند الزل؛ لأنه إغراء عليه. (البيان والتبيين: ٢٦٩/٢). وكانت خاتمة الآية : (فاعلموا أن الله عزيز حكيم)، فقلت في نفسي ما أحوجنا إلى معرفة ذاك النظام الذي تتحرك من خلاله الأسماء الحسنی، والذي اكتشفه ذاك الأعرابي بسليقته.

ثانياً: عدم وجود دراسات كافية شافية تتناول هذا الموضوع بالبحث والتحليل، فكتب التفسير على وفرتها لم تنصد لمعالجة هذا الموضوع إلا على استحياء، ومن خلال شذرات تناثرت هنا وهناك.

وكذلك علماء البلاغة تكاد مصنفاتهم تكون شبه خالية إلا من بعض الأمثلة التي يقدمونها للتدليل على بعض الألوان البلاغية.

والحقيقة أنني لم أفق أثناء مطالعتي المتواضعة - في حدود علمي - على دراسة انفردت لهذا الموضوع من ناحية بلاغية - اللهم إلا مبحثاً فرعياً صغيراً أورده الدكتور فضل عباس في كتابه (إعجاز القرآن الكريم) تحت عنوان (الفاصلة القرآنية)، والذي

يرد به على دعوى دائرة المعارف البريطانية التي ادعت أن القرآن مجرد إنشاء جاء بطريق عشوائية، واستدلّت على هذه الدعوى بالفواصل القرآنية.

ثالثاً: اعتقادي أن هذا موضوع يفيد المسلمين خاصتهم وعامتهم، وأنه موضع اهتمام منهم ، بحكم علاقته المباشرة بالقرآن الكريم. ولقد اعتمدت في بحثي هذا على المنهج التكاملي مستفيداً مما يتناسب مع طبيعة الدراسة من مناهج أخرى، ومستعيناً بإحصاء الشواهد القرآنية، واستقصائها، واستقراء الظواهر ، واستنباط الأحكام. وقد قسمت بحثي هذا إلى: مقدمة وأربعة فصول وخاتمة.

قمت في الفصل الأول بإحصاء أسماء الله الحسنى وتحديدّها في مجال الدراسة، وتوضيح معاني الأسماء معتمداً على كتب اللغة، وتفسير القرآن الكريم. ثم تناولت في الفصل نفسه الدلالة البنائية لأسماء الله الحسنى ذات الأصل اللغوي الواحد، كالغفور والغفار، والقدير، والمقتدر والقادر . وخصصت الفصل الثاني لدراسة حركة الأسماء الحسنى في خواتم الآيات، وقسمته إلى قسمين، تحدثت في الأول عن الأسماء المفردة وفي القسم الثاني عن الأسماء المتجاوزة ، مبيناً قدر الاستطاعة علل التجاور والترتيب.

ثم أفردت الفصل الثالث لدراسة الظواهر البلاغية التي اشتملتها الخواتم ، مثل التكرار والتقديم والتأخير والتوكيد والإظهار في موضع الإضمار والالتفات. ثم تحدثت في آخر الفصل عن بناء الخاتمة في الآية. وقمت في الفصل الرابع بإحصاء للأسماء الحسنى المفردة والمتجاوزة التي وردت في خواتم الآيات في القرآن الكريم كله.

ثم قمت بإحصاء الأسماء كذلك في الخواتم المكية والمدنية، وحاولت قدر استطاعتي رصد إحصاءات ذات دلالة لبعض الأسماء، ولمح ما خفي من دلالات التكرار. وقللت البحث بخاتمة خلصت فيها لأهم النتائج التي توصلت إليها، ثم أتبعته الخاتمة بفهارس متنوعة للآيات القرآنية، وكذلك الأحاديث النبوية الشريفة، والأشعار

والأعلام والكتب المدرجة في ثنايا البحث، وختمت البحث بفهرسة للموضوعات مرتبة حسب ورودها في البحث.

على أن جملة من المصاعب قد واجهتني يقف على رأسها شعوري بالوحشة في طريق قل فيه السالكون، فهو موضوع لم أجد أن أحدا من القدماء أفرد له مصنفا على اهتمام العلماء بالقرآن الكريم، طبعا في حدود إطلاعي المتواضع، ومن ثم فليس لي أن أرسل نفسي على سجيتها، أو أن أطلق العنان لعقلي في تحليل تجاور الأسماء أو ترتيبها.

كما أن مشكلة أخرى انتصبت في وجهي وهي ندرة المراجع في هذا الموضوع وتناثر حباته في كتب اللغة والنحو والبلاغة وعلوم القرآن والعقائد، وكان على أن أتبعه في تلك الكتب، محاولا أن أنظم سمطه، وأجمع درره. وأخيرا...

لا أزعم أنني قد أحطت بموضوع الدراسة من كل جوانبه، فهذا أمر عسير لا يقوى عليه مثلي، فما زال في نفسي شيء منه، ولكنني أزعم أنني طرقت، وأضأت حوله متجاسرا، ومهدت لجحافل الباحثين بعدي أن يلجوا محرابه، فيصلوبوا ما أخطأته، ويستطيعوا ما عجزت عنه، ويتموا ما بدأت.

فإن وفقت فيما ذهبت إليه فهذا فضل من الله ومنة، وإن كانت الثانية فحسبي أن خطئي يبرهن على بشريتي العاجزة الضعيفة، ويبين عن إنسانيتي القاصرة، ويكشف عن كمال المولى سبحانه وتعالى وقوته وعزته وتما علمه.

وفي كل الأحوال لا أسأله سبحانه إلا العفو عند الزلل، والمغفرة عند مقارفة الذنب، وأن لا يرد عملي هذا علي فيعاقبني عليه، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم، مبرءا من الشرك والرياء، إنه على ذلك قدير وهو حسبي ونعم الوكيل، صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الفصل الأول

الإعجاز البياني لأسماء الله الحسنى

أولاً: حصر أسماء الله الحسنى الواردة في خواتم الآيات.

ثانياً: معاني الأسماء.

ثالثاً: الدلالة البنائية لأسماء الله الحسنى.

الفصل الأول

الإعجاز البياني لأسماء الله الحسنى

أولاً : حصر أسماء الله الحسنى الواردة في خواتم الآيات :

إن ثمة مجموعة من الإشارات يجدر التنبية إليها في سياق استعمال هذا المصطلح، (أسماء الله الحسنى)، يتم بها ضبط حدود هذه الأسماء في بحثنا هذا، لأن خلافاً دار بين العلماء حول الأسماء الحسنى، والأحاديث الواردة حولها وعددها، وغير ذلك من أمور نعرضها فيما يلي:

١ - إن أسماء الله الحسنى ليست محصورة في التسعة والتسعين اسماً الواردة في أحاديث النبي ﷺ وإنما هي أكثر من ذلك بكثير، يؤكد هذا حديث ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: " ما أصاب عبد قط، هم ولا حزن، فقال: اللهم إني عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، وشفاء صدري، وجلاء حزني، وذهب همي وغمي، إلا أذهب الله غمه وهمه، وأبدله مكانه فرحاً، قالوا يا رسول الله: أفلا نتعلمهن؟ قال: بلي، ينبغي لمن سمعن أن يتعلمهن " (١).

فالحديث السابق يشير بوضوح، إلى أن هناك أسماء أستاذ الله — سبحانه وتعالى — بها في علم الغيب عنده، ولم يطلع البشر عليها كاملة.

والآية القرآنية ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

(الأعراف: ١٨٠). تتوافق مع هذا الرأي، فالله أمر أن ندعو بها، وهو — سبحانه وتعالى — لم يحدد عددها.

(1) الشيباني ، أحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد بن حنبل ، قرطبة — القاهرة : ٣٩١/١.

والحديث الذي رواه الإمام مسلم عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال: " إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائه إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة" (٢)، لا يتعارض مع هذا الرأي، فأسماء الله الحسنى كثيرة جداً، وإنما أراد النبي ﷺ أن من أسمائه الحسنى تسعة وتسعين من أحصاها دخل الجنة " .

كما يقول القائل: إن لي ألف درهم أعددتها للصدقة وإن كان ماله أكثر من ذلك " (١) .

يدل على هذا أيضاً مجموعة من أسماء الله الحسنى، وردت في أحاديث النبي ﷺ ، ولم ترد في حديث الترمذي الذي رواه الوليد بن مسلم مثل : الوتر، الجميل، الشافي، الطيب، السبوح، القدوس، وهي أسماء وردت في أحاديث صحيحة عن النبي ﷺ (٢)

٢- إن التسعة والتسعين اسماً لم يرد في تعيينها حديث صحيح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وإنما ورد في هذا السياق حديثان:

أحدهما: حديث الترمذي الذي رواه الوليد بن مسلم عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - ذكر فيه تسعة وتسعين اسماً، وهو حديث يرى أهل العلم أنه ضعيف، وأن زيادة الأسماء مدرجة من الوليد بن مسلم، وأن الحديث الصحيح في هذا الباب هو ما أخرجه البخاري أن رسول الله ﷺ قال : "إن لله تسعة وتسعين اسماً مائه إلا واحد من أحصاها دخل الجنة" (٣) والحديث الصحيح ينتهي إلى هنا، أما الزيادة فهي من إدراج الرواة (٤).

أما الحديث الثاني الذي يرويه ابن ماجه في سننه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ "إن لله تسعة وتسعين اسماً مائه إلا واحد، إنه وتر يحب الوتر، من حفظها دخل الجنة، وهي: الله، الواحد، الصمد،... (٥) وشرع في سرد الأسماء التسعة والتسعين .

(2) النيسابوري، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري : صحيح مسلم ، تح . محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي - بيروت . ٤٠٦٢/٤

(1) الحراني ، احمد بن عبد الحليم بن تيميه : الفتاوى الكبرى ، تح . حسنين محمد مخلوف ، دار المعرفة بيروت . ٣٨٠/٢

(2) الفتاوى الكبرى | : ٣٨٠/٢

(3) البخاري ، محمد بن إسماعيل : الجامع الصحيح ، المختصر ، تح . مصطفى ذيب البغا ، دار ابن كثير بيروت : ٩٨١/٢

(4) الفتاوى الكبرى ٣٨٠/٢

(5) القر ويني ، محمد بن يزيد أبو عبد الله : سنن أبن ماجه ، تح . محمد فؤاد عبد الباقي دار الفكر بيروت ١٢٦٩/٢

وهذا الحديث كما قال أهل العلم بالحديث وحفاظه، أنه حديث ضعيف، أضعف من حديث الترمذي. ويرى شيخ الإسلام ابن تيمية : " أن التسعة والتسعين اسماً لم يرد في تعيينها حديث صحيح عن النبي ﷺ وأشهر ما عند الناس حديث الترمذي الذي رواه الوليد، وحديث ثانٍ أضعف من هذا رواه ابن ماجه " (٦) .

والإمام الألباني — رحمه الله — قال عنه إنه صحيح دون عد الأسماء، وقد أورده في مصنفه ضعيف ابن ماجه (٧) .

يتضح لنا مما سبق أن تعيين الأسماء لم تكن من أحاديث النبي ﷺ ، وإنما هي من إدراج الرواة، اجتهدوا في جمعها، وحصرها كل حسب طاقته ومقدرته.

كلهم يرغب أن ينال الأجر والثواب والفوز بالجنة في جمعها وإحصائها، مثل ما أخبر النبي — صلى الله عليه وسلم .

وعليه فليس كل ما ورد من أسماء في هذين الحديثين مسلم به، ولا كل ما خرج عن الحديثين مردود، وإنما هو اجتهد العلماء في إحصائها .

٣ - أن العلماء على الرغم من ضعف الحديثين السابقين، وقول أكثرهم بأن الأسماء من إدراج الرواة، فإنهم حين أرادوا شرح الأسماء الحسنی، اعتمدوا رواية الوليد بن مسلم في صحيح الترمذي، ولم يعتمدوا رواية عبد الملك الصنعاني في رواية ابن ماجه .

وهو ما أكده ابن حجر " والوليد بن مسلم أوثق من عبد الملك بن محمد الصنعاني، وهي أقرب الطرق إلى الصحة، وعليهما عول غالب من شرح الأسماء الحسنی " (١) مثل الإمام أبي حامد الغزالي (٢)، وغيره من الشراح .

٤ - وعلى الرغم من أن جل العلماء على مر العصور اعتمدوا حديث الترمذي في تعيين الأسماء، وقاموا بشرحها مثلما أسلفت، فإن علماء آخرين معاصرين وقداماء اجتهدوا في تعيين أسماء غير تلك التي أدرجها الوليد في حديث الترمذي، وحاول بعضهم وضع قواعد ومعايير وضوابط خاصة، مخرجاً مجموعة من أسماء الله الحسنی المدرجة في رواية الوليد عن كونها أسماء حسنی، ومنهم ابن حزم الظاهري حيث سرد

(6) الفتاوى الكبرى ٣٨٠/٢

(7) الألباني ، محمد ناصر الدين : ضعيف ابن ماجه : ٣١١/١

(1) ابن حجر ، احمد بن علي العسقلاني : فتح الباري ، تح . أحمد بن علي ، دار المعرفة بيروت : ٢١٦/١١ .

(2) الغزالي ، محمد بن محمد : المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنی تح . بسام عبد الوهاب الجابي .

أربعة وثمانين اسماً استخرجها من القرآن والسنة قال عنها : " وقد بلغ إحصاؤها منها إلى ما نذكر " (٣).

ومنهم من العلماء المحدثين ابن عثيمين، حيث جمع تسعا وتسعين اسماً مما ظهر له من القرآن والسنة، مضيفاً بذلك مجموعة من الأسماء لم ترد في حديث الترمذي مثل: الأحد، الأعلى، الأكرم، الإله، الحفي، الخلاق، المليك، الجميل، الجواد، الرب، الرفيق، السبوح، السيد، الشافي، الطيب، المنان، الوتر (٤).

ومنهم الباحث (محمود عبد الرزاق الرضواني) حيث حصر التسعة والتسعين اسماً وفق ضوابط ومعايير وضعها، وأضاف مجموعة من الأسماء لم ترد عند الترمذي في حديثه منها: " الستير، القدير، الوتر، المولى، الجميل، النصير، الحي، الأحد، المسعر، المليك، الديان، المنان، الرزاق، السيد، الطيب، الرفيق، الجواد، السبوح، الرب، الأعلى، الإله، المحسن، الشافي (٥).

ومما وقع في يدي من دراسات تتناول إحصاء الأسماء الحسنى، دراسة للباحث: (أحمد عبد الهادي الصغير)، جمع فيها تسعا وتسعين اسماً، وفق معايير وضوابط وضعها، وألزم نفسه بها، وقد ذكر أسماء في إحصائه لم يذكرها أحد من العلماء قبله فيما وقع في يدي من دراسات منها: كاشف الضر، الآخذ بالناصية، جامع الناس، فعال لما يريد، قابل التوب، بالغ أمره، الكفيل، القائم بالقصد، رفيع الدرجات، غافر الذنب، المستعان (١).

وكذلك جمع ابن منده في كتابه التوحيد، أسماء زادت على التسعة والتسعين اسماً، منها مثلاً: الصادق - الصاحب - الصانع - الطهر - القائم - القيام - المنان - المبين - المفضل - الموسع - المنعم - المفرج (٢).

وحين نطالع كتاب " الأسماء والصفات " للإمام البيهقي، نجده جمع أسماء الله الحسنى مستنداً من القرآن الكريم، والسنة النبوية في جمعه، ومن الأسماء التي انفرد بها في جمعه: الضار - ذو الفضل - ذو العرش - ذو المعارج (٣).

(3) المحلى لأبن جزم ، ٣١/٨

(4) العثيمين ، محمد بن صالح : القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى ، تح . هاني الحاج : مكتبة العلم : ٢١

(5) الرضواني ، محمود عبد الرزاق : أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة ، دار الرضوان مصر ٣/١

(1) الصغير ، احمد عبد الهادي : التوثيق الرقمي لأسماء الله الحسنى في القرآن الكريم ، دار القرآن دمشق : ٣٣-٢٦

(2) ابن منده ، محمد بن إسحاق : كتاب التوحيد ومعرفة أسماء الله عز وجل وصفاته على الاتفاق والتفرد ، تح . محمد حسن إسماعيل ، دار الكتب العلمية ، بيروت: ١٢٨.

وهكذا نجد أن جمهرة العلماء والباحثين، حاول كل منهم أن يحصي أسماءه — سبحانه وتعالى — ووضع كل منهم ضوابط ومعايير، فاختلقت تلك الضوابط من عالم لآخر، وبالتالي اختلف الإحصاء عند كل منهم، فيتفقون في أسماء، ويختلفون في أخرى، وينفرد كل منهم ببعض منها.

وليس هنا مقام التفصيل في هذا الأمر، ولا الترجيح بين إحصاء عالم وآخر، ودراسة أخرى، فإن ذلك مما يختص به علم العقيدة، وهو موجود باستفاضة في مواطنه . ولكن يجدر القول إن العلماء على اختلافهم في إحصاء الأسماء وتعيينها متفقون جميعاً على أنها توقيفية، لا يحق لأحد أن يعمل عقله في اشتقاقها، وهذا معناه أننا لا نملك أن نخطئ أحداً منهم، ما دام اعتمد على القرآن الكريم والحديث الشريف في ذلك وإنما يمكن الترجيح بينهم في ضوابط كل منهم ومعاييرها التي وضعها .

٥ - والباحث حينما قام بحصر خواتم الآيات المشتملة على أسماء الله الحسنى، لتناولها بالبحث والتحليل، واجهته مشكلة : هل يعتمد حديث الترمذي، وابن ماجه مع ما ورد سابقاً من تضعيف العلماء لهما؟ فيخرج بذلك مجموعة من أسماء الله الحسنى من دائرة البحث والتحليل .

أم يقوم الباحث بالترجيح بين تعيين العلماء، فيعتمد تعييناً لأحد العلماء، وهو مما لا يدخل في إطار دراستنا هذه، وإنما ينتمي هذا الترجيح إلى دراسات تتعلق بعلم العقيدة كما أسلفنا. لقد ارتأيت أخيراً أن اعتمد كل اسم من أسماء الله الحسنى ورد في خواتم الآيات بحيث أجد له تخريجاً عند عالم ما.

أي أنني حينما كنت أقع على اسم في خواتم الآيات، أعود لأطوف به بين ثنايا كتب العلماء ودراساتهم، ممن تصدوا لإحصاء الأسماء، فإن وجدته عند أحدهم اعتمدته في دائرة بحثي هذا، وإن لم أجده أخرجته من نطاق البحث.

ولقد قمت بإحصاء أسماء الله الحسنى الواردة في خواتم الآيات، فوجدتها ثلاثة وسبعين اسماً من أسمائه الحسنى — سبحانه وتعالى .

خمسون منها ورد في حديث الترمذي، رواية الوليد بن مسلم وهي : الرحمن - الرحيم - الملك - القدوس - العزيز - الغفار - القهار - الوهاب - الفتاح - العليم - السميع -

(3) البيهقي ، أبو بكر بن الحسين بن علي : الأسماء والصفات ، تح . عبد الله بن عامر ، دار الحديث - القاهرة ١٥٠ .

البصير - اللطيف - الخبير - الحليم - العظيم - الغفور - الشكور - العلي - الكبير - الحفيظ -
- المقيت - الحسيب - الكريم - الرقيب - المجيب - الواسع - الحكيم - الودود - المجيد -
- الشهيد - الحق - الوكيل - القوي - الولي - الحميد - الحي - القيوم - الواحد - الصمد -
القادر - المقتدر - المتعالي - البر - التواب - العفو - الرءوف - ذو الجلال والإكرام -
الغني - الهادي^(١).

وفي اختياري رواية الترمذي، إنما جريت على دأب العلماء الذين سبقوا في تناولهم لشرح الأسماء والصفات، حيث اعتمدوا جميعهم رواية الوليد، كالإمام الغزالي، والإمام الرازي - رحمهم الله .

ثم هناك ثلاثة عشر اسماً، اعتمدت في إثباتهما تعيين العالم ابن عثيمين، وهي:
(المحيط - النصير - المبين - القريب - الشاكر - الخلاق - الحفي - الأعلى - الأحد -
- القدير - المولى - المتين - الرزاق)^(٢)
وهنا أيضاً اسمان من أسمائه الحسنی، اعتمدت في إثباتهما على اختيار ابن منده، وهما:
(الشديد - الرب)^(٣).

واعتمدت في إثبات ثمانية من الأسماء، على تعيين الإمام البيهقي، وهي: (السريع - ذو الفضل - ذو انتقام - علام الغيوب - الفعال - الأكرم - ذو القوة - عالم الغيب)^(٤)

٦ - أما لفظ الجلالة " الله " فلم يدخل في نطاق الإحصاء، ذلك لأنه يدور في القرآن بكثرة، وخواتم الآيات تشتمل عليه، أو على ضمير يعود إليه، ولأن بحثنا هذا يدور حول الصفات التي ترد في خواتم الآيات، وهذه الصفات تصح أن تكون أسماء، وتصح أن تكون صفات، بينما الاسم الأعظم " الله " لا يصح أن يكون صفة، " إنه اسم غير صفة، بخلاف سائر أسمائه تعالى، فإنها تقع صفات. أما إنه اسم غير صفة، فلأنك تصفه ولا تصف به " (١)

فمثلاً تقول : الله واحد، ولا تقول واحد الله، ذلك لأنه دال على الذات الجامعة للصفات الإلهية كلها، حتى لا يشذ فيها شيء، وسائر الأسماء لا يدل أحدها، إلا على آحاد

(1) هذه الأسماء فقط التي وردت في خواتم الآيات.

(2) القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنی: ٢١.

(3) كتاب التوحيد، ابن منده: ١٢٧.

(4) الأسماء والصفات: ٨١.

(1) الحلي، أحمد بن مهد أبو العباس : المقام الأسنى في تفسير أسماء الله الحسنی: ١٧.

المعاني كالقادر على القدرة، والعالم على العلم، كالرحمن فهو اسم للذات مع اعتبار الرحمة، وكذا الرحيم والعليم والخالق^(٢)، أما الاسم الأعظم "الله" فهو يشمل الأسماء الحسنى كلها، ويشمل معانيها لأنه الجامع للصفات الإلهية، المنعوت بنعوت الربوبية، والمتفرد بالوجود الحقيقي^(٣) " .

من أجل ذلك أخرج الباحث هذا الاسم الأعظم من دائرة الإحصاء، على الرغم من أن العلماء اعتبروه أول الأسماء، بل عده بعضهم الاسم المقدس والأعظم^(٤)، ولكنى كما أشرت سابقاً، لست بصدد إحصاء أسماء الله الحسنى كلها، وإقامة الدليل عليها، إذن لطلال القول فيها، وازداد التفصيل الذي ليس له محل هنا .

لقد قمت بترتيب الأسماء ترتيباً تنازلياً، وفق كثرة الدوران في خواتم الآيات، بدأت بأكثر الأسماء دوراناً، ثم الأقل فالأقل، وهكذا فإذا اتفق الاسمان في العدد اعتمدت الترتيب الهجائي .

الأسماء الحسنى مرتبة تنازلياً :

العليم ، الرحيم ، الحكيم ، الغفور، العزيز ، الرب ، السميع ، القدير، الخبير، البصير ، الحميد ، الشديد ، الغني ، الشهيد ، الوكيل ، التواب ، الحلیم ، الروؤف ، ذو الفضل ، القوي ، السريع ، العلي، المحيط ، الواسع ، الواحد ، الرحمن ، العظيم ، القهار ، الكبير ، العفو ، اللطيف ، ذو الانتقام ، الشكور ، علام الغيوب ، الغفار ، النصير، الحسيب ، المقتدر ، الولي ، الوهاب، الحفيظ ، الخلاق ، ذو الجلال والإكرام ، الرقيب، الشاكر، الأعلى ، القريب ، الكريم ، المجيد ، المولى ، الودود ، الأحد ، الأكرم ، البر ، الحفي ، الحق ، الحي ، ذي القوة ، الرزاق ، الصمد ، عالم الغيب ، الفتاح ، الفعال ، القادر ، القدوس ، القيوم ، المبين ، المتعالي ، المتين ، المجيب ، المقيت ، الملك ، الهادي ، المليك .

(2) المقصد الأسنى: ٦١/١

(3) السابق نفسه : ٦١/١

(4) البعلی، علی بن عباس: القواعد والفوائد الأصولية و ما يتعلق بها من الأحكام، تحقيق محمد حامد الفقي ، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٣٧٥-١٩٥٦م، ١٦٦/٢ .

ثانياً: معاني الأسماء:

١ - **العليم** : " والعلم إدراك الشيء بحقيقته^(١) "، وجاء في اللسان: " أن العلم نقيض الجهل، وعلمت الشيء أعلمه، أي عرفتة، ومنه يقال: العليم والعالم والعلام، وهي من صفات الله عز وجل "^(٢).

والعليم اسم من أسماء الله الحسنى، لم يختلف على ذلك أحد من العلماء، فقد ورد في الترمذي في رواية الوليد بن مسلم^(٣)، وكذلك تناوله شراح الأسماء الحسنى، كالإمام أبي حامد الغزالي، والإمام فخر الدين الرازي، ثم أجمع عليه العلماء المحدثون كابن عثيمين، وغيره ممن تصدى لإحصاء الأسماء الحسنى^(٤).

وفي الكليات أن العلم هو: " معرفة الشيء على ما هو به ، والمعنى الحقيقي للفظ العلم هو الإدراك "^(٥). " والعليم هو العالم بالسرائر والخفيات التي لا يدركها علم الخلق، وجاء على فعيل للمبالغة في وصفه بالعلم "^(٦).

والعليم هو العالم بكل شيء، ظاهره وباطنه، علم شمول وإحاطة، علم به قبل أن يكون، وبعد أن كان، وما إليه سيؤول، وعلم المولى - سبحانه - لا يسبقه جهل، ولا يعقبه نسيان .

قال تعالى : ﴿ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴾ (طه: ٥٢).

وعلمه واسع يسع كل أفعال الخلق، حركاتهم وسكناتهم ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ يَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (الأنعام: ٥٩).

" وعلم الله غير مستفاد من الأشياء، بل الأشياء مستفادة منه، وعلم العبد بالأشياء تابع للأشياء وحاصل بها " ^(٧)

(1) الأصفهاني ، أبو القاسم الحسين بن محمد : معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم ، تح . إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية - بيروت .

(2) ابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم : لسان العرب ، دار صادر بيروت . مادة (علم).

(3) الترمذي ، محمد بن عيسى : الجامع الصحيح سنن الترمذي ، تح. احمد محمد شاكر دار إحياء التراث العربي - بيروت .

(4) وكذا هو في كتاب التوحيد لابن منده ، والأسماء والصفات للبيهقي .

(5) الكفوي ، أبو البقاء أيوب بن موسى : الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية . تح. عدنان درويش و محمد المصري مؤسسة الرسالة: ٦١٠ .

(6) الأسماء والصفات: ١٣٥ .

(7) المقصد الأسنى : ٨٧/١

٢ - الرحيم : (١)

جاء في اللسان " أن الرحمة: الرقة والتعطف، والمرحمة مثله، وقد تراحم القوم رحم بعضهم بعضاً، ورحيم فعيل بمعنى فاعل، كما قالوا سميع بمعنى سامع، وقدير بمعنى قادر " (٢).

وكذا يقال: رجل رحيم لأن الرحيم اسم يشترك فيه البشر، لكن رحمة الله مطلقة، قال تعالى في صفة النبي — صلى الله عليه وسلم :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾

(التوبة: ١٢٨).

"والرحمة رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وقد تستعمل تارة في الرقة المجردة، وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة، وإذا وصف البارئ بها فليس يراد بها إلا الإحسان المجرد دون الرقة، وعليه روي أن الرحمة من الله إنعام وإفضال، ومن الآدميين رقة وتعطف " (٣).
قال تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ يُخْرِجُكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً ﴾

(الأحزاب: ٤٣).

" ورحمة الله تامة وعامة ، أما تمامها فمن حيث إنه أراد قضاء حاجات المحتاجين وقضاها ، وأما عمومها فمن حيث شمولها المستحق وغير المستحق (٤).

إن رحمة الله مطلقة لأن الرحمة كما يرى الإمام الغزالي: " لا تخلو عن رقة مؤلمة تعتري الرحيم فتحركه إلى قضاء حاجة المرحوم، والرب — سبحانه وتعالى — منزله عنها .

(1) انظر الأسماء والصفات للبيهقي : ٦٤

(2) لسان العرب: ١٢٤/٦.

(3) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم : ٢١٦

(4) المقصد الأسنى : ٦٢/١

إذ إن الرحيم عن رقة وتألم، يكاد يقصد بفعله دفع ألم الرقة عن نفسه، فيكون قد نظر في نفسه وسعى في غرضها " (٥)

والرحمة قد يكون لها سبب ما، ضعف أو فقر أو حاجة، هذا السبب يستدعي الرحمة، لكن رحمة الله لا تفارق البشر في مراحل حياتهم وأطوارها ولا تحتاج إلى سبب .

(5) السابق نفسه ٦٣/١

٣ - الحكيم: (١)

جاء في اللسان أن: " الحكيم ذو الحكمة، والحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء، لأفضل العلوم. وأن الحكم والحكيم، هما بمعنى الحاكم، وهو القاضي، وهو فعيل بمعنى فاعل، وفيه أيضاً أن الحكيم المتقن للأمور، أحكم الأمر: أتقنه " (٢).

وحكمة المولى -سبحانه - مطلقة، ليست كحكمة البشر كما في قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ (لقمان: ١٢).

لأن " الحكمة من الله تعالى معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام، ومن الإنسان معرفة الموجودات وفعل الخيرات " (٣).

وهنا يتبدى لنا معنيان مما سبق : أولهما: القضاء، وثانيهما: الإتقان، فهو سبحانه حكيم يقضي بين الخلائق ويحكم بينهم، وهو حكيم لأنه أتقن كل شيء خلقه .

قال تعالى : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ (السجدة: ٧).

والحكيم هو العادل في التقدير، المحسن في التدبير، ذو الحكمة البالغة الذي يضع كل شيء موضعه بحسب المصلحة " (٤). قال تعالى:

﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ (الفرقان: ٢).

وجاء في الأسماء والصفات للبيهقي، أن الحكيم : " هو المحكم لخلق الأشياء، صرف عن مفعل إلى فعيل، ومعنى الإحكام لخلق الأشياء، إنما ينصرف إلى إتقان التدبير فيها، وحسن التقدير لها. (٥)

٤ - الغفور : (٦)

(1) الأسماء والصفات : ٣٣.

(2) لسان العرب : ١٨٦/٤

(3) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم : ١٤٢

(4) محمود ، سليمان سامي : النور الأسمى في أسماء الله الحسنى ، دار الصابوني ، القاهرة : ٧٥.

(5) الأسماء والصفات : ٣٤

(6) الأسماء والصفات : ٧٢

الغفر في اللغة : التغطية والستر، وغفر الله ذنوبه، أي سترها " (٧)، والغافر والغفار والغفور جميعها أسماء للمولى -جل ثناؤه- منها ما هو للمبالغة، كالغفور والغفار، "والغفران والمغفرة من الله هو أن يصون العبد من أن يمسه العذاب " (٨). والغفور هو الذي يستر المذنبين في كل حين، ويدبر ستره عليهم، كلما دعوه ليغفر لهم ذنوبهم، غفر لهم، و ستر عليهم.

" والغفران يقتضي إسقاط العقاب، ونيل الثواب، ولا يستحقه إلا المؤمن، ولا يستعمل إلا في الباري تعالى" (١) يتضح لنا أن الغفور هو الذي يستر على عباده المذنبين، ليس سترًا، إنما ينيلهم ثواباً بعد الستر و يسقط عنهم العقاب. ومن هنا يتضح الفرق الدقيق بين اسمه سبحانه " الستير" (٢) وبين " الغفور "، إذ أن الستر أخص من الغفران ، إذ يجوز أن يستر ولا يغفر (٣).

٥ - العزيز: (٤)

العز في اللغة : " القوة والشدة والغلبة، والعزة :الرفعة والامتناع " (٥)، ومن أسمائه العزيز : أي الغالب الذي لا يغلبه أحد، ومنه رجل عزيز أي : منيع لا يغلب، ولا يقهر. قال تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ (الدخان: ٤٩) ومعناه ذق بما كنت تعد من أهل العزة (٦)

ذاك أن الآية نزلت في أبي جهل لأنه كان يقول: أنا أعز أهل الوادي وأمنعهم . ومنه أيضاً ،أن عز : بمعنى قل. جاء في اللسان : " عز الشيء يعز عزاً ، وعز وهو عزيز : قل حتى كاد لا يوجد" (٧) ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُتَابَ عَزِيزٍ ﴾ (فصلت: ٤١)،

أي يصعب مناله ووجود مثله" (٨). وكذا "يقال عز عليّ :أي صعب ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (التوبة: ١٢٨)

(7) اللسان : ٦٤/١١

(8) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم : ٤٠٥

(1) الكليات : ٦٦٦

(2) انظر أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة : ٣/١

(3) الكليات : ٦٦٦

(4) الأسماء والصفات : ١٥٢.

(5) اللسان : ١٣٤/١٠

(6) السابق : ١٣٤/١٠

(7) السابق : ١٣٥/١٠

(8) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم : ٣٧٣

وهناك وجوه ستة لتفسير العزيز والعزة، حصرها بعض العلماء، واستدلوا^(٩) عليها بآيات صريحة، ولكن الذي يهمنا هنا في هذا المقام ما يتعلق باسم الله - سبحانه وتعالى - العزيز حيث إن المراد: أنه القوي الغالب الذي يقهر ولا يقهر، ويغلب ولا يغلب، وهو الذي تشتد الحاجة إليه، ويصعب الوصول إليه . " العزيز: هو الخطير الذي يقل وجود مثله، وتشتد الحاجة إليه، ويصعب الوصول إليه، فما لم يجتمع عليه هذه المعاني لم يطلق عليه اسم العزيز، وشدة الحاجة أن يحتاج إليه كل شيء في كل شيء، وليس ذلك على الكمال إلا الله، فهو العزيز المطلق " (١٠).

٦ - الرب: (١)

"والرب هو الله عز وجل، وهو رب كل شيء مالكة، هو رب الأرباب، مالك الملوك، ورب كل شيء: مالكة ومستحقه وقيل صاحبه، وكل من ملك شيئاً فهو ربه"^(٢).

"والرب ينقسم على ثلاثة أقسام: يكون الرب المالك، ويكون الرب السيد المطاع، ويكون الرب المصلح"^(٣)، وبهذا يكون الرب هو الله المالك الذي يملك كل شيء، وهو أيضاً السيد المطاع الذي تطيعه الخلائق وتتنقاد إليه، وهو الذي أصلح هذا الكون ويصلحه، وفي معناه أن الرب في الأصل " التربية وهو إنشاء الشيء حالاً بعد حال إلى حد التمام " (٤).

والله سبحانه وتعالى المنشئ لهذا الكون، ومن فيه، وما فيه، والرب سبحانه له الملكية المطلقة، والطاعة المطلقة، وحينما يستخدم لفظ الرب ليدل على البشر، فإن ملكية البشر طارئة، ومؤقتة وليست مطلقة، ومن هنا يرد الفرق بين لفظ الرب، اسما لله وبين رب لغيره من البشر .

وقيل: " إن الرب معرفة لا ترد إلا في الله، وأما التي للبشر فهي مضافة إلى ما بعدها، كرب السيف والقلم " (٥).

(9) انظر: الأشباه والنظائر: ٣٣٢

(10) المقصد الأسنى: ٧٣

(1) القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى: ٢١

(2) اللسان: ٧٠/٦

(3) السابق: ٧٠/٦

(4) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ٢٠٨

(5) السابق نفسه: ٢٠٨

٧ - السميع: (٦)

وهو في اللغة على وزن فعيل من أبنية المبالغة كعليم ورحيم ، وفعله سمع. "والسمع ما وقر في الأذن من شيء تسمعه، والله سبحانه - سميع لا يعزب عن إدراكه مسموع، وإن خفي فهو يسمع من غير جارحة" (٧) .

وفي لغة العرب أن سمع بمعنى أجاب، ومنه قول المصلي عند الركوع: سمع الله لمن حمده، أي: أجاب. والسميع - سبحانه - هو المتصف بالسمع حيث يسمع السر والنجوى، وكذا المجيب الذي يجيب عباده، وكذا المسمع الذي يسمع من يشاء .

و في اللسان : " ولست أنكر من كلام العرب أن يكون السميع سامعاً ومسمعاً " (٨) والسمع للمولى مطلق، متسم بالكمال، وليس كما يتصف به البشر في قوله تعالى

:

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ (الإنسان: ٢). حيث المراد هنا جعلنا له سمعاً يسمع به، وبصراً يبصر به.

وسمع الله مطلق لأنه "لا يقف سمع الله عند ما به تتطرق الشفتان، أو يتحرك به اللسان بل يتجاوز ذلك إلى الإحاطة بما تهتف به الضمائر، وما تتناجى به السرائر، وما يجول بالخواطر " (١).

٨ - القدير : (٢)

وهو في اللغة من صيغ المبالغة على وزن فعيل، وفعله قدر، وفي اللسان " القدير هو القادر من صفات الله عز وجل يكونان من القدرة، ويكونان من التقدير، والله سبحانه مقدر كل شيء وقاضيه، و قدر على الشيء قدرة أي ملكه، فهو قادر وقدير" (٣). والله - سبحانه وتعالى - قادر وقدير ومقتدر، فقدرته مطلقة وأما قدرة البشر مقيدة، وبمعنى أن قدرة الله مطلقة أي لا يعترئها نقص أو عجز .

مما سبق يتضح لنا معنيان :القدرة المطلقة لله - سبحانه وتعالى ، والتقدير المتقن لكل شيء .

(6) الأسماء والصفات : ٥٨

(7) اللسان : ٢٥٦/٧

(8) السابق : ٢٥٦/٧ .

(1) محمود ، سليمان سامي : النور الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى ، دار الصابوني للطباعة ، القاهرة: ٤٥.

(2) انظر الأسماء والصفات : ٥٤

(3) اللسان : ٣٦/١٢

فهو سبحانه "يتولى تنفيذ المقادير ويخلقها"^(٤) قال تعالى :
﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا
﴿ (الفرقان: ٢).

٩ - الخبير : (٥)

جاء في كتب اللغة، أن الخبير فعله خبر، " وخبرت الأمر أخبره، إذا عرفت على
حقيقته. " (٦) وفيه أيضاً خبرت بالأمر : أي علمته.
والخبير على وزن الفعل، وصيغة المبالغة تدل على الكثرة ، "والخبرة أبلغ من العلم
لأنها علم وزيادة، فالخبير بالشيء من علمه ، وقام بمعالجته وبيانه وتجربته وامتحانه،
فأحاط بتفاصيله الدقيقة، وألم بكيفية وصفه على الحقيقة " (٧).

والله - سبحانه وتعالى - خبير " لأنه لا تعزب عنه الأخبار الباطنة، فلا يجري في الملك
والملوك شيء، ولا تتحرك ذرة ولا تسكن، ولا تضطرب نفس ولا تطمئن إلا ويكون
عنده خبرها " (١).

١٠ - البصير : (٢)

(4) أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة ، الرضواني : ٦٦.

(5) انظر الأسماء والصفات ص ٦٥.

(6) اللسان : ١٠/٥

(7) أسماء الله الحسنى الثابتة في القرآن والسنة : ٦٧.

(1) المقصد الأسنى : ١٠٣

(2) انظر الأسماء والصفات البيهقي ص ٥٨

وفعله بصر ، على وزن فعيل ، من أبنية المبالغة وفي اللسان : " أبصرت الشيء : رأيته، ومن أسماء الله تعالى البصير، وهو الذي يشاهد الأشياء كلها، ظاهرها وخافيتها بغير جارحة "(٣)

والمولى سبحانه بصير، لأنه يشاهد ويرى ولا يعزب عنه ما تحت الثرى، " وهو منزّه عن أن يكون له حذقة وأجفان، ومقدس على أن يرجع إلى انطباع الصور والألوان "(٤) .
١١ - الحميد : (٥)

وفعله حمد " والحمد نقيض الذم، وقد حمده حمداً، ومحمداً ومحمدة فهو محمود وحميد. والحميد بمعنى المحمود على كل حال، وهو فعيل بمعنى مفعول أي محمود" (٦)

" والحمد والشكر متقاربان، والحمد أعمها لأنك تحمد الإنسان على صفاته الذاتية وعلى عطائه، ولا تشكره على صفاته " (٧). والله سبحانه حميد لأنه مستحق أن يحمد، ومن ذا الذي يحمد غيره ، فهو يحمد في السراء والضراء .
١٢ - الشديد : (٨)

الشديد في اللغة : من الشدة " وهي الصلابة ، والشديد: هو المشتد القوي. والجمع أشداء وشداد وشدد" (٩) جوهر هذا الاسم أنه يحمل معنى القوة والصلابة. وأن المولى سبحانه قوي شديد، عذابه شديد، وعقابه شديد، قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المائدة: ٩٨) وكذلك قوله : ﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ (البقرة: ١٦٥).

(3) اللسان : ٩٣/٢

(4) المقصد الأسنى : ٩١

(5) انظر الأسماء والصفات ص ٧٥ .

(6) اللسان ١٥٥/٣

(7) الجزري ، أبو السعادات المبارك بن محمد : النهاية في غري بالأثر ، تح . ظاهر أحمد الزاوي ، المكتبة

العلمية - بيروت ١٠٤٣/١

(8) كتاب التوحيد : ١٢٧

(9) اللسان : ٣٨/٨

١٣ - الغني: (١)

الغني في اللغة: صفة مشبهة بمن اتصف بالغنى، جاء في اللسان أن " الغني هو الذي لا يحتاج إلى أحد في شيء، وكل أحد محتاج إليه، وهو الغني المطلق لا يشارك الله تعالى فيه غيره (٢) .

وهناك اسم آخر هو (المغني) أي الذي يغني غيره.

قال تعالى : ﴿ وَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾ (الضحى: ٨) والله غني " لأن المولى لا تعلق

له بغيره، لا بذاته ولا في صفاته ، بل يكون منزها عن العلاقة مع الأغيار (٣)

ومن أغناه الله من عباده يكون غنياً، ولكن ليس غنى مطلقاً. قال تعالى :

﴿ مَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِنُفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَخُلُوفُ مِنْ يَخُلُوفٍ فَإِنَّمَا يَخُلُوفُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ (محمد: ٣٨).

١٤ - الشهيد: (٤)

الشهيد: الحاضر الذي لا يغيب عن علمه شيء " وهو على وزن فعيل . وهو من أبنية المبالغة ، فإذا اعتبر العلم مطلقاً فهو العليم، وإذا أضيف إلى الأمور الباطنة فهو الخبير، وإذا أضيف إلى الأمور الظاهرة فهو الشهيد (٥)

فإنه شهيد على كل شيء لأنه حاضر، ليس حضوراً مكانياً ولا زمانياً، وإنما حضور يليق بذاته العلية، قال تعالى :

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسَوْهَ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (المجادلة: ٦).

١٥ - الوكيل: (٦)

جاء في اللغة أن الوكيل : هو المقيم الكفيل بأرزاق العباد وفعلها (وكل) يقال: وكل فلان فلاناً إذا استكفاه أمره ثقة بكفايته، أو عجزاً عن القيام بأمر نفسه (٧)، والله هو الوكيل لأن أمر الخلائق كلها موكولة إليه، قيم عليها، متكفل برعايتها، وهو مستقل بأمر الخلائق، لا يتوكل غيره بها.

(1) الأسماء والصفات : ص ٤٩

(2) اللسان : ٩٤/١١ . انظر كذلك : النهاية في غريب الأثر ٧٣٩/٣

(3) المقصد الأسنى : ١٤٤

(4) الأسماء والصفات : ٦٠

(5) اللسان : ١٥/٨ . انظر كتاب : النهاية في غريب الأثر ١٢٥٤/٢

(6) الأسماء والصفات ١٠٦

(7) اللسان : ٢٧٢/١٥

قال تعالى :

﴿ الَّذِينَ قَالَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ (آل عمران: ١٧٣). أي

نعم الكفيل، بأمورنا، والقائم بها .

١٦ - التواب : (١)

(التواب) في اللغة على وزن فعال من أبنية المبالغة، وفي اللسان " التوبة : الرجوع من الذنب ، وتاب إلى الله يتوب توباً وتوبة ومتاباً: أناب ورجع عن المعصية إلى الطاعة"(٢) ، مما سبق يفهم أن التوبة الرجوع، فالعبد يكون تواباً إذا أكثر الرجوع إلى الله من ذنبه، والله تواب لأنه سبحانه وتعالى - يعود على العبد بالمغفرة.

١٧ - الحليم : (٣)

الحلم في اللغة : الأناة والعقل، فعلها : حلم ، والحلم نقيض السفه، والحليم: الصبور . وفي اللسان " أن الحليم الذي لا يستخفه عصيان العصاة، ولا يستفزه الغضب عليهم " (٤)

والمولى حليم لأنه لا يحبس إنعامه وأفضاله عن عباده، لأجل ذنوبهم والصفاح مع العجز لا يستحق اسم الحليم، إنما الحليم هو الصفح مع القدرة(٥).
ذاك لأن المولى يرى عصيان العصاة، ولا يسارع للانتقام، مع غاية الاقتدار على ذلك، وما ذاك إلا لأنه الحليم .

قال تعالى :

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهِمْ مِنْ دَآئِهِ لَكُنْ يُؤْخِرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ ﴾ (النحل: ٦١).

١٨ - الرؤوف : (٦)

الرؤوف لغة من رأف، والرأفة هي الرحمة، وفي اللسان: " أن الرأفة أشد الرحمة "(٧).
والمولى رؤوف لأنه رحيم بعبادة عطوف عليهم بألطافه"(٨).

(1) الأسماء الصفات : ٩٦

(2) اللسان : ٢٤٤/٢ وانظر كتاب : تفسير أسماء الله الحسنى ص ٦١

(3) الأسماء والصفات : ٦٧

(4) اللسان : ٢١٠/٤

(5) الأسماء والصفات : ٦٨

(6) السابق : ٧٣

(7) انظر اللسان : ٦٠/٦

(8) النهاية في غريب الأثر ٤٤٤/٢

والله - سبحانه وتعالى - رؤوف لأنه لم يكلف البشر إلا ما يطيقون، وهذا من كمال رأفته.

١٩ - ذو الفضل: (١)

" كل عطية لا تلزم من يعطي يقال لها فضل: ﴿ واللّه ذو الفضل العظيم ﴾ (البقرة ١٠٥) (٢)
وفي اللسان : " أفضل الرجل على فلان وتفضل بمعنى. إذا أناله من فضله وأحسن إليه،
ورجل مفضل : كثير الفضل والخير والمعروف " (٣)
وفي هذا المعنى يكون المولى ذا فضل، أي محسن إلى عباده تفضلاً، في غير إلزام ولا
استحقاق من العباد، فما يتفضل به المولى على عباده، لا حق لهم فيه، وإنما تفضل من
صاحب الفضل .

٢٠ - القوي :

فسر (القوي) أنه التام القدرة الذي لا يستولي عليه العجز في حال من الأحوال
(٤). وفي كتب اللغة " أن القوة نقيض الضعف، يقال: قوى الله ضعفك، أي: أبدلك مكان
الضعف قوة " (٥)

" فالمولى قوي لأنه كامل القدرة على الشيء، لا يستولي عليه العجز في حال من
الأحوال، الموصوف بالقوة المطلقة " (٦)
فإنه - سبحانه - قوي لا يعتريه ضعف في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، لا يغلبه
أحد.
ولا يمانع في أمره (٧) .

٢١ - السريع :

أورد الإمام البيهقي هذا الاسم " سريع الحساب " وفسره أن المولى لا يشغله حساب أحد عن
حساب غيره، فيطول الأمر في محاسبة الخلق عليه (٨)
وفي كتب اللغة أن " السرعة نقيض البطء ،سرع يسرع سراعة، فهو سرع وسريع " (٩) والمولى
أضاف هذا الاسم إلى الحساب، فقال عز اسمه:

(1) الأسماء والصفات: ص ١٠٨ .

(2) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم ص ٤٢٧

(3) اللسان : ١٩٣/١١

(4) الأسماء والصفات ص ٥٦

(5) اللسان : ٢٢٩/١٢

(6) أسماء الله الحسنى الثابتة في القرآن والسنة : ٧٧.

(7) النور الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى ص ٣١٩

(8) الأسماء والصفات : ١٠٨

(9) اللسان : ١٧١/٧

﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (البقرة: ٢٠٢) .

ومنه يتضح أن السرعة المقصودة في هذا الاسم الجليل، إنما سرعة الحساب، وعدم التباطؤ فيه، فالمولى يحاسب الخلائق جميعها في وقت قصير، لا يقدر المخلوقون على إنجاز هـ .
ومنه أن (سريع الحساب) أي: سريع محاسبة المذنب، فحسابه له لا يطول ولا يبعد .
٢٢ - العلي : (١)

العلي: فاعيل بمعنى فاعل صفة مشبهة للموصوف بالعلو، وفي كتب اللغة أن العلي هو الشريف الذي ليس فوقه شيء، وعلو كل شيء أرفعه^(٢) .
والمولى (علي): "لأنه يعلو أن يحيط به وصف الواصفين"^(٣)، وهو (علي) : "لأنه علا بذاته فوق جميع خلقه"^(٤)، وعلوه سبحانه مطلق ليس كعلو البشر، إذا مهما علا البشر تظل درجة أعلى من درجتهم. وليس هنا موطن الحديث عن مقصود العلو، أهو علو في الأمور الحسية؟ أم في الأمور العقلية؟ فذاك يرجع له في موطنه، ولكن اللفظ حسبما يشير إليه المعنى اللغوي يحتمل المعنيين .
٢٣ - المحيط :

فسر الإمام البيهقي (المحيط): أنه الذي لا يقدر على الفرار منه^(٥)، وفي كتب اللغة " أن فعله حوط، حاط يحوط حوطاً وحيط، أي: حفظه وتعهده " ^(٥) .
"والإحاطة على وجهين أحدهما : الأجسام ، نحو أحطت بمكان. أو تستعمل في الحفظ، كقوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِئَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴾ (فصلت ٥٤)^(٦)
والمولى محيط لأنه أحاط بعباده حفظاً وتعهداً ، وقدرة ، فلا يستطيعون فراراً منه، وهو محيط بأعمالهم، إحاطة قدرة وشمول وإطلاق .
٢٤ - الواسع : (٧)

(1) الأسماء والصفات : ٢٨

(2) شرح الأسماء الحسنى الثابتة في القرآن والسنة : ٥٤ .

(3) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم ص ٣٨٦

(4) شرح الأسماء الحسنى الثابتة في القرآن والسنة : ٤٣ .

(4) الأسماء والصفات : ٥٤

(5) اللسان : ٢٧٢/٤

(6) مفردات ألفاظ القرآن الكريم : ١٥٢

(7) الأسماء والصفات : ٥٥

جاء في كتب اللغة : " أن السعة نقيض الضيق، وهو كذلك الغنى والرفاهية. ووسع عليه: رفهه وأغناه، والمولى واسع لأنه وسع رزقه جميع خلقه، ووسعت رحمته كل شيء، وغناه كل فقر " (٨)

فالمولى واسع مطلق السعة في علمه، وفي ملكه، وفي عطائه، وفي صفاته .

٢٥ - الواحد : (١)

في كتب اللغة : الواحد هو ذو الوجدانية، والله واحد لأنه فرد لم يزل وحده، ولم يكن معه آخر، فالواحد اسم بني لمفتتح العدد ، فالواحد منفرد بالذات في عدم المثل والنظير (٢) والمولى واحد لأنه لا ثاني له ولا نظير له وهو قديم ولا قديم سواه قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنِّ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (ص:٦٥). وأورد الإمام الراغب الأصفهاني في هذا الاسم، أنه إذا وصف الله تعالى بالواحد فمعناه الذي لا يصح عليه التجزؤ ولا التكثر (٣).

٢٦ - الرحمن : (٤)

فعله رحم، وهو مشتق منه، " وبني على إعلان لأن معناه الكثرة، ومعناه عند أهل اللغة: ذو الرحمة التي لا غاية بعدها في الرحمة، لأن إعلان من أبنية المبالغة، ولا يجوز أن يقال رحم لغير الله " (٥).

يتضح إذن أن الرحمن اسم لا يتصف به إلا الله، وأنه في آيات كثيرة يعادل لفظ الجلالة الله .

(8) اللسان : ٢١١/١٥

(1) الأسماء والصفات : ٢٦

(2) اللسان : ١٦٦/١٥

(3) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم ص ٥٨٦

(4) انظر الأسماء والصفات: ٦٧.

(5) انظر اللسان : ١٢٥/٦

قال تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تُخَافُوا بِهَا وَاتَّبِعْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ (الإسراء: ١١٠).

و(الرحمن) ذو رحمة عامة تشمل جميع الخلق والكائنات، و(الرحيم) ذو رحمة خاصة تخص المؤمنين^(٦).

٢٧ - العظيم : (٧)

جاء في كتب اللغة : " أن العظيم فعله عظم، وهو الذي جاوز قدره، وجل عن حدود العقول حتى لا تتصور الإحاطة بكنهه وحقيقته، والعظم في صفات الأجسام كبر الطول والعرض والعمق، والله تعالى جل عن ذلك"^(٨)

والله عظيم ذو عظمه وجلال، وفيها معنى القدرة، لأن عظيم القوم مالك أمورهم، لا يقدر على مخالفتهم . والله عظيم لأن النفوس تملأ مهابة وجلالا وخشيه، والأرواح والأجساد تتضاءل أمام عظمتهم، وتقف العقول حائرة أمام خلق الله وقدرته. فعظيم خلقه وما نثره في الكون يدل على عظمتهم المطلقة .

٢٨ - القهار : (٩)

والقهار: " من القهر وهو الغلبة والأخذ من فوق، فالله قهار لأنه قهر خلقه لسلطانه وقدرته، وصرفهم على ما أراد طوعاً وكرهاً"^(١٠) والقهار والقاهر سواء، غير أن القهار من أبنية المبالغة تدل على الكثرة.

وقيل : " هو الذي قهر الجبابرة بالعقاب، وقهر العباد بالموت"^(١١) وجاء " أن القهر الغلبة والتذليل معاً، ويستعمل في كل واحد منهما "^(١٢).

٢٩ - الكبير : (١٣)

جاء في كتب اللغة أن الكبير في صفة الله تعالى : " العظيم الجليل، الكبير أي ذي الكبرياء، أصلها الكبر بالكسر، وهي العظمة، ويقال كبر بالضم يكبر إذا عظم "^(١٤).

" فالمولى كبير في ذاته، كبير في أفعاله، كبير في صفاته، وهو بهذا المعنى ينفرد لذات الله فهو الكبير في ملكه، الكبير في رحمته "^(١٥)، والله جل عن أن يكون كبيراً في

(6) انظر اسم الله الرحيم من هذا البحث .

(7) الأسماء والصفات : ٤٦

(8) اللسان: ١٠/١٩٩ .

(1) الأسماء والصفات : ٧٧

(2) اللسان : ٢١٠/١٢

(3) الأسماء والصفات : ٧٧

(4) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم . ٢٦٢

(5) الأسماء والصفات : ٤٨

(6) اللسان : ١٠/٣

الذات - المقدار والحجم - وإنما هو الكبير وما عداه في هذا الكون صغير حقير، ومنها كان النداء للصلاة الله أكبر .

٣٠ - العفو: (٨)

فعول من العفو، " وهو التجاوز عن الذنب، وترك العقاب عليه، وأصله المحو والطمس، وهو من أبنية المبالغة، يقال: عفا يعفو عفواً .

وكل من استحق عقوبة فتركها فقد عفوت عنه، وهو مأخوذ من عفت الرياح الآثار إذا درستها ومحتها " (٩) أي أن الله سبحانه يمحو السيئات، ويتجاوز عن المعاصي، ويصفح عمن تاب وأناب " (١٠) فهو سبحانه لا يسقط العقوبة عن العبد فحسب بل يمحو أثر الذنب ويصفح .

(7) الشعراوي ، محمد متولي : أسماء الله الحسنى . أخبار اليوم قطاع الثقافة ج ١١ ص ١٠٢

(8) انظر الأسماء والصفات | : ٧٠

(9) اللسان : ٢١٠/١٠

(10) النور الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى ٤١٦

٣١ - اللطيف : (١)

جاء في كتب اللغة " أن اللطيف الرفيق بعباده، وهو الذي يوصل إليك إربك في رفق، وقيل: هو الذي اجتمع له الرفق بالفعل والعلم بدقائق المصالح، وإيصالها إلى من قدرها من خلقه، ولطف بالضم ويلطف فمعناه دق وصغر" (٢)
وفي حديث الإفك : "ولا أري منه اللطف الذي أعرفه" (٣) أي الرفق والبر .
" ولطف الشيء رفته واستحسانه وخفته على النفس، أو احتجابه وخفائه" (٤) مما سبق
يكون اللطيف هو الرفيق بالعباد القريب منهم، ويكون الخفي الذي لطف عن أن تدركه الحواس، ويكون العالم بخفايا الأمور قال تعالى :
﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (الأنعام: ١٠٣).

٣٢ - ذو انتقام :

أورده الإمام البيهقي وانفرد به (٥). و(ذو) في اللغة : " اسم ناقص وتفسيره: صاحب ذلك ، كقولك فلان ذو مال: أي صاحب مال . و(ذو) : كلمة صيغت ليتوصل بها إلى الوصف بالأجناس ومعناها صاحب" (٦)، والانتقام مصدر الفعل الخماسي انتقم ، والثلاثي منه نقم .

وجاء في كتب اللغة أن " نقم ينقم إذا بلغت به الكراهة حد السخط، ومن أسمائه تعالى: المنتقم المبالغ في العقوبة لمن يشاء" (٧)

والانتقام أنه سبحانه صاحب الانتقام يبلغ في عقابه العباد المذنبين قدر ما يستحقون .

٣٣ - الشكور : (٨)

الشكور في كتب اللغة هو " الذي يزكو عنده القليل من أعمال العباد، فيضاعف لهم الجزاء، وشكره لعباده مغفرته لهم، والشكور من أبنية المبالغة.
وأصل الشكر : من شكرت الإبل تشكر إذا أصابت مرعي فسمنت عليه، والشكر: هو الثناء على المحسن بما أولاه من المعروف" (٩).

(1) الأسماء والصفات : ٧٨

(2) اللسان : ٢٠٢/١٣

(3) البخاري ، محمد ابن إسماعيل: الجامع الصحيح المختصر، تح: مصطفى البغا ، دار اليمامة - بيروت ١٩٨٧م - ط٣.

(4) أسماء الله الحسنى الثابتة في القرآن والسنة : ٧٥.

(5) الأسماء والصفات : ١٠٨

(6) اللسان : ١٠/٦

(7) النهاية في غريب الأثر : ٢٣١/٥

(8) الأسماء والصفات : ٨٧

وقيل إن الشكور : " هو الذي يجازي ببسير الطاعات، كثير الدرجات، ويعطي في العمل في أيام معدودة نعيما في الآخرة غير محدود، ومن جاز الحسنة بأضعافها، يقال أنه شكر تلك الحسنة "(١)

وصفة الشكر قد يتخلق العبد بها ، لكنها تظل قاصرة محدودة وشكر الله مطلق لا محدود.

٣٤ - علام الغيوب : (٢)

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ (المائدة: ١٠٩).

وقد ورد فيما سبق إلى الإشارة إلى المعنى اللغوي لهذا الاسم في اسم الله (العليم) . لأن (علام الغيوب)و (العليم) في باب واحد، ومن مادة لغوية واحدة، ولكن (العليم) ورد مطلقا و(علام) ورد مضافا إلى الغيوب مجموعة، وسيأتي التفريق بين الأسماء : عالم - عليم - علام الغيوب .

٣٥ - الغفار : (٣)

قال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يَكُونُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ (الزمر: ٥).

والغافر والغفور والغفار من أسماء الله تعالى، والمادة اللغوية واحدة وهي الفعل غفر، وقد تم توضيح الجانب اللغوي للمادة، في اسم الله (الغفور) وسيأتي التفريق بين الأسماء الثلاثة (الغفور، الغافر، الغفار) فيما بعد .

٣٦ - الحسيب : (٤)

جاء في كتب اللغة أن الحسيب : " الكافي ، فعيل بمعنى يفعل، من أحسبني الشيء، إذا كفاني، أحسبته وحسبته بالتشديد: أعطيته ما يرضيه حتى يقول حسبي"(٥) .

(9) اللسان : ١١٥/٨

(1) المقصد الأسنى : ١٠٥

(2) الأسماء والصفات : ٥٨

(3) الأسماء والصفات : ٧١

(4) السابق : ٦١

(5) انظر اللسان : ١١٢/٤ وانظر النهاية في غريب الأثر ٩٥٥/١

"والحسب: العد والإحصاء، وكفا بالله حسيباً يكون بمعنى محاسباً ويكون بمعنى كافياً^(٦). والمولى حسيب لأنه كاف خلقه من جهة، ثم أنه يحاسبهم من جهة أخرى، ويحسب عليهم ذنوبهم ويحصبها، إنه يحصي كل من في الوجود، ويقدر المقادير، وحسابه جل وعلا واقع لا محالة، لا يشغله شيء عن حساب الخلق .

٣٧ - المقتدر : (١)

قال تعالى : ﴿ فِي مَعْدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ (القمر: ٥٥) وقد تم تناول الجانب اللغوي لهذا الاسم، في اسم الله تعالى القدير . (فالقادر والقدير والمقتدر) من مادة لغوية واحدة، سيأتي التفصيل والتفريق بين هذه الأسماء فيما بعد.

٣٨ - الولي : (٢)

(الولي) في كتب اللغة : "الناصر ، وقيل المتولي لأمر العالم والخلائق، القائم بها، والولاية: النصره" (٣)

والولي من أبنية المبالغة فعيل ، " والولي والمولي يستعملان في ذلك كل واحد منهما يقال في معنى الفاعل: أي الموالي وفي معنى المفعول: أي الموالي. " (٤) ، " والولي المتولي لأمر خلقه القائم على تدبير ملكه " (٥) ، والله ولي لأنه يتكفل بعباده وينصرهم، ويقوم على رعايتهم، ولاية عامة مطلقة لا كولاية البشر المحدودة المجزوءة .

٣٩ - الوهاب :

قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُغْنِ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ (آل عمران: ٨). أورد الإمام البيهقي هذا الاسم (٦)، وجاء في كتب اللغة أن الوهاب " من الهبة وهي العطية " الخالية عن الأعواض والأغراض، فإذا كثرت سمي صاحبها وهاباً، وهي من أبنية المبالغة (٧)، والوهاب هو الذي يعطي العباد، فتكثر عطاياه وتتعدد نعمه، عطاء وهبه لا غرض لها ولا عوض، فهو تفضل في غير استحقاق في العبد.

(6) السابق : ١١٢/٤

(1) الأسماء والصفات : ٤١

(2) السابق نفسه : ٨٤

(3) اللسان : ٢٨١/١٥

(4) مفردات ألفاظ القرآن الكريم : ٦٠٦

(5) أسماء الله الحسنى الواردة في الكتاب والسنة: ٧٦.

(6) الأسماء والصفات : ٩٤

(7) اللسان : ٢٨٨/١٥

٤٠ - الحفيظ: (٨)

في كتب اللغة أن الحفيظ : " لا يعزب عن حفظه الأشياء كلها، مثقال ذرة في السماوات والأرض، والحافظ والحفيظ هو الموكل بالشئ يحفظه، والحفظ نقيض النسيان، وهو التعاهد وقلة الغفلة " (٩) وحفظ الشئ: صيانتة من التلف والضياع " (١٠)، والله سبحانه حفيظ، لأنه يحفظ عباده ومخلوقاته، ويبقي عليها ويدوم بقاءها من التلف حتى يقضي ما يقضي من شأنها .

٤١ - الخلاق: (١)

قال تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ (يس: ٨١). وفي كتب اللغة " أن أصل الخلق التقدير، والخلق في كلام العرب ابتداء الشئ على مثال لم يسبق إليه، ولا تجوز هذه الصيغة بالألف واللام لغير الله — عز وجل — وهو الذي أوجد الأشياء جميعها بعد أن لم تكن موجودة (٢)، والخلق من أبنية المبالغة فعال أي: هو الذي يخلق الخلق، لا يعجزه كثير الخلق، وخلقته متنوع متعدد، خلق على غير مثال سبق، ويعيد الخلق أبدع مما كان لو أراد .

٤٢ - ذو الجلال والإكرام: (٣)

قال تعالى: ﴿ وَيَقَعُ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ (الرحمن: ٢٧).

وفي كتب اللغة : " أن الجلال العظمة وفعلها : جلل ومنه الحديث : أجلوا الله يغفر لكم " (٤) أي قولوا : يا ذا الجلال والإكرام، وقيل عظموه (٥)، وقد أوردت فيما مضى معنى "ذو"، وهي في كتب اللغة بمعنى صاحب، و(ذو الجلال والإكرام) الذي لا جلال ولا كمال إلا وهو له، فالجلال له في ذاته، والكرامة فائضة منه على خلقه " (٦) .

٤٣ - الرقيب : (٧)

(8) انظر الأسماء والصفات : ٨٦

(9) اللسان : ١٦٧/٤

(10) أسماء الله الحسنى الواردة في الكتاب والسنة : ٤٦.

(1) الأسماء والصفات : ٣٨

(2) اللسان : ١٣٩/٥

(3) الأسماء والصفات : ١١٢

(4) الشيباني ، احمد بن حنبل : مسند الإمام احمد بن حنبل ، مؤسسة قرطبة — القاهرة : ١٩٩/٥

(5) النهاية في غريب الأثر ٨٠٠/١

(6) المقصد الأسنى : ١٤١

(7) انظر الأسماء والصفات : ٩٦

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء: ١).

جاء في كتب اللغة : " أن الرقيب على وزن فعيل، وهو الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء ورقب الشيء يرقبه، وراقبه مراقبه أي حرسه، ورقيب القوم حارسهم " ^(٨)، والله سبحانه رقيب، لأنه لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء.

قال الغزالي : " هو العليم الحفيظ من راعي الشيء حتى لم يغفل عنه، ولاحظه ملاحظة دائمة ولازمة لزوماً " ^(٩) والرقيب سبحانه هو الذي يحفظ عباده، ويحرسهم ويكون معهم ولا يعزبون عنه لحظة .

(8) اللسان : ١٩٩/٦
(٩) المقصد الأسنى : ١١٨

٤٤ - الشاكر : (١)

قال تعالى : ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ (النساء: ١٤٧).
والشاكر والشكور من أسمائه الحسنی، ومادتهما شكر، وقد تم توضيح الجانب اللغوي للمادة، وسيتم التفريق بينهما فيما بعد .

٤٥ - الأعلى : (٢)

قال تعالى : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ (الأعلى: ١) .
والأعلى والعلي، من أسمائه الحسنی، ومادتهما اللغوية واحدة، علا يعلو، وقد تم توضيح الجانب اللغوي في اسم الله العلي، وسيتم التفريق الدلالي بينهما فيما بعد .

٤٦ - القريب : (٣)

قال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ شُؤْدِ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ (هود: ٦١).
جاء في كتب اللغة أن : " القرب نقيض البعد، وقرب يقرب إذا دنا " (٤)، والله قريب لأنه يسمع دعوة عبده واستغفاره، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعَلَمُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ (ق: ١٦).

وثمة أحاديث كثيرة، وآيات كريمة تشير إلى قرب الله سبحانه من عباده، ليس هنا مجال لبسطها، بيد أن ما ينبغي أن يدرك هنا أن المولى يكون قريباً من العبد قريباً يليق بذاته العلية، فليس إذن المقصود من القرب هنا القرب المكاني.

٤٧ - الكريم : (٥)

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ (الانفطار: ٦).

(1) انظر الأسماء والصفات : ٨٧

(2) كتاب التوحيد : ١٣٠

(3) الأسماء والصفات : ٥٣

(4) اللسان : ٥٣/١٢

(5) الأسماء والصفات : ٦٨

والكريم في اللغة هو " كثير الخير، الجواد، المعطي الذي لا ينفذ عطاؤه، وهو الكريم المطلق، والكريم : الجامع لأنواع الخير والشرف والفضائل، والكريم اسم جامع لكل ما يحمد، والكريم الصفوح، والكرم نقيض اللؤم " (٦).

٤٨ - المجيد : (١)

قال تعالى : ﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾ (هود: ٧٣).

و(المجيد) في كتب اللغة : " من المجد، وهو الكرم والسخاء، وكرم الفعال، ومجد يمجد مجداً فهو ماجد ومجيد، و(المجيد) فعيل منه للمبالغة، والله مجيد تمجد بفعاله، ومجده خلقه لعظمته، ورجل ماجد ومجيد إذا كان معطاء، وقيل إذا قارن شرف الذات حسن الفعال سمي مجداً " (٢).

وقيل " المجيد " المنيع المحمود، فلما لم يقل للواحد منهما مجيد، علمنا أن المجيد من جمع بينهما ، وكان منيعاً لا يرام، وكان في منعته حسن الخصال، جميل الفعال، وهو الباري جل ثناؤه . (٣)

" وقيل إن المجد هو: عظمه الصفات وسعتها، فكل وصف من أوصافه عظيم " (٤)

٤٩ - المولى : (٥)

قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ ﴾ (أنفال: ٤٠)

والولي والمولى اسمان من أسمائه الحسنی، ومادتهما اللغوية ولي، وقد سبق شرح المادة اللغوية في اسم الله (الولي)، وسيتم التفريق الدلالي بينهما فيما بعد .

٥٠ - الودود : (٦)

قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ ﴾ (بروج: ١٤).

والودود في كتب اللغة مادتها ود، و مصدرها مودة ، " الود الحب يكون في جميع مداخل الخير

(6) اللسان : ٥٤/١٣

(1) الأسماء والصفات : ٥٣

(2) اللسان : ٢٢/١٤

(3) الأسماء والصفات : ٥٣

(4) النور الأسمى في شرح أسماء الله الحسنی : ٢٩٣

(5) الأسماء والصفات : ٨٥

(6) الأسماء والصفات : ٩٨

والودود : المحب لعباده، الودود فعول بمعنى مفعول ، فالله محبوب في قلوب أوليائه.
أو هو فعول بمعنى فاعل أي يحب عبادة الصالحين ويرضي عنهم .^(٧)
والله ودود لأنه سبحانه، يتودد إلينا بالنعم والمغفرة والرحمة، وهو ودود لأن من أعمل عقله وتفكر في خالقه لوده.

(7) اللسان : ١٧٧/١٥

٥١ - الأحد : (١)

قال تعالى : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ (الإخلاص : ١) .

ولقد أوردت سابقاً الحديث عن اسم الله (الواحد) ، والمادة اللغوية للاسمين واحدة ، ويتقاربان في المعنى، بيد أن فروقاً بسيطة بينهما سيأتي التفريق بينهما فيما بعد .

٥٢ - الأكرم :

قال تعالى : ﴿ اقرأ وربك الأكرم ﴾ (العلق : ٣) ، وقد عرضت لاسم الله (الكريم)، فيما سبق والكريم والأكرم اسمان من أسمائه الحسنی^(٢) ، أوردهما الإمام البيهقي ومادتهما اللغوية واحدة، ويتقاربان في المعنى، وسيأتي التفريق الدلالي بينهما فيما بعد .

٥٣ - البر : (٣)

قال تعالى : ﴿ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ (الطور: ٢٨) .

وفي كتب اللغة أن البر " الصادق ، وأنه العطوف الرحيم، العطوف على عباده ببره ولطفه، والبر والبار بمعنى، وإنما جاء في أسماء الله تعالى البر دون البار^(٤) . والله سبحانه وتعالى من صفاته أنه بر، وبره مطلق، لأن كل خير و إحسان إنما يكون منه فقط

وقد قيل : " إن البر في صفات الله تعالى، هو الصادق من قولهم : "بر في يمينه وأبرها إذا صدق فيها أو صدقها " ^(٥)

" ومنه أن البر خلاف البحر، وتصور منه التوسع فاشتق منه البر أي التوسع في فعل الخير، وينسب ذلك إلى الله تعالى : " والبر أبلغ من البار لذا قال تعالى : ﴿ كرام بررة ﴾ (عبس : ١٦) وبررة جمع بر " ^(٦)

٥٤ - الحفي : (٧)

قال تعالى : ﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ (مريم: ٤٧) .

(١) الأسماء والصفات : ٤٥

(٢) انظر السابق : ٧٠

(٣) الأسماء والصفات : ٨٨

(٤) اللسان : ٥٨/٢

(٥) الأسماء والصفات : ٨٩

(٦) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم : ٥٠

(٧) القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنی : ٢١

وفي اللغة " حفي بالرجل حفاوة وحفاية : بالغ في إكرامه، وحفي الله بك : في معنى أكرمك الله، وأنا به حفي :أي بر مبالغ في الكرامة .

وفي قوله : إنه كان بي حفيا ، معناه لطيفا .

" قال الليث : الحفي هو اللطيف بك ، يبرك ويلطفك، و يحتفي بك .

قال الأصمعي : حف فلان بفلان إذا قام في حاجته وأحسن مثواه " (١).

٥٥ - الحق : (٢)

قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِهِمُ اللَّهُ دِينُهُمُ الْحَقُّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ (النور: ٢٥).

جاء في كتب اللغة أن : " الحق هو الموجود حقيقة، المتحقق وجوده وإلهيته، والحق ضد الباطل. وحق الأمر يحق حقاً وحقوقاً، صار حقاً وثبت، ومعناه وجب يجب وجوباً " (٣)، " وأصل الحق المطابقة والموافقة " (٤).

والحق هو الموجود على وجه لا يقبل العدم، ولا يقبل الزوال ولا التغيير " (٥).

" والحق هو المتصف بالوجود الدائم، والحياة والقيومية والبقاء، فلا يحقه زوال أو فناء " (٦)

٥٦ - الحي : (٧)

قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ (آل عمران: ٢).

الحياة في اللغة: " نقيض الموت ، والحي كل متكلم ناطق " (٨)

" والحي هو الموصوف بالحياة، الدائم في وجوده ، الباقي حيا بذاته على الدوام " (٩)

والحياة صفة قد يتصف بها البشر، لكن فرقا كبيرا بين الحياتين .

(1) اللسان ١٧٢/٤

(2) انظر الأسماء والصفات : ٢٤

(3) اللسان : ١٧٦/٤

(4) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم : ١٤٠

(5) النور الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى : ٣٠٩

(6) أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة : ٢

(7) الأسماء والصفات : ٣١

(8) اللسان : ٢٩٣/٤

(9) أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة : ٢

"ونحن نقطع بأن الله عز وجل، صفة حياة حقيقية لائقه بكماله وجلاله، كما أن للمخلوقين حياة مناسبة لعجزهم وفنائهم، وبين صفة الخالق وصفة المخلوق من المخالفة كمثل ما بين ذات الخالق وذات المخلوق" (١٠)

فالله حي حياة مطلقة، لا موت قبلها، ولا فناء بعدها، وهو حي لأنه يهب الحياة للأشياء.

(10) الشنقيطي، محمد الأمين : منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات . تح . عطية محمد سالم الدار السلفية – الكويت . ط ٤ . ١٤٠٤ هـ

٥٧ - ذو القوة : (١)

قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ (الذريات: ٥٨).

ولقد مر سابقاً اسم الله تعالى " القوي " وهما يتقاربان في المعنى، ومادتهما اللغوية واحدة (قوي) ، وسيأتي التفريق الدلالي بينهما فيما بعد.

٥٨ - الرزاق : (٢)

قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ (الذريات : ٥٨).

وفي كتب اللغة أن: " الرزاق صفة لله، لأنه يرزق الخلق أجمعين، وهو الذي خلق الأرزاق ، وأعطى الخلائق أرزاقها وأوصلها إليهم، وفعال من أبنية المبالغة، والرزق ما ينتفع به " (٣)

والله هو الرزاق لأنه يتولى رزق عباده، ويوصله لهم ويقدر الرزق لكل المخلوقات " الرزق رزقان : ظاهر وهي الأقوات والأطعمة وهي للأبدان ، وباطن وهي المعارف والمكاشفات ، وذلك للقلوب والأسرار وهذا أشرف الرزقين " (٤) .

٥٩ - الصمد : (٥)

قال تعالى : ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ (الإخلاص: ٢) .

" والصمد في اللغة : " السيد الذي انتهى إليه السؤدد ، وقيل هو الدائم الباقي، وقيل الذي يصمد في الحوائج إليه : أي يقصد " (٦)

وفي اللسان : " صمده يصمده صمداً : قصده ، وصمد الأمر : اعتمده .

والصمد من صفات الله تعالى، لأنه أصمدت إليه الأمور، فلم يقض فيها غيره، والصمد الباقي الدائم بعد فناء خلقه " (٧)

٦٠ - عالم الغيب : (٨)

قال تعالى : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ (الرعد: ٩).

(1) انظر كتاب التوحيد : ١٥٢

(2) الأسماء والصفات : ٨٣

(3) اللسان : ١٤٥٦/٦

(4) المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى : ٨٥

(5) انظر كتاب التوحيد : ٩٧

(6) النهاية في غريب الأثر : ٩٩/٣

(7) اللسان : ٢٨٠/٨

(8) التوحيد : ١٣١

والعالم والعليم والعلام من أسماء الله الحسنى، والمادة اللغوية واحدة للأسماء الثلاثة، وقد بينت ذلك في اسم الله العليم، وسيتم التفريق الدلالي بين الأسماء الثلاثة فيما بعد .
٦١ - الفتح: (١)

قال تعالى: ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَاتِحُ الْعَلِيمُ ﴾ (سبأ: ٢٦).
والفتح في اللغة " هو الذي يفتح أبواب الرزق والرحمة لعباده، وقيل معناه الحاكم بينهم، وهو من أبنية المبالغة.

والفتح : أن تحكم بين قوم يختصمون إليك، والفتح نقيض الإغلاق " (٢)
" والفتح إزالة الإغلاق والإشكال، وهو ضربان : ما يدرك بالبصر كفتح الباب، وما يدرك بالبصيرة كفتح الهم، وفتح المستغلق من العلوم " (٣)
يتضح إذن أن الفتح يشمل كل المعاني اللغوية السابقة، فهو سبحانه يفتح أبواب الرزق والرحمة، ويفتح مغاليق الأمور، وهو من جهة يحكم ويقضي بين عباده .
٦٢ - الفاعل: (٤)

قال تعالى: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ (هود: ١٠٧).

وجاء في كتب اللغة: " أن الفعل كناية عن كل عمل، فعل يفعل و(الفعال) : اسم للفعل الحسن من الجود والكرم وقيل : الفعال فعل الواحد خاصته في الخير والشر " (٥)
والفعال من أبنية المبالغة، ومعناه أنه الفاعل فعلاً بعد فعل، لا يعجزه فعل، ولا يصعب عليه أمر.

٦٣ - القادر: (٦)

قال تعالى ﴿ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ (الطارق: ٨).
والقادر ، والقدير ، والمقتدر، من أسماء الله تعالى ومادتهما اللغوية واحدة ، قدر وقد بينت المعنى اللغوي للمادة والأسماء الثلاثة السابقة تتقارب في المعنى غير أنها تختلف في الدلالة وهو ما سأوضحه إن شاء الله فيما بعد.

(1) الأسماء والصفات : ٧٧

(2) اللسان : ١٢٠/٤

(3) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم : ٤١٥

(4) الأسماء والصفات : ٥٤

(5) اللسان : ٢٠١/١١

(6) انظر الأسماء والصفات : ٣٣

٦٤ - القدوس : (٧)

قال تعالى :

﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ (الجمعة: ١).

وفي اللغة أن القدوس " هو الطاهر المنزه عن العيوب والنقائص، وفِعُول بالضم من أبنية المبالغة ، والتقديس تنزيهه الله جل وعلا" (١)

يقول الغزالي رحمه الله : " هو المنزه عن كل وصف يدركه حس، أو يتصوره خيال، أو يسبق إليه وهم، أو يختلج به ضمير، أو يقضي به تفكير، ولست أقول منزّه عن العيوب والنقائص، فإن ذكر ذلك يكاد يقرب من ترك الأدب " (٢)

" والتقديس: التطهير، والقداسة تعني الطهر والبركة، وقدس الرجل ربه أي: عظمه وكبره وطهر نفسه بتوحيده وعبادته " (٣)

فالله سبحانه وتعالى قدوس طاهر مطهر، منزّه عن أن يدركه وصف، له صفات الكمال ليس كمثله شيء .

٦٥ - القيوم : (٤)

قال تعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ (آل عمران: ٢).

وفي اللغة أن القيوم : " القائم بتدبير أمر خلقه في إنشائهم ورزقهم، وعلمه بأمكناتهم، وقيل: هو القائم على كل شيء، وقيل القيوم: هو القائم بنفسه مطلقاً لا بغيره، وهو مع ذلك يقوم به كل موجود حتى لا يتصور وجود شيء ولا دوام وجوده إلا به " (٥)

إن فالقيوم هو من يقوم بنفسه مطلقاً، ويقوم بغيره ويقوم بتدبير أمر الخلائق، فلا وجود لهم إلا به سبحانه، وهذا هو المعنى الذي تشير إليه التفسيرات اللغوية للمادة .

٦٦ - المبين :

قال تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ (النور: ٢٥).

وفي اللغة " أن الحق يبين بياناً فهو بائن، وأبان يبين إبانة فهو مبين، والبين في كلام العرب جاء على وجهين : يكون البين الفرقة، ويكون الوصل وهو من الأضداد " (٦)

(7) السابق : ٥١

(1) اللسان : ٤٠/١٢

(2) المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى : ٦٨

(3) أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة : ٢/

(4) الأسماء والصفات : ٦٢

(5) اللسان : ٢٢٨/١٢

والمبين الذي لا يخفى، تعرفه العقول فتتهدي إليه، وقد بانته قدرته وآثاره في الكون، وهو الذي أبان لعباده قدرته، ويبين لهم دينه وشريعته، ويوم القيامة يبين لهم أعمالهم، ويظهرها إليهم بعد أن كانت في خفاء.

٦٧ - المتعالي : (١)

قال تعالى : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ (الرعد: ٩).
والمتعالي والعلي والأعلى من أسماء الله الحسنى، والمادة اللغوية للأسماء السابقة واحدة، (علو) ولكن تفترق تلك الأسماء في دلالات البناء، وسيأتي التفريق الدلالي بينهما فيما بعد .

٦٨ - المتين : (٢)

قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (الذريات: ٥٨). والمتين في اللغة : " الشديد، وشيء متين : صلب، والمتين في صفة الله : القوي "
قال ابن الأثير : " المتين في صفة الله القوي الشديد، الذي لا يلحقه في أفعاله مشقة، ولا كلفة ولا تعب " (٣) والمتين هو " الذي له كمال القوة، بحيث لا يعارض في فعل من أفعاله، ولا يقبل الضعف في قوته ولا يمانع في أمره " (٤)

٦٩ - المجيب : (٥)

قال تعالى : ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ (هود: ٦١). " وفي اللغة المجيب : " هو الذي يقابل الدعاء والسؤال بالعطاء والقبول، وهو اسم فاعل من أجاب يجيب " (٦)
والله سبحانه وتعالى مجيب لأنه يجيب دعاء الداعين، فيكفيهم ويعطيهم ولا مجيب غيره سبحانه .

(6) السابق : ١٩٥/٢

(1) الأسماء والصفات : ٤٧

(2) السابق : ٥٧

(3) اللسان : ١٦١

(4) النور الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى : ٣٢٤

(5) الأسماء والصفات : ٨٤

(6) اللسان : ٢٣٠/٣

٧٠ - المقيت : (٧)

قال تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كَلْبٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيَّتًا﴾ (النساء: ٨٥). والمقيت في اللغة : " الذي يعطي كل شيء قوته، والقوت: ما يمسك الريق من الرزق، وأنا أقوته أي: أعوله برزق قليل، يقال: ما عنده قوت ليلة، أي ما يقوم به بدن الإنسان من الطعام .

وقيل: المقيت هو الحفيظ الذي يعطي الشيء على قدر الحاجة من الحفظ " (٨) والله سبحانه المقيت لأنه قدر أقوات الخلائق، وأرزاقهم وتكفل بحفظهم بها، وإيصالها لهم.

ومن معاني المقيت أيضاً: القادر المطلع، يدل عليه قوله: وكان الله على شيء مقيتاً، أي مطلعاً قادراً فمعناه في الآية راجع إلى العلم والقدرة " (١)

٧١ - الملك : (٢)

قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (الجمعة: ١). وجاء في كتب اللغة أن الملك : " احتواء الشيء، والقدرة على الاستبدادية، وملكه يملكه ملكاً وقيل: ملك العجين يملكه ملكاً، إذا قوي عليه، وملك العجين، إذا شددت عجنه " (٣). " والملك هو المتصرف بالأمر والنهي في الجمهور، وذلك يختص بسياسة الناطقين ولهذا يقال : ملك الناس، ولا يقال: ملك الأشياء " (٤).

فالله سبحانه هو الملك المتصرف في مملكته ما يشاء، ولا يملك أحد من البشر شيئاً في ملكه المطلق، فالملكية التامة المطلقة لله.

٧٢ - الهادي : (٥)

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ (الفرقان: ٣١).

(7) الأسماء والصفات : ٨٢

(8) اللسان : ٢١٤/١٢

(1) انظر المقصد الأسنى : ١١٣

(2) الأسماء والصفات : ٤١

(3) اللسان : ١٢٦/١٤

(4) معجم ألفاظ القرآن الكريم : ٥٢٧

(5) التوحيد : ١٤٩

وفي كتب اللغة أن الهادي سبحانه " هو الذي وجد عباده، وعرفهم طريق معرفته، وهدى كل مخلوق إلى ما لا بد له منه في بقاءه ودوام وجوده "

والهدى ضد الضلال وهو الرشاد، وهديت لك بمعنى: بينت لك، واهتدى أي أقام على الإيمان" (٦)

والهادي هو الذي يهدي المؤمنين إلى طاعته ويهدي المخلوقات إلى ما تقيم به حياتها.
٧٣ - المليك : (٧)

قال تعالى : ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ (القمر: ٥٥).

والملك والمليك من أسمائه الحسنی، ومادتهما اللغوية واحدة، وقد سبق الحديث عن اسم الله (الملك) و(المليك) يشابهه، بيد أن فروقاً في البناء الدلالي بين الاسمين سأوضحه فيما بعد.

ثالثاً: الدلالة البنائية لأسماء الله الحسنى

١- قضية الترادف في القرآن الكريم :

ظاهرة الترادف في اللغة العربية، ظاهرة قديمة جديدة، حفظتها متون كتب العلماء من أهل اللغة والتفسير، حيث دونت مساجلات العلماء في تصانيفهم، ولعل الدقة تقتضي القول إن هذه القضية لم تحسم بعد، فالقدماء انقسموا في ذلك، بين قائل بالترادف، ومعارض له، وكل فريق منهم قد ساق أدلته، وأورد حججه وبينته. والمحدثون على دربهم ساروا، منهم من انضم إلى هذا، ومنهم من انحاز إلى ذاك.

فنحن إذن أمام قاطرتين تزدان بازدياد العلماء الذين يتصدون لهذه القضية بالدرس والتحليل .

وحديثنا عن الترادف في اللغة العربية ينسحب على القرآن الكريم، إذ إن فريقاً من العلماء قال به، ومنهم : الأصمعي، وابن جنى، الفيروز أبادي، وأبو على الفارسي .

ومنهم من عارضه ورفضه كابن فارس، وأبو هلال العسكري، وثعلب، وابن الأعرابي وهؤلاء جميعهم من العلماء القدماء، وأما المحدثون فمن القائلين به : صبحي الصالح

(6) اللسان: ٤١/١٥

(7) النسائي، أحمد بن شعيب : كتاب النعوت والصفات ، تح. عبد العزيز الشهوان ، مكتبة العبيكان – الرياض . ط ١ ١٩٩٨م ص ٢٧٥.

وإبراهيم أنيس، ومن المعارضين المانعين للترادف : فضل عباس، وعائشة عبد الرحمن وصلاح الخالدي ... الخ^(١)

وليس هنا مقام البحث والتفصيل وتبيين الأدلة، والترجيح بينها، فهذا أمر يطول، وقد أفردت فيه المصنفات، ونوقشت فيه الرسائل الجامعية .

ولكن ما يجدر الإشارة إليه هنا، أن الفريقين كليهما، المانعين والمؤيدين للترادف انطلقوا في مواقفهم من فكرة سامية، سيطرت عليهم طيلة حياتهم، ومن أجلها أفردوا المصنفات، وهي إظهار إعجاز القرآن الكريم، وهو أمر مقبول بحق، لكنه ليس مبرراً على النحو التفصيلي للقضية.

إن القائلين بالترادف في النظم القرآني، إضافة لما أسلفت من دوافعهم الحسنة نحو القرآن الكريم، إلا أن قرائحهم وأذواقهم لم تسعفهم في التفريق الدقيق بين الألفاظ التي تبدو في ظاهرها مترادفة، وهو ملمح لم يتأت لهم أن يقنصوه، وذلك لصعوبته، وقلة الباحثين فيه .

يقول أبو هلال العسكري : " ثم إنني ما رأيت نوعاً من العلوم، وفناً من الآداب، إلا وقد صنف فيه كتب تجمع أطرافه، وتنظم أصنافه، إلا الكلام في الفرق بين معان تقاربت حتى أشكل الفرق بينها^(١)

فأبو هلال يشير إلى صعوبة هذا اللون من العلوم، ويبدو أن الإمام العسكري قد أسعفته قريحته، وأمدّه ذوقه وحسه الأدبي بما يمكنه من تذوق النص القرآني، وتلمس إichاءات الألفاظ التي تبدو في ظاهرها مترادفة.

إن مجموعة من الألفاظ التي عدها القائلون بالترادف مترادفة، تعقبها العلماء والباحثون بعدهم، وفرقوا بينها فروقاً دقيقة، استقرت لها النفس، ورضي لها الطبع، ولمعت بها حقيقة أن هذا القرآن من عند الله، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد

(1) انظر الفار ، معين مصطفى خليل : الترادف والتشابه في النظم القرآني . رسالة ماجستير ، الجامعة الإسلامية - غزة : ٦٧ .

(1) الفروق اللغوية : ٣٠

كذلك الألفاظ التي أوردها الدكتور صبحي الصالح، والدكتور إبراهيم أنيس، مثل: أقسم وحلف، وبعث وأرسل، وآثر وفضل، تأس وتحزن^(٢) والتي بان فيما بعد أنها ليست مترادفة، وأن فروقاً دقيقة تقوم بينها، يدركها المتأمل، صاحب النظر الثاقب، والفكر العميق، والحس اللغوي المرفه .

٢ - قضية الترادف في أسماء الله الحسنى :

وإذا كان حديثنا عن الترادف في اللغة العربية بشكل عام، يدور حول لفظين مختلفين في أصل المادة اللغوية لهما، كحبس وقعد، وبعث وأرسل، وحلف وأقسم، فإن حديثنا في هذا المبحث يدور حول الأسماء الحسنى التي اشتقت من مادة لغوية واحدة، وجاءت على أبنية وأوزان مختلفة، كاسم الفاعل، وصيغة المبالغة، واسم المفعول، والصفة المشبهة . فالغافر والغفور والغفار، كلها أسماء حسنى، والقادر والقدير والمقتدر كذلك، ومادة الأسماء الأولى غفر، ومادة الثانية قدر، فهل هذه الأسماء مترادفة تقوم كلها مقام اسم واحد؟ وتدور حول معنى واحد؟ لا يختلف بها اسم عن آخر؟ . أم أن بينها فروقا، ودلالات يحتفظ بها كل اسم عن الآخر؟

يرى العلماء أن أسماء الله الحسنى وصفاته ليست مترادفة، وأنها ليست بمعنى واحد، وهم حين قالوا بذلك، فرقوا بين الاسم والصفة، فرأوا أن أسماء الله سبحانه وتعالى - من حيث دلالتها على مسمى واحد فإنها كالمترادفة، كقولك: السميع، البصير، الرحيم، فإنها تدل على مسمى واحد، فهي تدل على الله - سبحانه وتعالى - وأما من حيث دلالتها على الصفات فإنها متباينة غير مترادفة.

يقول ابن تيمية : "أسماء الله الحسنى ليست مترادفة، بحيث يكون معنى كل اسم هو معنى الاسم الآخر، ولا هي أيضاً متباينة التباين في المسمى وفي صفته، بل هي من جهة دلالتها على المسمى كالمترادفة، ومن جهة دلالتها على صفاته كالمتباينة."

إذن حينما نقول: السميع، البصير، العليم، فإننا نعني بها المولى - سبحانه وتعالى - فهي عندئذ أسماء، ولكنها أيضاً تحمل صفات الكمال، فالسميع اسم من حيث دلالة على المولى، وصفة من حيث أن المولى يسمع، وكذا العليم اسم وصفة، اسم يدل على المولى - سبحانه وتعالى وصفة تدل على علم الله، وكذا القدير ... إلخ

(2) انظر أنيس، إبراهيم : في اللهجات العربية ، مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهرة : ١٨١
الصالح ، صبحي : دراسات في فقه اللغة ، دار العلم للملايين - بيروت : ٣٠٢

بل ذهب بعض العلماء إلى أن القائلين بالترادف في أسماء الله، كأنه إلحاد في أسمائه.

"كمن يقول إن معاني أسماء الله الحسنى بمعنى واحد، العليم والقدير والرحيم والحكيم معنى واحد، فهذا إلحاد في أسمائه وصفاته وآياته " (١)

فماذا عن الأسماء المنحدرة من أصل لغوي واحد، إن ما قيل عن الأسماء بعامة، يقال عن الأسماء ذات الأصل اللغوي الواحد بخاصة، أولاً لأنها أسماء حسنى وردت في حديث الترمذي، وابن ماجه، وأوردها العلماء فيما بعد في مصنفاتهم.

وثانياً: لأنها لو كانت مترادفة بمعنى واحد، فإن اسماً واحداً يغني عنها، فالعليم يغني عن العالم، والقدير يقوم مقام المقتدر والقادر، وهكذا... ولكن الأمر ليس كذلك، فإن كل اسم له بناء صرفي خاص، وكل بناء صرفي له دلالة تختلف عن البناء الآخر، تزيد أو تنقص، تظهر أو تختفي، وإن كانت تنتمي إلى مادة لغوية واحدة.

"ولا شك أنه لو لم يختلف المعنى لم تختلف الصيغة، إذ كل عدول عن صيغة إلى أخرى، لا بد أن يصحبه عدول عن معنى إلى آخر، إلا إذا كان ذلك لغة" (٢)

يرى الإمام أبو حامد الغزالي أن لا ترادف في أسماء الله الحسنى ذات الأصل اللغوي الواحد، "فإذا رأينا لفظين متقاربين، فلا بد أن نتكلف إظهار مزية لأحد اللفظين على الآخر ببيان اشتماله على دلالة لا يدل عليها الآخر، مثاله: لورود الغافر والغفور والغفار، لم يكن بعيداً أن تعد هذه ثلاثة أسام، فهذه الأسامي وإن كانت متقاربة المعاني، فليست مترادفة

لأن الأسامي لا تراد لمخارج أصواتها بل لمفهوماتها ومعانيها، فهذا أصل لا بد من اعتقاده " (١)

وهو مذهب سار عليه المحدثون من العلماء، وأثبتوه في مصنفاتهم وشروحهم .

(1) الفتاوى الكبرى : ٢٩٥/١٢

(2) السامرائي،فاضل صالح : معاني الأبنية في العربية ،جامعة الكويت – كلية الآداب ط١ ، ١٩٨١ : ٧

(1) المقصد الأسنى : ٤١

"الأسماء المشتقة من صفة واحدة لا تعد كلها اسماً واحداً، بل كل صيغة من صيغ الاسم يعد اسماً مستقلاً، فالقادر اسم، والقدير اسم، والمقتدر اسم مع أنها كلها مشتقة من صفة واحدة، لأن بعضها يزيد بخصوصيته عن الآخر" (٢)

ولعل علمي النحو و الصرف، يدلان بدلوها في هذا السياق، فالنحاة قديماً وحديثاً حاولوا التفريق بين بناء و بناء، وصيغة وأخرى، فهم فرقوا بين دلالة الاسم والفعل، وميزوا بين دلالة اسم الفاعل والصفة المشبهة وصيغ المبالغة، مع أنهم لم يعطوا هذا النوع من الدراسة حقه كاملاً ولمثله ينبغي أن تفرد المصنفات وتستطيل به المتون .

٣- دلالة البناء لأسماء الله الحسنى :

١- الغافر ، الغفور ، الغفار :

الأسماء الثلاثة السابقة تنتمي إلى مادة لغوية واحدة وهي الفعل غفر .
" والغفر : التغطية والستر " (٣)، والغافر والغفور والغفار: هو الذي يستر ذنوب عباده فيغفرها، ولا يعاقب العبد عليها .

" والمغفرة صيانة العبد عما استحقه من العقاب، بالتجاوز عن ذنوبه، والغفر : هو إلباس الشيء ما يصونه من الدنس " (٤)

والأسماء السابقة أوزان مختلفة، فالغافر : اسم فاعل، والغفور والغفار من أبنية المبالغة، فعول ، فعال.

فما دلالة الأبنية السابقة ما دما قد قررنا مع النحاة أن " كل عدول عن صيغة إلى أخرى، لا بد أن يصحبه عدول عن معنى إلى آخر إلا إذا كان ذلك لغة ؟ " (٥)
جاء في كتب النحو، أن اسم الفاعل يدل على الثبوت، كقولك واسع الفم، وبارز الجبين، وجاحظ العينين، وهو يدل على الثبوت كالصفة المشبهة " (٦)

أي يدل على ثبوت الصفة في صاحبها، ومن دلالاته أيضاً، أنه يدل على الاستمرار، و"الغافر" اسم ورد في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير ﴾ (غافر : ٣).

(2) القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى : ٦٣

(3) اللسان : ٦٤/١١ .

(4) الكليات : ٦٦٦ .

(5) معاني الأبنية في العربية : ٧ .

(6) السابق : ٥٢ .

وأما صيغ المبالغة فعول، فإنها تأتي لمن كثر منه الفعل، وقيل لمن دام منه الفعل، وقال آخرون: هو لمن كان قوياً على الفعل " (١)

وكذا صيغة فعال، فإنها تدل على أن صاحبها قام بالفعل مرة بعد مرة، ووقتاً بعد وقت، جاء في كتب اللغة أنه " إذا فعل الفعل وقتاً بعد وقت قيل فعال مثل: علام وصبار " (٢)

مما سبق يمكن استنتاج ما يلي للتفريق بين الأسماء الثلاثة :

- أن غافر هو من تكون منه المغفرة، فهو اسم يدل على أصل المغفرة، ويشير إلى أن صفة المغفرة ثابتة وصفاً للمولى _ سبحانه وتعالى _ فهو إذن يفيد ثبوت الوصف واستمرار ثبوته للمولى، فهو غافر حتى لو لم يوجد من يذنب، غافر قبل أن يكون الذنب، فإذا كان من عبد ذنب كانت منه _ سبحانه _ مغفرة .

وأما الغفور فهو الذي يغفر ذنوباً كثيرة، يغفرها كلها جميعاً، قال تعالى :

﴿ قل يا عبادي الذي أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور

الرحيم ﴾ (الزمر : ٥٣). أي يغفرها حال كونها مجموعة دفعة واحدة.

ولقد بدا لي أن الغفور يتعلق بصغار الذنوب قال تعالى: ﴿ ويعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾ (النساء : ١١٠).

- وأما الغفار فهو الذي يغفر لمن يذنب مرة بعد مرة، يذنب العبد فيغفر، ثم يعود إلى الذنب فيغفر، و(غفار) تأتي عادة مع الذنوب العظيمة، كالشرك والطغيان، وهي مظهر من مظاهر القدرة للمولى، حيث ترد متجاوزة مع العزيز، قال تعالى : ﴿ رب السماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفار ﴾ (ص : ٦٦).

وإذا كانت الزيادة في المبنى تؤدي إلى الزيادة في المعنى. فإن غفار أكثر بلاغة ومناسبة في سياقها من غفور، ذاك لأنها تشمل كثرة المغفرة من جهة للذنوب الكثيرة، ومن جهة ثانية من حيث كون الذنوب عظيمة خطيرة .

يقول الإمام أبو حامد الغزالي _ رضي الله عنه _ في سياق التفريق بين الأسماء الحسنی الثلاثة:

(1) انظر معاني الأبنية في العربية : ١١٤
(2) الفروق اللغوية : ٣٦.

٢- عالم الغيب، علام الغيوب، العليم:

﴿ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه﴾ (آل عمران : ٩)، واسم الفاعل يدل فيما يدل على كافة الأزمنة، الماضي و الحال والاستقبال، وذلك إذا قامت قرينة في السياق تشير إلى ذلك، ولكن حين يطلق هكذا في غير قرينة، فإنه يدل على استغراق الدلالة كافة الأزمنة. وفعال من أبنية المبالغة، وهو لمن أدام فعل الشيء مرة بعد مرة، ووقتا بعد وقت، بمعنى إذا تكرر منه الفعل، على أزمان متباعدة، كأنه صار حرفه له، " ألا ترى أنك إذا قلت : زيدٌ قاتل أو : جراح لم تقل هذا لمن فعل فعلة واحدة"^(٣)، وفي (الفروق اللغوية) أنه "إذا تكرر الفعل وقتا بعد وقت، قيل فعال، مثل علام وصبار"^(٤)، وعليه فإننا نلمح في (فعال)، أنها تقتضي "الاستمرار التكرار، والإعادة والتجدد"^(٥).

Σ Λ

وأما بناء فعيل، فإن أبرز ما يميزه، أنه يدل على اللزوم والثبوت، ثبوت الصفات في أصحابها، بحيث تكون ملاصقة لأصحابها، ملازمة لهم، كأنها صفة متأصلة فيهم، وسجية متمكنة منهم،

و(فعيل) في المبالغة يدل على "معاناة الأمر وتكراره، حتى أصبح كأنه خلقه في صاحبه، وطبيعة فيه، كعليم أي هو لكثرة نظره في العلم وتبحره فيه، أصبح العلم سجية ثابتة في صاحبه، كالطبيعة فيه" (١)

إن الأسماء الثلاثة السابقة، عالم الغيب، وعلام الغيوب، وعلیم، كلها أسماء وصفات للمولى _ سبحانه وتعالى _ وهي صفات ذات، دلت على ذاته العلية، وإذا صح أن يؤخذ بدلالات الأبنية، في صفات الفعل، كالغفور وغيره، فإنها هنا لا يمكن أن تتسحب على صفة العلم للمولى _ سبحانه وتعالى _ ذاك لأن الله عالم وعلام وعلیم، قبل خلق ما يعلم، وعلمه مطلق كامل شامل، لا يكون بالتتابع والتجدد والحدوث، وإنما هو علم أزلي، لا تزيده الأيام ولا تنقصه، ولا يجري عليه الزمان ولا يبخسه، فإن كانت صيغة (فعال) تدل على من قام بالفعل مرة بعد مرة، وزمنا بعد زمن، حتى كأنه صار حرفة له، وأنها تقتضي التكرار والإعادة والتجدد، فإنها بحال لا يمكن أن تكون كذلك بحق المولى في صفة العلم، فلا يقال إن الله سبحانه وتعالى _ علام لأنه علم مرة بعد مرة، وكثر منه العلم فصارت صفة العلم له سجية، وإنما هو علام وعالم وعلیم، صفة في ذاته قبل أن يخلق ما يعلم، فهو لم يكتسب صفة العلم من علمه بالأشياء، وإنما عالم وعلام وعلیم قبل أن يخلق الأشياء، وبعد خلقها.

فإذا كان ذلك كذلك، فكيف يمكن أن نرصد دلالات الأسماء، والفروق الإيحائية لها ؟ إن ذلك يتسنى لنا في رصد دلالات الأسماء في سياق النص القرآني، ومن خلال استخدام كل اسم في تركيباته المختلفة.

(فالعالم) قد ورد في القرآن الكريم ثلاث عشرة مرة، وفي جميعها ورد مضافاً إلى لفظ (الغيب)، وهو لم يرد في القرآن الكريم مفرداً من غير إضافة قط. وكذا ورد في عشر مرات، معطوفاً عليه لفظ (الشهادة)، عالم الغيب والشهادة.

(1) معاني الأبنية: ١١٧.

وأما علام فقد ورد في القرآن الكريم أربع مرات فقط، وفي جميع حالاتها جاءت مضافة إلى كلمة (الغيوب)، وهي لم ترد في القرآن الكريم من غير إضافة.

وأما (العليم) فقد ورد في القرآن الكريم مائة واثنين وخمسين مرة، لم يرد في تركيب خاص، أو مضافاً لألفاظ بعينها، أو مجاوراً لأسماء بعينها، وإنما ورد مطلقاً في غير تقييد، مستوعباً أساليب وتراكيب مختلفة، مفرداً ومتجاوزاً، ونكرة ومعروفة، مرفوعاً ومنصوباً ومجروراً، مؤكداً وغير مؤكداً، مقدماً ومؤخراً.

ومن خلال ما سبق يمكن رصد دلالات كل بناء، واستخداماته المختلفة، كما يلي:

١ - أن (عالم) جاءت مضافة إلى الغيب دائماً، وفي سياق قدرة الله التي تتعلق باليوم الآخر، من بعث وحساب ونفخ في الصور وغير ذلك من متعلقات ذلك اليوم، فلما أفرد الغيب، استخدم معها (عالم)، ولما جمعها استخدم مع الجمع (علام).

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام: ٧٣).

(فعالم الغيب) بناء يشير في سياقاته إلى تفرد المولى - سبحانه وتعالى - بعلم غيب ذلك اليوم، وما يدور فيه من أحداث جسام، وكذلك تفرد سبحانه - بعلم الغيب مطلقاً، وبشكل عام، فكل ما غاب عن الإنسان يسمى غيب، ولا أحد يعلم أي نوع من الغيب إلا الله.

٢ - وأما (علام) فقد جاءت مضافة إلى الغيوب دائماً، ولأن (علام) بناء للمبالغة يدل على الكثرة، فقد ناسب أن يضاف إلى الغيوب، والغيوب لفظ جمع، يدل فيما يدل على الكثرة، وفي ذلك دقة عجيبة في استخدام كل من اللفظين، فلم يرد في القرآن مثلاً (علام الغيب) ولا (عالم الغيوب)، فعلام الغيب في غير القرآن تشير إلى أنه علم الغيب، ثم علمه، ثم علمه وهكذا، فلا مزية، ولا فائدة في تكرار العلم بغيب واحد، ولكن علام الغيوب تشير فيما تشير إليه إلى التنوع، فهي غيوب كثيرة بالنسبة للبشر، متعددة متنوعة، وهو علم بها. وعالم الغيوب تشير في غير القرآن إلى أنه علم الغيوب كلها جميعاً، ولكن علم الغيوب تشير إلى أنه علم الغيوب كلها جميعاً، وإضافة لذلك علم كل غيب وما يتعلق به، علم شمول وإحاطة.

فانظر كيف أن (علام الغيوب)، أفادت المعاني السابقة، ثم زادت عليها. وهو ما يشير إلى إتقان النظم وروعته، ودقة التراكيب ومتانتها.

٣ - وأما اسمه (العليم) فهو بناء للمبالغة، ورد في سياقات كثيرة ومتعددة، ولكنه لم يرد قط، في سياقات تتعلق باليوم الآخر، ولا بأهوال يوم القيامة، وكذا لم يأت في سياق العلم

بالغيب، ولا العلم بالغيوب، مثلما ورد عالم وعلام، وإنما جاء في سياقات مختلفة، تدور كلها حول:

أ - مخلوقات الله التي خلقها ويعلم كنهها وسرها، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٩).

ب - سلوك الإنسان وما يدور في صدره من نوايا خفية: قال تعالى: ﴿وَإِذْ يُرَفِّعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٧).
وقال أيضا: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَقْتَمُ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢١٥).

ت - أوامر ونواه من قبل المولى _ سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (المائدة: ٧).
وقال أيضا: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (فاطر: ٨).

إن لفظ (عليم) ورد في القرآن الكريم مع غير المولى، في تسعة مواضع، مما يعني أن هذا الاسم يطلق على البشر، ولهم فيه حظ، ولكنه علم قاصر محدود، يختلف عن إطلاقه على المولى الذي يفيد العلم المطلق الشامل.

إن (عليم) قد تكون أبلغ من (عالم الغيب_علام الغيوب)، لأنها وردت في القرآن الكريم، في مائة وأربعة وخمسين موضعا، وحين تم رصد دلالاتها في سياقاتها المختلفة، كانت مطلقة غير مقيدة، تشير إلى طلاقة علم الله، وأما (عالم وعلام)، فإنها خصصت بالغيب، وفي ذلك أراني مخالفا ما ذهب إليه العالم الجليل ابن الأثير، في قوله ببلاغة عالم أكثر من عليم.

" فإن جمهور علماء العربية يذهبون إلى أن عليماً أبلغ في معنى العلم من عالم، وقد تأملت ذلك، وأنعمت نظري فيه، فحصل عندي شك في الذي ذهبوا إليه والذي يوجبه النظر أن يكون الأمر على عكس ما ذكروه وذاك أن يكون عالم أبلغ من عليم"^(١).

٣ - القادر و المقتدر و القدير:

جاء في كتب اللغة أن الأسماء الحسنى السابقة، تكون من القدرة، وتكون من التقدير^(١) فالقادر اسم فاعل من قدر يقدر، والقدير فعيل منه، وهو للمبالغة، والمقتدر مفتعل من اقتدر، وهو أبلغ^(٢)

فالقادر والقدير، فعلهما قدر، والمقتدر فعله اقتدر وزن افتعل. فماذا إذن أفادت الزيادة في الفعل؟ وما هي دلالات البناء افتعل؟

جاء في الشافية: أن افتعل " للمطاوعة غالباً نحو: غمته فاغتم، و للاتخاذ نحو: اشتوى و للمفاعلة نحو: اجتوروا و اختصموا، و للتصرف نحو: اكتسب. و ربما يجيء للتصرف ... نحو اكتسبت السوء بالتعرف " ^(٣)

(1) الموصلي، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح. محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت: ٦٠/٢.

(1) انظر اللسان: ٣٦/١٢. مادة قدر.

(2) النهاية في غريب الأثر: ٤١/٤.

(3) الدويني، جمال الدين أبي عمرو: الشافية في علم التصريف، حسن أحمد العثمان، المكتبة المكية، مكة المكرمة: ٢١/١.

فصيغة افتعل لها معان كثيرة، منها التصرف، وهو ما يمكن أن نلمسه في تعريف الاقتدار، الذي هو مصدر اقتدر: "وهو أن يبرز المتكلم المعنى الواحد في عدة صور، اقتداراً منه على نظم الكلام، وتركيبه على صياغة قوالب المعاني والأغراض" (٤) جاء في (فيض القدير) أن القادر "المتمكن من الفعل بلا معالجة ولا واسطة، والمقتدر: من الاقتدار وهو الاستيلاء على كل من أعطاه حظاً من قدرته، إلا أن المقتدر أبلغ." (٥)

فالمقتدر كما يرى كثير من العلماء، أبلغ من القادر، لأن الزيادة في المبنى، زيادة في المعنى، كما قرر اللغويون.

يقول الزجاج - رحمه الله - : المقتدر مبالغة في الوصف بالقدرة، والأصل في العربية أن زيادة اللفظ زيادة المعنى، فلما قلت اقتدر أفاد زيادة اللفظ زيادة المعنى" (٦)، وهو الأمر الذي أكدته ابن الأثير، حين قال: "فإن المقتدر أبلغ في البسطة من القادر، وذاك أن مقتدراً اسم فاعل من اقتدر، وقادر اسم فاعل من قدر، ولا شك أن افتعل أبلغ من فعل.

وعلى هذا ورد قول أبي نواس:

(فَعَفَوْتُ عَنِّي عَفْوَ مُقْتَدِرٍ ... حَلَّتْ لَهُ نَقَمٌ فَأَلْفَاهَا)

أي: عفوت عني عفو قادر، متمكن القدرة، لا يرده شيء عن إمضاء قدرته" (١) والقدير: "هو الفاعل لما يشاء، على قدر ما تقتضي الحكمة، لا زائداً عليه، ولا ناقصاً عنه، ولا يصح أن يوصف به إلا الله" (٢)

ومن خلال تتبع الأسماء الثلاثة في القرآن الكريم، كل اسم في سياقاته المتنوعة، ومواضعه المختلفة، بدا واضحاً أن لكل اسم دلالة خاصة، ومزايا ينفرد بها، لا يشاركه فيها غيره، ولا يترادف معه سواه، بحيث أن كل اسم لا يصلح إلا للسياق الذي ورد فيه، وأن تمام المعنى لا يكون إلا به، بحيث لو أنك وضعت غيره مكانه، سترى

(4) الكليات: ١٦٠.

(5) المناوي، عبد الرؤوف: فيض القدير شرح الجامع الصغير، المكتبة التجارية الكبرى- مصر: ٤٨٣/٢.

(6) الزجاج، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد: تفسير أسماء الله الحسنى، تحقيق أحمد يوسف الدقاق، دار الثقافة العربية، دمشق، ١٩٧٤، ٢١.

(1) المثل السائر: ٥٦/٢.

(2) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ٤٤١.

كيف زال بهأؤه، وضاع بريقه، واختل معناه، وهذا دلالة على أن هذا القرآن العظيم، جاء على نحو معجز رائع، لا يستطيعه بشر، مهما أوتي من بلاغة.

ومن خلال ما سبق، يمكن رصد ما يلي من دلالات، لكل اسم من الأسماء الحسنى الثلاثة:

١ - القادر:

ورد في القرآن الكريم، سبع مرات مفردا، وخمس مرات متصلا بضمير الجمع (قادرون). والقادر في المعجم مجرد من سياقاته، يدل على مطلق القدرة في حق المولى - سبحانه -، وهو يحتاج إلى تخصيص، وتحديد المقدور عليه، قادر على ماذا، أنت تقول مثلا: فلان قادر، فلا تفيد معنى إلا إذا خصصت المقدور عليه، فتقول: قادر على السباحة.

فاسم الفاعل قادر يدل على ثبوت القدرة للفاعل في فعل ما، ولا تدل على شمول القدرة، في كل الأشياء، من أجل ذلك لم يرد اسم (قادر) إلا مخصصا بفعل. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الأنعام: ٣٧). وقال أيضا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُّوا﴾ (الإسراء: ٩٩). فالآية الأولى، قادر على أن ينزل آية، وفي الثانية، قادر على أن يخلق مثلهم، وهكذا في جميع الآيات التي ورد فيها (قادر) مفردا، أو متصلا بضمير الجمع. يؤكد ما ذهبنا إليه، أن (قادر) لم يرد في القرآن الكريم، مطلقا يفيد الشمول، إنما ورد في كل المرات، مقيدا مخصصا بحرف الجر (على)، ثم بالفعل المقدور عليه.

ثم حين التأمل في الآيات التي اشتملت على (قادر)، نجد أنها تأتي في سياق محاوراة الكافرين، ودحض مزاعمهم، وإثبات قدرة الله، فهم كانوا ينفون عن الله قدرته على بعث الموتى، وإنزال آية لهم، وغير ذلك من أشياء، والمولى - سبحانه - أراد إثبات قدرته على هذه الأشياء، فكان الإثبات لهم، باستخدام اسم الفاعل (قادر) الذي يفيد الثبوت، ثبوت الصفة في صاحبها. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الأنعام: ٣٧).

٢ - وأما القدير:

فقد ورد في القرآن الكريم، في خمسة وأربعين موضعاً، ولما كان (قدير) على وزن فعيل، الذي هو بناء للمبالغة، يدل فيما يدل على الكثرة، فقد جاء (قدير) في أغلب سياقاته، مع قوله: "إن الله على كل شيء... (وكل شيء)، تفيد العموم والشمول، فناسبها اسم القدير، الذي يفيد الكثرة، والتنوع، وتعدد مظاهر القدرة. فلم يرد تركيب في القرآن على نحو: (إن الله على كل شيء قادر)، لأن (كل شيء) لا يصلح معها إلا قدير.

ثمة أمر آخر أن (قدير) ترد في سياق تتعدد فيه مظاهر القدرة. قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (النحل: ٧٠). ففي الآية مظاهر متنوعة لقدرة الله: (خلقكم... يتوفاكم... يرد إلى أَرْدَلِ الْعُمُرِ...) ناسبها استخدام القدير، وحين يكون مظهر واحد من مظاهر القدرة، فإنه يناسبها (القادر). قال تعالى:

﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (يس: ٨١). حيث مظهر واحد هو الخلق. ثم تأمل هاتين الآيتين يؤكد ما ذهبنا إليه.

الآية الأولى: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ (الطارق: ٨).

والثانية: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَأْيَةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ (الشورى: ٢٩). فالله سبحانه وتعالى - حين أفرد مظهراً واحداً للقدرة، في الآية الأولى، ناسبه قادر، وحين تنوعت مظاهر قدرته - سبحانه - ناسبها القدير.

٣ - وأما المقتدر:

فقد ورد في القرآن الكريم، في أربعة مواضع، ثلاثة منها جاء مفرداً (مقتدر)، وموضع جاء فيه متصلاً بضمير الجمع (مقتدرون). والمقتدر كما بين العلماء، أبلغ من (القادر والقدير)، ذاك لأن الزيادة في بنائه، تزيد في معناه، فهو يشمل الاسمين السابقين، وينفرد بأنه يشير إلى التصرف، والتصرف يمكن أن يبدو في هذه الصيغة، في القدرة التامة على تقلب الأمور، وتغييرها، وجعلها على وجوه كثيرة، مختلفة، متنوعة، وهي دلالة على التمكن التام المطلق، والسيطرة الكاملة، للمولى - عز وجل -

والسياقات التي ورد فيها المقتدر، تشير إلى هذه المعاني قال تعالى: ﴿أَوْزُرْنِكَ الَّذِي

وَعَدَنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْدِرُونَ﴾ (الزخرف: ٤٢)، في الآية السابقة يمكن ملاحظة شبه الجملة

(عليهم) التي تشير إلى العلو والافتقار والتمكن التام، وكذا قوله تعالى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ (القمر: ٤٢).

٤ - القاهر والقهار:

جاء في كتب اللغة، أن القاهر والقهار، مشتقان من القهر، والقهر: "الغلبة والأخذ من فوق"^(١)

وقاهر وزن فاعل، وقهار وزن فعال، واسم الفاعل يفيد ثبوت الوصف في صاحبه، وصيغة فعال، تدل على من قام بالفعل مرة بعد مرة، وزمنا بعد زمن، وكثر منه حتى صار كأنه حرفة لصاحبه. والقاهر ورد في القرآن الكريم مرتين، وقد ورد مفردا، مكررا في تركيب واحد،

"وهو القاهر فوق عباده" (الأنعام: ١٨). والقاهر يشير إلى ثبوت الوصف لله - سبحانه وتعالى - وتملكه للقدرة المطلقة على قهر المخلوقات، فهو قاهر، قادر على قهر أي مخلوق مهما عظم، لا يعجزه أحد، ولا يجار عليه، قهر يصاحبه علو وتمكن، من أجل ذلك نجد في السياق شبه الجملة (فوق عباده)، التي تشير إلى فوقية المكانة لا المكان.

وأما القهار: فقد ورد في القرآن الكريم، في ستة مواضع، مقترنا في المواضع جميعها (بالواحد)، والقهار يشير إلى وقوع القهر من الله - سبحانه وتعالى، مرة بعد مرة، وفيه إشارة إلى الكثرة، كثرة الذين قهروا، فالله قد قهر الخلائق جميعها بالموت، وقهر الأمم السابقة، ويوم القيامة حين يقهر الله الخلائق فتفنئ جميعها، ولا يتبقى منها أحد، ينادي المولى: لمن الملك اليوم، فلا يجيبه أحد، فيجيب نفسه: الله الواحد القهار. قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (غافر: ١٦).

(١) انظر اللسان: ٢١٠/١٢. مادة قهر.

٥ - الخالق و الخلاق:

الخالق والخالق اسمان للمولى، - سبحانه وتعالى - مشتقان من أصل لغوي واحد، هو الخلق الذي يعني التقدير و الإيجاد على غير مثال سبق، إيجاد من عدم، والخالق اسم فاعل، والخالق فعال من أبنية المبالغة، واسم الفاعل كما أشرنا فيما سبق يفيد ثبوت الوصف في صاحبه، وصيغة فعال تشير إلى تكرار الفعل وقتا بعد وقت، وزمنا بعد آخر،^(١) وعليه يبدو الفرق بين الاسمين واضحا، لا خفاء فيه.

فالخالق ورد في القرآن الكريم، في ستة مواضع، وبدا من سياق الآيات أنه يشير إلى إثبات صفة الخلق لله، وأنه خلق الإنسان ابتداءً، وأنه خالق كل شيء، فالآيات الستة دارت حول هذا المعنى، قال تعالى: ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝ ﴾ (الأنعام: ١٠٢).

وقال أيضا: ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ فَعُتُوا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝ ﴾ (الرعد: ١٦).

والخالق ورد في القرآن الكريم مرتين، ولأن الاسم يشير في بنائه إلى الكثرة، وإعادة الفعل مرة بعد مرة، فقد ورد الاسم في سياقين يشيران إلى هذا المعنى، معنى إعادة بعث الإنسان بعد موته، وإحيائه من جديد، قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۝ ﴾ (الحجر: ٨٦). وقال: ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۝ ﴾ (يس: ٨١).

فالآية الأولى وردت في سياق الحديث عن الساعة، وما يتطلب ذلك من إحياء الموتى، قال تعالى: " وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْصَبْ وَاصْصَبْ الْجَمِيلُ " (الحجر: ٨٥). قال ابن كثير في

(١) انظر: معاني الأبنية في العربية: ١١٧.

تفسير هذه الآية: " وقوله : { إن ربك هو الخالق العليم } تقرير للمعاد، وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة؛ فإنه الخالق الذي لا يعجزه خلق شيء، العليم بما تمزق من الأجساد، وتفرق في سائر أقطار الأرض" (٢)، وفي الآية الثانية، إشارة إلى كثرة خلقه، وإبداعه، حيث خلق السماوات والأرض، وهو قادر على خلق بشرا مثلهم، لأنه هو الذي خلقهم أول مرة.

فالذي يوجد من عدم، وينشئ على غير مثال سبق، يكون خالقا، فالله هو الخالق، والذي يعيد الخلق مرة بعد مرة، ويخلق خلقا من بعد خلق، في تنوع وكثرة، وتميز وتفرّد، يكون خالقا.

قال تعالى: ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظِلْمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآَنِي تُصِرُّونَ ﴾ (الزمر: ٦). فالله هو الخالق، لأن خلقه متنوع، متعدد، لا يحصى كثرة، وهو أيضا في تمام الحسن والكمال، قال تعالى: ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ (السجدة: ٧).

6- الكريم و الأكرم:

الكريم والأكرم، اسمان وردا في القرآن الكريم، وهما مشتقان من أصل لغوي واحد، وهو "كرم"، جاء في لسان العرب، أن: "الكرم نقيض اللؤم، والكريم هو الجامع لأنواع الخير والشرف والفضائل، وهو أيضا اسم جامع لكل ما يحمد، وأكرم الرجل وكرمه: عظمه ونزهه، والكريم أيضا: الصفوح" (١) وللكرم معان كثيرة، "واختلفوا في معنى الكريم على ثلاثين قولاً" (٢)، ومن خلال تتبع المعني المعجمي، للاسمين يمكن أن يحتمل الاسمان كل المعاني السابقة، فهو الكريم والأكرم، لأن عطاياه لا تنقطع، وجوده لا ينفد، وهو جامع لكل معاني الخير، يحمد لذاته، ويحمد لخيراته، وهو - سبحانه - منزّه ومعظم. ولكن البنائين في الاسمين يختلفان، فالكريم بناء للمبالغة فعيل، والأكرم اسم تفضيل على وزن أفعل.

(2) ابن كثير، إسماعيل بن عمر: تفسير القرآن العظيم. ٧٣٤/٢.

(1) انظر لسان العرب: ٥٤/١٣. مادة كرم.

(2) الفيرازوي، مجد الدين محمد بن يعقوب: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق الأستاذ محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت، ٣٤٣/٤. بصيرة في كرم.

والكريم ورد اسما للمولى - سبحانه - في موضعين، قال تعالى: ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌ كَرِيمٌ ﴾ (النمل: ٤٠). وقال أيضا: ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ (الانفطار: ٦).

والكريم بناء يدل على سعة كرم الله، وكثرته، وهو صفة في ذاته، فكرمه مطلق، فحينما يقال الكريم، ينصرف الذهن إلى المولى سبحانه وتعالى. وأما الأكرم فلم يرد في القرآن إلا مرة واحدة، وبناءؤه على اسم التفضيل يشير إلى أن الله أكرم من كل شيء، وهو الذي يستحق هذا الاسم وحده، وغيره لا ينعت به على إطلاقه، لأن أي صفة للكرم في غيره، إنما هي حادثة، عارضة، فالبناء على اسم التفضيل يجعل الذهن يستحضر حالة التمايز بين كرمين، كرم الله القديم الباقي المطلق، وكرم العبد الحادث الفاني المنقوص، وحذف المفضل عليه في الآية يؤكد ما ذهبنا إليه. ومن الجميل أن هذا الاسم ورد في أول سورة نزلت في القرآن الكريم، سورة العلق، وهو بهذا أول وصف للمولى ينتزل على قلب النبي - صلى الله عليه وسلم - وفي ذلك إشارة إلى أنه سبحانه يتفرد بكل صفات العظمة والشرف والعطاء، التي تجعل الخلق يلهجون له بالحمد والثناء.

٦ - الشاكر و الشكور:

أصلهما اللغوي واحد هو الشكر، والشكر في اللغة: "تصور النعمة وإظهارها، وإذا وصف الله بالشكر، فإنما يعنى به إنعامه على عباده، وجزاؤه بما أقاموا من العبادة"^(١). والشاكر ورد في القرآن الكريم مرتين، وهو اسم فاعل يدل على ثبوت الوصف في صاحبه ابتداءً، فالله سبحانه وتعالى - تنسب إليه صفة الشكر المطلق، فهذا وصف ذات، فهو شاكر قبل أن يخلق الخلق، وشاكر بعد أن خلقهم، وشاكر حتى لو لم يوجد من يشكره، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّافَّاتِ وَالْمُرُوَّةِ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَبَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ١٥٨). وقال: ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنِ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ (النساء: ١٤٧).

وفي الآيتين تشير دلالة البناء في الاسم إلى أن هذا الإله صفته أنه شاكر. فهو إذن بناء يشير إلى ثبوت الوصف لله. وأما شكور، فقد ورد في القرآن الكريم في أربعة

(1) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ٢٩٨. مادة شكر.

مواضع، وشكور: فعول، بناء للمبالغة، قال علماء اللغة إن بناء فعول يشير إلى: " من دام منه الفعل " (٢). ويتضح من السياق الذي ورد فيه الاسم، أن هذا الاسم صفة فعل، فانه شاكر في ذاته، شكور في أفعاله، والشكر في حق الله يكون، بإثابته عباده الكثير الكثير على العمل القليل اليسير، والشكر في حقه: الثناء على عباده. " فهو أولى بصفة الشكر من كل شكور، بل هو الشكور على الحقيقة، فإنه يعطى العبد ويوفقه لما يشكره عليه، ويشكر القليل من العمل والعتاء، ويشكر الحسنة بعشرة أمثالها إلى أضعاف مضاعفة، ويشكر عبده بأن يثني عليه بين ملائكته، وفي ملئه الأعلى، ويلقى له الشكر بين عباده، ويشكره بفعله. فإذا ترك له شيئاً أعطاه أفضل منه، وإذا بذل له شيئاً رده عليه أضعافاً مضاعفة." (٣).

ومما يستأنس به فيما ذهبنا إليه، قوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (سبأ: ١٣). فلم يقل المولى: وقليل من عبادي الشاكر، ذاك لأن الشكر قد يقع من العباد، ولكن قلة منهم الذي يديم الشكر، ويستمر عليه.

٧ - الرحمن، الرحيم، ذو الرحمة:

الأصل اللغوي للأسماء السابقة واحد، وهو مادة (رحم)، التي تشير في أصل وضعها اللغوي إلى الرقة والتعطف، " والرحمة في بني آدم عند العرب: رقة القلب وعطفه. ورحمة الله: عطفه وإحسانه ورزقه " (١)، والرحمن الرحيم، اسمان رقيقان، أحدهما أرق من الآخر، كما يرى ابن عباس (٢)، أي أن أحد الاسمين أكثر دلالة على الرقة من الآخر، بسبب اختلاف البنائين، فواحد على فعلا، والآخر على فعيل. جاء في كتب اللغة أن صيغة فعلا تدل على الامتلاء (٣)، كغضبان، أي الممتلئ غضبا، وشبعان للممتلئ شبعاً، قال تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَطَفَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾ (طه: ٨٦). أي رجع موسى إلى قومه ممتلئاً غضباً. ومن دلالات هذا البناء أيضاً، كما يرى د: فاضل السامرائي، الحدوث " وهذا من أبرز ما يميز صيغة فعلا عن فعيل، وهو أمر يفيدنا في تفسير الرحمن الرحيم، فإن صيغة (فعلا) تفيد الحدوث والتجدد، وصيغة (فعيل)، تفيد الثبوت، فجمع الله سبحانه لذاته الوصفين " (٤).

(2) معاني الأنبياء في العربية: ١١٤.

(3) الزرعي، محمد بن أبي بكر: عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، تح: زكريا علي يوسف، دار الكتب العلمية - بيروت: ٢٤٠.

(1) اللسان: ١٢٥/٦. مادة رحم.

(2) انظر السابق: ١٢٤/٦.

(3) انظر معاني الأنبياء في العربية: ٨٨.

(4) معاني الأنبياء في العربية: ٩٢.

ولكنني أرى أن (فعلان) لم يكتسب المبالغة، بسبب دلالاته على الامتلاء، ولا بسبب دلالاته على الحدوث، إذ إنه لا يصح في حق الله سبحانه وتعالى، أن يقال بحدوث صفاته، ولا بالامتلاء، فصفات الله ليست حادثة طارئة، تأتي وتزول، كما تشير دلالة (فعلان)، كقولك لشخص أنت ضعيف، أو أنت جوعان، فليس الأمر كذلك في حق المولى، ولا يصح فيما أرى القول بالامتلاء، كما تشير دلالة (فعلان)، كأن نقول أن الله سبحانه وتعالى ممتلئ رحمة. ولئن صحت هذه الدلالات في وصف البشر، فإنها لا تصح في وصف الله. والرحمن والرحيم، بناءان للمبالغة، لكن أحدهما أدل على المبالغة من الآخر، والمبالغة فيهما تأتي لعدولهما، جاء في (الفروق اللغوية): "أن الرحيم مبالغة لعدوله، وأن الرحمن أشد مبالغة لأنه أشد عدولا، وإذا كان العدول على المبالغة، فكلما كان أشد عدولا كان أشد مبالغة" (٥).

فالرحمن أشد مبالغة من الرحيم، لأنه أكثر عدولا عن الفعل رحم، فهو مزيد بحرفين، ورحيم مزيد بحرف واحد.

جاء في تفسير الإمام النسفي: "وفي الرحمن من المبالغة ما ليس في الرحيم لأن في الرحيم زيادة واحدة وفي الرحمن زيادتين، وزيادة اللفظ تدل على زيادة المعنى" (١)، وكذا في الكشف للزمخشري: "وفي الرحمن من المبالغة ما ليس في الرحيم ولذلك يقولون: إن الزيادة في البناء لزيادة المعنى ومما طن على أذني من ملح العرب أنهم يسمون مركبا من مراكبهم بالشقذف. وهو مركب خفيف ليس في ثقل معامل العراق فقلت في طريق الطائف لرجل منهم ما اسم هذا المحمل أردت المحمل العراقي فقال: ليس ذاك اسمه الشقذف. قلت: بلى فقال: هذا اسمه الشقذاف فزاد في بناء الاسم لزيادة المسمى" (٢).

بيد أن وجه آخر للمبالغة ينبعث من زيادة الألف والنون في الرحمن، وهو أن "الرحمن من أبنية المبالغة كغضبان ونحوه وإنما دخله معنى المبالغة من حيث كان في آخره ألف ونون كالتثنية فإن التثنية في الحقيقة تضعيف وكذلك هذه الصفة" (٣). ولكن ابن القيم في شرحه اسم الرحمن في تفسيره القيم، يشير إلى دلالة البناء، وما فيه من سعة وثبوت

(٥) الفروق اللغوية: ٢٢١.

(١) النسفي، تفسير النسفي: ٦/١.

(٢) الكشف: ٥/١.

(٣) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي: بدائع الفوائد، تحقيق هشام عبد العزيز عطا، عادل عبد الحميد العدوي، أشرف أحمد ألج، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤١٦-١٩٩٦م، ٢٧/١.

المعنى كاملا للموصوف.يقول: " فبناء فعلا للسمو،ولهذا يقرن استواءه على العرش بهذا الاسم كثيرا،كقوله تعالى:"الرحمن على العرش استوى" (طه:٥).فاستوى على عرشه باسم الرحمن،لأن العرش محيط بال مخلوقات قد وسعها...فالرحمة محيطـة بالخلق واسعة لهم" (٤).

والرحمن اسم لا يطلق إلا على الله سبحانه وتعالى،فيما يطلق اسم الرحيم وصفا للبشر،قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة:١٢٨).

فقد وصف المولى رسوله بأنه(رحيم).مما سبق يمكن رصد الفرق الدلالي بين الاسمين: أن الرحمن،أكثر مبالغة في الرحمة من الرحيم، ولعل الزيادة في (الرحمن) تؤذن بالأنس والقرب، قرب الرحمة، كأن رحمة الله باستشعار هذا الاسم متدفقة،تتري لا تنقطع، ولعل ذلك مبعث السر في أن هذا الاسم ورد كثيرا في القرآن الكريم،وفي سياقات مختلفة متنوعة،يمكن أن يكون معادلا للفظ الجلالة، قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوهَا وَاتَّبِعْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء:١١٠).وأن الرحمن يكاد يكون وصف ذات للمولى سبحانه،فهو رحمن في ذاته،يتصف بالرحمة المطلقة،الكاملة،والرحيم وصف فعل للمولى،أي فعله الرحمة بعباده،يرحم عباده.جاء في (بصائر ذوي التمييز): " الرحمن :الذي الرحمة وصفه،والرحيم: الراحم لعباده،ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ (الأحزاب:٤٣).

﴿إِنَّهُمْ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة:١١٧).ولم يجيء رحمان بعباده،ولا رحمان بالمؤمنين" (١). ولست مع من يرى أن الرحيم اسم يشير إلى رحمة خاصة،ذاك لأن هذا البناء،يدل على كثرة وقوع فعل الرحمة من المولى، فهو رحيم لأنه كثير الرحمة لعباده،وليست الآية التي تشير إلى رحمته بالمؤمنين،كافية لحصر دلالة هذا الاسم، وجعله خاصا بالمؤمنين،قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ (الأحزاب:٤٣).فقد ورد (الرحيم) أيضا في سياقات كثيرة،مع المؤمنين وغيرهم،قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا

(4)بصائر ذوي التمييز: ٥٤/٣.

(1)بصائر ذوي التمييز: ٥٤/٣.

تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿ (الزمر: ٥٣). فالآية عامة لعباد الله جميعا. وأما ذو الرحمة، فإن له شأنًا خاصا، يحتاج إلى تأمل عميق، فقد ورد هذا الاسم في موضعين، قال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَاءُ يُدْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَتَّخَذَ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾ (الأنعام: ١٣٣). وقال: ﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْثِقًا ﴾ (الكهف: ٥٨).

وورد مرة واحدة بصيغة النكرة (ذو رحمة). قال تعالى: ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (الأنعام: ١٤٧). ومن اليسير أن ندرك أن هذا الاسم ورد في سياقات متقاربة، كأنها سياق واحد، مما يشير إلى أن دلالاته في السياقات دلالة موحدة، فقد ورد في محاوراة المولى للبشر، بخاصة أولئك المكذبون، المذنبون الذين لم يستجيبوا للرسول، وكان (ذو الرحمة) يشير إلى أن المولى يمهلهم، ولا يعجل لهم العقوبة، فهو لو شاء لذهب بهم في الآية الأولى، ولو شاء لعجل لهم العذاب في الآية الثانية، ولو شاء لجاءهم بأسه سريعا في الآية الثالثة، ومن اليسير أن نلاحظ أن الآيات الثلاثة اشتملت على أسلوب الشرط: (إن يشأ - لو يؤاخذهم - فإن كذبوك). لنذكر أن (ذو الرحمة) هو السبب في عدم استبدالهم، ومنع تعجيل العذاب لهم. ولكن هذا الاسم مكون من مقطعين: (ذو - الرحمة)، وذو في اللغة، تأتي على وجوه منها:

أنها من الأسماء الخمسة بمعنى صاحب، مثل: "فلان ذو مال"، وتأتي بمعنى وقت، مثل: "أتيتُه ذا صباح" أي وقت الصباح. وتأتي اسما موصولا مثل: "وبئري ذو حفرت" ^(٢)، ولكن ما يعيننا هنا مجيئها بمعنى صاحب، وهي حين تأتي على هذا النحو فإنها تشير إلى التملك، والتلازم بين الوصف وصاحبه، فحين قولنا: "فلان ذو مال"، فهذا يدل على أنه يملك قدرا من المال، وكذا حين قولنا: "فلان ذو خلق"، أي أن نسبة صفة الخلق إليه دائمة، لا تزول عنه، "ومن ذلك مجيئه في الدلالة على صفات الله عز وجل"، ذو الفضل العظيم، "ذو العرش"، "ذو القوة المتين"، ذو الجلال والإكرام، وعليه بنى المفسرون رأيهم في تفسير قوله تعالى:

﴿ أَتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا ﴾ (الإسراء: ٢٦). فقالوا: قال "ذا قربي" للدلالة على أن هذا حق ثابت غير متجدد، وقال "المسكين" ولم يقل "ذا مسكنة"، لأن

(2) الترادف والتشابه في النظم القرآني: ١٤٩.

المسكنة ليست ثابتة وتتغير وتتجدد^(١)، وحين نتناول لفظ "الرحمة"، وهي المقطع الثاني من الاسم، نجد أنها جاءت في القرآن الكريم على وجوه كثيرة، بلغت أربعة عشر وجهاً، كما يرى الإمام الدامغاني - رحمه الله - منها "الإسلام - الجنة - النبوة - النعمة - القرآن - الرزق - النصر - العافية - المودة - الإيمان - التوفيق - عيسى عليه السلام - محمد صلى الله عليه وسلم - الغيث"^(٢)، وما نبغيه هنا معنى الرحمة التي قدمنا آنفاً، وهي الإحسان والعطف، وهي بهذا تشمل بعضاً من الوجوه التي أوردها الإمام الدامغاني رحمه الله - . ومما ينبهنا إليه الإمام الألوسي رحمه الله - أن أَل التعريف في لفظ الرحمة يدل على الرحمة الكاملة، أو الرحمة المعهودة التي وسعت كل شيء، وأن (ذو) دلالتها على الاتصاف أبلغ من دلالة المشتقات، يقول: "إن (ذو الرحمة) لا يخلو عن المبالغة : إن ذلك إما لاقتران الرحمة بأل، فتفيد الرحمة الكاملة، أو الرحمة المعهودة التي وسعت كل شيء، وأما (ذو) فإن دلالته على الاتصاف في مثل هذا التركيب فوق دلالة المشتقات عليه، ولا يكاد يدل سبحانه على اتصافه - تعالى - بصفة بهذه الدلالة إلا وتلك الصفة مراده على الوجه الأبلغ، وإلا فما الفائدة في العدول عن المشتق الأخصر الدال على أصل الاتصاف كالراحم مثلاً إلى ذلك.

ولا يعكر على هذا أن المبالغة لو كانت مراده فلم عدل عن الأخصر أيضاً المفيد لها كالرحيم أو الرحمن إلى ما ذكر لجواز أن يقال : إنه أريد أن لا تقيد الرحمة المبالغ فيها لكونها في الدنيا أو في الآخرة، وهذان الاسمان يفيدان التقييد على المشهور، ولذا عدل عنهما إلى (ذو الرحمة) وإذا قلت هما مثله في عدم التقييد، قيل: إن دلالاته على المبالغة أقوى من دلالتهما عليها، بأن يدعى أن تلك الدلالة بواسطة أمرين لا يعدلها في قوة الدلالة ما يتوسط في دلالة الاسمين الجليلين عليها، وعلى هذا يكون (ذو الرحمة) أبلغ من كل واحد من (الرحمن والرحيم) وإن كانا معا أبلغ منه^(١).

نخلص مما سبق أن (الرحمن) هو المتصف بالرحمة في ذاته ابتداءً، ورحمته متجددة، فهو سبحانه كان قبل أن يكون شيء، ورحمته كائنة قبل أن يخلق المولى من يرحم، فالرحمن

(١) الترادف والتشابه في النظم القرآني: ١٤٩.

(٢) الدامغاني، الحسين بن محمد : الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان الطبعة الأولى، ٢٠٠٣ - ١٤٢٤ هـ، ٢٢٤.

(١) الألوسي، محمود أبو الفضل: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٥/٣٠٥.

يكاد يكون وصف ذات للمولى، وأن (الرحيم) الذي فعله الرحمة، يرحم الخلق، في الدنيا وفي الآخرة، ولأن رحمته لا تنقطع، وتتدفق على الخلق كلهم، كانت صيغة فعيل. و(ذو الرحمة) هو صاحبها ومالكها، يمنح جزءا منها من يشاء من عبادته، فيترحمون بينهم، من أجل ذلك إذا أراد العبد أن يسأل الله أن يرحمه، فيسأله بالرحيم، ولكن - فيما أرى - إذا أراد أن يسأله أن يمنحه رحمة لقلبه، ليرحم بها الآخرين، فإنه يسأل (ذو الرحمة).

وفي الحديث الشريف: " جعل الله الرحمة في مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا، وأنزل في الأرض جزءا واحدا، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق، حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه " ^(٢) ولعل مما يؤنس به فيما ذهبنا إليه، قول النبي - صلى الله عليه وسلم: " الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم من في السماء " ^(٣)

فالراحمون من البشر، وهم الذين انطوت قلوبهم على رحمة يرحمون بها غيرهم، إنما يرحمهم الرحمن، الذي الرحمة صفة له في ذاته.

٨- العلى ، الأعلى ، المتعالى:

(2) الجامع الصحيح المختصر: ٢٢٣٦/٥.

(3) السجستاني، سليمان بن الأشعث: سنن أبي داود، تح، محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر: ٧٠٣/٢.

جاء في كتب اللغة أن الأسماء الثلاثة السابقة مشتقة من أصل لغوي واحد، هو الفعل (علا)، " وعلو كل شيء أرفعه، وعلا فلان الجبل إذا رقيه، يعلوه علواً، والعلاء الرفعة، وعلا النهار واعتلى واستعلى: ارتفع"^(١).

ولقد دارت بسبب هذه الأسماء مساجلة بين العلماء، فيما يتعلق بمعنى العلو، هل هو علو الذات؟ أم علو المكانة والمنزلة؟ وانقسموا بسبب من ذلك، ولست هنا بصدد التعرض للقضية من جانبها العقدي، لأن الأمر حينئذ يطول، وهو مما لا يندرج في مبحثنا هذا، وإنما ينشد في كتب العقيدة. وإنما أكتفي بالإشارة إلى الفروق الدلالية.

ولقد حاول بعض العلماء التفريق بين الأسماء الثلاثة السابقة، فقالوا: " أن اسم الله العلي دل على علو الذات، واسمه الأعلى دل على علو الشأن، واسمه المتعال دل على علو القهر"^(٢).

والحقيقة أن لا دليل لغوي يمكن أن يشير إلى هذا التفريق، ولا أن بناء كل اسم يمكن أن يوحي بهذا المعنى، وإنما الذين فرقوا بين هذه الأسماء على هذا النحو، لم يستندوا إلى كتب اللغة في تفريقهم، فالمادة اللغوية (علا) تحتل رفعة المكان والمكانة كما بينت كتب اللغة، وحينما فرق اللغويون بين الأسماء لم يشيروا إلى هذا المعنى.

جاء في (اللسان) في التفريق بين الأسماء السابقة: " أن العلي الشريف فعيل من علا يعلو، وهو الذي ليس فوقه شيء، ويقال: هو الذي علا الخلق فقهرهم بقدرته، وأما المتعالي: فهو الذي جل عن إفك المفترين، وتنزه عن وساوس المتحيرين. والأعلى: هو الله الذي هو أعلى من كل عال، واسمه الأعلى أي صفته أعلى الصفات"^(٣)، بقي إذن أن نرصد كل اسم في دلالة بنائه وسياقه.

فأما (العلي) فهو على فعيل، صفة مشبهة، بمعنى (عالي)، والصفة المشبهة كما بينت سابقاً تدل على ثبوت الوصف في صاحبه، فهي هنا تشير إلى نسبة وصف العلو للمولى - سبحانه وتعالى - مع ثبات هذا الوصف. وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم في ثمانية مواضع، تدور أكثرها في سياق ينفي فيه المولى ما يمكن أن يحط من صفته الحسنى (العلي)، ويثبت لنفسه ما حسن من صفات جليلة عظيمة تلحق بذاته العلية.

(1) اللسان: ٢٦٨/١٠. مادة (علا).

(2) الرضواني، محمود عبد الرزاق: أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب و السنة، مكتبة دار الرضوان، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٥ - ٢٠٠٤.

(3) اللسان: ٢٦٩/١٠.]

قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

فهو سبحانه لا تأخذه سنة ولا نوم، ولا أحد يملك أن يشفع عنده إلا بإذنه، ولا أحد يحيط من علمه إلا بما يشاء الله له، لأنه علي عن كل هذه الأشياء، علي عن أن ينام، أو حتى أن تأخذه سنة. والآيات الأخرى تشير على هذا النحو. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ ﴾ (الشورى: ٥١).

هنا (علي) يدفع ما يمكن أن يتوهم من أن الله - سبحانه وتعالى - يمكن أن يكلم البشر هكذا مباشرة دون وحي أو حجاب. وكذا في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (البقرة: ٣٠). فالله سبحانه علي عن الذي يدعونه من باطل.

فالمواضع الثمانية التي ورد فيها اسمه (العلي)، حين تتبعت سياقها لم أر أنها تشير إلى علو المكان، وإنما أشارت بوضوح إلى علو المنزلة والمكانة، علوه عن أن يحيط به وصف، أو أن يدركه حس. ومما يؤنسنا فيما ذهبنا إليه، قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ (مريم: ٥٧). وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ (مريم: ٥٠).

حيث (علي) في الآيتين ليس اسما من أسمائه الحسنی، وإنما نعت، مرة أريد به المنزلة، وأخرى أريد به المكان، فلما أريد به المكان ذكر معه (مكانا)، فلم يقل المولى سبحانه وتعالى - ورفعناه عليا، إذن لفهم عندها المنزلة، فكأن (علي) حين يطلق هكذا، يراد بها علو المنزلة والمكانة، وحين يراد به المكان، فإن السياق يشتمل على ما يشير إلى ذلك. وفي المواضع الثمانية التي ورد فيها (العلي) لا يوجد ما يشير إلى المكان. وهو الذي عليه جمهور المفسرين.

وأما (الأعلى) فجاء على بناء اسم التفضيل، الذي يشير إلى المفاضلة، ولعل حذف المفضل عليه، وإطلاق اسم التفضيل هكذا، يشير إلى معنيين: العلو المطلق للمولى فهو أعلى من كل عال، وإثبات النقص لكل ما عداه، كأن تقول: محمد أكرم من محمود،

فقد نسبت الكرم إلى المفضل والمفضل عليه، ولكن البناء يشير أيضا إلى إثبات الكرم إلى محمد، ونقصه عند محمود، واسم (الأعلى) ورد في القرآن الكريم في موضعين.

قال تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (الأعلى: ١)

وقال أيضا: ﴿إِلَّا اتَّعَا وَجْهَ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ (الليل: ٢٠).

ومن اليسير ملاحظة أن (الأعلى) تستخدم مع (الرب) فالآية الأولى (ربك الأعلى)، والثانية (ربه الأعلى). لأن المشركين يزعمون أن لهم أربابا يدعونها، قال تعالى: ﴿يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (يوسف: ٣٩).

فحين يرد اسم رب، يناسبه اسم التفضيل (الأعلى)، ليشير إلى أن ربنا أعلى من أربابهم، فالله علي، وربنا أعلى، وهناك آيات كثيرة ترجح ما ذهبنا إليه.

قل تعالى: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (العلق: ٣)، وقال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ (يونس: ٤٠) وقال: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا﴾ (الإسراء: ٥٥).

حيث نلاحظ في الآيات السابقة، أن أسمى التفضيل (أكرم، أعلم) وردا ليناسب (ورك) في الآيات. فالله عليم، والله كريم، لكن ربك أعلم، وربك أكرم وهكذا.

وأما (المتعالي) "فهو الذي جل عن إفك المفترين، وتنزه عن وساوس المتحيرين" (١)، وجل علماء التفسير على أن المتعالي، هو الله الذي تنزه عن نعوت المخلوقات، وتنزه عما يقوله المشركون (٢)، والفعل (تعالى) أكثر بلاغة من (علا) لأن زيادة المبنى زيادة في المعنى.

ولكنني ألمح شيئا آخر في بناء هذا الفعل، هو أن صيغة تفاعل فيها إحياء بالمشاركة، كما جاء في (الشافعية):

و اشترك الأمران في تفاعلا ... مصرحا كقولنا تبادلا (٣) ولكن هنا لا نعني المشاركة في الفعل، كما في تبادلا، أو تناصحا، وإنما نعني المشاركة - أي طرفين - مع اختلاف الوظيفة، فالمشركون يصفون الله بنعوت باطلة من عند أنفسهم، وهو متعال عن

(١) اللسان: ٢٦٨/١٠ مادة (علا).

(٢) انظر تفسير القرطبي، وفتح القدير للشوكاني، وتفسير أبي السعود، والوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحدي. في تفسير الآية التاسعة من سورة الرعد.

(٣) الشافعية: ٢٢/١.

وصفهم، فكل وصف يمكن أن تصل إليه أذهانهم، وكل زعم تتجه إليه أهواؤهم، إنما يتعالى الله عنه، فهو المتعالي عن أوصافهم مهما عظمت، وزعمهم مهما كبر. فاسمه المتعالي يستحضر للذهن تعاليه عن أوصافهم وشركهم.

و(المتعال) لم يرد إلا مرة واحدة في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ (الرعد: ٩). ولكن الفعل (تعالى) ورد في القرآن الكريم في أكثر من موضع قال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (النحل: ٣). وقال: ﴿أَمْ نَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَيْلٍ وَأَبْحَرٍ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَيْسَ اللَّهُ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (النمل: ٦٣).

نخلص مما سبق أن الله علي في صفاته ومكانته، أعلى من كل الأرباب التي يتخذها المشركون، متعال أن يحيط به وصف الواصفين، بل علم العالمين.

٩- الواحد الأحد:

اسمان جليان مشتقان من مادة لغوية واحدة (وحد)، " تقول ما جاعني أحد، والهمزة بدل من الواو وأصله وحد، لأنه من الوحدة ^(١). وهناك من العلماء من يرى أن الأحد بمعنى الواحد، ولا فرق بينهما. جاء في تفسير سورة الإخلاص: " فإن قلت كيف ذكر (أحد) في الإثبات، مع أن المشهور أنه يستعمل بعد النفي، كما أن الواحد لا يستعمل إلا بعد الإثبات. يقال: في الدار واحد، وما في الدار أحد؟ قلت: قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: لا فرق بينهما في المعنى. واختاره أبو عبيدة، ويجوز أن يكون العدول عن المشهور هنا رعاية للفاصلة ^(٢). وليس الأمر كذلك فيما نحسب، فليست الفاصلة سببا وحيدا في العدول، وإنما ثمة أسباب أخرى هي جوهر الفرق بين الاسمين.

(الواحد) ورد في القرآن الكريم في ستة مواضع، جاء مقترنا فيها مع (القهار)، و(الواحد) "هو الفرد الذي لم يزل وحده ولم يكن معه آخر" ^(٣) وهو اسم فاعل، لم يزل واحدا قبل الخلق وبعده، ليس معه شريك ولا صاحبة، ولا ولد، واحد في ذاته، واحد في صفاته.

(١) اللسان: ٦٢/١. مادة أحد.

(٢) الأنصاري، زكريا بن محمد بن أحمد: فتح الرحمن شرح ما يلتبس من القرآن، تعليق الدكتور يحيى مراد دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م - ١٤٢٤هـ، ٣٥٥.

(٣) النهاية في غريب الأثر: ٣٤٥/٥.

قال تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة: ٣١). وقال: ﴿ يَا صَاحِبِي السَّجْنِ الْأَرْبَابُ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (يوسف: ٣٩). (فالواحد) يثبت الوجدانية للمولى، وينفي معه الشرك، من أجل ذلك نرى أن (الواحد) يأتي في سياقات مختلفة، تتحدث عن الشرك، وكيف أنهم أشركوا مع الله آلهة، واتخذوا مع المولى أربابا. وما ينبغي لهم ذلك، لأنه واحد متفرد بذاته وصفاته. وأما (أحد) فإنه يرد في الإثبات والنفي، وبابه أن يرد مع النفي والاستفهام والعرض وغيره.

تقول: ما جاعني أحد، هل رأيت أحدا؟ وهكذا ...
قال تعالى: ﴿ وَلَوْ طَآءَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (الأعراف: ٨٠). هو لم يرد اسما للمولى إلا في موضع واحد في سورة الإخلاص.
جاء في كتب اللغة " أن (أحد) يستعمل على ضربين، أحدهما في النفي فقط، والثاني في الإثبات، فأما المختص بالنفي فلا تستغرق جنس الناطقين، ويتناول القليل والكثير، على طريق الاجتماع والافتراق، نحو: ما في الدار أحد أي واحد، ولا اثنان فصاعدا، لا مجتمعين ولا مفترقين^(١).

وهناك فرق بين الاسمين " أن واحدا يقع على كل مفرد كان، مما يتصف بالعقل والعلم أو لا يتصف، تقول: رجل واحد وجمل واحد، وهذا خلاف حكم (أحد) فإنه لا يقع إلا لأولي العلم والعقل من الملائكة والأنس والجن، وفرق ثان، وهو أنك تقول: ما جاعني رجل واحد فيحتمل ذلك ثلاثة معان: أحدها أنك تريد ما جاعني رجل واحد بل جاعني أكثر، والثاني أن تريد ما جاء رجل عناء وقوة بل جاء الضعفاء، والثالث أن تريد النفي العام، أي ما جاعني رجل واحد ولا أكثر ولا قوي ولا ضعيف، فإن قلت ما جاعني أحد لم يحتمل غير معنى واحد وهو النفي العام، وهذا أوضح فارق بين لفظ (واحد) و(أحد)^(٢).

وهناك من الأئمة من يرى أن الواحد المنفرد بالذات، والأحد هو المنفرد بالمعنى^(٣).
وخلاصة القول في ذلك، أن (أحد) إنما يراد به الوحدة عن النظير والمثيل، أي أن المولى - سبحانه وتعالى - ليس له شبيه ولا نظير، وليس كمثلته شيء. من أجل ذلك لم تستخدم (أحد)

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ١٨.

(٢) ملاك التأويل: ١١٥٨/٢.

(٣) السابق نفسه: ١١٥٩/٢.

في الإثبات إلا في حق المولى، في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (الإخلاص: ١)، ولا يصح استخدامها في حق البشر. ولابن الزبير كلام جميل في هذا السياق يقول:

" فإذا تقرر أن حكم أحد من مقتضى الوحدة، تبين أنه لا يتصور و لا يصح بمعناه في واجب حيث يراد المخلوق المحدث، لأن كلا من المخلوقات له النظير والمثيل، فلم يصح وقوع لفظ (أحد) في كلام موجب لمخلوق، وصح ورود ذلك في حق الخالق جل جلاله، لانفراده بالوحدانية، وتنزيهه عن النظير والمثيل، فلو قلت: أتاني أحد، فإنك فيه تتكلم بما لا يصح معنى ولا يعقل، إذ ليس في المخلوقات من لا مثيل له " (٤).

١٠ - الولي، الوالي، المولى:

١. الولي فعيل بناء للمبالغة من (ولي)، وهو الناصر، الذي يتولى نصرة عباده، ويقوم على رعايتهم، وحين نستعرض (الولي) في القرآن الكريم نجد أنه يأتي في سياق المحبة والنصرة، والتأييد والهداية. فهو ولي المؤمنين، وهو ولي المتقين، وهو ولي الذين آمنوا، ولك أن تنتظر في سياق هذه الآيات. قال تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (الشورى: ٢٨).

وقال: ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (الجاثية: ١٩).

وقال: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاءُ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: ٢٥٧).

فهي إذن ولاية النصرة والتأييد، والمحبة والهداية، ويكاد النص القرآني لا يخرج عن هذا المضمار. ولما كان الاسم على زنة المبالغة، كان المعنى أنه كثير النصرة دائماً. ولي المؤمنين فرادى، ووليهم مجتمعين.

قال الإمام أبو حامد الغزالي: " الولي هو المحب الناصر ومعنى نصرته ظاهر فإنه يجمع أعداء الدين وينصر أوليائه " (١)

و(الولي) تكون للناصر المعين، وللمنصور المعان، فهو اسم يجري على معنى اسم الفاعل، واسم المفعول. " تقول: الله ولي المؤمنين، أي معينهم، والمؤمن ولي الله، أي المعان بنصر الله، ويقال المؤمن ولي الله والمراد أنه ناصر لأوليائه ودينه " (٢)

وأما الوالي فهو اسم فاعل من الفعل ولي، وهو بناء يدل على ثبوت وصف الولاية العامة المطلقة لله - عز وجل - ونقصد هنا بالولاية، تدبير أمور الخلق، وبالعامة أي تعم الخلق جميعهم: إنسهم وجنهم، مؤمنهم وكافرهم.

أي أن الله - سبحانه وتعالى - يلي أمرهم، ويدبر لهم شؤونهم، وهو اسم لم يرد في القرآن الكريم، والآية التي ورد فيها (وال) في قوله : ﴿لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ (الرعد: ١١)

- لا يقصد بها اسم الله، ولكن يقصد بها الملجأ والناصر، الذي يلي أمرهم، كما جاء في كتب التفسير، وهو ما نميل إليه ونستحسنه. (١)

ولعل (الوالي) يتضح أكثر في شرح الإمام القرطبي له: " الوالي هو الذي دبر أمور الخلق ووليها، أي تولاها، وكان مليا بولايتها. وكأن الولاية تشعر بالتدبير والقدرة والفعل، وما لم يجتمع جميع ذلك فيه لم ينطلق اسم الوالي عليه، ولا والي للأمور إلا

(1) المقصد الأسنى: ١/١٢٦.

(2) الفروق اللغوية: ٣١٨.

(1) انظر: القرطبي: ٢٤٩/٩. البغوي: ٢٩٩/١. تفسير أبو السعود: ٩/٥.

الله - سبحانه وتعالى - فإنه المتفرد بتدبيرها أولاً، والمنفذ للتدبير بالتحقيق ثانياً، والقائم عليها بالإدامة والإبقاء ثالثاً^(٢)

فكأن الفرق الدقيق بين الاسمين، أن (الولي) يتعلق بالمحبة والنصرة والإعانة، يتضح ذلك في هدايته للمؤمنين، ولذا تجد أن (الولي) يرد في ذات السياق. و(الوالي) له علاقة بتدبير الأمور، وتصريفها، والقدرة عليها للخلق جميعهم. ولذا يمكن القول: أن الله ولي المؤمن، ووالي الخلق، كأن (الولي) تتفرد عن (الوالي) بمزيد اختصاص، مثلما (الوالي) تميزها بمزيد عموم وشمول.

وأما (المولى) فمصدر على وزن مفعّل، فعله ولي، وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع اسماً لله - سبحانه وتعالى - وهي :

١ - ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا فاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ (الأنفال: ٤٠).

٢ - ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ (الحج: ٧٨).

٣ - ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴾ (محمد: ١١).

ففي الآية الأولى، إن تولوا عنكم وأبوا إلا قتالكم فهو نعم المولى، الذي يدفع عنكم شرهم، وكذا في الآية الثانية، جاهدوا واعتصموا، والله هو الذي سيدفع عنكم كل مكروه، ويريد لكم أعداؤكم. وأما الآية الثالثة فهي أكثر وضوحاً في الإشارة إلى هذا المعنى، فالله مولى الذين آمنوا، يدفع عنهم كل

مكروه ويدافع عنهم، ويستجيب لهم عند الحاجة، ويمدهم بالعون، وليس للكافرين مولى يصنع لهم ذلك، ويدفع عنهم المهالك، فإذا أراد الله بالكافرين أمراً، فليس للكافرين مولى يدفع عنهم قدر الله، ولكن المؤمنين حين ينالهم مكروه، يفرعون إلى مولاهم.

وحين نطمئن إلى هذا المعنى، نجد أنه من اليسير أن ندرك سر اقتران المولى بالنصير في السياق. فالمولى يدفع عنهم المكروه، والنصير يمكنهم من الظهور على هذا المكروه فينصرهم عليه، كأن (المولى) لدفع الشدة وإزالة المكروه، و(النصير) لتمكين المؤمنين من الظهور على شدتهم، فيجلب لهم المنفعة والنصرة، وفي كل الأحوال يكون في دفع المكروه نصرة.

(2) المقصد الأسنى: ١/١٤١.

ولنتأمل هذه الآيات فيتضح المقال بها أكثر، ونكشف فيها عن إعجاز جميل، يساند ما ذهبنا إليه من معنى.

١. ﴿وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (الحج: ١١).

٢. ﴿يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نُنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ (الحج: ١٢).

٣. ﴿يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبَسَ الْمُوَلَّى وَكَبَسَ الْعَشِيرُ﴾ (الحج: ١٣).

فالآية الأولى تشير إلى أولئك الذين يعبدون الله على حرف، وحينما تصيبهم الفتنة، ينقلبوا على وجوههم، يعبدون أصنامهم، التي لا تضرهم، ولا تنفعهم بدفع المهالك عنهم، والدعاء هنا معناه العبادة، إنهم بعبادتهم يطلبون النصر حينما يصابون بالفتنة، و(يدعو) في لغة العرب تجيء على هذا المعنى. وتجيء على معنى السؤال.

ولكن اللافت حقا هو ترتيب الآية الثالثة، فلما قدم (ضره) على (نفعه)، ناسب أن يقدم (المولى) على (العشير)، لأن المولى يكون لدفع الضر، والعشير يكون لجلب المنعة، فكأنه حينما تصيبه فتنة وينقلب على وجهه، يتجه إلى صنمه فيدعوه، فلبس المولى الذي يستصرخه فلا يجلب له إلا الضر، وبئس العشير الذي تتعدم منفعته. ومراعاة الترتيب هذا يسمى (مراعاة النظير)، وهو فن من فنون البلاغة العربية، لا يتسع المجال هنا للتزيد منه، لأننا سنعرض له فيما يجد من فصول.

١١ - المالك، الملك، المليك:

يبدو التمايز واضحا من النظرة الأولى بين (المالك) و(الملك)، ذاك أن (المالك) تستدعي حالة التملك، "كل من يملك فهو مالك لأنه بتأويل الفعل، مالك الدراهم، ومالك الثوب، ومالك يوم الدين يملك إقامة يوم الدين" ^(١)

(١) لسان العرب: ١٠/٤٩١.

فالمالك صاحب ملكية الشيء، وهو من تملكه، ولا يقتضي أن يكون ملكا، والمالك في حق الله، تشير إلى ملكية مطلقة، ولذا نقول: (مالك الملك) إشارة إلى ملكيته الدنيا والآخرة وكذا تملكه السلطان والقدرة، قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران: ٢٦). وقال تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (الفاتحة: ٤).

فإنه مالك الملك كل الملك، يملك الأشياء، وكل ما عداه سبحانه في دائرة ملكه، يتصرف فيه كما يشاء، تصرفا مطلقا تاما. يقول الإمام القرطبي: "هو الذي ينفذ مشيئته في مملكته كيف شاء وكما شاء إيجادا وإعدامًا وإبقاء وإفناء والملك هاهنا بمعنى المملكة والمالك بمعنى القادر التام" (٢). وأما الملك فهو المتصرف في الأشياء، القادر على المنع والإعطاء، "فالمالك هو المستغني عن كل شيء، ويفتقر إليه كل شيء، ونافذ حكمه في مملكته طوعا أو كرها وقيل: هو القادر على الإبداع والإنشاء والإعدام وهذا على الحقيقة لا يكون إلا الله عز وجل، وبهذا يعلم أن إطلاق الملك على ما سواه أمر مجازي إذ المملوك لا يكون مالكا لأن من هو تحت قهر الأغيار فهو كالعدم" (٣). "والملك أعم من المالك لأنه غالب قاهر فوق كل مالك، فالمالك من له الملكية والملك معاً، فهو الذي أنشأ الملك وأقامه بغير معونة من الخلق، وصرف أموره بالحكمة والعدل والحق، وله الغلبة وعلو القهر على من نازعه في شيء من الملك". فالملك سبحانه هو الذي له الأمر والنهي في مملكته، وهو الذي يتصرف في خلقه بأمره وفعله، وليس لأحد عليه فضل في قيام ملكه أو رعايته. (٤)

وأما المليك، فقد ورد في القرآن الكريم في موضع واحد، قال تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ (القمر: ٥٥).

والمليك فعيل وزن للمبالغة، وهو أكثر بلاغة من غيره من الأسماء في هذا الباب، "فأما المليك فقال الخطابي: المليك هو المالك وبناء فعيل للمبالغة في الوصف"

(2) المقصد الأسنى: ١/١٤٠.

(3) الحصني: أبو بكر الدمشقي، دفع شبه من شبه وتمرد ونسب ذلك إلى السيد الجليل الإمام أحمد، تح، محمد زاهد الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث: ١/٥٣.

(4) أسماء الله الحسنى للرضوني: ٢/.

(١) ذاك لأن الزيادة في المبنى زيادة في المعنى، كما هو مقرر عند اللغويين. وكأن ياء المد التي زيدت على الاسم، أوحى بسعة الملك ودوامه.

١٢ - القوي، ذو القوة:

يتبدى لنا معنى القوة واضحا جليا في اسمه القوي، والقوي هو تام القدرة كاملها، لا يعتريه ضعف في ذاته، ولا في صفاته. قوته مطلقة. وقد ورد (القوي) في القرآن الكريم في تسعة مواضع، مقترنا مع أسماء أخرى للمولى، مثل (القوي العزيز) و(قوي شديد العقاب).

والذي يجدر هنا هو السؤال عن الفرق بين (القوي) و(ذو القوة). حيث لم يرد (ذو القوة) إلا في موضع واحد. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (الذريات: ٥٨). و(ذو) ترد في العربية بمعان كثيرة، منها ما تعنيه هنا، أن ترد بمعنى صاحب، "وعلى هذا فاللفظ "ذو" يأتي للدلالة على الصفات الثابتة، فعند قولك: "على ذو فضل" يدل على أن النسبة فيه لا تتفك والصفة لا تفارق، فهو ذو فضل على معنى التلازم والدوام ومن ذلك مجيئه في الدلالة على صفات الله عز وجل "ذو الفضل العظيم"، "ذو الرحمة"، "ذو القوة المتين"، "ذو الجلال والإكرام". (٢)

وهو كلام جميل حقا، أقر الباحث فيما ذهب إليه، لكنني ألمح مزية أخرى في (ذو) وهي التملك، معنويا كان أم ماديا، فحينما نقول: ذو مال، أي أنه يمتلك قدرا من المال، وحينما نقول: ذو خلق أي أنه يمتلك قدرا من الخلق، وهي في حق البشر محدودة، ولكنها في حق الله مطلقة، فحينما نقول (ذو القوة) أي أنه ليس فقط قويا في ذاته، قويا في صفاته، وإنما يمتلك القوة كلها، وقادر على أن يمنحها من يشاء من عباده، وفرق كبير بين من هو قوي، وبين من يمتلك القوة فيمنحها للآخرين. فيمكن أن يكون الإنسان قويا، يساعد الآخرين في وجوه المنافع، ولكنه لا يستطيع أن يمنحهم قوة. ولكن المولى سبحانه يمتلك القوة الكاملة المطلقة، التي يمنح عباده منها ما يشاء لمن يريد. وهذا فيما أرى هو جوهر الفرق بين الاسمين.

وعليه يمكن أن ينطبق القول على بقية الأسماء التي تدخل (ذو) في تركيبها، مثل: (ذو الرحمة، ذو انتقام، ذو عقاب، ذو فضل، ذو مغفرة).

(1) ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد: زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ، ١٠٤/٨.

فهو سبحانه ذو رحمة يمنح العباد جزءا من رحمته، يترحمون بينهم، وهو أيضا ذو مغفرة، فمهما عظم الذنب، فالمغفرة أعظم، قال تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الرعد: ٦).

والتأمل في معنى (على ظلمهم) يعضد ما ذهبنا إليه. وهكذا قس في بقية الأسماء.

ومما يلاحظ أيضا في هذا البناء، أن المضاف إلى ذو، يكون مطلقا غير محدود، ليس له نهاية، وذلك حينما يكون الاسم من أسماء الله الحسنى.

الفصل الثاني

نجاه الأسماء الحسنى وترتيبها

أولاً: حركة أسماء الله الحسنى المفردة في خواتم الآيات.

ثانياً: تجاور اسمين في خواتم الآي.

أولاً: حركة الأسماء المفردة في خواتم الآي:

١ - المحيط:

يشير استقراء النص القرآني إلى أن (المحيط) ورد في القرآن الكريم في ثمانية مواضع اسماً للمولى عز وجل هي كما يلي:

- ١ - ﴿ أَوْ كُصِبَتْ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبُرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة: ١٩).
- ٢ - ﴿ إِنْ تَسْأَلْنَاهُمْ حَسَنَةً تَسْأَلُوهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (آل عمران: ١٢٠).
- ٣ - ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً ﴾ (النساء: ١٠٨).
- ٤ - ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً ﴾ (النساء: ١٢٦).
- ٥ - ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (أنفال: ٤٧).
- ٦ - ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ أُعْزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (هود: ٩٢).

٧ - ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِئَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴾ (فصلت: ٥٤).

٨ - ﴿ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴾ (البروج: ٢٠).

حين تتبع سياقات الآيات السابقة، ورصد دلالة الاسم في كل سياق، يتبين أن (المحيط) يرد دائماً في سياق الوعيد، الوعيد للكافرين، أو للمنافقين، أو لأهل الكتاب، ولم يرد قط في سياق الحديث عن المؤمنين.

قال الإمام القرطبي - رحمه الله - " وهذا الاسم أكثر ما يجيء في عرض الوعيد، وحقيقته الإحاطة بكل شيء " (١)

يقول الإمام أبو حيان: والإحاطة كناية عن كونه تعالى لا يفوتونه، كما لا يفوت المحاط المحيط به، فقليل بالعلم وقيل بالقدرة وقيل بالإهلاك" (١).

بل مما يلفت الانتباه أيضاً، أنه يرد تعقيباً، أو ختماً لأية أو سياق يبدأ بسلوك قام به المنافقون أو الكافرون يستوجب العقاب، ويستدعي المحاسبة، والتنبيه على قدرة المولى في مجازاة الذين قاموا بهذا الفعل؛ من أجل ذلك نرى التعقيب بقوله: (بما تعملون محيط) أو (بما يعملون محيط).

ففي الآية الأولى، يأتي هذا الاسم في سياق الحديث عن المنافقين، الذين يفسدون في الأرض، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم، إنما نحن مستهزئون، والذين اشتروا الضلالة بالهدى، والذين يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت، فالله محيط بهم إحاطة تامة.

ولنلاحظ أنه حيثما يوجد فعل سوء قاموا به، أو حالة من سوء هم عليها، تختتم الآية ب(المحيط) كأنه إشارة إلى أنه مطلع عليهم، ومحيط بهم إحاطة السوار بالمعصم، وهو متمكن منهم، قادر على إنزال العقوبة بهم جزاء بما صنعوا، ولنلاحظ مطلع السياق أو الآية والخاتمة التي تم الختم بها:

١ - (يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ ... حَذَرَ الْمَوْتِ) _____ (والله محيط بالكافرين).

٢ - (تَسْؤُهُمْ ... يَفْرَحُوا بِهَا... كِيدَهُمْ) _____ (إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ).

(1) القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر: الجامع لأحكام القرآن، ٣٢٦/١٥.

٣ - (وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ ... إِذْ يُبَيِّتُونَ) _____ (وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا) .

٤ - (إن يدعون من دونه إلا إناثا...) _____ (وكان الله بكل شيء محيطا).

٥ - (خرجوا بطرا... ويصدون عن سبيل الله) _____ (وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)

٦ - (واتخذتموه وراءكم ظهريا) _____ (إن ربي بما تعملون محيط).

٧ - (إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ) _____ (أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ) .

٨ - (بل الذين كفروا في تكذيب) _____ (وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ) .

والإحاطة تشير إلى إحكام السيطرة والتمكن من الشيء، سواء في القدرة والقوة، أو العلم، بل إن ملمحا آخر يمكن أن يرصد في هذا السياق، وهو أن (المحيط) اسم منفتح على اتساع، فانفتاحه يتسع ليشمل أي عمل يعمله المنافقون أو الكافرون، من أجل ذلك نرى أن أعمالهم السيئة، وحالتهم الرديئة التي هم عليها، عبر عنها بالفعل المضارع في أكثر الآيات؛ ليدل على أنهم مهما اتسعوا في أعمالهم، ومهما عظم تخطيطهم وكبر، فإن إحاطة المولى أوسع، إحاطة تستوعب أقصى مدى يصله عملهم السيئ الرديء.

يؤنسنا فيما ذهبنا إليه، أن كثيرا من التقلبات الاشتقاقية للفعل (حاط) في القرآن الكريم، تشير في نفس السياق، سياق القدرة والإحكام، وسياق الوعيد وإنزال العقوبة. قال تعالى:

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَتَذَرُنِي وَلَا تَنْصِتُنِي الْأَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ (التوبة: ٤٩).

وقال :

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتْ بِكُمْ بَرْجٌ طَيِّبَةٌ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أُجِيبْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (يونس: ٢٢). وقال أيضا:

﴿ وَإِلَى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَتَّبِعُوا الْهَيْكَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ﴾ (هود: ٨٤).

وقال سبحانه:

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَتَقَفَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ (الكهف: ٤٢).

فالإحاطة في الآيات السابقة وردت في السياق ذاته، (جهنم محيطة بالكافرين، وظنوا أنهم أحيط بهم، عذاب يوم محيط، وأحيط بثمره).

وقفة بين (المحيط) و (العليم):

ولعل المقارنة بين الاسمين (العليم والمحيط) توضح الفرق جليا، فالاسمان بداية متقاربان في المعنى، حيث الإحاطة تشمل إحاطة العلم، قال تعالى:

﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ دَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (النمل: ٨٤).

وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

فإحاطة العلم من قبل البشر ممتنعة عليهم، لأنهم لن يستطيعوا أن يحيطوا بشيء من علم الله، ولكن الله محيط بكل شيء علما، قال تعالى:

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ (الطلاق: ١٢).

إذن (فالمحيط) يشمل (العليم) لكنه يزيد عليه في الإشارة إلى الوعيد، قال الإمام أبو هلال العسكري: " المحيط يصلح أن يكون معناه أن كل شيء في مقدوره فهو بمنزلة ما قبض القابض عليه في إمكان تصريفه، ويصلح أن يكون معناه أنه يعلم بالأشياء من

جميع وجوهها" ^(١)؛ من أجل ذلك لم نجد أن (المحيط) ورد في سياق الحديث عن غير الكفار أو المنافقين، كأن يأتي ختما في سياق يتحدث عن الرسل مثلا أو المؤمنين. ذاك لأنه يحمل معنى الهلاك والوعيد والعقوبة. وليس يصح ذلك مع المؤمنين. قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ (المؤمنون: ٥١).
وقال أيضا:

﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ (النور: ٢٨).

فالآية الأولى نداء للرسل، والثانية خطاب للمؤمنين، وهو ملمح جميل يشير إلى دقة في النسيج البنائي للقرآن الكريم، وإعجاز جميل في حركة اسمه (المحيط) في خواتم الآي، حيث لا يصلح اسم بدلا من أخيه، إلا في السياق الذي يناسبه.

٢- العليم:

حركة (العليم) مفردا في أواخر الآيات، جاءت في شيء من الصعوبة بحيث يحتاج رصدها واستخراج النتائج من استقراءها إلى مزيد تأمل ودقة في الاستقراء. فهو قد ورد في ستة وخمسين موضعا، ختمت به الآيات مفردا، وأول ما تجدر ملاحظته في هذا السياق أنه وقع في أغلب المواضع خبرا (مسندا)، خبرا لمبتدأ أو خبرا لناسخ، ولم

(١) الفروق اللغوية: ١٠٩.

يرد غير ذلك إلا قليل ،كأن يأتي تمييزاً أو غيره من المنصوبات، ولم يرد قط مخفوضاً،كأن يكون مجروراً بحرف جر أو إضافة.

وهذا ما يشير ابتداءً إلى أن المقصد العام لورود هذا الاسم هو إسناد العلم المطلق(المسند) إلى المولى سبحانه(المسند إليه)،لتسكن النفوس إلى الإيمان بالله،وتطمئن إلى قضائه،فتسلم أمرها للاله العليم الذي يحيط علمه بكل شيء.

"وبما أنه الخالق لكل شيء،المدير لكل شيء،وشمول العلم كشمول التدبير حافز من حوافز الإيمان بالخالق الواحد، والتوجه بالعبادة للمدير الواحد، وإفراد الرازق المنعم بالعبادة اعترافاً بالجميل" (١)

ولكن السؤال الآن هو: ما الحكمة وراء ورود هذا الاسم في هذه المواضع؟ وهل يمكن لاسم آخر أن يقوم مقامه في أداء المعنى في السياق؟

إن دراسة متأنية للنص القرآني،والسياقات المختلفة التي ورد فيها هذا الاسم، تشير إلى دقة متناهية، وإحكام عجيب في بناء الخواتم، بحيث يمكن القول أن السياقات المختلفة التي ورد فيها (العليم) مفرداً تدور حول سياقات مختلفة ير بطها شيء واحد هو الغيب، الغيب الذي يجهله الإنسان، فيحتاج معه إلى علم يزيل به جهله،فيأتي (العليم) في الخواتم المفردة ليثبت علم الله المطلق إزاء جهل الإنسان فيذعن العبد لمولاه. والمحاور التي يمكن رصدها هي:

١- محور الخلق :

خلق الإنسان والكون.وما فيه من سموات وأراض وعوالم مرئية وغير مرئية:

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ

شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٩).

قوله تعالى: (هو بكل شيء عليم) " يدل على أنه سبحانه لا يمكن أن يكون خالقاً للأرض وما فيها وللسموات وما فيها من العجائب والغرائب إلا إذا كان عالماً بها محيطاً بجزئياتها وكمالاتها" (١)

قال تعالى:

(1) قطب، سيد: في ظلال القرآن، دار الشروق، مصر، الطبعة الشرعية الثالثة والثلاثون، ١٤٢٥- ٢٠٠٤م، ٥٤/١.

(1)تفسير الفخر الرازي: ١٧٤/١.

﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (الأنعام: ١٠١).

وقال سبحانه: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (يس: ٧٩).

فحيث يكون سياق الحديث عن الخلق، خلق السماوات والأرض، وخلق الإنسان، وما هما عليه من إتقان وإحكام فالختم المناسب، هو (العليم)؛ لأن الإنسان يجهل كيفية خلق هذه الأشياء، وهي بالنسبة له غيب لم يطلع عليه، ولكن الله عليم بها، لأنه هو الذي خلقها، وأنشأها وفق نظام وعلم مطلقين محكمين، فالعليم يزيل جهل الإنسان بهذه الأشياء، ومن الجميل أن نلاحظ أن الفعل في الآيات السابقة هو (خلق) (الفعل الماضي)، الذي يشير إلى حدوث الفعل ووقوعه على وجه التأكيد، فلا يصلح هنا في السياق (قدير) مثلاً، لأن الخلق قد تم، فلو أن الحديث عن المستقبل، لصح الختم بقدير، لكن كون الفعل تم في الماضي فالقدرة قد وضحت وتحققت، فالحاجة إلى علم ما مضى أنسب.

٢ - الأحوال:

أحوال البشر من المؤمنين والظالمين والمفسدين وغيرهم، والمقصود هنا بالأحوال هو ما هم عليه من حال في حاضرهم، وما سيكونون عليه في المستقبل، أي علمه بما هم عليه، وعلمه بما سيكونون عليه.

١. قال تعالى: ﴿ وَكَانَ يَتَمَنَّى أَبَدًا بِمَا قَدِمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة: ٩٥)

٢. وقال أيضاً: ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ

سَمَاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ (التوبة: ٤٧)

٣. وقال: ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾

(النساء: ٣٩)

وقال سبحانه: ﴿ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ

عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ (التوبة: ٤٤).

فالآيات السابقة تدل بوضوح على أن الله سبحانه وتعالى يعلم ما هم عليه، وما سيكونون عليه، فهم لن يتمنوا الموت أبداً في الآية الأولى، وهم لم يخرجوا في الآية

الثانية، ولكنهم لو خرجوا لما زادوا المؤمنين إلا فسادا، ولدسوا الفتنة بينهم وفي كل الأحوال فالله عليم بما هم عليه من اختيار، وما سيقومون به من أفعال.

وحينما يعبر المولى عن الأحوال بالعلم، فإننا نجد أن التعبير يكون والله عليم ب(الظالمين، المفسدين، المؤمنين، المتقين). وهنا لا يراد العلم بما في صدورهم، ولا العلم بما قدموا من عمل، وإنما يراد العلم بما سيكونون عليه في المستقبل، وبيان حالهم، وفيها إشارة إلى علم الله المطلق، لأن أحوالهم المستقبلية وما سيكونون عليه، إنما هو جزء من علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، من أجل ذلك لم يعبر المولى عن أحوالهم ب(عليم بذات الصدور) لأنهم بعد لم يكونوا قد طووا صدورهم عليه وأضرروه، وإنما هو جزء من الغيب الذي يجهلونه أنفسهم.

الأعمال: وهي أعمال العباد، ويمكن أن نقسمها إلى قسمين:

- أعمال قد عملوها فأصبحت جزءا من الماضي، الله عليم بها وبالنوايا التي انطلقوا منها، وطووا عليها صدورهم وأخفوها، يعبر عنها بقوله: (والله عليم بذات الصدور).

- أعمال يعملونها في حاضرهم، أو في مستقبلهم، الله عليم بها، ويعبر عنها بقوله: (والله بما يعملون عليم).

مثال الأول قوله تعالى:

﴿ وَادْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاتَّقُمُ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ بَذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (المائدة: ٧).

وقال سبحانه: ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ

بَذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (لقمان: ٢٣)

وقال: ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَمُنُّونَ صُدُورُهُمْ لَيْسْتَخَفُوا مِنْهُ إِلَّا حِينَ يَسْتَعْشُونَ نَبَاهَهُمْ يَلْعَلُ مَا يُسِرُّونَ

وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَالِمُ بَذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (هود: ٥)

فالآيات الثلاثة السابقة، تشير إلى فعل قاموا به، الله عليم بالنوايا التي انطلقوا منها، وبما أن النوايا محلها القلب، فقد ختمت الآيات: (والله عليم بذات الصدور).

و ذات الصدور: أي ما تطويه الصدور، وما تخفيه من معتقدات وأسرار ونوايا. قال ابن عطية في (المحرر الوجيز): " ذات الصدور، ما فيها من الأسرار والمعتقدات، وذلك أغمض ما يكون" ^(١). وقال الفخر الرازي: " المراد بذات الصدور الخواطر القائمة بالقلب والدواعي والصوارف الموجودة فيه، وهي لكونها حالة في القلب منتسبة إليه فكانت ذات الصدور" ^(٢) وأما مثال الثاني فقوله تعالى:

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَفْقَمْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّهِ الدِّينُ وَالْآقَرِبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَعْلَمُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢١٥).

وقوله: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (يونس: ٣٦)

وقوله جل شأنه: ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ (يوسف: ١٩)

فالآيات في السياق تشير إلى أعمالهم في الحاضر، وأن الله عليم بها ذاتها، (والله عليم بما يعملون)، ولو أن التعبير عن أعمال حدثت في الماضي لكان الختم ب(والله عليم بذات الصدور)، ولكن أما وإنها دعوة للعمل في الحاضر والمستقبل، فإنه بأعمالهم عليم، تشجيعا لهم على فعلها إن كانت أعمال خير، وتنفيرا لهم منها إن كانت أعمال سوء وشر.

٣- توزيع الأرزاق والحظوظ على البشر:

فقد تخفى علة تفضيل البشر بعضهم على بعض، فتتصرف أذهانهم إلى أن الله قد نسيهم، أو أهملهم حين فضل غيرهم عليهم، فتضيق صدورهم، وتستبد بهم شياطينهم، ولكنهم حين يعلمون أن الله عليم بكل شيء، وأن لا شيء يخفى عليه، لا في الأرض ولا في السماء، فإن الاطمئنان سيغمر قلوبهم، والراحة تسكن جوارحهم. ويؤمنون بقدر الله مذكنين له. قال تعالى:

(١)المحرر الوجيز: ٢٥٨/٥.
(٢)تفسير الفخر الرازي: ٢٢١/٤.

﴿ اللَّهُ يَسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾
(العنكبوت: ٦٢).

وقال أيضا: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (التغابن: ١١).

وقال: ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (الشورى: ١٢). وقال جل شأنه:

﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (الفتح: ٢٦).

٤ - الأوامر والنواهي:

حينما نجد في السياق أمرا أو نهيا من المولى، يكون الختم بالعليم، وهو الأنسب عندها، ذاك أن الأمر والنهي هما طلب، والله عليم بتنفيذ هذا الطلب من قبل البشر، ثم هو عليم بأسباب الأمر ودواعيه، وبواعث النهي ومراميه، كأن الختم بالعليم هو دعوة إليهم ليطمئنوا إلى أن الله حينما يأمر أو ينهى فإنما يكون عن علمه بما يصلح للبشر، وما تستقيم به أحوالهم، وتحسن به حياتهم. " فلا يأمر إلا بما فيه الحكمة والمصلحة فلا تخالفوه" (١)

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلِّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأُمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لَتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٣١)

وقال سبحانه: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمُ بَعْضًا فليؤدِّ الَّذِي أُوتِيَ أَمَاتَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكُونُوا الشَّاهِدَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آتَمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٨٣)

(1) روح المعاني : ٢/ ٢٣١.

وقال : ﴿ يَسْتَقْوُونَ قُلُوبَ اللَّهِ يُفَتِّحُكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنَّ امْرُؤًا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِيهَا إِنَّ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (النساء: ١٧٦)

وخلاصة ما سبق يمكن القول أن المحاور الخمسة السابقة، يلها خيط تتنظم فيه، وهو الجهل بالغيب، فالخلق وأحوال العباد وما سيكونون عليه في المستقبل، وأعمالهم التي عملوها في الماضي، ونواياهم وما تطويه صدورهم، وأوامر المولى ونواهيه كلها تتدرج في الغيب، الغيب الذي يجهله الإنسان، والذي يكون موزعا عبر الآية، أو في ثنايا السياق، والذي يحتاج الإنسان معه إلى علم يزيل به جهله، وليس غير العليم يصلح لدفع الجهل، من أجل ذلك يكون اسمه سبحانه وتعالى (العليم) في غاية الدقة، بحيث لا يصلح للسياق اسم غيره.

ومن ناحية أخرى فإن (العليم) يمنح المؤمن حاله من الطمأنينة و الثبات والرضى بما قضاه الله وقدره، وتبشره بالثواب والأجر من المولى ذاك لأنه عليم بما يعمل المؤمن فيجازه عليه. ويقابله الزجر والوعيد حين يرد هذا الاسم في سياق المنافقين أو الكفار أو الظالمين. يقول الإمام أبو حيان الأندلسي في تفسيره الآية ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة: ٩٥) : " والله عليم بالظالمين، هذه جملة خبرية ومعناها: التهديد والوعيد وعلم الله متعلق بالظالم وغير الظالم، فالإقتصار على ذكر الظالم يدل على حصول الوعيد" ^(١) وكذا يشير الإمام الرازي في تفسير الآية نفسها : " والله عليم بالظالمين، فهو كالزجر والتهديد لأنه إذا كان عالما بالسر والنجوى، ولم يمكن إخفاء شيء عنه صار المكلف لذلك من أعظم الصوارف عن المعاصي" ^(٢).

٣- القدير:

إن استقراء هذا الاسم الجليل في النص القرآني، يشير إلى أنه يتحرك في خواتم الآيات مفردا في أربعين موضعا في القرآن الكريم، في تراكيب مختلفة، وصور متعددة، لكنه في المواطن كلها ورد " لإثبات صفة القدرة " ^(٣) لله - عز وجل -

(1) الغرناطي، محمد بن يوسف: البحر المحيط في التفسير، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٩٢: ١/ ٥٠١.

(2) تفسير الفخر الرازي : ٢٠٨/٢.

(3) انظر روح المعاني: ٢٠٣/٣.

وهو في المواضع جميعها ورد بحيث لا يمكن أن يقوم مقامه اسم غيره، والسبب في ذلك أن الآيات التي ختم بها، والسياقات التي ورد فيها كلها، تتحدث عن مظاهر قدرة الله، فيما صنع في الماضي فيكون الختم بالقدير لإزالة العجب، ودفع الغرابة، لأنه قادر على كل شيء، أو فيما سيصنع في المستقبل فيكون الختم بالقدير ليذعن البشر لأوامر ربهم، ويسلموا طائعين له، لأنه على كل شيء قدير.

إن ثمة فعل أو ما يقوم في معناه - من مصدر يدل على الحدث - يوجد في كل آية ختمت بالقدير، سواء أكان فعلاً تم حدوثه في الماضي أو أنه سيقع في المستقبل. إن إطلالة سريعة على الآيات التالية، تؤنسنا فيما ذهبنا إليه. قال تعالى:

١. ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ

لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿ (البقرة: ٢٠)

٢. ﴿مَا تَسْخَرُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَسِيهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

﴿ (البقرة: ١٠٦)

٣. ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيهَا فَاسْتَخِرُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿ (البقرة: ١٤٨)

٤. ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿ (النساء: ١٣٣)

٥. ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿ (هود: ٤)

٦. ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى قَتَرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ

وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿ (المائدة: ١٩)

٧. ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّأُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿

(الأحزاب: ٢٧)

٨. ﴿أَوَلَمَّْا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْنَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ هَذَا قُلٌ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿ (آل عمران: ١٦٥)

فالآيات السابقة جميعها تشتمل على حدث ما، ففي الآية الأولى: لو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم. وفي الثانية: يأت بخير منها أو مثلها. وفي الثالثة: يأت بكم الله. وفي الرابعة: يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين. وهكذا في بقية الآيات السابقة، وفي كل المواضع التي ورد فيها . فالذهاب بسمعهم وأبصارهم حدث يحتاج إلى قدرة، ونسخ الآية والإتيان بخير منها أو مثلها حدث يحتاج إلى قدرة، والذهاب بالناس والإتيان بآخرين حدث يحتاج إلى قدرة، من أجل ذلك نجد الآيات تختتم بالقدير، إشارة إلى قدرة الله المطلقة، وليس يقوى على ذلك ويستطيعه إلا القدير سبحانه.

" الذي لا يعجزه شيء، ولا يفوته شيء، ولا يحول دون إرادته شيء، يخلق ما يشاء، ويفعل ما يريد، وهو قادر على ما يريده، غالب على أمره، لا تتعلق بإرادته قيود ولا حدود" (١).

والآيات الأخيرة تتحدث عن فعل الله في الماضي، كيف أنه نصرهم في بدر وهم أدلة، وأورث المؤمنين أرضهم وديارهم، وكيف أن المصيبة التي أصابتهم كانت من عند أنفسهم، فلا عجب في ذلك فالله قدير على كل شيء. يقول الشيخ الشعراوي - رحمه الله - في تفسيره: " فإذا جاء النصر، تأكد الكل أن كفة المؤمنين قد رجحت، وإذا تعجب أحد كيف ينتصر هذا العدد القليل غير المسلح على هذا العدد الكثير المسلح، يمكن أن يردد قول الله تعالى: " والله على كل شيء قدير" (١).

ولعل من الملاحظات التي تستدعي التأمل، أن (القدير) كثيرا ما ورد في آيات فيها إثبات ملكية السماوات والأرض للمولى كآيات التالية. قال تعالى:

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: ٢٨٤)

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران: ١٨٩)

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (المائدة: ١٧)

(١) في ظلال القرآن: ٣٦٣١/٦.

(١) تفسير الشعراوي: ٤٧٠٩/٨.

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (المائدة: ٤٠)

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (المائدة: ١٢٠)

﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الحديد: ٢)

١. ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الملك: ١)

فالآيات السابقة وهي أنموذج فقط للتدليل ،يبدو واضحا فيها أن الآيات في بداياتها تشير إلى ملكية السماوات والأرض،وتختتم (والله على كل شيء قدير) فما السر وراء هذا الاقتران؟

يقول الإمام الفخر الرازي: " ولما كان له الملك،فهو متصرف في ملكة،والتصرف مفتقر إلى القدرة، فقال والله على كل شيء قدير " (٢)

وأما الإمام الألوسي فيرى غير ذلك، يقول في تفسير قوله تعالى : " تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير " (الملك: ١) يقول: وقوله وهو على كل شيء قدير،تكميل لذلك،لأن القرينة الأولى تدل على التصرف التام في الموجودات على مقتضى إرادته سبحانه ومشيئته من غير منازع ولا مدافع، ولو اقتصر على الأولى لأوهم أن تصرفه تعالى مقصور على تغيير أحوال الملك،كما يشاهد من تصرف الملاك المجازي،فقرنت بالثانية ليؤذن بأنه عز سلطانه قادر على التصرف ،وعلى إيجاد الأعيان المتصرف فيها" (١)

وهو مذهب جميل ذهب إليه الإمام الألوسي _ رحمه الله _ فملكية السماوات والأرض تشير إلى تصرف المولى فيها،وقد ينصرف الذهن إلى أنه متصرف فقط فيها، والختم بالقدير يدفع الوهم ،ويشير إلى أن قدرة المولى تتجاوز السماوات والأرض،إلى التصرف في كل شيء،والقدرة على كل شيء.

والإمام الشعراوي يساند هذا الرأي في قوله " وقد يكون هناك الملك الذي لا قدرة له أن يحكم،فيوضح سبحانه أن لله الملك وله القدرة" (٢).

(2)تفسير الفخر الرازي: ٢١/١٥.

(1)روح المعاني: ٥/١٦.

(2)تفسير الشعراوي: ١٩٤٦/٤.

وجوهر الأمر أن ملكية السماوات والأرض إيجاد لا يقوى عليه إلا القدير، فلا غرابة في هذا البناء الضخم الشامخ، فموجده قدير على كل شيء، فضلا عن أن يكون قادرا على إيجاده.

٤ - البصير:

ورد (البصير) مفردا اسما للمولى في سبعة وعشرين موضعا على امتداد آي القرآن الكريم، وفي تركيبات مختلفة. فقد ورد في تركيب ﴿وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ في تسعة عشر موضعا، أي ورد (البصير) مع الفعل (يعملون أو تعملون) على صورة الغيبة والخطاب. قال تعالى:

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: ٩٦). وقال سبحانه:

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (البقرة: ١١٠) وكذا ورد (البصير) في تركيب (والله بصير بالعباد)، في ثلاث مواضع قال تعالى:

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (آل عمران: ٢٠)

وورد أيضا في تركيب آخر، قال تعالى:

﴿ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾ (طه: ٣٥) على ثلاثة أشكال.

وكذا مع (بكل شيء) مرة واحدة فقط، قال تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ (الملك: ١٩).

فيكون الاسم بذلك قد تحرك من خلال التركيبات التالية: بصير (بما يعملون أو تعملون، بالعباد أو بعباده، بنا، بكل شيء).

وأيا ما كان الأمر فإن ورود هذا الاسم مع تلك التركيبات المختلفة، يشير إلى حد كبير إلى الدقة في تلك التركيبات لما لهذا الاسم من دلالات.

والحقيقة أن ثمة من العلماء من حاول صرف مدلول هذا الاسم عن ظاهر اللفظ، محاولاً أن يكتفي به عن (العليم) أو (الخبير)، وليس الأمر كذلك كما ستري.

قال أبو السعود في تفسيره: "البصير في كلام العرب العالم بكنه الشيء، الخبير به، ومنه قولهم: فلان بصير بالفقه" ^(١)، فأبو السعود يرى أن البصير بمعنى الخبير، وكذا يرى الإمام الألوسي، حيث حمل معنى البصر على العلم ^(٢).

وليس بعيداً عنهما الإمام القرطبي رحمه الله _ في أنه حمل البصير على معنى الخبير، فالْبصير عنده هو العالم بخفايا الأمور، " وصف الله نفسه بأنه بصير على معنى أنه عالم بخفيات الأمور، والبصير في لغة العرب: العالم بالشيء الخبير به، قال الشاعر:

إن تسألوني بالنساء فإنني بصير بأدواء النساء طبيب ^(١)

وليس من بد في أن (البصير) يختلف عن العليم وكذا يختلف عن الخبير، ولو صح ترادف هذه الأسماء، لصح أن يقع الاسم في موضع أخيه، فكيف إذن وقد اختص كل اسم بما يناسبه في نسج بنائي محكم ودقيق.

فالْبصير هو ذو الإبصار، الإبصار الذي يتعلق بالرؤية، ولكنها في حق المولى بدون جارحة، جاء في اللسان: " أبصرت الشيء : رأيته، ومن أسماء الله تعالى البصير، وهو الذي يشاهد الأشياء كلها، ظاهرها وخافئها بغير جارحة " ^(٢)، قال تعالى: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَا

(1) أبو السعود، محمد بن محمد العمادي: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١/٢٤٦.

(2) انظر: روح المعاني: ١/٥٢٢.

(1) الجامع لأحكام القرآن: ١/٤٥٧.

(2) للسان: ٢/٩٣.

إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى ﴿ طه:٤٦ ﴾. فالمولى سبحانه يرى ويشاهد في غير جارحة ولا أداة، مشاهدة ورؤية تليق بذاته العلية، قال الإمام الطبري _ رحمه الله _ في معرض حديثه عن تفسير قوله تعالى " والله بصير بما يعملون " : والله ذو إِبصار بما يعملون، لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، بل هو بجميعها محيط، ولها حافظ، وأصل بصير مبصر من قول القائل: أبصرت فأنا مبصر، ولكن صرف إلى فاعيل كما صرف مسمع إلى سميع، وعذاب مؤلم إلى أليم، ومبدع السماوات إلى بديع " (٣).

ومن عجيب النظم في خواتم الآيات أن (البصير) لم يرد مع فعل غير الفعل (يعملون)، فيما لاحظنا فيما سبق أن اسمه (العليم) ورد مع (يفعلون)، كأن (البصير) يختص ب (يعملون)، و (العليم) يختص ب (يفعلون)، فلماذا إذن هذا التوزيع الدقيق؟

إن إطلالة سريعة على الفرق بين الفعلين (يعملون - يفعلون) يكشف بوضوح عن سر اختصاص (البصير) بالفعل (يعملون)، ذاك أن الفعل (يعملون) يتعلق بالجوارح، جوارح الإنسان، فسلوك الجوارح يكون عملاً، وهو سلوك ظاهر يناسبه (البصير) الذي يرى هذا السلوك ويبصره. يقول الشيخ الشعراوي في التفريق بين الفعل والعمل: " العمل هو تعلق الجارحة بما أنيطت به، فاللسان جارحة عملها القول، والأذن جارحة وعملها الاستماع، والعين جارحة وعملها أن تتظر، إذن فكل جارحة من الجوارح لها حدث تنشئه لتؤدي مهمتها في الكائن الإنساني، فكل أداء مهمة من جارحة يقال لها عمل " (٤).

ولكن العمل أيضا خاص والفعل عام، والعمل يحتاج إلى زمن في أدائه، وليس كذلك الفعل الذي يحد بسرعة في غير بطء، يقول الإمام الزركشي _ رحمه الله : " إن العمل أخص من الفعل، وكل عمل فعل وليس العكس، ولهذا جعل النحاة الفعل في مقابلة الاسم لأنه أعم، وقد اعتبر الله تعالى فقال: " يعملون له ما يشاء من تماثيل ... " حيث كان فعلهم بزمان، وقال: " ويفعلون ما يؤمرون " حيث يأتون بما يؤمرون في طرفة عين، وقال: " ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل " و " ألم تر كيف فعل ربك بعاد " و " تبين لكم كيف فعلنا بهم " فإنها إهلاكات وقعت في غير بطء " (١).

(3) جامع البيان: ٥٥٣/١.

(4) تفسير الشعراوي: ١٨٤٩/٣.

(1) الزركشي، محمد بن بهادر بن عبد الله: البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩١، ٨٣/٤.

فالفعل إذن يشمل العمل، وهو يشمل السلوك الظاهر وغير الظاهر فناسبه أن يختص به اسم (العليم)، ولما كان العمل هو سلوك الجوارح فقد ناسبه اسمه تعالى (البصير). ومما هو أعجب أن (البصير) لم يرد مع الفعل الماضي قط، وإنما ورد مع الفعل المضارع، ذلك لأن الفعل المضارع يشير إلى الزمن الحاضر، الذي يناسبه (البصير) الذي يبصر السلوك ويشاهده، فإذا ما صار الفعل في الماضي انقطع السلوك، فليس ثم ما يشاهد ولا ما يبصر، فلا يصح استخدام (البصير) عندها، وهذا هو الذي عليه النظم القرآني الفريد.

وخلاصة القول في هذا الأمر أن (البصير) لا يرد مفردا في ختم آية إلا إذا اقترن به في ختمها ما يمكن أن يشاهد ويرى ليناسب اسمه تعالى (البصير)، كالفعل يعملون أو تعملون، أو "بصير بالعباد"، أو "بنا بصيرا".

وقد ورد (البصير) في موضع واحد مع "بكل شيء" في قوله تعالى:

﴿ وَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ (الملك: ١٩)، ولكن من اليسير أن ندرك علة ذلك، فالآية تتحدث عن حركة الطير حين تصف أجنتها مرة، وتقبضها أخرى، وهي حركة مشاهدة مرئية لا يناسبها إلا (البصير)، الذي ليس فقط يبصر الطير وما تقوم به، وإنما يبصر كل شيء فيها. فكل شيء فيها مكشوف لجلاله يبصره بما يليق بذاته العلية.

ومما يجدر الإشارة إليه أن الآية لما بدأت بفعل الرؤية "أولم يروا" ناسب الختم بالبصير، وهو حث لهم على تفعيل حاسة البصر في مظاهر الكون المشاهدة، تلك الحاسة التي منحها لهم البصير سبحانه وتعالى.

٥- الخبير:

ورد (الخبير) مفردا في خواتم الآيات في نحو خمسة وعشرين موضعا، وأغلب ما ورد كان مقترنا مع الفعل (يعملون) بالخبية، أو (تعملون) بالخطاب.

و(الخبير) على وزن فعيل،الذي هو بناء للمبالغة، " والخبير هو العالم بكنه الشيء،المطلع على حقيقته " (١). أو كما يقول الإمام الفيروزبادي: " أي العالم ببواطن الأمور " (٢).

ولعل (الخبير) قد يتشابه للوهلة الأولى مع (العليم)، فييدوان كما لو كانا مترادفين، وليس الأمر كذلك، وإنما يحتفظ كل اسم بمعنى ينفرد به عن أخيه، قال الإمام القرطبي - رحمه الله: " وكذا العليم والخبير، فإن العليم يدل على العلم فقط، والخبير يدل على علمه بالأمور الباطنة،وهذا القدر من التفاوت يخرج الأسامي عن أن تكون مترادفة " (٣).

والخبير يشمل العليم ويزيد " والخبرة أبلغ من العلم لأنها علم وزيادة، فالخبير بالشيء من علمه ، وقام بمعالجته وبيانه وتجربته وامتحانه، فأحاط بتفاصيله الدقيقة، وألم بكيفية وصفه على الحقيقة " (٤).

وحين استعرضت الآيات التي اشتملت في خواتمها على (الخبير)، وجدت أنها تدور في محورين رئيسين:

أولهما: وهو الأكثر الأعم، محور الطلب، وهو الأمر أو النهي،من قبل المولى _ سبحانه وتعالى _ للمؤمنين أو لغيرهم على حد سواء.

وثانيهما: الكشف والتبيين ،حيث يكشف المولى نوايا العباد،ودوافع أعمالهم،مؤمنين كانوا أو غير مؤمنين.وهذه هي الآيات التي تتعلق بالمحور الأول، كأنموذج للتدليل فقط . قال تعالى:

(1)الاعتقاد: ٥٨/١.

(2)بصائر ذوي التمييز: ٥٢٤/٢..

(3)المقصد الأسنى: ٤١/٢.

(4)أسماء الله الحسنى الثابتة في القرآن والسنة . الرضواني: ٥٦.

١ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَتَى إِلَيْكُمُ السَّلَامُ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (النساء: ٩٤)

٢ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (النساء: ١٣٥)

٣ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: ٨)

٤ - ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (النور: ٣٠)

٥ - ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ (الفرقان: ٥٨)

٦ - ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢)

٧ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (المجادلة: ١١)

فالآيات السابقة جميعها تشتمل على طلب واضح من فعل الأمر في كل آية، وهو على الترتيب: (فتبينوا، كونوا قوامين، اعدلوا، قل للمؤمنين يغضوا، وتوكل على الحي، واتبع ما يوحى إليك، فافسحوا يفسح الله لكم) فإذا علمنا أن (الخبير) هو الذي يعلم

بواطن الأمور، ويعلم ما دق وخفي، يصبح واضحاً أن (الخبير) جاء في مكانه في دقة متناهية.

فكان المولى يقول: اعملوا ما أمرتكم به، واعلموا أنني بصير بأعمالكم أراها، وأعلمها، ليس ذلك فحسب بل وأعلم دوافع أعمالكم، وما تتطوي عليه نفوسكم من نوايا، فالتختم بالخبير كأنه تنبيه لهم وتحذير، أن يصلحوا أعمالهم ونواياهم، وما تخفي صدورهم.

فإن قيل: قد ختم الله آيات كثيرة تشتمل على أمر ونهي باسمه العليم فما الفرق؟ قلت: الختم بالعليم إشارة إلى أن المولى يعلم ما يصلح للعباد مما أمرهم به، وكيف أنه أمرهم به لوجوه المنافع التي تعود عليهم بالخير في حياتهم وآخرتهم. فهو كأنه حث لهم على تنفيذ ما تصلح به أمورهم. وأما الختم بالخبير فهو تنبيه لهم أن يصلحوا بواطنهم ونواياهم وأعمالهم، لأنه يعلم ما دق وخفي منها، فكأنه وعيد لهم إن لم يفعلوا. قال الإمام أبو حيان في معرض تفسير قوله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (البقرة: ٢٣٤)

"ولما كان آخر قوله "الذين يتوفون منكم" مما يدرك بلطف وخفاء، ختم ذلك بقوله "والله بما تعملون خبير" ^(١). وفي موطن آخر في تفسير قوله تعالى:

﴿ وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (النساء: ١٢٨) -

يقول: "ختم آخر هذه بصفة الخبير، وهو علم ما يلطف إدراكه ويدق، لأنه قد يكون بين الزوجين من خفايا الأمور ما لا يطلع عليه إلا الله سبحانه، ولا يظهران ذلك لكل أحد" ^(٢).

(١) البحر المحيط: ٥٤١/٢.

(٢) السابق: ٨٨/٤.

وأما آيات المحور الثاني، الذي هو محور الكشف والتبيين، فأياته هي:

١- ﴿ إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَلُونِ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَتَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لَكِيلاً تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (آل عمران: ١٥٣)

٢- ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (آل عمران: ١٨٠)

٣- ﴿ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنِ أَمْرَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (النور: ٥٣)

٤- ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (الفتح: ١١).

يتضح من الآيات السابقة وهي كما أشرت فقط أنموذج، أنها تأتي لتفصح أو تبين ما أخفوه، وطووا صدورهم عليه. وكونه استقر في ثنانيا نفوسهم، فالخبير أنسب أن يختم به في مثل هذا السياق. يقول الإمام أبو حيان في معرض تفسير قوله تعالى:

﴿ إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (البقرة: ٢٧١).

يقول: " ختم الله بهذه الصفة لأنها تدل على العلم بما لطف من الأشياء وخفي، فناسب الاختفاء ختمها بالصفة المتعلقة بما خفي " (١).

(١) السابق : ٦٩٣/٢.

٦- الشديد:

ورد (الشديد) في خواتم الآيات مفردا في اثني عشر موضعا، جاء مضافا إلى العقاب في عشرة مواضع (شديد العقاب)، ومضافا إلى العذاب في موضع واحد (شديد العذاب)، ومضافا إلى المحال كذلك في موضع واحد (شديد المحال). والشديد كما وضحته كتب اللغة من الشدة "، وهي الصلابة، والشديد: هو المشتد القوي. والجمع أشداء وشداد وشدد" (١).

إن استقراء الآيات التي ورد الشديد فيها ختما مفردا، يشير إلى أن مواقعها في غاية الدقة والإحكام، وفيها من اللطائف التي يحس بها المؤمن معنى الرحمة، في ثنايا الآيات حتى وهي تتحدث عن العقاب والعذاب. فالآيات التي أضيف فيها (الشديد) إلى لفظ العقاب، عشر آيات هي قوله تعالى:

١ - ﴿سَلِّ بْنِ إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُدْلِ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ

شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿ (البقرة: ٢١١)

٢ - ﴿كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ

﴿ (آل عمران: ١١)

٣ - ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ

﴿ (أنفال: ١٣).

- ٤ - ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْقِتْمَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (الأنفال: ٤٨)
- ٥ - ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (الرعد: ٦).
- ٦ - ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (الحشر: ٤)
- ٧ - ﴿وَاتَّمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَخْلُقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكِ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (البقرة: ١٩٦).
- ٨ - ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (الأنفال: ٢٥)
- ٩ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِنِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاؤُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (المائدة: ٢)
- ١٠ - ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (الحشر: ٧).

١١ - (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ) (البقرة: ١٦٥).

١٢ - (وَيَسِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ) (الرعد: ١٣).

نلاحظ أن الآيات العشر السابقة تدور حول محورين رئيسيين لا ثالث لهما: أولهما: محور يتعلق بأفعال الكفار من أهل الكتاب أو من مشركي العرب، تلك الأفعال الشنيعة المستقبحة التي فعلوها، والتي تستحق ليس العقاب فحسب بل الشدة في العقاب، فناسب الختم ب(شديد العقاب) ، أما شديد فلأن أعمالهم شنيعة، وأفعالهم قبيحة، تحتاج شدة تناسب قبح ما صنعوا، وأما إضافة العقاب للشديد، فلأن العقاب هو الاستحقاق للذنب الذي أحدثوه. قال الإمام أبو هلال في (الفروق اللغوية): "العقاب ينبئ عن استحقاق، وسمي بذلك لان الفاعل يستحقه عقيب فعله، ويجوز أن يكون العذاب مستحقا وغير مستحق " (١). فلما صنعوا ما صنعوا لزم لهم العقاب، عقيب فعلهم القبيح. قال الإمام الألوسي رحمه الله: " وأن الله شديد العقاب، وفائدة هذه الجملة المبالغة في تهويل الخطب وتفظيع الأمر " (٢). ولنلاحظ الآيات:

في الآية الأولى تبديل بني إسرائيل نعمة الله، وفي الثانية تكذيب آل فرعون بآيات الله، وفي الثالثة أن الكفار شاقوا الله ورسوله، والرابعة تزيين الشيطان للكفار أعمالهم يوم بدر. وهكذا في بقية الآيات، نجد في السياق ذنبا أحدثوه ومن ثم ختم بشديد العقاب لما فعلوا.

وثانيهما: محور أوامر المولى ونواهيته، وهي بالتأكيد تتجه إلى المسلمين، كأنها تحذير لهم، وحث على الالتزام بما أمر الله وبما نهى يقول الإمام أبو حيان رحمه الله، في معرض تفسيره قوله تعالى:

﴿وَاتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا

(1) الفروق اللغوية: ٢٦٩.

(2) روح المعاني: ٥٣/٢.

أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿البقرة: ١٩٦﴾: لما تقدم أمر ونهي وواجب، ناسب أن يختم ذلك بالأمر بالتقوى في أن لا يتعدى ما حده الله تعالى، ثم أكد الأمر بتحصيل التقوى بقوله: واعلموا أن الله شديد العقاب، لأن من علم شدة العقاب على المخالفة كان حريصاً على تحصيل التقوى، إذ بها يأمن العقاب^(١). في ضوء قول أبي حيان السابق يمكن فهم علة الختم بشديد العقاب في خواتم الآيات التي تشتمل على أمر أو نهى.

ولكن كيف للمولى أن يخاطب الكفار وأهل الكتاب ويختم بشديد العقاب، ثم يخاطب المؤمنين في تكليفه لهم ويختم بنفس الخاتمة، أيستوي الكفار والمؤمنين في ذلك؟ إن إطلاقة سريعة على الآيات التي اشتملت على أوامر ونواه، تجيب على هذا السؤال، ذلك أن المولى سبحانه قد قدم بين يدي الختم بشديد العقاب، قوله "واتقوا الله واعلموا" فما من آية يخاطب الله بها المؤمنين ويختمها بشديد العقاب إلا وقد قدم بين يديها (واتقوا الله) أو و (اعلموا). وأما الآيات التي تخاطب الكفار وأهل الكتاب فليس فيها هذا التقديم البتة. وهو أمر غاية في الدقة، ويستشعر به المؤمن رحمة ربه، لأنه لم يساو بينه وبين الكافر حتى في ختم الآيات، فكأنه سبحانه يقول: بين أوامري وبين عقابي الشديد أن تتقوا وتعلموا، فهو حث لهم للالتزام بأوامره ونواهيه، ودفعهم باتجاه تطبيقها، لا كما توحى في سياق آيات الكفار بالوعيد الشديد. وإليك الآيات لتلاحظ ما ذهبنا إليه قال تعالى:

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿لأنفال: ٢٥﴾﴾

وقال: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿الحشر: ٧﴾﴾.

(1) البحر المحيط: ٢٧١/٢.

وهكذا تمضي الآيات على هذا النحو، ولكن السؤال الآن، لماذا ورد (شديد) في موضع مع العذاب، وفي آخر مع المحال، في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يُرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ (البقرة: ١٦٥)

وقوله سبحانه: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ (الرعد: ١٣)؟

أما الآية الأولى فيلزم التفريق بين العذاب والعقاب لفهم المراد، وفي (الفروق اللغوية): "أن العذاب هو الألم المستمر، وأن العقاب ينبيء عن استحقاق، وسمي بذلك لأن الفاعل يستحقه عقوب فعله"^(١). إذن فكل عقاب عذاب، وليس العكس، والعذاب هو الألم المستمر، هو استمرار العقاب، فالعذاب أشد وأقوى، وأدوم، وهو مناسب تماماً لحجم الذنب، وهو الشرك بالله، واتخاذ غيره أندادا من دونه. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٤٨). ولعل المناسبة اللفظية في ورود كلمة العذاب في قوله: ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب... فالظالمون رأوا العذاب، ورأوا شدته، ولم يروا العقاب، فناسب الختم بشديد العذاب.

وأما (شديد المحال) فالمحال في اللغة: هو الأخذ بالعقوبة، من قولهم: محل به محلا ومحالا إذا أراده بسوء"^(٢). وقد فسر الإمام القرطبي رحمه الله المحال على وجوه، منها: شديد الأخذ^(٣). ولعل قصة سبب النزول تزيل الإبهام في هذا الأمر، جاء في (لباب النقول) في سبب نزول هذه الآية "ما أخرج الطبراني وغيره عن ابن عباس: [أن أربد بن قيس وعامر بن الطفيل قدما المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عامر: يا محمد ما تجعل لي إن أسلمت؟ قال: لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم قال: أتجعل لي الأمر من بعدك؟ قال: ليس ذلك لك ولا لقومك فخرجا فقال عامر لأربد: إني أشغل عنك وجه محمد بالحديث فاضربه بالسيف فرجعا فقال عامر يا محمد

(١) الفروق اللغوية: ٢٦٩.

(٢) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ٥١٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٢٧١/٥.

قم معي أكلّمك فقام معه ووقف يكلمه وسل أريد سيف فلما وضع يده على قائم السيف
بيست والتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم فرآه فانصرف عنهما فخرجا حتى إذا كلنا
بالرقم أرسل الله على أريد صاعقة فقتلة، فأنزل الله " الله يعلم ما تحمل كل أنثى " إلى
قوله " وهو شديد المحال " (١)
يتضح من القصة السابقة أن الله أخذ أريد بصاعقة فقتله، وهو ما يتناسب مع تفسير
المحال بالأخذ الشديد، من أجل ذلك كان الختم بشديد المحال.

(1) السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد: لباب النقول في أسباب النزول، دار إحياء العلوم،
بيروت، ١٣٠.

٥- السريع:

ورد اسمه تعالى (السريع) مفردا في عشرة مواضع، ثمانية منها ورد مضافا إلى لفظ الحساب، (سريع الحساب)، وفي موضعين اثنين ورد مضافا إلى لفظ العقاب (سريع العقاب).

و(السريع) كما تم شرحه سابقا هو الذي " لا يشغله حساب أحد عن حساب غيره، فيطول الأمر في محاسبة الخلق عليه " (١).

وهنا يمكن فهم أن الله سبحانه سريع الحساب، في الدنيا أو في الآخرة، يقول الإمام أبو حيان رحمه الله: " والله سريع الحساب، ظاهر الإخبار عنه تعالى بسرعة حسابه، وسرعته بانقضائه، كقصد مدته، وفروي كقدر حلب شاة، وروي بمقدار فواق ناقة، وروي بمقدار لمحة بصر، أو لكون حساب العالم كحساب رجل واحد، أو لقرب مجيء الحساب، وقيل هو على حذف مضاف أي : سريع مجيء يوم الحساب، فالمقصود الإنذار بسرعة مجيء يوم القيامة " (٢).

إذن فالمقصود يحتمل المعنيين، سريع المجيء بيوم القيامة فيجازي المؤمن ويحاسب الكافر، أو سريع حسابهم يوم القيامة " بمعنى أنه يحاسب الجميع في أقل من لمح البصر، فالبعض يظن أنه سيقف يوم القيامة في طابور طويل لينتقى حسابه، لا، هو يحاسب الجميع بسرعة تناسب طلاقة قدرته، ولذلك عندما سئل الإمام علي -كرم الله وجهه- : كيف سيحاسب الله الناس في وقت واحد؟ فقال الإمام علي -رضي الله عنه : كما يرزقهم جميعا في وقت واحد هو قادر على حسابهم في وقت واحد " (٣).

ويمكن القول أن الآيات التي اشتملت على الختم بسريع الحساب، كانت في اتجاهين:

١ - سياق يتحدث المولى فيه عن المؤمنين، وما عملوا من أعمال صالحة، فيطمئنهم أن الحساب سريع، ويكون الحساب هنا بمعنى الجزاء في الآخرة، " وكنى بالحساب عن المجازاة على الأعمال إذا كانت ناشئة عنها " (٤).

(١) الأسماء والصفات: ١٠٨.

(٢) البحر المحيط: ٣١٣/٢.

(٣) تفسير الشعراوي: ٢٩٣٧/٥.

(٤) البحر المحيط: ٣١٣/٢.

٢ - وسياق يدور الحديث فيه عن الكفار أو أهل الكتاب، فيكون الختم بسريع الحساب وعيدا لهم، وأن عليهم أن يكفوا عما هم عليه من سوء.

قال الإمام الألوسي رحمه الله: " فإنه سريع الحساب، أي يأتي حسابه عن قريب، أو يتم ذلك بسرعة، وقيل إن سرعة الحساب تقتضي إحاطة العلم والقدرة، فتفيد الجملة الوعيد "(١).

ويمكن ملاحظة الآيات التالية ليتضح الاتجاه الأول، قال تعالى:

- ١ - ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (البقرة: ٢٠٢)
- ٢ - ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (آل عمران: ١٩٩)
- ٣ - ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (المائدة: ٤).

وأما الاتجاه الثاني الذي يتناول سياقه الحديث عن الكفار وأهل الكتاب وما صنعوا، فالآيات التي تشير إليه هي:

- ١ - ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (آل عمران: ١٩)
 - ٣ - ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (النور: ٣٩).
- وهكذا يتضح لنا أن سريع الحساب، ختم موجه لطائفتين:

(١) الألوسي، محمود أبو الفضل: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار احياء التراث- بيروت: ١٧٣/٣.

- ١ - للمؤمنين تطمئن قلوبهم، فهو وعد من المولى أنه لن يضيع أعمالهم، " وكلمة (الحساب) كلمة تطمئن المؤمن إلى أن الله قائم بالقسط " (٢).
- ٢ - والطائفة الأخرى طائفة الكفار وأهل الكتاب فيكون الختم وعيدا لهم سواء كان ذلك في الدنيا أو في الآخرة.
- ولكن لماذا ورد (السريع) مضافا إلى (العقاب) في موضعين، ثم أعقبهما (وإنه لغفور رحيم)؟
- أما أن (السريع) أضيفت إلى العقاب، فذلك أمر يمكن ملاحظته من خلال السياق في الآيتين السابقتين، حيث يدور السياق حول ما عملوا من أعمال تستوجب العقاب، ولأن العقاب في القرآن الكريم ترد بعد ما يستوجبه. وإليك الآيتين :
- قال تعالى:

١. ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (الأنعام: ١٦٥)

٢. ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (الأعراف: ١٦٧)

فالآية الأولى تتحدث عن الكافرين اللذين كذبوا بآيات ربهم وصدفوا عنها، قال الإمام أبو حيان في معرض تفسيره هذه الآية: " لما كان الابتلاء يظهر به المسيء والمحسن والعاصي والطائع، ذكر هذين الوصفين، ولما كان الغالب على فواصل الآي قبلها هو التهديد، بدأ بقوله: سريع العقاب، يعني لمن كفر ما أعطاه الله تعالى " (١)

وأما الآية الثانية فتدور حول أولئك الذين نسوا ما ذكروا به، وكذلك عتوا عما نهوا عنه، فهم إذن يستحقوا العقاب، بل السرعة في العقاب، من أجل ذلك بعث الله عليهم من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة.

ولكن لماذا أعقبهما بقوله ﴿ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ؟

(2) تفسير الشعراوي: ١٣٦٥/٣.

(1) البحر المحيط: ٧٠٥/٤.

إنه لختم جميل رائع بهذين الاسمين ، بعد سرعة العقاب، ذاك لأن المولى لم يعذبهم لأنه سريع العقاب، وإنما عذبهم لأنهم استحقوا العقاب، فهو غفور رحيم، وليس سريع العقاب، ولكنهم لما صنعوا ما صنعوا استحقوا العقاب. والختم بالغفور الرحيم جميل يدفع النفس الإنسانية إلى المسارعة في الدخول في مغفرته ورحمته. يقول الشيخ الشعراوي في هذا السياق: " وحين يقول الحق سبحانه بعد سرعة العقاب " وإنه لغفور رحيم" قد نجد من يسأل كيف والحديث هنا عن العقاب؟ نقول: إنه سبحانه هو الذي يتكلم وهو القادر، فإذا قال :إنه لسريع العقاب، فهذا يعني أنه يسرع بعقاب المفسدين، لأنه غفور رحيم بالمظلومين، الذين يظلمون، إذن فسرعة عقاب الظلمة رحمة منه بالمظلومين. أو أن الله كما قال سريع العقاب، فإنه يأتي بالمقابل لكي يشجع كل إنسان على الدخول في رحمته^(١)

٧- الرؤوف:

ورد (الرؤوف) اسما للمولى مفردا في موضعين فقط، فيما ورد مقترنا ب(الرحيم) في ثمانية مواضع، ونحن هنا بصدد دراسته مفردا ، ويلزم بداية أن نفرق بين الاسمين (الرؤوف والرحيم)، فهما قطعا ليسا مترادفين، بل إن ثمة فرق واضح بينهما، ولو كانا مترادفين للزم أن يكونا مكررين، والنص القرآني أبلغ من أن يتكرر فيه اسمان في غير إضافة ولا زيادة. والعلماء فرقوا بين الرؤوف والرحيم ،قال الإمام أبو هلال العسكري: " إن الرأفة أبلغ من الرحمة " ^(٢). وأما الإمام فخر الدين الرازي فقد قال : " الفرق بين الرأفة والرحمة أن الرأفة مبالغة في رحمة خاصة، وهي دفع المكروه، وإزالة الضرر، كقوله تعالى: " ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله " أي لا ترأفوا بهما فترفعوا الجلد عنهما، وأما الرحمة فإنها اسم جامع يدخل فيه ذلك المعنى، ويدخل فيه الإفضال والإنعام، وقد سمى الله تعالى المطر رحمة " ^(٣) . إذن الأقرب إلى التفريق أن الرأفة أخص من الرحمة، بل

(١) الشعراوي: ٤٤١٩/٧.

(٢) الفروق اللغوية: ٢٢١.

(٣) تفسير الفخر الرازي: ١٢٠/٢.

إنها دفع المكروه، وإزالة الضرر، فالله رؤوف بعباده لا يعرضهم للتهلكة، ولا يدفع بهم في مكروه.

و(الرؤوف) ورد في موضعين هما قوله تعالى:

- ١ - ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (البقرة: ٢٠٧)
- ٢ - ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (آل عمران: ٣٠).

فإذا فهمنا الرؤوف على المعنى السابق يكون الختم به مناسباً، فهو في الآية الأولى لم يدفع المؤمنين، أن يشروا أنفسهم إهلاكاً لهم بل هو رأفة، ذاك لأنه ادخر لهم الأجر والثواب، وحين يتوهم متوهم أن الله إنما أراد إهلاكهم، يأتي الختم ليقول كلا بل هو رأفة بهم. فإذا كان المولى رؤوف بالعباد، فكيف بالذين شروا أنفسهم ابتغاء مرضاة الله.

يقول الشيخ الشعراوي في معرض تفسيره الآية الأولى: "ما العلاقة بين ما سبق وبين رؤوف بالعباد؟ فلم يشأ الله أن يجعل ذلك أمراً كلياً في كل مسلم، وإنما جعلها فلتات، لتثبت صدق القضية الإيمانية، لأنه لا يريد أن يضحى كل المسلمين بأنفسهم، وإنما يريد أن يستبقي منا أناس يحملون الدعوة" (١).

وأما الآية الثانية فالختم ب(الرؤوف) يأتي في سياق التأنيس والإطماع كما يرى الإمام الفخر الرازي: "لما ذكر صفة التخويف وكررها، كان ذلك مزعجاً للقلوب، فذكر صفة الرحمة ليطمع في إحسانه، وليبسط الرجاء في أفضاله، فيكون ذلك من باب ما إذا ذكر ما يدل على شدة الأمر، ذكر ما يدل على الرحمة، وهذا هو ابتداء إعلامه بهذه الصفة على سبيل التأنيس والإطماع لئلا يفرط الوعيد على قلب المؤمن" (٢). ويرى بعض المفسرين أن من رأفته بالعباد، ورحمته بهم أنه حذرهم نفسه، ولكننا مع الرأي الأول أميل، ذاك لأن هناك تحذير شديد من المولى "ويحذركم الله نفسه" وقد كررت مرتين، فقد جاء الختم ليطمئن نفوس المؤمنين أنه رؤوف ليس فقط بالمؤمنين وإنما بالعباد جميعاً.

(١) الشعراوي: ٨٧٧/٢.

(٢) البحر المحيط: ١٠٣/٣.

٨ - ذو الفضل العظيم:

(ذو الفضل) ورد مفردا في القرآن الكريم في ستة مواضع، وقد ورد منعوتا في المواضع جميعها بلفظ (العظيم).

وقد سبق توضيح المعنى اللغوي لاسمه تعالى (ذو الفضل)، ذاك " أن كل عطية لا تلزم من يعطي يقال لها فضل" (٣).

وحين نتبع هذا الاسم في السياقات المختلفة التي ورد فيها، وهي ستة نلاحظ أن هذا الاسم ورد ختما لآيات تدور في سياقاتها كلها حول نعم الله وأفضاله على العباد، فالختم فيه تذكير بنعم الله وأفضاله الكثيرة، التي يغرق فيها العباد. ويمكن ملاحظة الآيات التالية ليبين الأمر، قال تعالى:

١ - ﴿ مَا يَوْذُو الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (البقرة: ١٠٥)

٢ - ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (آل عمران: ٧٤)

٣ - ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (الأنفال: ٢٩).

فالآيات الثلاثة السابقة تتحدث عن فضل الله، وإن بدا ذاك الفضل في أشكال مختلفة، وأنواع متعددة، يظل بكل أنواعه فضلا من المولى سبحانه، فالآية الأولى كان الفضل فيها هو الخير الذي أنزله الله على المؤمنين والذي بدا في رحمته. قال المفسرون أن الرحمة هنا هي النبوة، وقال آخرون أنها القرآن. (١) وكذلك الآية الثانية التي هي على نفس المعنى الأول أن الرحمة هنا النبوة (٢). وأما الآية الثالثة فالفضل فيها واضح جلي، يتمثل في أن جعل للمؤمنين فرقانا يفرقون به بين الحق والباطل، وكفر عنهم سيئاتهم، وغفر لهم، وهو من أعظم الفضل وأحسنه.

(3) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم ص ٤٢٧.

(1) الجامع لأحكام القرآن: ٦٠/٢. وانظر كذلك جامع البيان: ٥٢٠/١. و الدر المنثور: ٢٥٤/١.

(2) الشوكاني، محمد بن علي: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ٥٣١/١.

وأما الآيات الثلاثة الأخرى فمناسبة الختم فيها واضحة، وهي مناسبة لفظية محضة، الختم فيها يناسب ما تقدم من ألفاظ، فهو سبحانه لما ذكر قبل الختم قوله " وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء " ناسب الختم بعدها أن يكون " والله ذو الفضل العظيم " . وإليك الآيات. قال تعالى:

- ١ - ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (الحديد: ٢١)
- ٢ - ﴿ لَيْسَ لَكَ عَلَى أَلْأَنْفُسِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (الحديد: ٢٩)
- ٣ - ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (الجمعة: ٤)

واضح من خلال الآيات السابقة أن الختم يشير إلى دفع توهم نفاد فضل الله، أو نقصه، فهو عظيم لا ينفد، مستمر لا ينقطع، ليهنأ البشر ويطمئنوا فلا يلجأوا إلا إليه، ولا يعتصموا إلا به. وفي هذا المعنى يقول الإمام الشعراوي رحمه الله: " الفضل هو الأمر الزائد عن حاجتك الضرورية، هذا عن الفضل بالنسبة للبشر، أما بالنسبة لله سبحانه، فإن كل ما في كون الله وفي الآخرة هو فضل الله، فانه غير محتاج لخلقه ولا لكل نعمه التي سبقت والتي ستأتي " (١).

٩- الوهاب:

(الوهاب) اسم للمولى ورد مفردا في القرآن الكريم في موضعين اثنين، قال تعالى:

- ١ - ﴿ رَبَّنَا لَا تُغْنِ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ (آل عمران: ٨)
- ٢ - ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ (ص: ٣٥)

(1) تفسير الشعراوي: ٥٠٦/١.

ولا يحتاج الأمر إلى كثير جهد لإدراك، العلة في الختم بهذا الاسم العظيم، (الوهاب) ذاك لأنه تعليل لسؤال قبله، فلما طلب المؤمنون في الآية الأولى أن يهبهم الله رحمة، عللوا ذلك أنك يا ربنا وهاب، وكذلك في الآية الثانية سأل سليمان عليه السلام ربه، ملكا لا ينبغي لأحد من بعده، وعلة ذلك أن الله وهاب، خزائنه لا تنفد، ورحمته لا تنقطع. والوهاب هو الذي يعطي من غير استحقاق للعبد، فهو عطاء منة وتكرم.

لأنهم لما سألوا المولى " سألوا بلفظ الهبة المشعرة بالتفضل والإحسان إليهم من غير سبب ولا عمل ولا معاوضة، لأن الهبة كذلك تكون، وخصوصا أنها من عنده " (٢).

والملاحظ في الآيتين أن المناسبة لفظية، فلما ذكر فعل الأمر (هب) ختم الآية ب(الوهاب)، وهو تناسب جميل. وتعليل مناسب، كذا قال الإمام الألويسي رحمه الله: " إنك أنت الوهاب، تعليل للسؤال أو لإعطاء المسؤول " (٣).

وكذلك أيضا فسر الإمام أبو حيان: " إنك أنت الوهاب، هذا كالتعليل لقولهم، وهب لنا، كقولك: حل هذا المشكل إنك أنت العالم بالمشكلات " (٤).

ولكن ما لا نوافق بعض المفسرين _ يرحمهم الله _ فيما ذهبوا إليه، أنهم رأوا أن بناء الوهاب على الفعال إنما جاء لمناسبة رؤوس الآي، فكأن المولى لم يورد الوهوب، وأورد الوهاب لمناسبة رؤوس الآي، وهذا ما لا نرتاح إليه، ونعطل الأمر بغيره.

يقول الإمام أبو حيان: " وأتى بصيغة المبالغة التي على فعال، وإن كانوا قد قالوا وهوب، لمناسبة رؤوس الآي " (١).

والحق أن (وهوب) لم ترد اسما للمولى، حتى في غير السياق الذي يناسب رؤوس الآي، وهي لم ترد في الحديث المدرج الذي عدد الأسماء الحسنى، وورود الوهاب في ختم الآيات السابقة، لم يكن لأجل مناسبة رؤوس الآي، وإنما لأن المعنى لا يحتمل غير هذا البناء، فهناك فرق واضح بين صيغتي فعول وفعال اللتين تكونان للمبالغة، فالوهوب هو من يهب الكثير دفعة واحدة، والوهاب هو من يهب مرة بعد مرة، وفي الآيتين السابقتين اعتراف بهبات المولى لهم في قولهم: " بعد إذ هديتنا " وهذا يتضمن معنى الوهوب، ولكنهم لما سألوا المولى هبة أخرى، بعد تلك الهبات التي وهبهم إياها، قالوا إنك أنت الوهاب، أي الذي تهب مرة بعد مرة، وهبة بعد أخرى.

(2) البحر المحيط: ٣٢/٣.

(3) روح المعاني: ١٤٧/٣.

(4) البحر المحيط: ٣٣/٣.

(1) البحر المحيط: ٣٣/٣. وانظر: روح المعاني: ١٤٧/٣.

يؤنسنا فيما ذهبنا إليه تفريق الإمام الغزالي بين اسمه تعالى (الغفور والغفار)، وهما صيغتان مشابھتان بالقياس لما نحن بصدد، يقول: "والغفور يدل على كثرة المغفرة بالإضافة إلى كثرة الذنوب، حتى إن من لا يغفر إلا نوعاً واحداً من الذنوب، قد لا يقال له غفور، والغفار يشير إلى كثرة على سبيل التكرار، أي يغفر الذنوب مرة بعد أخرى، حتى إن من يغفر جميع الذنوب، أول مرة ولا يغفر للعائد إلى الذنب مرة بعد أخرى، لم يستحق اسم الغفار" (٢).

١٠ - السميع:

ورد (السميع) مفرداً في خواتم الآيات في موضعين فقط، وقد ورد مضافاً إلى لفظ (الدعاء) في قوله (سميع الدعاء)، قال تعالى:

١- ﴿هَٰذَاكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (آل عمران: ٣٨)

٢- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (إبراهيم: ٣٩).

ومن الملاحظ أن زكريا - عليه السلام - دعا ربه، وإبراهيم - عليه السلام - أيضاً دعا ربه، وحين يكون الدعاء فهناك قول ونطق بالأعضاء فلزم عندها أن يكون الختم

ب (السميع)، ففي الآية الأولى (قال رب هب لي من لدنك ذرية ...) حيث ورد (قال)، ولكن العلماء على أن (سميع) هنا بمعنى مجيب الدعاء، قال الإمام أبو حيان:

" لما دعا ربه بأنه يهب له ولداً صالحاً، أخبر بأنه تعالى مجيب الدعاء، وليس المعنى على السماع المعهود، بل مثل قوله: سمع الله لمن حمده، عبر بالسماع عن الإجابة إلى المقصد، واقتفى في ذلك جده الأعلى إبراهيم - عليه السلام - " (١). وبمثل ذلك قال الإمام الألوسي والإمام الفخر الرازي (٢).

ولكن السؤال الآن لماذا لم يكن الختم بمجيب الدعاء؟ وهنا يمكن أن نلمح شيئاً جميلاً وهو أن زكريا عليه السلام اقتدى بأبيه إبراهيم في ذلك، وأما إبراهيم عليه السلام فإنه كان في قمة الأدب مع الله، فهو أخبر أنه يدعو المولى بحرارة، وبعدها إن شاء أجاب وإن لم يشأ لم

(٢) المقصد الأسنى: ٤١.

(١) البحر المحيط: ١٢٧/٣.

(٢) انظر روح المعاني: ٢٣٢/٣. وتفسير الفخر الرازي: ٣٨/٤.

يجب، ووفق مقتضى حكمته وإرادته، فلو أنه قال إنك مجيب الدعاء، واقتضت حكمة المولى أن يدخر له الدعاء ولا يجيبه، لخالف ظن إبراهيم في مولاه، ولبدا مولاه على غير ما يريد إبراهيم، وهو ما لم يحتمله النص ب(سميع الدعاء)، ذلك أن (سميع الدعاء) تشير إلى حالة التسليم التي انتابت إبراهيم عليه السلام، كأنه يقول : أنت يا رب تسمع دعائي، ودعاء غيري، فإن شئت أجبت دعوتي، وإن لم تنشأ فسأكون صابرا مسلما أمري إليك.

إنه فعل سيدنا أيوب عليه السلام، فهو لم يدع ربه حين مسه الضر، وإنما اكتفى بالقول: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٣)، وكذا صنع الحبيب المصطفى، _ صلى الله عليه وسلم _ حين لم يسأل ربه أن يوليه قبلة غير بيت المقدس، بل اكتفى أن يقلب وجهه في السماء. قال تعالى:

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: ١٤٤).

١٣- الغني:

(الغني) ورد ختما مفردا في موضعين اثنين، وقد ورد مقترنا بأسماء أخرى، ولكنه حين ورد مفردا ورد مضافا إلى لفظ (العالمين)، شأن الأسماء المفردة، التي تأتي مخصوصة بإضافة، مثل : (سميع الدعاء، شديد العقاب، سريع الحساب). قال تعالى:

١- ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٩٧).

٢- ﴿ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (العنكبوت: ٦).

وختم السياق ب(الغني) في الآيتين السابقتين، يأتي في غاية الدقة والإحكام، ذلك لأن السياق في الآيتين يتحدث عن العبادة، بل ليست أي عبادة فالآية الأولى تتحدث عن

الحج، والثانية تتحدث عن الجهاد في سبيل الله، وكلاهما من العبادات الشاقة التي تتطلب تضحية بالنفس وبالمال، ولكن هل المولى في حاجة إلى أن يحج الناس ويطوفون، ويعظمون البيت، ويجاهدون بأنفسهم وأموالهم، ويدفقون دماءهم من أجله؟! أم يفعلون ذلك من أجل أنفسهم هم فقط؟!!

إن الختم يأتي لجيب عن هذا التساؤل بوضوح، فالله غني عن جهنم، وعن جهادهم، وهم حين يقومون بما يقومون به إنما يقومون به من أجل أنفسهم فقط، ذاك أن الحاج والمجاهد قد يتبادر إلى ذهنه أنه إنما صنع أمرا عظيما للمولى بعبادته تلك، فيأتي الختم بالغني ليوضح الأمر، ويبين القضية، أن الله قد فرض ذلك من أجلكم لأنه غني عن عبادتكم مهما عظمت.

ولكن السؤال الآن، لماذا أضيف (الغني) إلى (العالمين)؟ وكان من الممكن في غير القرآن أن يكون الختم (والله غني عنه، أو غني عن حجه، أو جهاده). يجيب الشيخ الشعراوي على مثل هذا السؤال بقوله :

" إن الله غني عن كل مخلوقاته، وإياك أن تفهم أن الذي لم يكفر وآمن، وأدى ما عليه من تكليف، أنه عمل منفعة لله، إن الله غني عن الذي أدى والذي لم يؤد، وإياك أن تظن أن من أدى قد صنع لله معروفا، أو قدم لله يدا " (١).

فإذا كان المولى غنيا عن العالمين جميعا، عنهم وعن عبادتهم، فهو من باب أولى غني عن الشخص ذاته، وعن عبادته مهما عظمت في نظره، إن جملة والله غني عنه، قد يفهم معها أن المولى غني عنه هو فقط، ومحتاج لعبادة غيره، وهو ما يتعارض مع صفات الكمال للمولى سبحانه، من أجل ذلك نرى أن إضافة (الغني) للعالمين يدفع هذا الفهم، ويزيل هذا التوهم، ليظل ختم الآية مشيرا على تمام الكمال والتمام لصفات الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى في موضع آخر :

﴿ هَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُفْقَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَخْلُ وَمَنْ يَخْلُ فَإِنَّمَا يَخْلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ (محمد: ٣٨).

وهو الذي ذهب إليه ابن عطية الأندلسي : " والقصد بالكلام فإن الله غني عنهم، ولكن عمم اللفظ ليبيرع المعنى، وينتبه الفكر إلى قدرة الله، وسلطانه واستغنائه من

(1) تفسير الشعراوي: ١٦٤٤/٣.

جميع الوجوه حتى ليس به افتقار إلى شيء ^(١) وبمثله ذهب الإمام أبو حيان: " ومنها قوله عن العالمين ولم يقل عنه. ما فيه من الدلالة على الاستغناء عنه ببرهان، لأنه إذا استغنى عن العالمين، تناول الاستغناء عنه لا محالة، وقيل: في الكلام محذوف تقديره: فإن الله غني عن حج العالمين ^(٢).

١٤- الشهيد:

ورد (الشهيد) في القرآن الكريم اسما مفردا للمولى في ثلاثة عشر موضعا، جاء ضمن التركيبات التالية:

١- والله على كل شيء شهيد.

٢- وكفى بالله شهيدا.

٣- والله شهيد على ما تعملون أو تفعلون.

ولقد فسر العلماء (الشهيد) على أنه بمعنى (العليم)، قال الإمام الألوسي: " وأنت صيغة شهيد لتدل على المبالغة، لأن الشهادة يراد بها العلم في حق الله ^(٣). ولو كان الأمر كذلك، لورد في ختم الآيات (عليم) بدلا من (شهيد). بل إن استخدام حرف الجر (على) تدل على غير ذلك، والذي نميل إليه ونرجحه أنه لا ترادف بين الأسماء الحسنى، بل يظل كل اسم يحتفظ بدلالة ينفرد بها عن الآخر، وبمزية تفرد به عن الذي يليه.

و(الشهيد) كما بينت سابقا يكون بمعنى الحاضر الذي يحضر الأمر" يقال: شهدت الشيء، وشهدت به، من الشهادة التي هي الحضور ^(١). " والشهادة علم يتناول الوجود، والعلم يتناول الوجود والمعدوم ^(٢). والله شهيد: بمعنى حاضر، يشهد سبحانه على الخلائق جميعها، لأنه خالقها، وهو حاضر معها منذ اللحظة الأولى لتكوينها، وأثناء تكوينها وبعده.

(1) المحرر الوجيز: ٤٨٠/١.

(2) البحر المحيط: ٢٧٨/٣.

(3) البحر المحيط: ٢٧٩/٣.

(1) تفسير أسماء الله الحسنى: ٥٣/١.

(2) الفروق اللغوية: ١١٠.

ومادة (شهد) في القرآن الكريم وردت بمعنى الشهادة على الخلق، ووردت بمعنى الحضور. قال تعالى في المعنى الأول: " واستشهدوا شهيدين من رجالكم " (البقرة: ٢٨٢)، وفي المعنى الثاني قوله: " وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين " (النور: ٢).

والحقيقة أن (الشهيد) اسماً للمولى يحتمل المعنيين مجتمعين، فمن جهة هو شهيد، لأنه حاضر مشاهد لكل شيء، ومن أخرى فهو سيشهد على الخلق، وسيشهد على أعمال العباد يوم القيامة، لأن الشهادة كما رآها العلماء: " قول صادر عن علم حصل بمشاهدة بصر أو بصيرة، والشهود والشهادة: الحضور مع المشاهدة، إما بالبصر أو بالبصيرة " (٣).

ولا نميل إلى تفسير الشهيد بالعليم في خواتم الآيات التي ختمت بالشهيد، لأن الشهيد يتضمن معنى العليم ويزيد عليه في الدلالة، إن الشهيد يحمل في طياته استحضاراً ليوم القيامة، حين يشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم، إن فيه استحضاراً ليوم القيامة حيث الوقوف بين يدي الله، والفصل بين العباد. " ويطلق اسم الشهيد على الشاهد المقر بما رأى وسمع، وعليه يكون الشهيد من أسماء الله هو الذي يسمع ويرى ويثبت لعبده ما علمه منه ليجزيه به " (٤).

إن السياق الذي ورد فيه هذا الاسم الجليل يؤكد هذا المعنى ويقويه، من أن الشهيد ورد بمعنى الحاضر الذي يشهد على العباد وأعمالهم في الدنيا ويوم القيامة، ويتأمل هذه الآيات يتضح الأمر أكثر.

قال تعالى:

(3) بصائر ذوي التمييز: ٣/٣٥٠.

(4) اسما عيل، محمد بكر: أسماء الله الحسنى آثارها وأسرارها، دار المنار، الطبعة الأولى، ١٤٢١م، ٢٠٠٧.

١- ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (المائدة: ١١٧)

٢- ﴿ إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (الحج: ١٧) .

إن الآيتين السابقتين تشيران بوضوح إلى ذات المعنى الذي ذهبنا إليه، ففي الآية الأولى عيسى عليه السلام كان شهيدا عليهم، حاضرا بينهم مدة دوامه فيهم، إنه يشهد عليهم بما شاهده فيهم، فلما رفعه الله إليه، كان الله رقيباً عليهم.

إن (شهيد) المتعلقة بعيسى - عليه السلام - تأتي في سياق الشهادة وقول الحق، فهو لم يقل لهم أن يعبدوه، وإنما أمرهم أن يعبدوا الله وحده، وسيشهد أمام الله عليهم، وحتى لا ينصرف الذهن إلى أن المولى لم يكن شهيدا عليهم أثناء وجود عيسى عليه السلام بينهم، فقد ختم الآية (وأنت على كل شيء شهيد) . وكل شيء هنا تفيد الشمول والعموم، لتشملهم وتشمل أفعالهم جميعها، أي أنه كان شهيدا حين وجود عيسى وبعده، ليس شهيدا عليهم فحسب بل شهيدا على كل شيء، وإنما هم شيء في هذا الوجود، وشيء بسيط صغير .
ثم الآية الثانية التي يستحضر فيها الذهن يوم القيامة وما فيه من حساب من خلال قوله تعالى (إن الله يفصل بينهم يوم القيامة) ، ولن يكون في استطاعتهم الإنكار لأن الله سبحانه شهيد عليهم، بل وعلى كل شيء .

وهكذا يمضي سياق الآيات التي ورد فيها الختم ب(شهيد)، ولعل ملمحا آخر نلمحه في هذه الآيات الثلاثة التالية:

١- ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ (النساء: ٧٩)

٢ - ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾

(النساء: ١٦٦)

٣ - ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾

﴿(الفتح: ٢٨)﴾

فالايات السابقة ختمت بقوله: " وكفى بالله شهيدا " ، فلماذا لم تختتم بغير هذا التركيب كقوله " والله على كل شيء شهيد " ؟
هنا تتضح لنا الدقة في البناء، فالسياق لا يدور حول البشر وأعمالهم، وأحوالهم، بحيث يتطلب الختم الإشارة إلى أن الله شهيد عليهم، وعلى كل شيء، كلا إنما الحديث يدور هنا حول الرسالة، الرسالة التي أرسل الله النبي بها، ليبلغ الناس، فأنكرها الكفار، ولم يشهدوا بنبوته، فليس أنسب هنا من قوله " وكفى بالله شهيدا " أي يا محمد يكفي أن الله يشهد بصدقك، وأن رسالتك من عنده، وأنت صادق فيما تبلغ عنه.

١٤ - الوكيل:

ورد (الوكيل) في القرآن الكريم على أربعة أوجه، كما يرى الإمام الدامغاني وهي " المانع - الرب - المسيطر - الشهيد " ^(١). ولكننا حين ننتبع وروده في القرآن الكريم نجد أنه قد ورد مفردا في ثلاثة عشر موضعا، يختتم الله به الآيات في تراكيب مختلفة.

وعلى الرغم من توجيه الإمام الدامغاني لاسمه تعالى (الوكيل) فإنني أرى أن التوجيهات الأربعة السابقة لا تفي بالغرض، وأن السياق الذي ورد فيه الوكيل يؤكد ذلك، فالوكيل كما يرى الإمام العسكري: " القائم بتدبير خلقه، لأنه مالك لهم " ^(٢)، وقيل " الوكيل فعيل بمعنى مفعول، أي الموكول إليه الأمور " ^(٣).

(١) انظر: الوجوه والنظائر: ٤٧٢.

(٢) الفروق اللغوية: ٢٣٣.

(٣) البحر المحيط: ٤٣٨/٣.

وجاء أن " التوكيل أن تعتمد على غيرك وتجعله نائباً عنك، وكفى بالله وكيلاً، أي اكتف به أن يتولى أمرك، ويتوكل لك" (٤).

وهو بهذا المعنى يفسر في السياقات التي ورد فيها، إنه الكافي الذي يكفيك الأمور كلها، من رزق وحفظ ورعاية، إنه الكفيل الذي تكفل أمور العباد جميعها. وهذا ما ذهب إليه ابن الأنباري: " والذي اختار من هذا مذهب الفراء، وهو كافينا الله ونعم الكافي " (١). وذلك في تفسير قوله تعالى: " حسبنا الله ونعم الوكيل ". قال تعالى:

﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (النساء: ٨١)

وقال سبحانه:

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (النساء: ١٣٢).

فالآيتان السابقتان تشيران بوضوح أن الوكيل بمعنى الكفيل التي يتكفل بالحفظ من الأذى، ويتكفل بالرعاية، من رزق وبقاء وحماية وغير ذلك.

قال الإمام البيضاوي في تفسير ختم الآية الأولى: " يكفيك مضرتهم وينتقم لك منهم " (٢). وكذا في الآية الثانية، إن ملكية السماوات والأرض له، وهو الذي خلق تلك المخلوقات جميعها، وهو الوكيل عليها، وكافيتها وحاميها ورازقها.

إن الختم بقوله: (وكفى بالله وكيلاً) وقوله: (والله على كل شيء وكيل) يأتي في هذا السياق، سياق تكفل الله بكل شيء خلقه، تكفلاً كاملاً قائماً على تدبير الأمور، ورعايتها. ولعل الآيات التالية تشير إلى هذا المعنى.

قال تعالى:

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ (الإسراء: ٦٥)

﴿ وَلَا تَطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (الأحزاب: ٤٨)

(4) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ٦٠٤.

(1) الأنباري، أبي بكر محمد بن القاسم: الزاهر في معاني كلمات الناس، تحقيق الدكتور حاتم صالح الضامن، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد العراق، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م، ١٠٠.

(2) تفسير البيضاوي: ٢٢٤/١.

﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ (الزمر: ٦٢).

وهكذا يمضي السياق الذي يتناول هذا المعنى. ولا يختلف ما أسلفت به مع قوله (حسبنا الله ونعم الوكيل) لأن هذا التركيب ورد في القرآن الكريم مرة واحدة في سورة آل عمران.

قال تعالى:

﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمُ الْوَكِيلُ ﴾ (آل عمران: ١٧٣)

قال الإمام القرطبي: "نعم الوكيل: نعم المولى لمن وليه، وإنما وصف نفسه بذلك لأن الوكيل في كلام العرب هو المسند إليه القيام بأمر من أسنده إليه القيام بأمره، فلما كان القوم الذين وصفهم الله بما وصفهم به في هذه الآيات قد كانوا فوضوا أمرهم إلى الله، ووثقوا به، وأسندوا ذلك إليه، وصف نفسه بقيامه لهم بذلك، وتفويضهم أمرهم إليه بالوكالة" ^(١). أي نعم الوكيل الذي يتكفل بأمرنا، ويتوكل بها، والوكيل "هو من توكل إليه الأمور: أي نعم الموكل إليه أمرنا" ^(٢). وكذا يرى الإمام الرازي: "وأما الوكيل ففيه أقوال: أحدها أنه الكفيل. قال الشاعر:

ذكرت أبا أروى فبت كأني
أراد كأني برد الأمور كفيل" ^(٣).

ولا غرابة في أن يكون الوكيل في الآية السابقة بمعنى الكافي، فيكون التقدير كافينا الله ونعم الكافي، قال ابن الأنباري: "والذي اختار من هذا هو مذهب الفراء، وهو أن يكون المعنى: كافينا الله ونعم الكافي، فيكون الذي بعد نعم موافقا للذي قبلها، كما تقول رازقنا الله ونعم الرازق، وخالقنا الله ونعم الخالق، وراحمنا الله ونعم الراحم، فيكون هذا أحسن في اللفظ من قولك: خالقنا الله ونعم الكفيل" ^(٤)، "والكافي

(1) جامع البيان: ٢١٧/٣.

(2) فتح القدير: ٥٣٧/١.

(3) تفسير الفخر الرازي: ١٠٤/٥.

(4) الزاهر في معاني كلمات الناس: ١٠٠.

والكفيل يجوز أن يسمى وكيلًا، لأن الكافي يكون الأمر موكولا إليه، وكذا الكفيل يكون الأمر موكولا إليه" (٥).

١٥- الرقيب:

ورد (الرقيب) مرتين اسما للمولى مفردا في خواتم الآي، قال تعالى:

١- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: ١).

٢- ﴿لَا يَجِلُّ لَكَ النَّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ (الأحزاب: ٥٢).

قال الإمام الدامغاني: "تفسير الرقيب على وجهين، الحفيظ والانتظار" (١)، وفي الفروق أن الرقيب: "هو الذي يرقبك لئلا يخفى عليه فعلك" (٢). وهو كذلك عند أبي حيان: "الرقيب فعيل للمبالغة، من رقب يرقب، إذا أحد النظر إلى أمر ليتحققه على ما هو عليه ويقترن به الحفظ" (٣). فالله سبحانه رقيب لأنه يرى أفعال العباد، ويرقبها ويحفظها لهم، ثم يحصيها لهم، ويحاسبهم عليها.

١. والختم بالاسم يأتي في هذا السياق، جاء في تفسير الآية الأولى: "وختم

الآية بما يكون كالوعد والوعيد والترغيب والترهيب، فقال: إن الله كان عليكم رقيبا، والرقيب هو المراقب الذي يحفظ عليك جميع أفعالك، ومن هذا صفته فإنه

(5) تفسير الفخر الرازي: ١٠٥/٥.

(1) الوجوه والنظائر: ٢٤٢.

(2) الفروق اللغوية: ٢٣٢.

(3) البحر المحيط: ٤٨٩/٣.

يجب أن يخاف ويخشى " (٤). فالآية الأولى فيها دعوة إلى التقوى " اتقوا ربكم " ، " واتقوا الله " ، فالله رقيب على أعمالكم يحفظها لكم ، والختم بهذا الاسم جميل رائع حيث يكون به دفع توهم من يرى أن كثرة الخلق وتتابعهم وتدفعهم من لدن آدم عليه السلام ، وانغماس المرء بينهم يفلته من قبضة الرقابة التي تحصي عليه عمله وتحفظه له أو عليه لتحاسبه به، من أجل ذلك كان الختم بالرقيب، الرقيب الذي لا تعجزه الكثرة الكاثرة، والملح الآخر أن المولى لم يقل على أعمالكم رقيباً، بل عليكم أنتم، وما يصدر عنكم من أعمال، ف(عليكم) أكثر شمولاً من (أعمالكم). وتأتي الآية الثانية من سورة الأحزاب لتتسجم مع هذا المذهب، " وكان الله على كل شيء رقيباً " وهنا شمول أكثر، كل شيء، يفيد الشمول والعموم، فلما كانت الآية الأولى " وكان الله عليكم رقيباً " هنا تتسع دائرة الرقابة والحفظ أكثر، بل على كل شيء. وهو أمر يتطلب تمام الحذر، واليقظة، في كل حركة وسكنة. فإن قيل وما الفرق إذن بين البصير والرقيب، نقول إن البصير من يطلع على كل شيء بالمطلق، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، والرقيب كذلك بيد أن الرقيب ينفرد أنه يرى أعمال العباد، ويحفظها لهم ليحاسبهم عليها. يؤكد هذا المعنى، معنى الرقيب في تلك الآية: ﴿ مَا يُلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (ق: ١٨) .

١٦- الحسيب :

ورد (الحسيب) اسماً مفرداً للمولى في ثلاثة مواضع، بتركيبتين مختلفتين: (وكفى بالله حسيباً_ إن الله كان على كل شيء حسيباً) .
والحسيب فعيل بمعنى اسم الفاعل، أي بمعنى محاسب، " وأصل الحسيب في هذا الموضع عندي فعيل من الحساب، الذي هو في معنى الإحصاء، يقال منه : حاسبت فلاناً على كذا وكذا" (١). ولكن (الحسيب) ورد في اللغة على معنى الكافي، من الفعل حسبي، أي يكفيني. وليس الأمر كذلك في السياقات التي ورد فيها الاسم. كما يرى الإمام ابن جرير: " وقد زعم أهل البصرة من أهل اللغة، أن معنى الحسيب في مثل هذا

(4) تفسير الفخر الرازي: ١٧٣/٥ .

(1) جامع البيان: ٢٣٥ / ٤ .

الموضع: الكافي. يقال منه أحسبني الشيء يحسبني إحساباً، بمعنى كفاني من قولهم: حسبي كذا وكذا. وهذا غلط من القول وخطأ، وذلك أنه لا يقال أحسبني الشيء أحسب على الشيء، فهو حسيب عليه، وإنما يقال هو حسبه وحسيبه، والله يقول إن الله كان على كل شيء حسيباً^(٢).

وكذا ذهب الإمام القرطبي: "كفى الله حاسباً لأعمالكم، ومجازياً بها، وفي هذا وعيد لكل جاحد حق"^(٣).

وبمثله رأى الإمام فخر الدين: "أي هو محاسبكم على أعمالكم، فكونوا على حذر من مخالفة هذا التكليف"^(٤).

وحين يكون (الحسب) بمعنى المحاسب الذي يحاسب العباد، على ما قدموا، فإن سياق الآيات يستقيم مع المعنى، ولنتأمل الآيات التي ورد فيها. قال تعالى:

١- وَأَبْلَوْا الْمَوْتَ حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْعِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (النساء: ٦)

٢- وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا (النساء: ٨٦)

٣- الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (الأحزاب: ٣٩)

وبتأمل الآيات نجد أن (الحسب) مناسب في سياقه، فالآية الأولى يدور الحديث فيها عن الأيتام، وإعطائهم أموالهم، محسوبة على تمامها لا تنقص، وهي مسألة حسابية يناسبها الختم بـ (الحسب) الذي يحاسب جميع العباد، بما فيهم الوصي، قال الإمام الألوسي في معرض تفسيره هذه الآية:

"كفى به تعالى محاسباً لكم، فلا تخالفوا ما أمرتم به، ولا تجاوزوا ما حد لكم، ولا يخفى موقع المحاسب هنا، لأن الوصي يحاسب على ما في يده"^(٥).

وكذا الأمر في الآية الثانية حيث أمرنا المولى سبحانه أن نرد التحية بأحسن منها، أي أن نزيد عليها، فلا ننقص، وهو أمر يتعلق بالزيادة والنقصان، فلا نحاسب من يلقي

(٢) السابق نفسه: ٢٣٥/٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٤٥/٣.

(٤) تفسير الفخر الرازي: ٢٢٣/٥.

(٥) روح المعاني: ٣٢٦/٣.

التحية أن نحسب تحيته كما طرحها فنردها بمثلها، بل علينا الزيادة لأن الله حسيب لكل شيء، " حسيب فعيل من الحساب، وحسنت هذه الصفة هنا، لأن معنى الآية، في أن يزيد الإنسان أو ينقص أو يوفي قدر ما يجيء به ^(٢) ". وكذلك الحال في الآية الثالثة، وهي من سورة الأحزاب، حيث الخطاب موجهًا للنبي صلى الله عليه وسلم، ألا يلتفت إلا الله، لأنه هو الذي سيحاسبهم على ما قدموا.

١٧- الرحيم:

سبق أن أشرت في الفصل الثاني في معرض حديثي عن اسمه تعالى (الرؤوف)، إن ثمة فرق بين الرؤوف والرحيم، وفرقت هناك بينهما بتفصيل يغني عن الإعادة هنا ^(١).

و(الرحيم) ورد مفردا في خواتم الآيات في ثلاثة مواضع هي قوله تعالى:

١ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا

تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (النساء: ٢٩)

٢ - ﴿رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّه كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾

(الإسراء: ٦٦)

(2) الجامع لأحكام القرآن: ٢٦٧/٣.

(1) انظر: الفصل الثاني من هذا البحث: الرؤوف مفردا: ص (٣٣ - ٣٤).

٣ - ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝﴾ (الأحزاب: ٤٣).

وأول ما يمكن ملاحظته في نظم الخواتم، أن التركيب جاء (إنه كان بكم رحيمًا، وكان بالمؤمنين رحيمًا) حيث إن رحمته سبحانه، لا تختص بالمؤمنين فقط، وإنما جاءت عامة للجميع، فالختم " إنه كان بكم رحيمًا " تشمل العباد جميعهم، مؤمنهم وكافرهم، إنسهم وجنهم، وهو من كمال رحمته، لأن المؤمنين لم يكونوا مؤمنين قبل إيمانهم، فكان المولى يرحمهم، فلما آمنوا استمرت رحمة الله تترى لهم، يقول الإمام الغزالي: " ورحمة الله تامة وعامة، وأما تمامها فمن حيث أنه أراد قضاء حاجات المحتاجين وقضاها، وأما عمومها فمن حيث شمولها المستحق وغير المستحق " (٢). وكذا يرى الإمام فخر الدين : " إنه كان بكم رحيمًا، عام في حق الكل، والمراد من الرحمة منافع الدنيا ومصالحها" (٣)

ولكن السؤال الآن، ما وجه المناسبة في ختم الآيات بالرحيم؟

يتبدى ذلك بوضوح من سياق الآيات، فالرحمة يقابلها المشقة والتعسير، إذن فكل ما يدفع المشقة، ويهون سبل الحياة ويسهلها يكون فيه رحمة، والآيات الثلاثة السابقة تدور حول هذا المعنى. فالآية الأولى... أكل الأموال بالباطل بين البشر فيه ظلم وقسوة ومشقة، وقتل النفوس فيه شدة وألم وعناء، والنهي عنهما لا يكون إلا من تمام الرحمة، يقول الإمام الفخر الرازي: " ثم بين تعالى أنه رحيم بعباده، ولأجل رحمته نهاهم عن كل ما يستوجبون به مشقة أو محنة، وقيل إنه أمر بني إسرائيل بقتلهم أنفسهم ليكون توبة لهم، وتمحيصا لخطاياهم، وكان بكم يا أمة محمد رحيمًا

حيث لم يكلفكم تلك التكاليف الصعبة " (١). وكذا يرى الإمام الألوسي: " إن الله كان بكم رحيمًا، تعليل للنهي، والمعنى إنه تعالى لم يزل مبالغًا في الرحمة، ومن رحمته بكم نهيكم عن أكل الحرام، وإهلاك الأنفس، وقيل معناه : أنه كان بكم يا أمة محمد رحيمًا، إذ لم يكلفكم قتل الأنفس في التوبة كما كلف بني إسرائيل بذلك " (٢).

وأما الآية الثانية ... فإن عدم وجود الفلك ، وعدم ركوب البحر، وحرمان البشر من خيراته، وحرمانهم من نعم الله التي أودعها فيه، أمر فيه مشقة وعنت، وإجزاء الله الفلك للبشر، وتمكينهم من ارتياد البحر وركوبه، رحمة وأي رحمة. قال الإمام

(2) المقصد الأسنى: ٦٢.

(3) تفسير الفخر الرازي: ١١/١١.

(1) تفسير الفخر الرازي: ٧٥/٥.

(2) البحر المحيط: ٢٤/٤.

الشوكانى: " كان بكم رحيمًا، تعليل لما تقدم فهذاكم إلى مصالح دنياكم " (٣)، وكذا قال الإمام البيضاوى: " حيث هيا لكم ما تحتاجون إليه، وسهل عليكم ما تعسر من أسبابه " (٤)

" والتعبير يلمس القلوب لمسة قوية، وهو يشعر الناس أن يد الله ترحي لهم الفلك في البحر وتدفعه لبيتغوا من فضله، إنه كان بكم رحيمًا، فالرحمة هي أظهر ما تستشعره القلوب في هذا الأوان " (٥).

وأما الآية الثالثة ... فإبقاء الناس في ظلمات الكفر فيه عذاب ومشقة وضنك، وإخراجهم من ذلك إلى نور الإيمان لا يكون إلا بسبب من رحمة من لدنه، وهي رحمة أي رحمة. ليس ذلك فحسب بل صلاة الله على المؤمنين هي الرحمة بعينها " هو الذي يصلي عليكم، والصلاة في المشهور - وروي ذلك عن ابن عباس - من الله تعالى رحمة، ومن الملائكة استغفار، ومن مؤمني الإنس والجن دعاء " (٦)

من أجل ذلك كان الختم بالرحيم، مناسب تمامًا لمطالع الآيات، والآيات السابقة لم تأت لإثبات صفة الرحمة للمولى بشكل عام، وإنما جاءت تعليلًا لما سبق، أي صنع لكم ما صنع لأنه رحيم بكم، وهو الذي يفسر مجيء الختم مختصًا بقوله (بكم ، بالمؤمنين)، ولم يأت مطلقًا كأن يكون (والله هو الرحيم) مثلًا في غير القرآن.

١٨ - النصير:

ورد (النصير) اسما للمولى سبحانه وتعالى مفردًا، في خواتم الآيات في ثلاثة مواضع، وقد جاء في تركيبين مختلفين، فقد ورد (وكفى بالله نصيرا)، (ونعم النصير).

(3) فتح القدير: ٣٠٦/٣.

(4) تفسير البيضاوى: ٤٥٦/١.

(5) في ظلال القرآن: ٢٢٤٠/٤.

(6) روح المعاني: ٦١/١٢.

والنصير يتضح معناه من مادته اللغوية (نصر) "والنصر إعانة المظلوم نصرة على عدوه" ^(١) وكذا "النصير فاعيل بمعنى فاعل أو مفعول لأن كل واحد من المتناصرين ناصر ومنصور، وقد نصره إذا أعانه على عدوه" ^(٢) .

(النصير) ورد في خواتم الآيات يحمل المعنى اللغوي نفسه، قال الإمام الطبري: "ونعم النصير، أي نعم الناصر هو على من بغاه بسوء" ^(٣) . ولنعد الآن إلى الآيات الثلاثة، لنرى هل يتحقق هذا المعنى أم لا؟

قال تعالى:

- ١- ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴾ (النساء: ٤٥)
- ٢- ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاغْلُظْوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ (الأنفال: ٤٠)
- ٣- ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ (الحج: ٧٨) .

أما الآية الأولى فواضح فيها وجه الختم، إن ثمة أعداء للمسلمين، يكيّدون لهم دون توقف، يضمرون لهم العداء، يشترتون الضلالة، ليس ذلك فحسب بل يريدون أن تضلوا السبيل، فهم ضالون مضلون، فهو إذن نصيركم عليهم، وهو الذي سيدفع عنكم عداوتهم، ويصد كيدهم، إن الآية بدأت بالعداوة، فلزم أن تنتهي بالنصرة، ولا سيما إذا كان الخطاب موجهاً للمؤمنين.

إن الآيات الثلاثة تدور حول هذا المعنى، إن ثمة عداوة أو جهاد أو موقف يتطلب النصرة، فمن المناسب جداً أن تختم الآية بـ (النصير). فالآية الثانية سبقت بآية تدعو المؤمنين إلى القتال. قال تعالى: ﴿ وَمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ (الأنفال: ٣٩). فتأتي الآية التي تليها:

﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاغْلُظْوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ (الأنفال: ٤٠).

وكذلك الأمر في الآية الثالثة، فهي قد بدأت بقوله (وجاهدوا في الله حق جهاده)، والجهاد يحتاج إلى نصر، فلزم أن يؤكد الختم بـ (النصير). في قوله "ونعم النصير" .

(١) اللسان: ٢١٠/٥.

(٢) النهاية في غريب الأثر: ١٤٣/٣.

(٣) جامع البيان: ٢٤٥/١٠.

إن النصر تكون بالمساعدة والمعونة. قال الإمام العسكري: والنصرة تكون بالمعونة والتقوية " (١). النصير إذن هو الذي يساعدك ويقويك ويعينك على مواجهة أمر شق عليك حمله، وصعب عليك أمره، لأن لفظ (نصير) وردت لغير المولى، وكانت تحمل المعنى نفسه. قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ (النساء: ٥٧)، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ (النساء: ١٤٥). وقال: ﴿إِذَا نَادَيْتُكَ ضَعْفَ الْحَيَاةِ وَضَعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ (الإسراء: ٧٥). فالنصير في الآيات السابقة، غير موجود (لن تجد)، لأنه لا أحد يستطيع أن يساعد أو يقف مع من أراد الله له العذاب. والسؤال الآن لماذا اقترن اسمه تعالى (النصير) مع (المولى) في قوله: "نعم المولى ونعم النصير"؟ والأمر يسير، فالمولى هو الذي يدفع عن المؤمنين المكروه، والنصير هو الذي يسانداهم فيمكنهم من الظهور على هذا المكروه فينصرهم عليه، كأن المولى لدفع الشدة، وإزالة المكروه، والنصير لتمكين المؤمنين من الظهور على شدتهم، فيجلب لهم المنفعة والنصرة. وقد سبق أن أشرت إلى هذا المعنى في التفريق بين أسمائه الحسنى (الولي_ المولى_ الوالي). (٢) ويرى الإمام الألوسي أن تكرار الفعل (نعم) لتأكيد كفايته عز و جل: "وتكرير الفعل في الجملتين مع إظهار الاسم الجليل، لتأكيد كفايته، مع الإشعار بالعلية" (٣).

١٩- المقيت:

(1) الفروق اللغوية: ٢١٤.
(2) انظر الفصل الثاني من هذا البحث: ص ٦٠.
(3) روح المعاني: ٦٨/٤.

هذا الاسم الجليل نال حظا من الدرس والتحليل من قبل العلماء، حظا وافرا، ولا سيما أنه لم يرد في القرآن الكريم إلا في موضع واحد في سورة النساء.
قال تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِھْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً﴾ (النساء: ٨٥).

والحق أن الاسم في عمومه لا خلاف في مدلوله، لأن الأصل اللغوي يفصح عن دلالاته، ولكن الشيء الملفت للنظر حقا هو وروده في سياق لا يحتل الاسم في مدلوله اللغوي العام، الأمر الذي جعل العلماء يعملون عقولهم في البحث عن وجه مناسبته للسياق، واحتاروا في ذلك واختلفوا.

والمقيت في اللغة : " الذي يعطي كل شيء قوته، والقوت: ما يمسك الريق من الرزق، وأنا أقوته أي: أعوله برزق قليل، يقال: ما عنده قوت ليلة، أي ما يقوم به بدن الإنسان من الطعام. وقيل: المقيت هو الحفيظ الذي يعطي الشيء على قدر الحاجة من الحفظ "(١).

إذن لا مشكلة في تحديد المدلول اللغوي للاسم، فهو الذي يعطي الخلائق أقواتها، ويمدها بما يبقّيها حية ويحفظها. ولكن ما وجه المناسبة في ختم الآية بهذا الاسم؟
والآية قد وردت في سياق الجهاد قال تعالى في الآية السابقة لها:
﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنكِيلاً ﴾ (النساء: ٨٤).

قال الإمام الراغب الأصفهاني: " وكان الله على كل شيء مقيتاً، قيل مقتدرا، وقيل حافظاً، وقيل شاهداً، وحقيقته قائماً عليه يحفظه ويقويه، لأن القوت ما يمسك الرمي، وجمعه أقوات "(٢).

لكن الإمام ابن الجوزي ذهب أبعد من ذلك فقال: " وفي المقيت سبعة أقوال أحدها أنه المقتدر، والثاني أنه الحفيظ ، وبه قال قتادة والزجاج، وقال هو بالحفيظ أشبه لأنه مشتق من القوت يقال: قت الرجل أقوته قوتا إذا حفظت عليه نفسه بما يقوته ، فمعنى المقيت

(١) اللسان : ٢١٤/١٢.

(٢) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ٤٦٢.

الحافظ الذي يعطي الشيء على قدر حاجته من الحفظ، والثالث: أنه الشهيد، والرابع: أنه الحسيب، والخامس أنه الرقيب، والسادس: أنه الدائم، والسابع: أنه معطي القوت. ^(١) ونحن هنا نستطيع استبعاد خمسة من الأوجه السابقة، لأن الحسيب والرقيب والشهيد والدائم لا يحتملها السياق، ولأنها لو صحت لقلنا بترادف الأسماء وهو ما ذهبنا بخلافه سابقا، جريا على الأوجه من رأي العلماء. ثم الوجه السابع والأخير وهو أنه معطي القوت، في دائرة الاستبعاد أيضا لأن الحفيظ يشمل، يظل التحليل إذن محصورا في وجهين: المقتدر و الحفيظ. وأما المقتدر فلأن المقيت ورد في الشعر العربي بمعنى المقتدر، وهو أمر تحتمله اللغة، قال الإمام الألوسي: "وكان الله على كل شيء مقيتا، أي مقتدرا، كما قاله ابن عباس حين سألته نافع بن الأزرق، واستشهد عليه بقول أحيحة الأنصاري:

وذي ضغن كفت النفس عنه وكنت على مساء ته مقيتا

وفي رواية أخرى عن ابن عباس رضي الله عنهما - أنه الحفيظ، واشتقاقه من القوت لأنه يقوي البدن ويحفظه" ^(٢).

وكذا يرى الإمام البيهقي: "المقيت هو المقتدر، فيرجع معناه إلى صفة القدرة، وقيل المقيت الحفيظ، وهو معطي القوت فيكون من صفات الفعل" ^(٣). فإذا قلنا أن المقيت بمعنى القادر أو المقتدر، فلماذا لم يرد (وكان الله على كل شيء قادرا)؟ يجب على هذا التساؤل الإمام الغزالي: " وإما أن يكون معناه المستولي على الشيء القادر عليه، والاستيلاء يتم بالقدرة والعلم، وعليه يدل قوله عز وجل، وكان الله على كل شيء مقيتا، أي مطلقا قادرا، فيكون معناه راجعا إلى القدرة والعلم، فيكون وصفه بالمقيت أتم من وصفه بالقادر وحده وبالعالم وحده، لأنه دال على اجتماع المعنيين" ^(٤).

واضح إذن أن المقيت بمعنى القادر، بل يزيد عليه باشتماله على معنى العليم، من أجل ذلك يكون المقيت أنسب من الاثنين مجموعين. وكذلك أشرت إلى أن المقيت أيضا بمعنى الحفيظ، وهو أمر تحتمله اللغة، وقال به العلماء. يظل السؤال الآن قائما، مادام الاسم يحتمل المعنيين، فما وجه المناسبة في الختم بالمقتدر مرة، وبالحفيظ مرة

(1) زاد المسير في علم التفسير: ١٥١/٢.

(2) روح المعاني: ١٤٤/٤.

(3) البيهقي، أحمد بن الحسين: الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد علي مذهب السلف وأصحاب الحديث، تحقيق أحمد عصام الكاتب، دار الأفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠١، ٥٩.

(4) المقصد الأسنى: ١١٣/١.

أخرى؟يجيب عن السؤال الإمام فخر الدين الرازي: " وفي المقيت قولان :الأول :القادر على الشيء،ومنه: وذي ضغن كفتت النفس عنه وكنت على إساءته مقيتا .
والثاني :مشتق من القوت،فالمقيت هو الحفيظ الذي يعطي الشيء على قدر الحاجة، قال القفال: وأي المعنيين كان فالتأويل صحيح، وهو أنه قادر على إيصال النصيب والكفل من الجزاء إلى الشافع مثل ما يوصله إلى المشفوع فيه،إن خيرا فخير وإن شرا فشر،ولا ينتقص بسبب ما يصل إلى الشافع شيء من جزاء المشفوع. وعلى الوجه الثاني: أنه تعالى حافظ الأشياء شاهد عليها لا يخفى عليه شيء من أحوالنا، فهو عالم بأن الشافع يشفع في حق أو في باطل حفيظ عليه فيجازي كلا بما علم منه"^(١).
وبالبحث على أن المقيت في الآية يحتمل المعنيين ولكنه إلى المعنى الأول أميل،وذلك للأسباب التالية:

١ - أن السياق أكثر دلالة عليه،لأنه إلى معنى القدرة أحوج، فالآية التي ورد فيها الاسم لا يمكن فصلها عن سابقتها مطلقا، لأن فيها تعلق إليها.ولنلاحظ الآيتين:
﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴾ (النساء: ٨٤).
﴿ مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا ﴾ (النساء: ٨٥).

فالآية الأولى فيها الدعوة إلى القتال، وتحريض المؤمنين، وأن ثمة بأس واقع من الذين كفروا، الله سيكفه عن المؤمنين،فهو قادر على نصر المؤمنين، وكف بأس الذين كفروا وهو قادر على أن يثيب صاحب الشفاعة الحسنة، مثلما هو قادر أن يجازي صاحب الشفاعة السيئة، فيناسب الختم هنا الإشارة إلى قدرته سبحانه.

٢ - أن التركيب هنا يشير إلى شيء من هذا ، فقوله (على كل شيء)يناسبها قدير ،أو ما في معناها، لأن ثمة آيات مشابهة حملت التركيب نفسه مع قدير.فإذا قلنا أن المقيت هو الذي يمنح الأشياء قوتها، ليبقيها ويحافظ عليها لناسب التركيب عندها أن يكون (وكان الله لكل شيء مقيتا).

(1)تفسير الفخر الرازي : ٢١٥/٥.

٢٠ - علام الغيوب:

(علام) ورد في القرآن مفردا في أربعة مواضع ختما للآيات الكريمات، وهو لم يرد إلا مضافا إلى لفظ (الغيوب)، إن صيغة فعال " تقتضي الاستمرار والتكرار والإعادة والتجدد " ^(١)، والفعل " إذا تكرر وقتا بعد وقت قيل فعال مثل: علام وصبار " ^(٢) .
ولأن (علام) بناء للمبالغة يدل على الكثرة كما سبق، فقد ناسب أن يضاف إلى الغيوب، والغيوب لفظ جمع، يدل فيما يدل على الكثرة، وفي ذلك دقة عجيبة في استخدام كل من اللفظين، فلم يرد في القرآن مثلا (علام الغيب)، ولا (عالم الغيوب)، فعلام الغيب في غير القرآن تشير إلى أنه علم الغيب، ثم علمه، ثم علمه وهكذا، فلا مزية، ولا فائدة في تكرار العلم بغيب واحد.

لكن علام الغيوب تشير فيما تشير إليه إلى التنوع، فهي غيوب كثيرة بالنسبة للبشر، متعددة متنوعة، وهو علام بها.

وعالم الغيوب تشير في غير القرآن إلى أنه علم الغيوب كلها جميعا، ولكن علام الغيوب تشير إلى أنه علم الغيوب كلها جميعا، وإضافة لذلك علم كل غيب وما يتعلق به، علم شمول وإحاطة، ناهيك عن جمالية التشكيل اللفظي حيث المناسبة اللفظية، فـ (علام) لفظ يدل على الكثرة، والغيوب جمع يفيد الكثرة، فاقترض إتيان البناء، ودقة النظم أن يتناسب اللفظان ^(٣).

بعد أن تم توضيح جمالية التركيب وبلاغته (علام الغيوب) يظل السؤال قائما، ما وجه المناسبة في ختم الآيات بهذا الاسم الجليل؟ قال تعالى:

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ (المائدة: ١٠٩)

(١) معاني الأنبياء: ١١٠.

(٢) الفروق اللغوية: ٣٦.

(٣) انظر: الفصل الأول من هذا البحث : ص ٤٠.

١- ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ (المائدة: ١١٦)

٢- ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ (التوبة: ٧٨)

٣- ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ (سبا: ٤٨).

أما الآية الأولى فالختم يأتي على لسان الرسل -عليهم السلام - حين يسألهم المولى عن إجابة أقوامهم لهم، يقول المولى لهم ماذا أجبتهم؟ فيقولون لا علم لنا، إنك أنت علام الغيوب، فـ (الرسل) في بداية الآية جاءت جمعا، لتدل على الكثرة، كثرة الرسل، وكذلك الإجابات متعددة وكثيرة، وهم ليسوا بقادرين على تذكر رد كل فرد دعوه في أقوامهم، وهم ليسوا بقادرين على معرفة ما أحدثه كل واحد بعدهم، لأنهم لا يعلمون الغيب . من أجل ذلك نفضوا أيديهم من تبعات الإجابة، خشية الوقوع في الزلل، فقالوا: (لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب).

ولكنني وجدت الشيخ الشعراوي قد لمح ببصيرته ملمحا آخر في هذه الآية له وجاهاته. يقول: " ولكننا نجد من يتساءل كيف إذن يقولون "لا علم لنا " على الرغم من أن هناك من استجاب لدعوتهم ومن لم يستجب؟

لأن الآخرة فيها حساب على نوايا القلوب والسرائر، لقد علم الرسل بالأمور العننية من أقوال وسلوك، لكن الحق يحاسب على حسب النية والسلوك" (١). حقا إنها غيوب كثيرة غابت عنهم، فلم يدركوها، غيوب النفوس البشرية وما انطوت عليه، حين دعوا أقوامهم، وغيوب أحوالهم وما أحدثوا بعد ذهاب رسلهم، وهذه الغيوب كلها لا يعلمها إلا علام الغيوب.

وأما الآية الثانية فهي تشمل الحوار بين المولى سبحانه وتعالى وعيسى عليه السلام، فلما قال عيسى " تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك " فنفى العلم بالغيب عن نفسه، ناسب أن يثبته الله سبحانه وتعالى. قال الإمام الزمخشري: " إنك أنت علام الغيوب ، تقرير للجملتين معا، لأن ما انطوت عليه النفوس من جملة الغيوب ، ولأن ما يعلمه علام الغيوب لا ينتهي إليه علم أحد " (٢).

(1) تفسير الشعراوي: ٣٤٤٦/٦.

(2) الكشف : ٣٤٧/١.

وأما الآية الثالثة فوجه المناسبة فيها واضح جلي، ذلك أنهم لما سألوا الله أن يؤتيهم من فضله، ثم بخلوا به، جعلوا يتناجون فيما بينهم، ويسرون في أنفسهم، وذلك كله في الآيات التي سبقت الآية، فأخبرهم سبحانه أنه ليس فقط يعلم ما أضمرته نفوسهم، وما تتاجوا به فيما بينهم، بل يعلم الغيوب جميعها " فعلم الله ليس مقصورا على معرفة أمورهم هم، بل علم الله سرهم ونجواهم، لأن صفته القيومية، وأنه علام الغيوب، يعلم غيب هذا وغيب هذا وغيب هذا وجاءت المبالغة من تكرار علم غيب كل أحد" (٣).

والآية الرابعة هي التي تحتاج إلى وقفة أطول، لأن وجه المناسبة فيها يحتاج إلى تأمل والآية هي قوله تعالى :

﴿ قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَـٰمُ الْغُيُوبِ ۝ (سبأ: ٤٨) .

" وأصل القذف: الرمي بالسهم أو الحصى أو الكلام" (١) .

إن الآية وردت على لسان سيدنا محمد _ صلى الله عليه وسلم _ أي أن الله " يلقي الوحي وينزله على قلب من يجتنبه من عباده، وقيل إن ربي يلقي ما يلقي إلى أنبيائه عليهم السلام من الوحي بالحق لا بالباطل" (٢)

ولكن ما وجه المناسبة بين القذف بالحق وبين علام الغيوب؟ يقول الإمام فخر الدين الرازي: " ثم قال تعالى علام الغيوب إشارة إلى جواب سؤال فاسد يذكر عليه، وهو أن من يفعل شيئا كما يريد من غير اختصاص محل الفعل بشيء لا يوجد في غيره، لا يكون عالما وإنما فعل ذلك اتفاقا، كما إذا أصاب السهم موضعا دون غيره مع تسوية المواضع في المحاذاة، فقال: (يقذف بالحق) كيف يشاء وهو عالم بما يفعله، وعالم بعواقب ما يفعله فهو يفعل ما يريد لا كما يفعله الهاجم الغافل عن العواقب إذ هو علام الغيوب" (٣).

فالإمام الرازي يشير إلى أن المولى يقذف بالحق ويختار من الرسل ما يراه صالحا لحمل الأمانة، ولا يصنع ذلك إلا علام الغيوب، ثم إنه بعد قذفه الباطل بالحق يعلم ما يترتب عليه من نتائج، وما ذلك إلا لأنه علام الغيوب، فهو سبحانه لا يجهل النتائج المترتبة على ذلك، ولعل الفعل يقذف تحديدا هو الذي استدعى الختم بعلام الغيوب، لأنه يشير في غير القرآن إلى أن القاذف يمتلك علما بنقطة البدء، ويجهل نقطة النهاية أين تكون؟ وإلى أين

(3) تفسير الشعراوي: ٥٣٥٥/٩.

(1) البحر المحيط: ٥٦٢/٨.

(2) روح المعاني: ٢٢٨/١٢.

(3) فسير الفخر الرازي: ٢٧١ / ١٣.

ستتجه؟ وهو ما يتوهم من الفعل (يقذف)، فكان الختم بعلام الغيوب لدفع مثل هذا التوهم، ليؤكد أن المولى يعلم نقطة البدء والنهاية، ويختار من عباده من يشاء، ويقذف إليهم ما شاء. ولكن الإمام الطاهر بن عاشور له رأي آخر: "وتخصيص وصف (علام الغيوب) من بين الأوصاف الإلهية للإشارة إلى أنه عالم بالنوايا، وأن القائل يعلم ذلك فالذي يعلم هذا لا يجترئ على الله بادعائه باطلا أنه أرسله إليكم، فالإعلام بهذه الصفة هنا يشبه استعمال الخبر في لازم فائدته، أو إشارة إلى أنه أعلم حيث يجعل رسالته، لأن المشركين كانوا يقولون، لولا أنزلت علينا الملائكة دون محمد" (٤). وهو رأي يحتمله السياق ولا يتعارض مع الآراء السابقة بل يساندها.

٢١- الحفيظ:

- ورد الحفيظ مفردا في خواتم الآيات في موضعين اثنين فقط، وذلك في تركيب واحد متشابه إلى حد ما (وربك على كل شيء حفيظ). في قوله تعالى:
- ١- ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ ﴾ (هود: ٥٧)
- ٢- ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لَعَلَّمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ ﴾ (سبا: ٢١) .

و (الحفيظ) " أصله مبالغة الحافظ، وهو الذي يضع المحفوظ في حيث لا يناله أحد غير حافظه، وهو هنا كناية عن القدرة والقهر" (١)، واختلف العلماء في (الحفيظ)، على أقوال.

(4) ابن عاشور، محمد الطاهر: التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر: ١١/٤٢٧.

(1) التحرير والتنوير: ٧/١٥٩.

قل الإمام الرازي: " وفيه ثلاثة أوجه: الأول: حفيظ لأعمال العباد حتى يجازيهم عليها، والثاني: يحفظني من شركم ومكرهم، والثالث: حفيظ على كل شيء يحفظه من الهلاك إذا شاء، ويهلكه إذا شاء " (٢). وكذلك يرى العالم الجليل ابن القيم الجوزي:

" والحفيظ فيه قولان: أحدهما: الحفيظ على أعمال العباد حتى يجازيهم بها، والثاني: أن على بمعنى اللام، فالمعنى لكل شيء حافظ، فهو يحفظني أن تتلوني بسوء " (٣).

قال الإمام الزمخشري: " على كل شيء حفيظ، أي رقيب عليه ومهيمن، فما تخفى عليه أعمالكم، ولا يغفل عن مؤاخذتكم، فمن كان رقيباً على الأشياء كلها حافظاً لها، وكانت مفتقرة إلى حفظه من المضار لم يضر مثلكم مثله " (٤).

وأياً كان الأمر، فإن الترجيح بين آراء العلماء إنما يكون من خلال استقراء الآيتين السابقتين، فهما قد وردتا في سياق الحفظ من السوء، وليس حفظ الأعمال، فالآية الأولى يكشف عن وجه الختم فيها قوله تعالى: (ولا تضرونه). إنكم أيها الكفار - وهم هنا قوم هود عليه السلام - لن تتمكنوا من أن إلحاق الضرر أو الأذية بالمولى، حين يستبدل قوماً غيركم، ولا بغيره من أوليائه المؤمنين، وذلك لأنه حفيظ، يحفظ المؤمنين من أن تمسوهم بسوء، يقول الإمام الطبري: " إن ربي على كل شيء حفيظ، هو الذي يحفظني من أن تتلوني بسوء " (٥).

وكذا يقول الإمام أبو حيان: " ومعنى حفيظ رقيب محيط بالأشياء علماً، لا يخفى عليه أعمالكم، ولا يغفل عن مؤاخذتكم، وهو يحفظني مما تكيدونني منه " (١).

نخلص مما سبق أنه حيث يكون ضرر ما، أو إرادة للضرر، فإن الختم يكون بحفيظ، كما رأينا في الآية السابقة، (لا تضرونه شيئاً) كان الختم (إن ربي على كل شيء حفيظ)، " وجملة (إن ربي على كل شيء حفيظ)، تعليل لجملة (ولا تضرونه شيئاً) " (٢).

وأما الآية الثانية فتدور حول المعنى نفسه، وإن كان الحفظ هنا ليس من قوم هود، وإنما من إبليس عليه اللعنة، قال تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لَنَعْلَمَ مَنْ يُوْمنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ (سبا: ٢١).

ففي الآية التي سبقت هذه الآية أن إبليس قد صدق عليهم ظنه فاتبعوه، إلا فريقاً من المؤمنين الصادقين، وهو ليس له سلطان عليهم، فلم يمكنه المولى من التحكم في العباد، كلا، إن الله هو

(2) تفسير الفخر الرازي: ١٥/٩.

(3) زاد المسير: ١٢٠/٤.

(4) الكشف: ٣٨٩/٢.

(5) جامع البيان: ٧١/٧.

(1) البحر المحيط: ١٧٠/٦.

(2) التحرير والتنوير: ١٥٩/٧.

الذي يحفظ العباد إن أرادوا الهداية، واستعانوا به سبحانه وتعالى، وإنما وقع اتباعهم له بسبب من عند أنفسهم، ولو أرادوا الإيمان والهداية لحفظهم الله منه، ولعل جملة (إلا فريقا من المؤمنين) توضح ذلك جيدا، فهم لما طلبوا الهداية، حفظهم الله منه، فليس له إذن سلطان إلا على من يرغب ابتداء في اتباعه.

من أجل ذلك يأتي الختم (وربك على كل شيء حفيظ) ليشير إلى أن الله "يحفظ عباده من المهالك، ويحفظ عليهم أعمالهم، يعلم نياتهم، ويحفظ أوليائه عن مواقعرة الذنوب، ويحرسهم من مكائد الشيطان" (٣).

إن الدقة والتناسب ليس فقط في الختم ب(حفيظ) بل تظهران في بناء الفاصلة وتركيبها، وثمة ملاحظتان في هذا السياق تؤكدان ذلك :

الأولى: أنه سبحانه لم يقل (إنه عليكم حفيظ)، وإنما ورد " على كل شيء حفيظ " والفرق واضح جلي، فالجملتان في كل الأحوال تأتيان لتعليل ما قبلهما كما ذكر المفسرون، لكن الأولى تأتي للتعليل فقط ، والثانية تأتي للتعليل وزيادة، زيادة تأكيد حفظ المولى المطلقة، فإنه إذا كان يحفظ الأشياء كلها، فمن باب أولى أن يحفظ العباد، وهم إنما شيء من هذه الأشياء، ثم إنه لو ختم الآية بالتركيب الأول، لربما توهم أنه حفيظ عليهم، هم فقط، وأنه لم يتكفل بحفظ غيرهم، فانتقال الخطاب من الخصوص إلى العموم أكد في الذهن ، وأبلغ في الإشارة إلى الحفظ .

والملاحظة الثانية: أنه سبحانه وتعالى لم يقل (والله على كل شيء حفيظ)، وإنما قال: (إن ربي)، في الآية الأولى، وفي الثانية: (إن ربك)، وذلك في إشارة واضحة إلى الربوبية، لأن الرب هو السيد المطاع المصلح، ولفظه مشتق من " التربية وهي إنشاء الشيء حالا بعد حال، إلى حد التمام" (١).

إن (ربي، ربك) اللفظان اللذان وردا في الآيتين يشيران إلى الحفظ والعناية والتكفل، لأنه الله الذي حفظ العباد والكون في كل الأطوار.

٢٢-المقدم: (المقتدر) اسم للمولى لم يرد كثيرا في القرآن الكريم، وإنما ورد مفردا

في أربعة مواضع ، جاء في أحدهما متصلا بضمير الجمع(مقتدرون). قال تعالى:

(3) زاد المسير : ٤٥/٦.

(1) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم : ٢٠٨.

١ - ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا

تَذُرُّهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴾ (الكهف: ٤٥)

٢ - ﴿ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ ﴾ (الزخرف: ٤٢)،

. والمقتدر كما بين العلماء، أبلغ من (القادر والقدير)، ذاك لأن الزيادة في بنائه، تزيد في معناه، فهو يشمل الاسمين السابقين، وينفرد بأنه يشير إلى التصرف، والتصرف يمكن أن يبدو في هذه الصيغة، في القدرة التامة على تقليب الأمور، وتغييرها، وجعلها على وجوه كثيرة، مختلفة، متنوعة، وهي دلالة على التمكن التام المطلق، والسيطرة الكاملة للمولى عز وجل^(٢)، فصيغة افتعل لها معان كثيرة منها: التصرف " وهو أن يبرز المتكلم المعنى الواحد في عدة صور اقتدارا منه على نظم الكلام وتركيبه على صياغة قوالب المعاني والأغراض " ^(٣). وكذلك ورد في الشعر العربي، قال أبو نواس:

ف عفوت عني عفو مقتدر **حلت له نقم فألفاها**

أي عفوت عني عفو قادر، متمكن القدرة، لا يرده شيء عن إمضاء قدرته " ^(٤)، و (المقتدر) في السياق القرآني لا يخرج عن هذا المعنى، بل السياق الذي ورد فيه الاسم يؤكد ما سبق.

ففي آية سورة الكهف:

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذُرُّهُ الرِّيحُ

وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴾ (الكهف: ٤٥).

يبين المولى أنه قادر تام القدرة على كل شيء، والختم هنا بالمقتدر إنما ناسب عظم الأمر، فالتمثيل هنا يراد به، القضيتين المهمتين في الوجود، وهما الإقناء والإحياء، واللتين هما سبب الاختلاف بين البشر، وسبب رفض الكفار لهذا الدين.

(2) انظر الفصل الأول من هذا البحث : ص ٤٤.

(3) الكليات : ١٦٠.

(4) المثل السائر: ٥٦/٢.

يقول الإمام القرطبي: "وكان الله على كل شيء مقتدرا، من الإنشاء والإفناء والإحياء" (١)، وبمثله ذهب الإمام الطاهر بن عاشور: "وكان الله على كل شيء مقتدرا، جملة معترضة في آخر الكلام، موقعها التذكير بقدرة الله على خلق الأشياء وأضدادها، وترتيبه أسباب الفناء على أسباب البقاء، وذلك اقتدار عجيب" (٢).

وأما الآية الثانية: ﴿أَوْ نُزِيلُكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ﴾ (الزخرف: ٤٢). فهي أيضا تأتي في هذا السياق، سياق الإشارة إلى القدرة الكاملة المطلقة، فالإقتدار في الآية ليس على أن يري النبي _ صلى الله عليه وسلم _ ما يعدمهم، كلا، وإنما الاقتدار عليهم هم، على التصرف فيهم، وإفنائهم وإحيائهم من جديد، ولو كان الاقتدار على أن يري النبي ما يعدمهم، لجاء الختم بالقادر، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّزِيلَكَ مَا نَعُدُّهُمْ لِقَادِرُونَ﴾ (المؤمنون: ٩٥).

فانظر كيف ناسب السياق الدقة في اختيار البناء، وإن كان كلا البنائين يشير إلى القدرة. فكأن المقتدر يختص بالقضايا الكبرى، كقضية الإحياء والإفناء والإنشاء. يؤكد ما ذهبنا إليه قوله تعالى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ (القمر: ٤٢)، "أي لا يعجزه شيء" (٣).

(1) الجامع لأحكام القرآن : ٧٣٢/٥. وكذلك الكشف : ٧١٢/١.

(2) التحرير والتنوير : ٣٨٠/٨.

(3) فتح القدير : ١٥٤/٥.

٢٣ - الحفي :

قال تعالى: ﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ (مريم: ٤٧).

ورد اسمه سبحانه وتعالى (الحفي) مرة واحدة في القرآن الكريم كله، وجاء ختماً لآية وردت على لسان إبراهيم عليه السلام عندما استغفر لأبيه.

و(الحفي) كما ورد في كتب التفسير: " اللطيف الذي يجيب دعائي إذا دعوته" ^(١). أو هو "المبالغ في البر والإلطف" ^(٢)، " قال الليث : الحفي هو اللطيف بك ، يبرك ويلطفك، و يحتفي بك ،قال الأصمعي: حف فلان بفلان إذا قام في حاجته وأحسن مثواه" ^(٣).

وأورد الإمام الشوكاني في تفسير هذه الآية: " إنه كان بي حفياً ،تعليلاً لما قبلها، والمعنى سأطلب لك المغفرة من الله فإنه كان بي كثير البر واللفظ " ^(٤).

والسؤال الآن لماذا لم تختتم الآية بالغفور، ما دام أن إبراهيم قد طلب المغفرة لأبيه؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تشير إلى شيء من الأدب الرفيع لدى إبراهيم مع ربه.

إن الفاصلة (إنه كان بي حفياً) هي جملة تعليل كما وضح الإمام الطاهر بن عاشور.

إن إبراهيم عليه السلام يبين سبب الاستغفار، إنه لم يكن بسبب أبيه، لأن أباه كان مشركاً، وإبراهيم عليه السلام يعلم أن المغفرة إنما تطلب في غير الشرك، لأن الله يغفر الذنوب جميعها إلا الشرك بالله.

قال تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾

(النساء: ٤٨).

ولكن مبعث الاستغفار في الآية هو عظم مكانة إبراهيم عليه السلام عند ربه، وهو ما

سماه ابن عاشور (مقام الخلّة)، ثم هو الموعدة التي وعدّها أباه، فما كان إبراهيم ليستبدل

قوله: (إنه كان بي حفياً) بقوله: (إنه غفور رحيم) فيجري العباد على الشرك بالله،

(1) تفسير الطبري: ٣٤٩/٨..

(2) الجامع لأحكام القرآن : ١٠٣/١١.

(3) اللسان: ١٧٢/٤.

(4) فتح القدير: ٤٨٠/٣.

ويعريهم عليه. كلا وإنما أراد أن يقول : سأستغفر لك ربي يا أبي، فذنبك من أكبر الذنوب وأعظمها، ولكنني سأطلب لك مغفرة خاصة، وذلك لمكانتي عند ربي.

قال الإمام ابن عاشور: " وفيه إيماء إلى أنه سأل له مغفرة خاصة ، وهي مغفرة أكبر الذنوب أعني الإشراف بالله وهو سؤال اقتضاه مقام الخلعة " (١). يؤيد ذلك أن إبراهيم حين تأكد من عداوته لله تبرأ منه. قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ (التوبة: ١١٤).

٢٤ - الأعلى: (الأعلى) " اسم يفيد الزيادة في صفة العلو أي الارتفاع " (٢) جاء

على بناء اسم التفضيل، الذي يشير إلى المفاضلة، ولعل حذف المفضل عليه، وإطلاق اسم التفضيل هكذا، يشير إلى معنيين: العلو المطلق للمولى فهو أعلى من كل عال، وإثبات النقص لكل ما عداه، كأن تقول : محمد أكرم من محمود، فقد نسبت الكرم إلى المفضل والمفضل عليه، ولكن البناء يشير أيضا إلى إثبات الكرم إلى محمد، ونقصه عند محمود، " وإذا لم يذكر مع وصف الأعلى مفضل عليه، أفاد التفضيل المطلق كما في وصفه تعالى هنا " (٣) واسم (الأعلى) ورد في القرآن الكريم في موضعين.

قال تعالى: ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ (الأعلى: ١)

وقال أيضا: ﴿ إِلَّا اتَّعَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴾ (الليل: ٢٠).

و(الأعلى) كما بينه الإمام الرازي : " أنه أعلى وأجل وأعظم من كل ما يصفه به الواصفون ومن كل ذكر يذكره به الذاكرون " (٤).

ولكن لماذا جاء الختم ب(الأعلى) ولم يأت ب(العلي) مثلا، ولا سيما وهما يشيران إلى مطلق العلو؟ يرى الإمام ابن عاشور : " أن إثبات هذا الوصف في هذه

(1) التحرير والتنوير: ١٨٠/١٠.

(2) السابق نفسه : ٤٧٩٤/١.

(3) السابق : ٤٧٩٤/١.

(4) تفسير الفخر الرازي: ١٣٩ / ١٦.

السورة لأنها تضمنت التنويه بالقرآن والتثبت على تلقيه ،وذلك لعلو شأنه ،فهو من متعلقات وصف العلو الإلهي إذ هو كلامه" (٥).

ولكنني أرى ثمة ملمحا يمكن إدراكه ،فمن اليسير ملاحظة أن (الأعلى) ورد مع (الرب) فالآية الأولى (ربك الأعلى)،والثانية (ربه الأعلى).لأن المشركين يزعمون أن لهم أربابا يدعونها، قال تعالى: ﴿ يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (يوسف: ٣٩).

فغالبا حيث يرد اسم رب، يناسبه اسم التفضيل (الأعلى)، ليشير إلى أن ربنا أعلى من أربابهم، فانه علي، وربنا أعلى، وهناك آيات كثيرة ترجح ما ذهبنا إليه. قل تعالى: ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ (العلق: ٣) ، وقال :

﴿ وَمَنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ (يونس: ٤٠) وقال :
﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زُبُوراً ﴾ (الإسراء: ٥٥).

حيث نلاحظ في الآيات السابقة، أن اسمي التفضيل (أكرم، أعلم) وردا ليناسب (وربك). في الآيات. فانه عليم، والله كريم، لكن ربك أعلم ،وربك أكرم وهكذا (١).
" وقد جعل من قوله تعالى (سبح اسم ربك الأعلى) دعاء السجود في الصلاة إذ ورد أن يقول الساجد : سبحان ربي الأعلى، ليقرن أثر التنزيه الفعلي بأثر التنزيه القولي" (٢).

٢٥ - الواحد :

ورد (الواحد) اسما مفردا للمولى في موضع واحد، قوله تعالى:

﴿ إِنَّ إِلَهُكُمُ لَوَاحِدٌ ﴾ (الصفات: ٤).

وقد ورد في غير خواتم الآي في مواضع كثيرة، والآية التي نحن بصددنا من سورة الصفات، وهي الآية الرابعة، فقد أقسم الله قبلها، بالصفات والزجرات والتاليات ،وجاء كما يرى المفسرون جوابا للقسم " إن إلهكم لواحد، جواب قسم وذلك أن الكفار بمكة

(5) التحرير والتنوير: ٢١٣/١٦.

(1) انظر الفصل الأول من هذا البحث : ص ٥٦.

(2) التحرير والتنوير: ٢١٣/١٦.

قالوا أجعل الآلهة إلها واحدا " (٣)، (فالواحد) يثبت الوجدانية للمولى، وينفي معه الشرك، من أجل ذلك نرى أن (الواحد) يأتي في سياقات مختلفة، تتحدث عن الشرك، وكيف أنهم أشركوا مع الله آلهة، واتخذوا مع المولى أربابا. وما ينبغي لهم ذلك، لأنه واحد متفرد بذاته وصفاته (٤)، قال الإمام ابن عاشور: " ومناطق التأكيد بصفة واحد، لأن المخاطبين كانوا قد علموا أن لهم إلها، ولكنهم جعلوا عدة آلهة فأبطل اعتقادهم بإثبات أنه واحد غير متعدد" (٥)، فهم لما زعموا - ظالمين - أن ثمة آلهة لهذا الكون، ناسب الختم بالواحد، ليؤكد لهم وحدانيته سبحانه.

٢٦ - العظيم :

(العظيم) اسم للمولى ورد مفردا ختما في أربعة مواضع من القرآن الكريم. " وعظم الشيء أصله كبر عظمه، ثم استعير لكل كبير، فأجري مجراه محسوسا كان أو معقولا عينا كان أو معنى " (١)، لاحظ قول الإمام الراغب ثم استعير لكل كبير، أي أن ثمة علاقة بين العظيم والكبير، تحتاج إلى توضيح سآبينها فيما بعد.

" والعظيم في صفة الله تعالى يفيد عظم الشأن والسلطان، وليس المراد به وصفه بعظم الأجزاء، لأن ذلك من صفات المخلوقين " (٢)، فهو عظيم لأن النفوس تملأ مهابة وجلالا وخشية، والأرواح والأجساد تتضاءل أمام عظمتة، وتقف العقول حائرة أمام خلق الله وقدرته (٣).

(3) الجامع لأحكام القرآن : ٥٦/٨ .

(4) انظر الفرق بين (الواحد والأحد) في الفصل الأول من هذا البحث ص ٥٧.

(5) التحرير والتنوير : ٨٧/١٢ .

(1) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم : ٣٧٨ .

(2) تفسير أسماء الله الحسنى : ٤٦ .

(3) انظر الفصل الأول من هذا الفصل: ١٧-١٨ .

قال تعالى:

- ١ - ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ (الواقعة: ٧٤) .
- ٢ - ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ (الواقعة: ٩٦) .
- ٣ - ﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴾ (الحاقة: ٣٣)
- ٤ - ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ (الحاقة: ٥٢) .

ومن خلال تتبع (العظيم) في المواضع المختلفة لوروده، يمكن ملاحظة أن هذا الاسم ورد في ثلاثة مواضع وصفا للرب (ربك)، وفي آيات فيها أمر واضح بالتسبيح، " فسبح باسم ربك العظيم " كما في الآية الأولى والثانية والرابعة، قال الإمام أبو حيان : " والعظيم يجوز أن يكون صفة لاسم، ويجوز أن يكون صفة لربك " ^(٤)، على خلاف بين العلماء، ولكننا هنا نجريه على الوصف للرب، لأن هذا الاسم ورد وصفا لله في غير موضع من القرآن، قال تعالى: ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ (الشورى: ٤) .

وعليه فسبح باسم ربك العظيم أي الذي بانته عظمته في كل شيء خلقه، فكل مخلوق يدل على عظمة المولى، وإن إلها هذا خلقه وإيداعه لهو إله عظيم، أعظم من أن يتصور عظمته إنسان، كائننا من كان هذا الإنسان، يؤكد ما ذهبنا إليه أن السياقات الثلاثة التي ورد فيها (العظيم) مع الفعل (سبح) إنما هي سياقات تشير إلى تنوع مظاهر عظمته من خلال تعدد عظيم خلقه. مثاله في سورة الواقعة، فهو لما عدد مظاهر عظمته في قوله :

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴾ (الواقعة: ٥٨) وقوله :

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ (الواقعة: ٦٣) وقوله تعالى :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴾ (الواقعة: ٦٨)، وكذلك قوله :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴾ (الواقعة: ٧١) .

(4) البحر المحيط: ٩٦/١٠ .

كل هذه الأشياء تدل على عظمته سبحانه، وهي مخلوقات عظيمة ناسب وصف الإله الذي أوجدها بالعظيم، لتدل عظمتها عقول البشر إلى عظمته سبحانه. وكذلك الآية الثالثة ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ (الحاقة: ٣٣).

قال الإمام ابن عاشور في تفسير الآية السابقة: "وصف الله بالعظيم هنا إيماء إلى مناسبة عظم العذاب للذنب، إذ كان الذنب كفرانا بعظيم فكان جزاء وفاقا" (١).

إن العظيم إطلاق مفتوح لتخيل كل أشكال العظمة التي يستطيع العقل البشري أن يتخيلها.

ولكن ماذا لو كان (الكبير) بدلا من (العظيم) في الآيات السابقة؟ إن الإجابة على هذا السؤال تدعونا إلى التفريق بين الاسمين، لنقرر بعدها إن كان يستقيم السياق بأحدهما دون الآخر، أم لا. قال الإمام الزمخشري: "والفرق بين العظيم والكبير أن العظيم نقيض الحقيق والكبير نقيض الصغير، فكأن العظيم فوق الكبير، كما أن الحقيق دون الصغير" (٢)، وكذا يرى الإمام أبو البقاء في (الكليات): "والعظيم فوق الكبير لأن العظيم لا يكون حقيقا لكونهما ضدان، والكبير قد يكون حقيقا كما أن الصغير قد يكون عظيما، إذ ليس كل منهما ضد للآخر، والعظيم يدل على القرب والعلي يدل على البعد" (٣).

وجوهر الأمر أن العظيم يشمل الكبير وزيادة، "فكان الكبير يرجع إلى كمال الذات، والجليل إلى كمال الصفات، والعظيم يرجع إلى كمال الذات والصفات" (٤).

ولكن الإمام الألوسي يلمح شيئا آخر في الفرق بينهما "ويقال إن الكبير هو الكبير في ذاته سواء استكبره غيره أم لا، وأما العظمة فعبارة عن كونه بحيث يستعظمه غيره، فالصفة الأولى على هذا ذاتية" (٥).

وبعد عرض ما سبق يمكن القول: أن العظيم اسم يشمل في معناه الكبير والجليل معا، وهو عظيم في ذاته، بحيث يستعظمه غيره، فتبهر العقول عظمتها، وتعجز الأبصار

(1) التحرير والتنوير: ٢٩٢/١٥.

(2) الكشف: ٢٤/١.

(3) الكليات: ٦٣١.

(4) المقصد الأسنى: ١١٦/١.

(5) روح المعاني: ١٣٧/١.

مظاهر قدرته. من أجل ذلك كان الأمر بالتسبيح بالعظيم، فكانت هذه الآية تسبيحا للمؤمنين في ركوعهم، لقوله عليه الصلاة والسلام: " اجعلوها في ركوعكم " (١).

٢٧- الصمد :

(الصمد) اسم عظيم من أسمائه الحسنی، جامع شامل، ورد في القرآن الكريم في موضع واحد فقط، في سورة الإخلاص، تلك السورة التي تعدل ثلث القرآن، لما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال : " خرج إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: أقرأ عليكم ثلث القرآن، فقرأ قل هو الله أحد، الله الصمد ... حتى ختمها " (٢)

و قد تم توضيح المعنى اللغوي للصمد سابقا (٣)، ولكن هنا أبين مناسبته للسياق، وأعرض آراء المفسرين. " والعرب تسمي أشرافها الصمد، وهو السيد الذي انتهى سؤده " (٤). قال ابن عاشور : " والصمد السيد الذي لا يستغنى عنه في المهمات، وهو سيد القوم المطاع فيهم، ونظيره السند الذي تسند إليه الأمور المهمة، والفلق اسم الصباح بأنه يتفلق عنه الليل " (٥). إنه الذي يستغني عن كل ما عداه، ولا يستغني عنه أحد " والصمد فعل بمعنى مفعول، من يصمد إليه إذا قصده، المستغني بذاته، وكل ما عداه محتاج إليه في جميع جهاته " (٦). وقد وقعت على معاني كثيرة للصمد أضربت عنها لعدم مناسبتها لهذا الاسم الشريف، ولأن العلماء لم يرجحوها، على الرغم من أن بعضهم أوردها في تفسيره، والسؤال الآن إذا بان لنا معنى الصمد، فما وجه الختم به؟ وما مناسبته للسياق؟

إن الإجابة على هذا السؤال يدعونا إلى الذهاب إلى أسباب النزول، ليتضح لنا به المراد. " أخرج الترمذي والحاكم وابن خزيمة من طريق أبي العالية، عن أبي بن كعب: أن المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: انسب لنا ربك فأنزل الله " قل هو الله أحد ... إلى آخرها " (٧). فالسورة تجيء وصفا للمولى بصفات الكمال والجلال.

(1) النيسابوري، محمد بن عبد الله: المستدرک علی الصحیحین، تحقیق مصطفی عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م، ٣٤٧/١.

(2) صحيح مسلم : ٥٥٧/١.

(3) انظر الفصل الأول من هذا البحث : ٢٨.

(4) صحيح البخاري: ١٩٠٣/٤.

(5) التحرير والتنوير: ٤٣٠/١٦.

(6) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: ٦١٠/٦.

(7) أسباب النزول : ٤٧٦.

وحق لهذه السورة المباركة أن تعدل ثلث القرآن كما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم، لأن عظمة الشيء إنما تكون^(١) بما يحتوي ويتضمن وهي تحتوي دررا من صفات الله سبحانه وتعالى.

إنه يمكن القول أن المولى سبحانه ختم بالصمد ولم يختم بغيره من الأسماء، لأن الاسم الشريف (الصمد) يشملها جميعا، لكونه الذي يصمد إليه في الحوائج كلها. " عن ابن عباس قال : هو السيد الذي قد كمل في سؤده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمه، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد". فكان (الصمد) يشمل أسماء الله وصفاته جميعها، فهو اسم موجز تمام الإيجاز فقد جاء في البرهان للإمام الزركشي : " ومن بديع الإيجاز قوله تعالى: قل هو الله أحد، الله الصمد ،فإنها نهاية التنزيه " (٢).

(1) روح المعاني: ٤٩٠/١٦.
(2) البرهان في علوم القرآن : ٢٢٥/٣.

ثانيا: تجاوز اسمين في خواتم الآيات:

١ - العزيز الحكيم:

هذان الاسمان الجليلان لهما شأن عظيم، لكل واحد منهما قدره وجلاله، فإذا اجتمعا زاد جلالهما، وأفضيا إلى معان عظيمة جليلة، ليس ذلك من أجل أنهما تجاوزا في القرآن الكريم فيما يزيد عن خمسة وأربعين موضعا وردا فيه متجاورين ختما للآيات الكريمات، بل لأنهما يشتملان على معان أخرى جليلة تتضوي تحت كل منهما. " فالعزيز متضمن للعزة، ويجوز أن يكون صفة ذات يعني القدرة والعظمة، وأن يكون صفة فعل بمعنى القهر لمخلوقاته والغلبة لهم " ^(١)، فهو إذن يشمل كل معان القدرة والعظمة والقهر وكذلك الحكيم فهو " متضمن لمعنى الحكمة، وهو إما صفة ذات يكون بمعنى العلم، والعلم من صفات الذات وإما صفة فعل بمعنى الأحكام " ^(٢).

فلا يكون عزيزا إلا أن يكون قادرا، وقويا، وقاهرا وعظيما، ولا يكون حكيما إلا أن يكون عليما، وخبيرا وبصيرا وهكذا . قال الإمام الطاهر بن عاشور : " ثم أتبع

(1) عمدة القاري : ٨٩/٢٥.

(2) السابق نفسه : ٨٩ / ٢٥.

ذلك بصفتي العزيز الحكيم ؛ لأن العزة تشمل معاني القدرة والاختيار، والحكمة تجمع معاني تمام العلم وعمومه ^(٣).

والمفسرون حين تعرضوا لتفسير هذين الاسمين في مواضعهما المختلفة، لم يشيروا - إلا قلة منهم - إلى الحكمة من تجاورهما ابتداءً، ولا إلى الحكمة من ورودهما في السياق ذاته، وإنما اكتفوا فقط بتفسير الاسمين ومعناهما بشكل عام.

فالإمام الطبري مثلاً يورد في تفسيره أن " العزيز لا يمتنع عليه شيء أراده، ولا ينتصر منه أحد عاقبه، أو انتقم منه، والحكيم في تدبيره فلا يدخله خلل " ^(٤)، وكذا أورد الإمام الشوكاني : " العزيز في سلطانه فلا يغالبه مغالب، الحكيم في كل أفعاله وأقواله وجميع أفضيته " ^(٥)، ومثله الإمام أبو السعود : " العزيز الحكيم أي الموصوف بالغلبة القاهرة، والحكمة الباهرة " ^(٦).

وحول المعنى السابق يدور تفسير الإمام السيوطي لهذين الاسمين : " عزيز في نعمته إذا انتقم، حكيم في أمره " ^(١)، أو أنه " القاهر لكل مقدور، الحكيم الذي يجري كل فعل على قضايا حكمته وعلمه " ^(٢).

وأياً كان تفسير العلماء لهذين الاسمين، فإنهم لم يخرجوا عن معنى الدلالة اللغوية للاسمين، تلك التي أوضحناها فيما سبق ^(٣)، والذي يبين لي بمجموعهما - أعني المعنى اللغوي وأقوال المفسرين - أن العزيز يتضمن المعنيين التاليين:

- ١ - أنه قوي قاهر قادر، يقهر ولا يقهر، ويغلب ولا يغلب. لا يعجزه شيء، ولا يمنعه أحد، ولا يرد إرادته راد، ولا ينتصر منه أحد عاقبه.
- ٢ - تشتد الحاجة إليه، ويصعب الوصول إليه، وشدة الحاجة تكمن في أنه يحتاج إليه كل شيء في كل شيء.

وبحثنا لهذا التجاور (العزيز الحكيم) يدور حول قضيتين :

الأولى: حكمة تجاور الاسمين الجليلين، بشكل عام في القرآن الكريم وغيره، وأعني بغيره هنا الأحاديث النبوية فقد ورد في صحيح مسلم أن أعرابياً " جاء إلى رسول

(3) التحرير والتنوير: ٣٣٩/١٣.

(4) جامع البيان: ٧٠٩ / ٣.

(5) فتح القدير: ١٧/٥.

(6) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: ١٣٣/٧.

(1) السيوطي، عبد الرحمن بن الكمال: الدر المنثور، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م، ٣٣٥/١.

(2) الكشف: ٩٦٤/١.

(3) انظر الفصل الأول من هذا البحث: ١٠.

الله صلى الله عليه وسلم فقال علمني كلاماً أقوله، قال: قل لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، سبحان الله رب العالمين، لا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم، قال: فهو لاء لربي فما لي؟ قال: قل اللهم اغفر لي وارحمني واهدني وارزقني " (٤).

والثانية: وجه الحكمة في ورود الاسمين في السياقات المختلفة التي وردا فيها وإمكانية قيام غيرهما مقامهما.

فأما القضية الأولى وهي وجه الحكمة في تجاوزهما مطلقاً، أي قبل ورودهما في السياق، فإن ذلك من تمام البلاغة، ودقة النظم، لأن العزيز كما أسلفت هو من لا يقهر، ويقهر من يشاء، ويتصرف في ملكه كيف يشاء، لا يمنع إنفاذ مشيئته مانع، ولا يرد إرادته راد.

إن (العزيز) لفظ فيه استدعاء لكل معاني القوة والغلبة والتصرف والعلو، والتي قد يتوهم معها متوهم أن هذا اللفظ يصاحبه في بعض الأحيان غلو وانحراف. فيأتي (الحكيم) ليهدم هذا الوهم، ويزيل كل ما يمكن أن يستدعيه اللفظ من زيادات يتوهمها الذهن الكليل.

إن إرداف الحكيم إنما هو دعوة إلى إعمال الذهن، في البحث عن الحكمة وراء كل شيء، والغوص في علل الأشياء؛ لأن البعض إذا عجزوا عن إدراك علل الأشياء، وقصرت أذهانهم عن تبين مقتضاها، فقد تتصرف أذهانهم - جهلاً - إلى إساءة الظن بمولاهم، في أن أفعاله - حاشاه - خبط عشواء، لا معنى لها، ولا مراد منها، فيأتي (الحكيم) ليدفع هذا الانحراف في التفكير، ويؤكد على حكمة العزيز في كل شيء فعله، ويدعو العقول إلى التأمل العميق، والإذعان والتسليم للمولى في حال عجزها عن إدراك مراده سبحانه وتعالى، وحول هذا المعنى يقول الإمام الزركشي: "فهو العزيز؛ لأن العزيز في صفات الله هو الغالب من قولهم عزه يعزه، عزا إذا غلبه، ووجب أن يوصف بالحكيم أيضاً؛ لأن الحكيم من يضع الشيء في محله، فالله سبحانه وتعالى كذلك، إلا أنه قد يخفى وجه الحكم في بعض أفعاله فيتوهم الضعفاء أنه خارج عن الحكم، فكان الوصف بالحكيم احتراساً حكم " (١).

(4) صحيح مسلم : ٢٠٧٢/٤.

(1) البرهان في علوم القرآن : ٨٩/١.

وما الاحتراس الذي يعنيه الإمام الزركشي - رحمه الله - إلا الذي أسمىناه دفع التوهم لما يستدعيه البناء عند مجابهة الأذهان الكلييلة الضعيفة.

بل يذهب ابن الوزير - رحمه الله - مذهبا آخر يؤكد ما ذهبنا إليه يقول : " وفي هذه الآيات وأمثالها نكتة لطيفة، في جمعه بين العزة والحكمة، وذلك أن اجتماعهما عزيز في المخلوقين، فإن أهل العزة من ملوك الدنيا يغلب عليهم العسف في الأحكام، فبين مخالفته لهم في ذلك، فإن عظيم عزته لم يبطل لطيف حكمته " (٢).

" فوصف الحكيم يقتضي أنه العالم بالمنافع الحق، على ما هي عليه لأن الحكمة هي العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه " (٣)

إن الجمع بين الاسمين الجليلين يجعلهما صفوا خالصا، كما لو كانا اسما واحدا ، لذلك نرى أنهما وردا كثيرا على لسان الأنبياء في الثناء بهما على المولى، يقول ابن الوزير : " فهو العزيز الحكيم كما جمعهما الله سبحانه وتعالى كثيرا في التمدح بهما معا في غير موضع، وذلك إشارة إلى أنهما أخوان لا يفترقان " (٤).

وأما القضية الثانية وهي وجه الحكمة في ورود هذين الاسمين في السياقات المختلفة، فإن ضرورة البحث تقتضي علينا أن نقوم باستخدام طريقة (السؤال المفترض) الذي تنتج دوافع و السياق القرآني ودواعيه، كأن يكون السؤال لماذا ؟ لماذا فعل ذلك؟ أو كيف؟ وهكذا ...

إن هذا المنطق من التفكير في التعامل مع تحليل النص القرآني لم يكن بدعة ابتدعتها، ولا فلذكة نلوي بها عنق الآيات لتستقيم المعاني كلا، إنما هو منهج اتبعه علمائنا الأجلاء رحمهم الله - في تصانيفهم، ولو شئت أن أحصر الأدلة على ذلك ما وسعنتي صفحات هذا البحث، ولكني أكتفي بأن أورد أمثلة على ذلك، إشارة فقط لأسوغ بها مدخلي لتناول إبراز وجه الحكمة من التجاور.

أورد الإمام أبو السعود - رحمه الله - في معرض تفسير قوله تعالى : " وكذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك ... " ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك

(2) ابن الوزير، مجمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل الحسني القاسمي: إثثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧، ١/٢١٤.

(3) التحرير والتنوير: ١٩٩/٦.

(4) إثثار الحق على الخلق : ١/٢١٤.

استئناف وتعليل لذلك الكيد وصنعه، لا تفسير وبيان له كما قيل، كأنه قيل : لماذا فعل ذلك ؟ فقيل : لأنه لم يكن ليأخذ أخاه بما فعله في دين الملك في أمر السارق " (١).

وكذا أورد الإمام الألوسي رحمه الله -في تفسير قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (التوبة: ١١١) " كأنه لما قال سبحانه: إن الله اشترى ... إلخ قيل: لماذا

فعل ذلك؟ فقيل: ليقاتلوا في سبيله تعالى، وقيل : بيان للبيع الذي يستدعيه الاشتراء المذكور، كأنه قيل: كيف يبيعون أنفسهم وأموالهم بالجنة؟ فقيل: يقاتلون في سبيله عز شأنه " (٢). ولنلاحظ كيف أن الألوسي رحمه الله استخدم السؤال (كيف) إضافة إلى السؤال (لماذا).

إن ما أسميناه هنا بالسؤال المفترض، هو الذي أسماه الإمام الشوكاني رحمه الله - بالسؤال المقدر، وكلاهما ينطلق من المبدأ نفسه ، وكلاهما مقدر، بيد أن النعت بالمفترض يشير إلى أن أحدا ربما لن يفترضه، على عكس النعت بالمقدر الذي تشير تسميته بثبوت الاستفهام به ودوامه، وهي علة إيثارنا للتسمية التي ارتضيناها.

يقول الإمام الشوكاني في معرض تفسير قوله تعالى :

﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم، فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ (النحل: ٤٣). " وما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر إلا رجالا، وقيل يتعلق بمحذوف دل عليه المذكور أي: أرسلناهم بالبينات والزبر، ويكون جوابا عن سؤال مقدر، كأنه قيل: لماذا أرسلهم ؟ فقال أرسلناهم بالبينات والزبر " (١).

وبتعب الآيات التي ورد الختم فيها ب(العزير الحكيم)، فإن مثل هذا المنطق يفرض نفسه في التعامل مع تحليل الخواتم، إن افترض السؤال، وإدارة الذهن في البحث عن الإجابة، ومعرفة الحكمة، هما اللذان ينتجان حركة ذهنية نشطة، وحالة تأملية خاشعة في النص القرآني، بما يفتح من آفاق التخيل في انتقاء البدائل المناسبة لاستقامة التعبير، مما يجعل النص القرآني قادرا على مخاطبة الجميع، والتأثير فيهم، حسب ثقافة

(1) إرشاد العقل السليم : ٢٩٦/٤ .

(2) روح المعاني : ٢٧/١١ .

(1) فتح القدير : ٢٣٥/٣ .

وإدراك كل فرد منهم، لأن منطق افتراض السؤال واحد، ولكن مستويات عمق الإجابة، وتعدد البدائل، واختيار الأنسب هو الذي يحدث نوعاً من التأثير والامتزاج مع النص القرآني، وهو ما نعني به الخشوع.

إن مما تجدر الإشارة إليه هنا أن الاسمين السابقين لم يرد أحدهما مفرداً في القرآن الكريم، وإنما وردا متجاورين، على عكس كثير من الأسماء التي وردت مرة مفردة وأخرى متجاورة.

نسق عام :

إن استقراء الآيات الكريمة التي ختمت بـ (العزیز الحكيم) يشير إلى أن ثمة نسق معين تسير عليه الآيات جميعها، سواء كان الأمر يتعلق بالآية أو السياق ذاته، بحيث لا يصلح غيره في موضعه، وإن بدا في ظاهر الأمر على غير ذلك.

إن نظرة تأملية عميقة تكشف عن وجه الإعجاز في ورود الاسمين متجاورين ختماً للآية، وذلك بإمعان النظر في الآية التي سبقتها أو تلك التي تليها، أو حتى السياق العام الذي انتظمت فيه الآية، والقارئ الملول الذي يتجول ببصره في ثنايا الآية، فلا يجد وجه المناسبة، عليه أن يعود إلى الآية التي قبلها، فإن أعجزه فالتالي تليها، فإن أعجزه هذا وذاك، فإن السياق يكشف له بوضوح عن وجه المناسبة، وعن حكمة التقدير.

وسأقوم هنا بدراسة مجموعة من الآيات كأنموذج للتطبيق والتدليل على صحة النسق المفترض.

والسؤال الآن، متى تختم الآية بـ (العزیز الحكيم) ؟ وهل ثمة ضابط معين للختم بهذين الاسمين؟ والإجابة تتبع من معرفة حدود الاسمين الذي بيناه فيما سبق، فالعزیز هو المتضمن لكل أشكال القدرة والقوة والغلبة والقهر، فحيثما يوجد في الآية أو السياق، فعل أو أمر يتطلب تلك الأشكال مجموعة فالختم يكون بالعزیز، فليس كل قادر عزیز، ولا كل قوي عزیز، ولا كل غالب عزیز، ولا كل قاهر عزیز.

فالعزیز هو الذي يكون قادراً على الفعل مع قوته عليه، فيتمه بحيث لا يمنعه مانع، ولا يغلبه غالب، بل يقهر كل من يخالفه، وينجز فعله على وجه العزة والاستعلاء.

وأما الحكيم فحيث يكون للفعل المراد تحقيقه حكمة، قد تكون ظاهرة، وقد تخفى أماراتها، وفي كل لا يكون حكيماً إلا إذا كان عالماً، خبيراً، بصيراً، فليس كل عالم حكيم، ولا كل خبير حكيم ؛ لأن الحكيم هو الذي يعلم وجه الحكمة من الفعل، ويعلم كيف يتمه، ويعلم عواقبه، وعلى أي وجه يحققه، ويعلم العلة من وجوده، فيأتي فعله في غاية الإحكام، وصنعه حيث ينبغي أن يكون . لأن الحكمة كما يقولون: " أنها إثبات داع راجح إلى جميع ما فعله الله وأراد، وإن خفي على أكثر خلقه، أو كثير منهم، والمرجع بهذا الداعي إلى علم الله تعالى بالمصالح والغايات الحميدة "(١)، أو كما يقال أن الحكيم : " هو العادل في التقدير، المحسن في التدبير، ذو الحكمة البالغة الذي يضع كل شيء موضعه بحسب المصلحة " (٢) في التطبيق على الآيات يبدو الأمر أكثر وضوحاً.

قال تعالى:

١- ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ (آل عمران: ١٢٦)

٢- ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُم وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال: ١٠)

٣- ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة: ٤٠).

فالآيات الثلاث السابقة تدور حول محور النصر، وكيف أن الله سبحانه وتعالى نصر رسوله والمؤمنين، وكيف أنه قهر أعداءه، وهزمهم، وأيد رسوله بجنود لم يروها وهم الملائكة، ومن المناسب إذن أن يكون الختم بالعزیز؛ لأن نصر المؤمنين، وتمكينهم من قهر أعدائهم، وإمداد المؤمنين بملائكة ، أمر كله لا يقوى عليه إلا عزيز. ثم كيفية مؤدى الانتصار، وكيفية إحداثه، ولماذا كان بالملائكة؟ ولم يكن بغيرهم؟ وهل كان بطريقة أخرى؟ كل هذا أمر يدبره حكيم، فإن سألت لماذا فاعمل ذهنك في البحث عن الحكمة، فإن خفيت فاعلم أن حكيمًا يقف خلفها.

(1) إثبات الحق على الخلق : ١٨٢/١.

(2) انظر الفصل الأول من هذا البحث: ٩.

قال الإمام ابن عاشور - رحمه الله - في معرض تفسير الآية السابقة الأولى: " وإجراء وصفي العزيز الحكيم هنا لأنهما أولى بالذكر في هذا المقام، لأن العزيز ينصر من يريد نصره، والحكيم يعلم من يستحق نصره، وكيف يعطاه "(١). ولنلاحظ في قول ابن عاشور (وكيف يعطاه)، إن الكيفية التي يتم بها أمر الله، مسألة مهمة في معرفة فهم (الحكيم) في ختم الآية.

وكذا يرى الإمام البيضاوي - رحمه الله في تفسير (الحكيم) في الآيات السابقة " الذي ينصر ويخذل بوسط وبغير وسط، على مقتضى الحكمة والمصلحة " (٢)، وحوله دار قول الإمام الألوسي : " العزيز فلا يعجزه الظهور بما شاء وكيف شاء، الحكيم الذي ستر نصره بصور الملائكة لحكمة "(٣)، ويقول في موطن آخر " حكيم يفعل كل ما يفعل حسبما تقتضيه الحكمة الباهرة، وجملة (إن الله عزيز حكيم) تعليل لما قبلها، وفيها إشعار بأن النصر الواقع على الوجه المذكور من مقتضيات الحكمة البالغة " (٤). ولنتأمل محورا آخر من المحاور التي ورد فيها (العزيز الحكيم) ختماً، وهو محور تنزيل الكتاب، القرآن الكريم، وهي آيات غالباً ما تقع في بداية السور.

قال تعالى :

١ - ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ (الزمر: ١).

٢ - ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ (الجاثية: ٢).

٣ - ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ (الأحقاف: ٢).

فتنزيل الكتاب أمر لا يقوم به إلا عزيز، ذاك لأنه ليس المقصود بالتنزيل، إنزاله من السماء إلى الأرض فقط، إذن لصح أن تختم الآية بقادر مثلاً أو قدير، ولكن

(1) التحرير والتنوير : ٢٠٧/٣.

(2) تفسير البيضاوي : ٨٩/١.

(3) روح المعاني : ٥٤/٤.

(4) السابق نفسه : ١٤٧/٩.

المقصود هنا الإنزال، وقهر معانديه، وغلبتهم بما انطوى عليه من إعجاز. وحكيم لأن هذا الكتاب إنما يشمل كل ضروب الحكمة، والحكيم يشير إلى علة إنزال هذا الكتاب الكريم، كأن قائلًا يقول: ولماذا كان التنزيل كتابا؟ قيل لحكمة أرادها الحكيم. يقول ابن عاشور في هذا السياق: "إيثار وصفي العزيز الحكيم بالذكر دون غيرهما من الأسماء الحسنى لإشعار وصف العزيز بأن ما نزل مناسب لعزته، فهو كتاب عزيز، أي هو غالب لمعانديه، وذلك لأنه أعجزهم عن معارضته، ولإشعار وصف الحكيم بأن ما نزل من عنده مناسب لحكمته، فهو مشتمل على دلائل اليقين والحقيقة، وفي ذلك إيماء إلى أن إعجازه من جانب بلاغته إذ غلبت بلاغته بلغائهم، ومن جانب معانيه إذ أعجزت حكمته حكماء الحكماء" (١).

وكذلك قول الإمام الألوسي: "والتعرض لوصفي العزة والحكمة للإيذان بظهور أثريهما في الكتاب بجريان أحكامه، ونفاذ أوامره ونواهييه من غير مدافع ولا ممانع وبابتداء جميع ما فيه على أساس الحكم الباهرة" (٢). وثمة محور آخر ختم المولى سبحانه آياته بالعزيز الحكيم، وهو محور التسبيح، تسبيح الكائنات جميعها، في السماوات وفي الأرض، وهذا المحور شمل مجموعة من الآيات. قال تعالى:

- ١ - ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الحديد: ١).
- ٢ - ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الصف: ١).
- ٣ - ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الحشر: ١).

(١) التحرير والتنوير: ٣٠١/١٣.

(٢) روح المعاني: ٣٤٤/١٣.

٤- ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِي الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الحشر: ٢٤).

فالآيات التي اشتملت على تسبيح المولى سبحانه، فيها إشارة إلى الربوبية والألوهية، ومن اليسير ملاحظة أن إخضاع الكائنات جميعها العلوية والسفلية بالتسبيح للمولى إنما يقوى عليه إله عزيز، ولو لم يكن عزيزا لما انفادت المخلوقات له مسبحة، ولو كان في هذا الكون رب غيره، أو إله سواه، لصرف المخلوقات جميعها عن هذا التسبيح.

وهو حكيم لأنه ما طلب منها غير التسبيح، ولا فطرها على سواه رحمة بها، وهو حكيم لأنه هيأ هذه المخلوقات لما أمرت به، يقول الإمام ابن عاشور : " والعزيز وصف ينفي وجود الشريك في الإلهية، والحكيم الموصوف بالحكمة وهي وضع الأفعال حيث يليق بها، وهي أيضا العلم الذي لا يخطئ، وهذا الوصف يثبت أن أفعاله جارية على تهيئة المخلوقات لما به إصابة ما خلقت لأجله، فلذلك عززها الله بإرشاده بواسطة الشرائع " (١).

وهو ما أكدته الإمام الفخر الرازي - رحمه الله - حين تعرض للآية بقوله : " سبح لله ما في السماوات وما في الأرض، أي شهد له بالربوبية والوحدانية وغيرهما من الصفات الحميدة جميع ما في السماوات والأرض، والحكيم من حكم على الشيء إذا قضى عليه وهو الذي يحكم على غيره، ولا يمكن أن يحكم عليه غيره، وفي بعض السور، سبح لله، وفي البعض يسبح، وفي البعض سبح بصيغة الأمر، ليعلم أن تسبيح حضرة الله دائم غير منقطع " (٢).

إن مناسبة الختم بالعزیز الحكيم في آيات التسبيح واضحة، كما بان قبل قليل، بل إن ملمحا آخر يمكن إدراكه ، وهو أن الحكيم هو الذي صرف المخلوقات إلى ما

(1) التحرير والتنوير : ٣٧٦/١٤.

(2) تفسير الفخر الرازي : ٣١١/١٥.

يصلحها، وتستقيم به حياتها، وإن الإنسان أولى بهذا التسبيح وأجدر ، فالتسبيح فيه صلاح لأحوال المخلوقات، فكيف بالإنسان.

إن الختم بالعزیز الحكيم فيه إغراء للإنسان أن يسلك ما يصلحه أسوة بغيره من المخلوقات. فيسبح مولاه لتستقيم حركة الإنسان مع الكون، لأن الكون قد استقام بالتسبيح والامتثال لإرادة مولاه .

ذاك إذن هو الضابط ، فعل يكون في صدر الآية أو السياق لا يقوى عليه إلا عزيز، يتمه على أكمل وجه، ويقمع معانديه، ويعجزهم، فيتفرد بالعزة والغلبة، وهذا الفعل له وجه حكمة، قد تكون ظاهرة وقد تخفى، وله كيفية يتم بها على أحسن الوجوه وأفضلها. قال تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (آل عمران: ٦)

فالتصوير في الأرحام أمر لا يقوم به إلا عزيز، والكيفية التي يتم بها إنما هي تدبير حكيم، إذن الفعل يصوركم يتعلق بالعزيز الذي لا مثيل له، (وكيف يشاء) يتعلق بالحكيم، يقول

الإمام أبو حيان : " ثم أتى بوصف العزة الدالة على عدم النظير، والحكمة الموجبة لتصوير الأشياء على الإتقان التام،" ^(١)، ولعل الإمام الشعراوي رحمه الله - فصل القول في هذه الآية وأجاد " هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو ، ومعنى لا إله إلا هو ، إي سيصور وهو عالم أن ما سيصوره سيكون على هذه الصورة، لأنه لا يوجد إله آخر يقول له: هذه لا تعجبنى وسأصور صورة أخرى، لا؛ لأن الذي يفعل ذلك عزيز، أي لا يغلب على أمر، وكل ما يريده يحدث وكل أمر عنده لحكمة، لأن المولى حينما يقول : (يصوركم في الأرحام)، قد يقول أحد من الناس: إن هناك صورا شاذة وصورا غير طبيعية، وهو سبحانه يقول لك: أنا حكيم، وأفعلها لحكمة، فلا تفصل الحدث عن حكمته " ^(٢) .

ولو تأملنا الآية التالية سيبين المراد على وجه أكثر وضوحا، قال تعالى:

(١) البحر المحيط : ٢١/٣.

(٢) تفسير الشعراوي : ١٢٧٣/٢.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِكَ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٦٠).

إن مسألة إحياء الموتى، أمر فقط يتكفل به عزيز، وكونه عزيزا إذن فهو قادر، ولكن لماذا لم يختم الآية بقادر مثلا ؟ والجواب فيما أرى أن الآية اشتملت ليس فقط على ما يدل على قدرته، ولكنها اشتملت على ما يدل على عزته أيضا، فهو الذي سيحيي الطير، وهو سيجعلها تأتي إلى إبراهيم - عليه السلام - سعيا على الأرجل، وليس طيرانا، في ذلك زيادة لم يطلبها إبراهيم، وهي طاعة الطير وتذليلها له، وهو الذي سيجعل قلب إبراهيم يطمئن لقدرة الله، وليس الأمر كذلك فحسب بل هو الذي سيمكن إبراهيم من دعائهن، ويجعلهن يلبن ساعيات له عليه السلام، ولنلاحظ إلى أنه كان من الممكن أن يحييهم المولى من غير دعوة إبراهيم، ولكن زيادة في التأكيد على القدرة، جعل إبراهيم هو الذي يناديهم.

إن الأفعال السابقة جميعها لا يقوى عليها إلا عزيز، يقهر الكائنات فتستجيب له مدعنة، ولو كان الأمر فقط في القدرة على الإحياء لصح الختم بالقادر، وأما أن الآية ختمت بالحكيم، فذاك دعوة للتأمل وإعمال الذهن في البحث عن الأسباب؛ لأن مجموعة من الأسئلة يمكن أن تلوح للم تأمل في الآية، لماذا كان التمثيل بالطير؟ ولماذا أربعة فقط؟ وما وجه الحكمة في وضع

الأجزاء على الجبال؟ إن (الحكيم) يأتي ليقول أن الكيفية التي تمت بها إجابة دعوة إبراهيم - عليه السلام -، كانت لحكمة أرادها المولى، ولم تكن لعجز منه. قال الإمام الفخر الرازي : " عزيز غالب على جميع الكائنات، وحكيم أي عليم بعواقب الأمور والغايات " (١)، وقال أبو حيان : " عزيز لا يمتنع عليه ما يريد، حكيم فيما يريد ويمثل، العزة تتضمن القدرة، لأن الغلبة تكون عن العزة " (٢).

(1) تفسير الفخر الرازي : ٤٩/٤.

(2) البحر المحيط : ٤٦٩/٢.

وكذا يرى ابن عطية - رحمه الله : " ولذلك جعل الله تعالى سيرهن إليه سعيًا، إذ هي مشية المجد الراغب فيما يمشي إليه، فكان من المبالغة أن رأى إبراهيم جدها في قصده، وإجابة دعوته، ولو جاءت طيرانا لكان ذلك على عرف أمرها، ثم وقف عليه السلام على العلم بالعزة، التي في ضمنها القدرة، وعلى الحكمة التي بها إتقان كل شيء " (٣) .

والحكمة عند ابن عاشور هي في إتقان الخلق، ولا بأس في ذلك، فإن المعنى اللغوي للحكمة يحتمل هذا المعنى. ولكن الإمام الألوسي يذهب مذهباً آخر في تفسير (الحكيم) في ختم الآية: " حكيم ذو حكمة بالغة فليس بناء أفعاله على الأسباب العادية لعجزه عن خرق العادات بل لكونه متضمناً للحكم والمصالح " (٤). وهو مذهب جميل يؤكد ما ذهبنا إليه فيما سبق.

ولنتأمل هذه الآية، قال تعالى:

﴿ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (النساء: ١٥٨).



فالآية تتحدث عن المسيح عليه السلام، تبين كيف أن اليهود لم يقتلوه، ولم يصلبوه لأن الله حماه منهم، فشبه لهم ورفعهم المولى إليه، والختم هنا بهذين الاسمين من تمام الإعجاز، لأن مسألة رفعه لا يقوى عليها إلا عزيز لا يمانع. فالقادر - مطلقاً - مثلاً قد يمانع على إرادته، ولكن العزيز ينفذ أمره، فلا يقوى على ممانعته شيء، وهو حكيم لأنه نجى عيسى عليه السلام - بكيفية حكيمة، ورفعته إليه لتتم حكمته فيما أراد.

يقول الإمام أبو حيان:

" المراد من العزة كمال القدرة، ومن الحكمة كمال العلم، فنبه بهذا على أن رفع عيسى عليه السلام من الدنيا إلى السماوات وإن كان كالمعتذر على البشر، لكن لا تعذر

(3) المحرر الوجيز : ٣٥٥/١.

(4) روح المعاني : ٤٩/٣.

فيه بالنسبة إلى قدرتي وحكمتي، وقيل عزيزا لا يغالب، لأن اليهود حاولت بعيسى أمرا وأراد الله خلافه، وحكيما واضع الأشياء في مواضعها، فمن حكمته تخليصه من اليهود ورفعته إلى السماء لما يريد وتقتضيه حكمته تعالى " (١)،

وكذا قال أبو السعود رحمه الله : " وكان الله عزيزا لا يغالب فيما يريده، حكيما في جميع أفعاله فيدخل فيها تدبيراته تعالى في أمر عيسى عليه السلام " (٢).
وبمثله قال الإمام الألوسي : " عزيزا لا يغلب فيما يريده، حكيما في جميع أفعاله فيدخل فيه تدبيراته سبحانه في أمر عيسى عليه السلام ، وإلقاء الشبه على من ألقاه " (٣).
وهكذا تمضي الآيات المختومة بالعزير الحكيم جميعها، وفق النسق السابق لا تشذ عنه، وإليك مجموعة أخرى من الآيات للتأمل. قال تعالى :

١ - ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (إبراهيم: ٤).

٢ - ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (النحل: ٦٠).

٣ - ﴿ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (الشورى: ٣).

٤ - ﴿ وَلَوْ أَنَّ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفَدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (لقمان: ٢٧).

(١) البحر المحيط : ١٢٩/٤.

(٢) إرشاد العقل السليم : ٢٥٢ / ٢.

(٣) روح المعاني: ١٢/٦.

٥ - ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (العنكبوت: ٤٢).

فالأية الأولى وما فيها من إرسال الرسل، بشرا بلسان أقوامهم، فعل يتعلق بالعزیز، ولكن هدايته لبعض البشر، وإضلاله لبعضهم الآخر، يتعلق بالحكيم، كأنه قيل: ولماذا يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء، قيل: لأنه حكيم.

وكذلك الآية الثانية فقد وردت بعد آيات: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴾

(النحل: ٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿ (النحل: ٥٨)، فمن

المناسب أن تختم الآية بالعزیز الحكيم، فهو عزیز لأنه لا يضره وصفهم القبيح، حين يمثلون لله المثل السوء، ولا يكون صاحب المثل الأعلى إلا عزیز، ثم هو حكيم سبحانه لأنه لم يأخذهم على قولهم، فأبقاهم لحكمة، كأنه قيل: ولماذا لا يأخذهم العزیز بسبب أقوالهم القبيحة، وأمثالهم السيئة؟ قيل: لأنه سبحانه حكيم يؤكد ذلك قوله في الآية التي تليها، ﴿ وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُخْرِجُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (النحل: ٦١). فالحكمة تكمن في أنه لو أخذهم ما أبقى على ظهر الأرض من دابة، فلهم أجل مقرر عند رب العالمين، لن يتجاوزوه، كما لن يستقدموه.

وكذلك الحال في الآيات الأخرى، فالآية الثالثة، تبين أن المولى عزیز متصرف بما يريد، لا يصده أحد، حكيم حيث يختار لرسالته من يشاء لحكمة أرادها، قال ابن عاشور - رحمه الله: " وإجراء وصفي العزیز الحكيم على اسم الجلالة دون غيرهما، لأن لهاتين الصفتين مزيد اختصاص بالغرض المقصود من أن الله يصطفي من يشاء لرسالته " (١). قال الإمام الشوكاني رحمه الله: " وارتفاع الاسم الشريف على أنه فاعل لفعل محذوف، كأنه قيل من يوحى؟ فقيل الله العزیز الحكيم " (٢).

قال الإمام الفخر الرازي:

" إن كونه عزیزا يدل على كونه قادرا على ما لا نهاية له، وكونه حكيمًا يدل على كونه عالما بجميع المعلومات، غنيا عن جميع الحاجات، فيحصل لنا من كونه (عزیزا

(1) التحرير والتنوير : ٧٦/١٣.

(2) فتح القدير : ٧٤٨/٤.

حكيمًا) كونه قادرا على جميع المقدورات عالما بجميع المعلومات، غنيا عن جميع الحاجات، ومن كان كذلك كانت أفعاله وأقواله حكمة وصوابا، وكانت مبرأة عن العيب والعبث " (١).

آيات تحتاج إلى تأمل:

وقد عدها الإمام السيوطي في كتابه (الإتقان) من مشكلات الفواصل.

الآية الأولى : قال تعالى:

﴿ إِنَّ تَعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (المائدة: ١١٨).

هذه الآية دار حولها جدل طويل، وكانت مدارا للطعن من قبل المشككين في إعجاز القرآن، وكان وجه الطعن أن الآية ينبغي أن تختتم (بالغفور الرحيم)، بدلا من (العزیز الحكيم).

يقول الإمام القرطبي: " وقد طعن على القرآن من قال إن قوله " فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ " ليس بمشاكل لقوله: " وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ " والجواب أنه لا يحتمل إلا ما أنزله الله، ومتى نقل إلى الذي نقله، فإنه ينفرد الغفور الرحيم بالشرط الثاني، فلا يكون له بالشرط الأول تعلق، وهو مقرون بالشرطين كليهما، أولهما وآخرهما، إذ تلخيصه إن تعذبهم فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، وإن تغفر لهم فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، والشرطين المذكورين أولى وأثبت معنى في الآية مما يصلح لبعض الكلام دون بعض " (٢).

ولكن ما يتضح ويبدو في الآية أن الختم بالعزیز الحكيم في غاية الدقة والإعجاز، بحيث لا يصلح غيرهما مكانهما، وإن بدا غير ذلك لمن لم يؤت حظا من التدبر.

فالآية على لسان عيسى عليه السلام، والموقف في يوم القيامة، ولو طبقنا النسق الذي ارتأيناه على الآية لصح ذلك تماما، فالآية فيها ما يدل على عزته، وفيها ما يدل على حكمته، وهي مقسومة بين الاسمين، فقله: إن تعذبهم يناسبها العزیز، وإن تغفر لهم يناسبها الحكيم، ذلك أن لا يقوى على التعذيب إلا عزیز لا يمانع، ولا يغفر لمن يستحق العذاب بعد إشراكه إلا لحكمة من حكيم. قال الإمام الألوسي: " إن تعذبهم فإنهم عبادك على معنى أنه لم يلحقك بتعذيبهم اعتراض، لأنك المالك

(1) تفسير الفخر الرازي: ١٤٣/١٤.

(2) الجامع لأحكام القرآن: ٣٤٨/٦.

المطلق لهم، ولا اعتراض على المالك المطلق، أي لم يستطع أحد منهم على دفع ذلك عن نفسه " (٣).

وكذا يرى الإمام الزركشي: " لأنه لا يغفر لمن يستحق العذاب إلا من ليس فوقه أحد يرد عليه حكمه فهو عزيز ، وإن تغفر لهم مع استحقاقهم العذاب فلا معترض عليك لأحد في ذلك ، فالحكمة فيما فعلته " (١).

الواضح أن عيسى عليه السلام لا يعرض بطلب العفو والمغفرة، وإنما يفوض الأمر للمولى، ويقر بعزته وحكمته، " ذلك لأن المقام مقام تبر فلم يذكر الصفة المقتضية استمطار العفو وذكر صفة العدل، لأن الحكيم الذي يضع الأشياء مواضعها، وقيل ليس هو على مسألة الغفران، وإنما هو على معنى تسليم الأمر إلى من هو أملك لهم، ولو قيل فإنك أنت الغفور الرحيم، لأوهم الدعاء بالمغفرة، ولا يسوغ الدعاء بالمغفرة لمن مات على شركه " (٢).

وهو ما أكدّه الألوسي -رحمه الله- : " ليس في قوله وإن تغفر لهم تعريض بسؤال المغفرة، وإنما هو لإظهار قدرته سبحانه وحكمته، ولذا قال سبحانه العزيز الحكيم دون الغفور الرحيم " (٣). وكذا قال ابن عاشور : " وقوله فإنك أنت العزيز الحكيم، ذكر العزيز كناية عن مقدرة، وذكر الحكيم لمناسبته التفويض " (٤).

وقد قيل كلام غير ذلك يحسن ذكره، ويوافق ما قدمناه حين تحدثنا عن دفع التوهم في تجاوز الاسمين " وقيل إن ذكرهما من باب الاحتراس، لأن ترك عقاب الجاني قد يكون لعجز في القدرة، أو لإهمال ينافي الحكمة، فدفع توهم ذلك بذكرهما " (٥).

(3) روح المعاني : ٧٠/٧

(1) البرهان في علوم القرآن: ٩٠/١.

(2) المرجع السابق : ٩٠/١.

(3) روح المعاني: ٧٠/٧.

(4) التحرير والتنوير : ٣٥١/٤.

(5) روح المعاني : ٧١/٧.

" وخلاصة الاحتراس أن العفو عن المستحق للعذاب العظيم، قد يكون عن عجز وضعف، لا عن استطاعة وقدرة، أو يكون عن سوء تدبير وتقدير، أو عن كليهما ، فلو قال : " فإنك أنت الغفور الرحيم " لما دفع هذين الوصفين عنه، فإن الغافر الراحم قد يكون إنما فعل ذلك لضعفه أو لسوء تدبيره . فقال : " فإنك أنت العزيز الحكيم " ليدفع ذلك عنه، وليقول أنه إن عفا وغفر فعن كمال العزة والقدرة، وعن غاية الحكمة والتدبير " (٦).

الآية الثانية:

قال تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة: ٧١).

وهذه الآية أيضا عدها الإمام السيوطي من مشكلات الفواصل (١)، ووجه الإشكال فيها أن جملة " أولئك سيرحمهم الله " توهم أن السياق سيختم (بالغفور الرحيم)، أو (الرءوف الرحيم) أو غير ذلك من أسمائه التي تدل على الرحمة. ومن يمعن النظر في الآية، يجد أن لهذا الختم دقة ومتعة، لا يتحققان بغيره من الأسماء، فالله سبحانه وتعالى قد قرر أنه سيرحمهم، والسين تفيد التأكيد، قال الزمخشري : " والسين مفيدة وجوب الرحمة لا محالة، فهي تؤكد الوعد كما تؤكد الوعيد " (٢).

فما دام أنهم قد تأكدوا من أنه سبحانه سيرحمهم، فما وجه الحكمة في إعادة تأكيد الرحمة بالختم (بالغفور الرحيم)؟! وهنا يأتي جمال الختم (بالعزيز الحكيم)

(6) السامرائي ، فاضل صالح: لمسات بيانية في نصوص التنزيل، دار عمار، عمان، الطبعة الثانية، ١٤٢٢-٢٠٠١م، ٧٨.

(1) انظر الإتيان في علوم القرآن : ٢٧٥/٢.

(2) الكشف : ٢٨٠/٢.

،في أنهم لما تأكدوا من حدوث الرحمة، واطمأنوا أنه قد تقرر حدوثها ، أرادوا الاطمئنان إلى أنها ستمضي على ما أراده الله.

فالعزیز تبعث على الاطمئنان لمضائها، لأنه عزیز لا يرد قضاؤه، ولا يحول بينه وبين أن يتمها شيء؛ لأنه العزيز.

وهو حكيم فيما يصنع؛ لأنه يضع الأشياء حيث ينبغي أن توضع، حكيم في إنجاز وعده للمؤمنين، وعلى الوجه الأنسب، ومن تمام حكمته أنهم لما تراحموا بينهم، فكان بعضهم أولياء بعض، ورحموا غيرهم حين أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ورحموا الفقراء حين أدوا الزكاة، كانت حكمته تقتضي أن يغمرهم برحمة من عنده دائمة لا تنقطع.

قال الإمام الفخر الرازي : " إن الله عزيز حكيم ،وذلك يوجب المبالغة في الترغيب والترهيب؛ لأن العزيز هو من لا يمنع من مراده في عبادته من رحمة أو عقوبة، والحكيم هو المدبر أمر عبادته على ما يقتضيه العدل والصواب " (٣) .
فأي ختم بغير هذين الاسمين الجميلين، يمكن أن يؤدي تلك المعاني السابقة، ويحفز الذهن إلى تلك الحركة التأملية النشطة.

الآية الثالثة :

قال تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (الممتحنة:٥).

وهذه أيضا من الآيات التي عدها الإمام السيوطي من مشكلات الفواصل (١)، وهي تتشابه مع سابقتها، في أن السياق كان يوهم أن الختم سيكون ب(الغفور الرحيم)، فإذا الختم يكون (بالعزيز الحكيم).

والحقيقة أن الختم (بالغفور الرحيم) في الآية السابقة ينذر بفساد المعنى، ذاك أن جوهر الآية هو مطلبهم ألا يكونوا فتنة للكافرين، ومعنى (لا تجعلنا فتنة) أي: "

(3) تفسير الفخر الرازي : ١٣٥/٨.

(1) انظر الإتيان في علوم القرآن : ٢٧٥/٢.

لا تظهرهم علينا، فيظنوا أنهم على حق، أو لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك، فيقولوا لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا " (٢) .

فإذا كان هذا مطلبهم، فلا يناسبه قطعاً إلا العزيز الغالب، الذي لا يمانع، والذي يحمي أوليائه ويعزهم، فإن استجاب لهم فذاك، وإن لم يستجب لهم وادخر لهم دعاءهم، فإنما ذاك يكون لحكمة أرادها، وإن ملمحاً جميلاً رائعاً يمكن أن نلمحه من استخدامهم في دعائهم (الحكيم)، وهو أن إبراهيم -عليه السلام - ومن معه من المؤمنين تبرعوا في الآية السابقة من قومهم، ومما يعبدون من دون الله، وبدا بينهم العداوة لقومهم ما لم يؤمنوا بالله وحده، إن من تمام الأدب مع الله أن يستخدموا في دعائهم (الحكيم)، لأن فيه تفويض الأمر إليه سبحانه، فهم يعلمون جيداً أن مسألة الإيمان هي بيد الله أولاً، وأن من سنن الأنبياء والدعاة الابتلاء والمحن، وأن إرادته سبحانه قد تكون على غير ما يرغبون، وعلى غير ما يدعون ، فقدموا بين يديه (الحكيم) كأنهم قالوا : إنك يا ربنا عزيز، قادر على أن تحمينا منهم، وتجنبنا الفتنة، وتغفر لنا، فإن أردت يا ربنا غير ذلك، فلحكمة تقتضيها، ونحن بما تقضي راضون واثقون.

قال الإمام ابن عاشور: " إنك أنت العزيز الحكيم، تعليل للدعوات كلها، فإن التوكل والإنابة والمصير تناسب صفة العزيز، إذ مثله يعامل بمثل ذلك، وطلب أن لا يجعلهم فتنة باختلاف معانيه يناسب صفة الحكيم " (٣) .

الأعرابي وآية السرقة:

قال تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (المائدة: ٣٨).

(2) فتح القدير : ٢٩٩/٥ .

(3) التحرير والتنوير : ٤٣٨٧ / ١ .

هذه الآية لها قصة، يوردها بعض المفسرين عند تفسير آية السرقة، وهي " أن الأصمعي قال كنت أقرأ: والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله غفور رحيم، وبجني أعرابي، فقال: كلام من هذا ؟ فقلت: كلام الله. قال ليس هذا كلام الله! فانتبهت فقرأت: والله عزيز حكيم، فقال : أصبت هذا كلام الله، فقلت أنقرأ القرآن ؟ قال: لا. قلت فمن أين علمت؟ قال : يا هذا عز فحكم فقطع، ولو غفر ورحم لما قطع " (١).

رحم الله ذاك الأعرابي فقد شغلني رده زمنا طويلا، ولعل الإنصاف يقتضي أن أقول: أن رده أملى على فكرة هذا البحث، حيث سيطرت على فكرة أن ثمة نسق عام للخواتم لا تخرج عليه، شرعت في توضيحه، ولكنني حينما خضت غمار البحث عدت و تأملت رده، فبان لي أن الأعرابي أصاب حيث توصل إلى النتيجة، فيما لم يصب في الطريقة والمنطق الذي توصل به إليها، فتعليل الأعرابي لم يكن على قدر من الدقة والتوفيق، حينما قال: عز فحكم فقطع، لأن الأعرابي فهم أن الحكيم بمعنى أصدر حكما، والأمر ليس كذلك، لأن الحكيم فيه معنى التعليل للقطع، كأن قائلًا قال: ولماذا كان القطع؟ ولم يكن شيئا آخر؟ قيل لأنه حكيم، يعلم ما انطوت عليه النفوس ،وما يصلح من عقوبات رادعة لها.

قال الإمام الطبري: " والله عزيز في انتقامه من هذا السارق والسارقة وغيرهما من أهل معاصيه، حكيم في حكمه فيهم، وقضائه عليهم " (٢). وبمثله قال الإمام الشعراوي: " والله عزيز أي لا يغلبه أحد، ولا يحتال عليه أحد، وهو حكيم فيما يصنع من عقوبات للجرائم لأنه يزن المجتمع نفسه بميزان العدالة " (٣).

وكان من الممكن أن يصلح للتعليل أن يقول: عز فقطع؛ لأن له حكم. وعلى كل فإن هذا الأعرابي أدرك بسليقته، أن الختم (بالغفور الرحيم) لا يناسب سياق الآية.

(1) التحرير والتنوير : ٢٢٦/٢.

(2) جامع البيان : ٥٦٩/٤.

(3) تفسير الشعراوي: ٣١٢٨/٥.

ولكنني أثناء التتقيب وقعت على رواية أخرى للقصة، لدى الإمام الزمخشري : " وروي أن قارئاً قرأ (غفور رحيم)، فسمعه أعرابي فأنكره؛ ولم يقرأ القرآن وقال: إن كان هذا كلام الله فلا يقول كذا الحكيم، لا يذكر الغفران عند الزلل؛ لأنه إغراء عليه " (١).

والقصة بهذه الرواية أكثر قبولاً، وأجمل تعليلاً.

إن حكمة الله تتبدى واضحة في القطع، وجدواه، وقدرته على الردع، وكيف أنه أقدر على الحد من انتشار تلك الجريمة التي تفتك بالمجتمعات، ولا سيما بعد أن جربت البشرية أنواعاً أخرى من العقوبات كالسجن مثلاً، فما زادت السارقين إلا تمرساً واثقانا.

وقد ذكروا أن أبا علاء المعري، لما قدم بغداد اشتهر عنه أنه أورد إشكالا على الفقهاء في جعلهم نصاب السرقة ربع دينار، ونظم في ذلك شعراً، دل على جهله، وقلة عقله، فقال:

يد بخمس مئين عسجد وديت ما بالها قطعت في ربع دينار
تناقض ما لنا إلا السكوت له وأن نعوذ بمولانا من النار

فأجابه عبد الوهاب المالكي -رحمه الله: لما كانت أمينة، كانت ثمينة، فلما خانت هانت. (٢).

وينسب لعلم الدين السخاوي هذا البيت في الرد على أبي العلاء:

عز الأمانة أغلاها وأرخصها ذل الخيانة فافهم حكمة الباري (٣).

٢ - العزيز الرحيم:

و(العزيز) ورد مقترناً مع (الرحيم) في ثلاثة عشر موضعاً، ثمانية منها في سورة الشعراء، في قوله سبحانه وتعالى:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (الشعراء: ٩).

وما قلناه في اقتران (العزيز الحكيم)، ينطبق على (العزيز الرحيم)، فمجيء العزيز مقترناً بالرحيم إنما يكون لدفع وهم من يرى أن من عز قد لا يرحم، بسبب

(١) الكشف ١٢٥/١.

(٢) ابن كثير، محمد علي الصابوني: مختصر تفسير ابن كثير، ٣٦٣/١.

(٣) التحرير والتنوير: ١٩٤/٤.

قدرته وغلبته وقهره للآخرين، " وهو العزيز الرحيم، إذ إن المخلوق كثيرا ما يتصف بالعزة دون الرحمة، أو تكون فيه رحمة بلا عزة، وهو سبحانه العزيز الرحيم «(٤) .

إن (العزيز الحكيم) كما بينت سابقا، تأتي في سياق قدرة المولى على إنزال الفعل، وإتمامه، وقهر معانديه، ويكون لهذا الفعل حكمة أرادها المولى، حجبها من أجل أن نعمل العقول في البحث عنها. وأما (العزيز الرحيم) فإن الحكمة تكون قد ظهرت بسبب الرحمة، فحيث يكون فعل من المولى أوقعه أم لم يوقعه، فإن الحكمة من هذا الفعل هي الرحمة، سواء كان في إيقاع الفعل، أو في منع وقوعه.

والآيات التي وردت مختومة بالعزيز الرحيم تكشف عن ذلك بوضوح تام، لا خفاء فيه. قال تعالى: ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ (الشعراء: ٤)، (وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ) (الشعراء: ٥)، (فَقَدْ كَذَبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) (الشعراء: ٦)، (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أُبْتِغَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ) (الشعراء: ٧) (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) (الشعراء: ٨). ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (الشعراء: ٩).

وسر ورود هذين الاسمين في السياق ذاته، أن العزيز تناسب الآية الرابعة من السورة، فهو سبحانه لو شاء لأنزل عليهم آية من السماء، لأنه عزيز، قادر غالب لا يمانع، قاهر لخصومه. وكأن قائلا قال: ولماذا لم ينزل عليهم آية، قيل: لأنه رحيم، لأنه لو نزل عليهم آية لقضي الأمر بعذابهم، ثم لأن هناك قلة من المؤمنين سيخرجهم من دائرة الكفر، إلى دائرة الإيمان. (العزيز) إذن تتعلق بالكفار، وقدرته عليهم، وانتقامه منهم، و (الرحيم) تتعلق بالمؤمنين، حيث ينجيهم من الكفر مرة ومن العذاب مرة أخرى. " كل شيء في الشعراء من قوله "العزيز الرحيم" فهو ما أهلك ممن مضى من الأمم، عزيز حين انتقم من أعدائه، رحيم بالمؤمنين حين أنجاهم مما أهلك به أعداءه " (١)، أو كما يقول ابن القيم: " فصدور هذا الإهلاك عن عزته، وذلك الإنجاء عن رحمته " (٢)، وقال الإمام السيوطي: " ولما كان مفهومه أن الأقل من قومه آمنوا أتى بوصف العزيز الرحيم، للإشارة إلى أن العزة على

(4) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم: النبوات، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٨٦ هـ، ٧٥.

(1) جامع البيان : ٤٣٤/٩.

(2) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٣-١٩٧٣ م، ٤٩٢/٣.

من لم يؤمن منهم، والرحمة لمن آمن " (٣)، وبمثله قال الإمام الزركشي : " وأما مناسبة قوله العزيز الرحيم، فإنه نفى الإيمان عن الأكثر، فدل بالمفهوم على إيمان الأقل، فكانت العزة على من لم يؤمن، والرحمة لمن آمن، وهما مرتبتان كترتيب الفريقين " (٤) .

وبعد أن بان لنا مناسبة الختم (بالعزيز الرحيم) للسياق الذي ورد فيه، وعلة اقترانهما، فما وجه الحكمة في تقديم العزيز على الرحيم ؟

إن الإجابة تكمن في أن السياق يتطلب (العزيز)؛ لأنه أولاً قهر أعداءه، وأهلكهم، وانتقم منهم، ثم رحم التلة المؤمنة، فالمعنى البؤرة هو قمعه للكافرين، وهو ترتيب حسن، كما قال الإمام الزركشي عن صفة العزة والرحمة : " وهما مرتبتان كترتيب الفريقين " (١) .

لكن الإمام الفخر الرازي يرى أن للتقديم علة أخرى يقول: " فأما قوله: وإن ربك لهو العزيز الرحيم، فإنما قدم ذكر العزيز على ذكر الرحيم؛ لأنه لو لم يقدمه لكان ربما قيل : إنه رحمهم لعجزه عن عقوبتهم، أزال هذا الوهم بذكر العزيز، وهو الغالب القاهر، ومع ذلك فإنه رحيم بعباده، فإن الرحمة إذا كانت عن القدرة الكاملة كانت أعظم وقعا " (٢)، وكلام الإمام رحمه الله على وجاهته، فإنه لا يصلح لتعليل التقديم، وإنما يصلح لتعليل الاقتران، فلو قلنا (الرحيم العزيز) وسألنا لماذا أردف الرحيم بالعزيز؟ لصح قول الإمام لدفع وهم من زعم أن الرحمة عن عجز. وهناك رأي آخر له وجاهته أيضا في علة التقديم ، وهو رأي الإمام الألويسي: " وتقديم العزيز لأن ما قبله أظهر في بيان القدرة، أو لأنه أدل على دفع المضار الذي هو أهم من جلب المصالح " (٣) .

وليس الأمر كذلك كما أسلفت، بل هو أشبه بمراعاة النظر في البلاغة العربية، فإنه لما بدأ بالحديث عن الكفار وكيف أهلكهم، ناسب ذلك أن يبدأ بالعزيز، وانظر إلى هذه الآيات كأنموذج للتدليل.

قال تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ (الشعراء: ٥٧)، ﴿ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ (الشعراء: ٥٨)، ﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (الشعراء: ٥٩)، فهو سبحانه

(3) الإتيان في علوم القرآن : ١٨١/٢ .

(4) البرهان في علوم القرآن : ٢٠/٣ .

(1) البرهان في علوم القرآن : ٢٠/٣ .

(2) تفسير الفخر الرازي : ١٢١/١٢. وانظر : البحر المحيط : ١٤٢/٨ .

(3) روح المعاني / ٩٣/١١ .

عزيز فأخرجهم، رحيم وأورثهم. فلما بدأ بالإخراج، ناسب أن يبدأ ب(العزيز)،
وحين تلا ذلك فعل الرحمة وهو (وأورثناها) ناسب أن يتلو (العزيز) لفظ (الرحيم) .
وكذلك بقية الآيات لا تخرج عن هذا النسق.

قال ابن عاشور في معرض تفسير قوله تعالى : ﴿ ذَلِكْ عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ
الرَّحِيمُ ﴾ (السجدة: ٦): " ومناسبة وصفه تعالى بالعزيز الرحيم عقب ما تقدم أنه
خلق الخلق بمحض قدرته بدون معين، فالعزة وهي الاستغناء عن الغير ظاهرة،
وأنه خلقهم على أحوال فيها لطف بهم، فهو رحيم بهم فيما خلقهم إذ جعل أمور
حياتهم ملائمة لهم، فيها نعيم لهم، وجنبهم الآلام فيهم، فهذا سبب الجمع بين صفتي
العزيز والرحيم هنا على خلاف الغالب من ذكر الحكيم مع العزيز " (١).

٣ - العزيز العليم :

وهما اسمان جليان تجاورا في ستة مواضع، قال تعالى:

١ - ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾
(الأنعام: ٩٦).

٢ - ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (يس: ٣٨).

٣ - ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا
بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (فصلت: ١٢).

٤ - ﴿ وَلَنُ سَأَلُهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾
(الزخرف: ٩).

ومن اليسير هنا أن نلاحظ في الآيات السابقة أن الختم كان في سياق آيات تتحدث
عن مظاهر الكون، من فلق للإصباح، وجريان الشمس، وتزيين السماء بالمصابيح،
وهذه كلها لا يقوى عليها إلا عزيز لا يغالب، قاهر للأشياء فلا يمانع، ثم النظام التي
احتوته، والقوانين التي تسير وفقها، وناموسها الإلهي لا يقوى عليه غير العليم،

(1) التحرير والتنوير : ١٦٣/١١.

ولولا كمال عزته، وكمال علمه، لما تمت على الوجه الذي هي عليه من الدقة والإتقان " وإذا تأملت ختم الآيات بالأسماء والصفات وجدت كلامه مختتماً بذكر الصفة التي يقتضيها ذلك المقام، حتى كأنها ذكرت دليلاً عليه، وموجبة له، وهذا كقوله : ذلك تقدير العزيز العليم، في عدة مواضع في القرآن، يذكر ذلك عقيب ذكره الأجرام السماوية، وما تضمنه من فلق الإصباح، وجعل الليل سكناً، وإجراء الشمس والقمر بحساب لا يعدوانه، وأخبر أن هذا التقدير المحكم المتقن، صادر عن عزته وعلمه، وليس أمراً اتفاقياً لا يمدح به فاعله، ولا يثنى عليه به كسائر الأمور الاتفاقية " (٢٠).

وأما الآيات المتبقية فهي ثلاثة، قال تعالى:

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ (النمل: ٧٨).

فالآية السابقة قد سبقت بقوله تعالى :

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنُ يَنْصُصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (النمل: ٧٦).

فبنو إسرائيل قد اختلفوا فيما بينهم، والله يقضي بينهم، والقاضي يجب أن يكون عزيزاً، قادراً لا يرد حكمه، عليماً بما يحكم به، فالختم هنا مناسب جداً. لأن العزيز سينتقم من الظالمين منهم لا يمنعه أحد، والعليم هو الذي سيعلم من يستحق منهم العقاب ومن لا يستحقه. " وبه يظهر حسن موقع الاسمين الجليلين في تذييله، بقوله : وهو العزيز العليم، فإن العزيز لا يمانع، والعليم لا يفوته الحق " (١).

قال تعالى : ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (غافر: ٢).

فالتنزيل في الآية يناسبه العزيز كما بينا حين تحدثنا عن (العزيز الحكيم)، والعليم كانت هنا لأن السياق يتضمن حاجة الكافرين التي تتطلب علماً، فالكتاب يشتمل على كل أنواع العلوم، لأنه منزل من عليم، أودع فيه علمه.

(2) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، تحقيق محمد بدر الدين أبو فراس النعساني الحلبي، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨-١٩٧٨م، ٢٠٠.

(1) التحرير والتنوير : ٣٢٣/١٠.

قال الإمام الألويسي : " ولعل تخصيص الوصفين لما في القرآن الجليل من الإعجاز وأنواع العلوم التي يضيق عن الإحاطة بها نطاق الإفهام " (٢).

٤ - عزيز ذو انتقام :

ومن جملة الصفات التي اقترنت بـ (العزيز)، (ذو انتقام)، فقد وردا في القرآن الكريم في أربعة مواضع، والملاحظ أنه لم يرد الاقتران بالمنتقم مثلاً، وإنما كان بـ(ذو انتقام).

والفرق كما يراه ابن عاشور أن " الانتقام: العقاب على الاعتداء بغضب، ولذلك قيل للكاره: ناقم، وجيء في هذا الوصف بكلمة (ذو) الدالة على الملك للإشارة إلى أنه انتقام عن اختيار لإقامة مصالح العباد، وليس هو تعالى مندفعاً للانتقام بدافع الطبع أو الحنق " (٣).

وإضافة لما أورده الإمام ابن عاشور - رحمه الله - وهو قول جميل، فإني أحسب أن (ذو انتقام) لفظ مفتوح فيه قابلية للزيادة والمبالغة؛ لأن (المنتقم) اسم فاعل من الفعل الخماسي (انتقم) الذي لا يصاغ منه أبنية المبالغة، فكل من انتقم لشيء قيل منتقم، قل هذا الشيء أو كثر، ولكن (ذو انتقام) لا يكون إلا لمزيد انتقام، كأنه امتلاك الانتقام كله.

ولما كان ورود هذين الاسمين في سياقات الحديث عن الذين كفروا، أو عن الظالمين، أو عمن عادوا لذنوب عظيم كانوا قد نهوا عنه، كان الختم بهذين الوصفين في غاية الدقة، مع إتقان النظم. وبالتأمل في هذه الآيات يتأكد قولنا.
قال تعالى :

(2) روح المعاني : ١٣ / ٦٣.

(3) التحرير والتنوير : ٢٧ / ٣.

١ - ﴿ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأُنْزِلَ الْفُرْقَانُ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾ (آل عمران: ٤) .

٢ - ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَهَارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينٍ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَنْمَا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾ (المائدة: ٩٥).

٣ - ﴿ فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾ (إبراهيم: ٤٧).

٥ - ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴾ (الزمر: ٣٧).

والآيات الثلاثة الأولى واضح فيها وجه الحكمة من الختم، لأن الأولى تتحدث عن الذين كفروا، وتناسب العذاب الشديد، والثانية تدور عن أولئك الذين نهوا عن قتل الصيد وهم حرم، والختم هنا يناسب قوله: (ومن عاد فينتقم الله منه)، والثالثة سبقت بالحديث عن الظالمين في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ (إبراهيم: ٤٢).

يقول ابن عاشور في معرض تفسير الآية الثالثة: "إن الله عزيز ذو انتقام، تعليل للنهي عن حسبانته مخلف وعده، والعزة القدرة، والمعنى أن موجب اختلاف الوعد منتف عن الله

تعالى، لأن إخلاف الوعد يكون إما لعجز، وإما عن عدم اعتياد الموعد به، فالعزة تنفي الأول، وكونه صاحب انتقام ينفي الثاني، وهذه الجملة تذييل وبها يتم الكلام" (١).

والتذييل الذي ذكره الإمام ابن عاشور مصطلح بلاغي هو "أن يذيل الناظم أو الناصر كلاما بعد تمامه، وحسن السكوت عليه بجملة تحقق ما قبلها من الكلام وتزيده توكيدا

(١) التحرير والتنوير: ٤٥٠/٧.

وتجري مجرى المثل بزيادة التحقيق^(*) وهو ينتمي إلى علم المعاني، ويعده بعض العلماء فرع من الإطناب.

وما الآية الرابعة فقد ورد الختم فيها أسلوباً إنشائياً، حيث ورد استفهاماً غرضه التقرير والتوكيد، وهذا النوع من الاستفهام يكون لأمر قد تقرر حدوثه، كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ (الشرح: ١). ولكن علة الختم في هذه الآية تتضح من الآية التي سبقتها. قال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ (الزمر: ٣٦)، وهي مرتبطة بما بعدها حتى كأنهما آية واحدة.

قال : ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴾ (الزمر: ٣٧). فلما كان الكلام موجهاً للنبي - صلى الله عليه وسلم - مبيناً أنه سبحانه يكفيه وعيدهم، " وذلك أنهم خوفوا النبي صلى الله عليه وسلم معرفة الأوثان، وقالوا: لتكفن عن شتم آلهتنا أو ليصيبينك منها خبل أو جنون "^(٢)، أخبره أنه يكفيه وعيدهم، ما ذلك إلا لأنه عزيز، وكيف يخوفونك بالذين من دونه، والله ذو انتقام، قد انتقم من أعدائه، فأهلكهم. " والاستفهام تقريرى لأن العلم بعزة الله متقرر في النفوس لاعتراف الكل بألوهيته، والإلهية تقتضي العزة، ولأن العلم بأنه منتقم متقرر من مشاهد آثار أخذه لبعض الأمم مثل عاد وثمود "^(٣).

٥ - العزيز الحميد :

ورداً متجاورين في ثلاثة مواضع في القرآن الكريم، قال تعالى :

١ - ﴿ الرِّكَابُ أَزْلَنَاهُ إِلَيْكَ لُخْرَجَ النَّاسُ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ (إبراهيم: ١)

٢ - ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ

(*) مطلوب، أحمد: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٧-١٩٨٧م، ١٢٢/٢.

(2) البغوي، الحسين بن مسعود الفراء: معالم التنزيل، ١٢٠/١.

(3) التحرير والتنوير : ٣٤٧/١٢.

الْحَمِيدُ ﴿ (سبأ: ٦) ﴾

٣- ﴿ وَمَا تَقَمُّوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ (البروج: ٨).

أما وجه الحكمة في الختم بـ(العزیز) فيبدو واضحا، لأن الأمر يتعلق في الآيتين الأوليين بالإنزال، ففي الأولى " أنزلناه إليك " وفي الثانية " أنزل إليك " وقد بينت العلاقة بين الإنزال وبين الختم بالعزیز سابقا ^(١)، ولكن ما وجه الحكمة في الوصف بـ(الحميد) في الآيتين السابقتين ؟

إنها - والله أعلم - إشارة إلى استحقاق المولى للحمد، فهو حميد قبل أن يوجد ما يحمد لأجله، فإذا ما أضيف لذلك جميل صنعه، وعظيم فعله، فإن ذلك يستوجب مضاعفة الحمد له سبحانه. وليس أعظم في الوجود نعمة أنعمها الله على العبد من نعمة إنزال الكتاب، والذي بسبب منه أخرج المؤمنين من الظلمات إلى النور، وأقول بسبب منه لأن إخراجهم ما كان إلا بإذنه سبحانه لقوله " بإذن ربهم " فنعمة الهداية إذن نعمة تستوجب ليس الحمد فقط بل مضاعفته.

هذا وفق الرأي الأرجح في تفسير الحميد بمعنى المحمود . قال الإمام الطبري: " والحميد فعيل صرف من مفعول إلى فعيل، ومعناه: المحمود بآلائه " ^(٢) ومثله قال الإمام القرطبي: " الحميد أي المحمود والممجد في كل مكان وعلى كل حال " ^(٣) . يؤنسنا فيما ذهبنا إليه قول الإمام ابن عاشور - رحمه الله : " واختيار وصف العزيز الحميد من بين الصفات العلى، لمزيد مناسبتها للمقام؛ لأنه الذي لا يغلب، وإنزال الكتاب برهان على أحقية ما أراده الله من الناس، فهو به غالب للمخالفين، مقيم الحجة عليهم، والحميد بمعنى المحمود؛ لأن إنزال هذا الكتاب نعمة عظيمة ترشد إلى حمده " ^(٤) .

وأما الآية الثالثة وهي قوله تعالى:

﴿ وَمَا تَقَمُّوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ (البروج: ٨).

(1) انظر الفصل الثاني من هذا البحث : ٨ .

(2) جامع البيان : ٤١٣/٧ .

(3) الجامع لأحكام القرآن : ٢٨٨/٩ .

(4) التحرير والتنوير : ٣٩٩/٧ .

فلم تشتمل على التنزيل أو ما يشير إليه، ولكن سياقها العام يؤكد أن اختيار هذين الاسمين جاء في غاية الدقة والإحكام، فالآيات تدور عن المؤمنين الذين عذبوا، حيث شقت لهم الأخاديد، وألقوا فيها. وكان من الممكن أن يتوهم الذهن أن هذا الإله الذي آمنوا به إنما هو إله عاجز، لا ينبغي الإيمان به، لأنه يترك عباده المؤمنين للعذاب والفتنة. ولكن الوصف بـ(العزیز) يدفع هذا الوهم القادم من ذهن كليل، ليقول : إنه إله غالب قادر مانع، عزيز لا يمانع، ولو شاء لمنع تعذيبهم.

ثم إنه حميد يستحق العبادة لأن له كل صفات الحمد، تحمده الخلائق كلها في السماوات والأرض. وإن إلهها هذه صفاته جدير بالعبادة، ومستحق للحمد، وليس كما يفعل الظالمون من تعذيب أولئك المؤمنين، وفتنتهم. يقول الإمام الفخر الرازي: " واعلم أنه تعالى أشار بقوله (العزیز) إلى أنه لو شاء لمنع أولئك الجبابرة من تعذيب أولئك المؤمنين، ولأطفأ نيرانهم، ولأماتهم، وأشار بقوله (الحميد) إلى أن المعتبر عنده سبحانه من الأفعال عواقبها، فهو وإن كان قد أمهل لكنه ما أهمل، فإنه تعالى يوصل ثواب أولئك المؤمنين إليهم، وعقاب أولئك الكفرة إليهم، ولكنه لم يعاجلهم بذلك لأنه لم يفعل إلا على حسب المشيئة أو المصلحة على سبيل التفضل " (١).

٦ - العزيز (الغفار - الغفور):

ورد (العزيز) متجاوزاً مرة مع (الغفار) في ثلاثة مواضع، وأخرى مع (الغفور) في موضعين، ولا شك أن التجاور السابق يخضع للنسق العام الذي تحدثنا عنه فيما سبق، (فالعزيز) اسم يدل على القوة والقدرة والغلبة والقهر، بما قد يتوهم معه متوهم ما لا يليق من معاني القسوة، فيأتي (الغفار و الغفور) ليدفعا هذا الوهم، ويشيرا إلى أن هذا الإله العظيم على عزته وغلبته وقهره الظالمين إلا أنه كثير المغفرة لعباده، فيقرب العباد من خالقهم، ويتوبون إليه، ويستغفرونه فيغفر لهم. ثم يأتي (العزيز) ليدفع تجاوره وهما آخر، أنه ربما توهم أنه إنما يغفر عن عجز وضعف، فيأتي (العزيز) ليدفع هذا الوهم ويبين أنه إن غفر فإنه يغفر عن عزة وغلبة لا عن ضعف وعجز، فهو عزيز أولاً ثم غفور لمن استحق المغفرة.

(1) تفسير الفخر الرازي: ١٦ / ١٢١.

فاجتماع الاسمين واقتترانهما جعلهما صفوا خالصا، بلغا غاية الكمال ونأيا عن أوهام البشر، ورسخا ما رسخا من معاني الكمال.

هذا من جانب، ومن جانب آخر، فإن تجاوز الاسمين يشير فيما يشير إليه، إلى مخاطبة نوعين من البشر، بما يليق بكل منهما، الظالمون الذين يناسبهم (العزیز) وما فيه من معاني الغلبة والقهر والانتقام، والنوع الآخر هم المؤمنون الذين يناسبهم (الغفار - الغفور)، وما فيه من معاني الرحمة والمغفرة.

قال الإمام ابن عاشور رحمه الله : " ووصف العزيز تمهيد للوصف بالغفار، أي الغفار عن عزة ومقدرة لا عن عجز وملق ^(١) .

قال تعالى :

١ - ﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ (ص: ٦٦)

٢ - ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ (الزمر: ٥).

٣ - ﴿ تَدْعُونِي لَأُكْفِّرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴾ (غافر: ٤٢).

ولكن لماذا جاء الختم مرة (بالعزیز الغفار) وأخرى (بالعزیز الغفور)؟
واضح أن (الغفار) أدل على كثرة المغفرة وتتابعها، حيث يغفر مرة ومرة ومرة، فكلما أذنب العبد واستغفر وجد غفارا يغفر، وفي الآيتين الأوليين جاء (الغفار) مسبقا (بالواحد القهار) بانتظام، ومن المناسب جدا أن يختم بالعزیز الغفار، لأن الآية التي قبلهما لما ختمت ب(الواحد القهار) الذي يستدعي معاني الخوف والرهبة، ناسب أن يقابله بما يساويه من معاني المغفرة، فالقهار تستدعي قمة الخوف والرهبة، والغفار تستدعي قمة المغفرة، وهما قمتان متقابلتان متساويتان. ناهيك عن

(1) التحرير والتنوير : ٢٥٥/١٢.

جمال النظم في التساوي بين وزن الاسمين، فكلاهما على وزن (فعال)، التي يناسب المد فيها الديمومة، ديمومة القهر، وديمومة المغفرة.

قال الإمام الفخر الرازي: "إلا أن كونه قهارا وإن دل على ثبات الوجدانية، إلا أنه يوجب الخوف الشديد، فأردفه الله تعالى بذكر صفات تدل على الرحمة والفضل" (٢)

وفي الآية الثالثة حوار بين مؤمن آل فرعون وقومه، وفي محاورته لهم، يستخدم كل ما من شأنه أن يجلبهم للهداية، ف(العزیز) يبين لهم أن هناك إلها قاهرا قادرا يقهر فرعون ومن معه، فيبيئهم من اتباع فرعون، و(الغفار) يشجعهم على سرعة التوبة.

فخاطبهم باسم أدل على المغفرة من أخيه، تشجيعا لهم، ورغبة منه في هدايتهم "حتى لا يياسوا من عفو بعد أن أساءوا إليه" (١).
وأما ورود العزيز مع الغفور، فقد ورد في آيتين. قال تعالى:

١ - ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ (المالك: ٢).

٢ - ﴿ وَمَنْ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ (فاطر: ٢٨).

فالآية الأولى جاء الاسمان مقترنان في السياق لمناسبة جليلة، وهي أنه سبحانه لما ذكر أنه خلق الموت وخلق الحياة، وهما أمران لا يقوى على إيجادهما إلا (عزيز)، فلما قدم الموت ناسب أن يقدم العزيز، لأن الموت فيه قهر وغبه، والعزيز يناسبه في المعنى، وحين ذكر قوله تعالى: (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) مناسبة (الغفور).

(2) تفسير الفخر الرازي: ٢٢٦/١٣.

(1) التحرير: ٤٤٥/١٢.

"والمعنى أنه خلق الموت والحياة ليكون منكم أحياء يعملون الصالحات والسيئات، ثم أمواتا يخلصون إلى يوم الجزاء فيجزون على أعمالهم بما يناسبها " (٢).
وقد بينت سابقا في التفريق بين (الغفار والغفور) (٣)، " فالغفور يدل على كثرة المغفرة بالإضافة إلى كثرة الذنوب، حتى إن من لا يغفر إلا نوعاً واحداً من الذنوب، قد لا يقال له غفور " (٤).

فإذا كان الغفور يدل على الكثرة والتنوع، كثرة غفران الذنوب وتنوع الذنوب المغفورة، فهو إذن هنا مناسب للسياق، فقوله " ليلوكم أيكم أحسن عملاً " تشير إلى كثرة الذنوب وتنوعها، وكذلك في الآية الثانية، حيث يتناسب ذكر (الغفور) مع قوله: ومن الناس والدواب والأنعام كذلك " أي مغفرة لذنوب كثيرة متنوعة تنوع الناس والدواب والأنعام.

٧ - العزيز الوهاب:

ورد هذان الاسمان متجاورين مرة واحدة في القرآن الكريم، في قوله تعالى :
﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴾ (ص: ٩). وحتى تتضح مناسبة الختم هنا يلزم تتبع السياق، فصناديد مكة كانوا قد خرجوا من عند أبي طالب قائلين، أنزل عليه الذكر من بيننا، قال تعالى: ﴿ أَنزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾ (ص: ٨)، إنهم لم يرفضوا الإيمان بالقرآن إلا لأنهم كانوا يرون أن النبي عليه الصلاة والسلام - ليس أهلاً لهذا الشرف العظيم، فالنبوة أمر عظيم، يجب أن تنتزل على أعظم البشر، فهم قالوا في سورة أخرى في قوله

(2) المصدر السابق : ١٩٨/١٥.

(3) انظر الفصل الأول من هذا البحث : ٣٧.

(4) المقصد الأسنى : ٤١.

تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (الزخرف: ٣١)، فهم صادقون فيما قالوا بيد أنهم كاذبون في ادعائهم أن العظمة والرفعة لا تكون إلا في المال.

فالنبي صلى الله عليه وسلم عظيم، ولا يدانيه أحد من البشر، وهو الفقير اليتيم المحروم. وهنا يأتي رد المولى عليهم، أنهم لا يملكون خزائن الرحمة، فيختارون من شاءوا نبيا، والختم هنا ب(العزیز الوهاب) يندرج في إطار النسق الذي تحدثنا عنه في مطلع حديثنا عن (العزیز الحكيم)، قال الإمام الفخر الرازي: " إن منصب النبوة منصب عظيم ودرجة عالية والقادر على هبتها يجب أن يكون عزيزا، أي كامل القدرة، ووهابا أي عظيم الجود، وذلك هو الله سبحانه وتعالى " (١).

فالعزیز إذن واضح وجه الحكمة من الختم به، فما باله اقترن مع (الوهاب)؟ . إن الوهاب هو من يعطي من غير استحقاق، فعطاؤه منة وتفضل، و(الوهاب) كثير العطايا دائمها، والنبوة إنما هي هبة قبل كل شيء، هبة من المولى للنبي - صلى الله عليه وسلم، وهبة منه للبشر، وأعظم بها من هبة. ولكن لماذا (الوهاب) وليس الوهاب، والنبوة إنما هي شيء واحد؟! هنا تبرز الدقة في اختيار الألفاظ، ومناسبتها للتعبير عن عظيم المعاني، فاللفظ في القرآن لا يعبر عن المعنى أي معنى، وإنما هو بحيث يصيب أعظم المعاني، وأشرف الدلالات، وألمح الإشارات. فكأن (الوهاب) يشير إلى أن النبوة، تشتمل على عطايا جمة، وهبات كثيرة، وليست فقط عطاء واحدا. وفي هذا السياق يقول الإمام الألويسي: " وفي ذلك إدماج أن النبوة ليست عطاء واحدا بالحقيقة، بل يتضمن عطايا جمة تفوت الحصر " (١).

ثم إن ذكر لفظ " خزائن " الذي جاء جمعا، يستدعي لفظ يناسبه يدل الكثرة. " والمبالغة في (الوهاب) من طريق الكمية تناسب قوله تعالى " خزائن " وتدل على حرمان لهم عظيم " (٢). يقول الإمام ابن عاشور: " وأجرى على الرب صفة العزیز لإبطال تدخلهم في تصرفاته، وصفة الوهاب لإبطال جعلهم الحرمان من الخير تابعا لرغباتهم، دون موادة الله تعالى " (٣).

(1) تفسير الفخر الرازي: ١٨١/١٣.

(1) روح المعاني: ٢٤٨/١٣.

(2) المصدر السابق: ٢٤٨/١٣.

(3) التحرير والتنوير: ١٩٦/١٢.

٨ - العزيز المقتدر :

(العزيز المقتدر) وردا مرة واحدة مقترنين، في سورة القمر. قال تعالى :
﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ (القمر: ٤٢)، وأما أن الآية ختمت
بعزيز فأمر لا يخرج عن النسق العام الذي بيناه، وذلك أن الأخذ لا يكون إلا من عزيز،
فهو مظهر من مظاهر الغلبة والقدرة والقوة. ولكن ما وجه الحكمة في التجاور السابق
؟ولماذا لم يردف (العزيز) بالقادر مثلا؟ .

واضح أن معنى الأخذ هنا، هو الأخذ بالعذاب، لأن الحديث يدور عن آل فرعون، وحين
نقول: أخذ عزيز. فقد يفهم أنهم غلبوا، وهلكوا في أغلبهم، وأن جزءا منهم ظل
مهزوما، ولكن (المقتدر) يدل على شدة الأخذ، وقسوته، وصعوبته، وتمكن المولى منهم
تمكنا تاما، بحيث لم يبق منهم أحد.

يقول الإمام الفخر الرازي: " وفي قوله (عزيز مقتدر) لطيفة، وهي أن العزيز المراد
منه الغالب، لكن العزيز قد يكون الذي يغلب على العدو ويظفر به، وفي الأول يكون
غير متمكن من أخذه لبعده إن كان هاربا، ولمنعته إن كان محاربا، فقال أخذ غالب لم
يكن عاجزا وإنما كان ممهلا " (٤).

" وأرد بذلك أنه أخذ لم يبق على العدو أي إبقاء بحيث قطع دابر فرعون وآله " (٥).

وأما لماذا لم يردف (العزيز) بـ (القادر) ؟ فلأن (المقتدر) كما بينت سابقا أبلغ من
(القادر)، فهو يشمل القادر، وينفرد بأنه يشير إلى التصرف، دلالة على التمكن التام
المطلق، والسيطرة الكاملة.

قال الإمام السيوطي: " أخذ عزيز مقتدر ، فإنه أبلغ من قادر، للإشارة إلى زيادة التمكن
في القدرة، وأنه لا راد ولا معقب " (١)، وكذلك يقول أئمة اللغة مثل ابن جني : " فمقتدر
هنا أوفق من قادر من حيث كان الموضع لتفخيم الأمر وشدة الأخذ " (٢) .

(4) تفسير الفخر الرازي : ٦٦/١٥ .

(5) التحرير والتنوير : ٢٥٧/١٤ .

(1) الإتيان في علوم القرآن : ٢٣٧/٢ . وانظر البرهان في علوم القرآن : ٣٤/٣ .

(2) ابن جني، أبي الفتح عثمان : الخصائص ، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب بيروت، ٢٦٥/٣ .

إضافة لما سبق، فإني ألمح شيئاً آخر وهو أن (المقتدر) فيه ما فيه من التمكن، وأن من مظاهر التمكن أنه أبقى آثارهم، على مر العصور والأزمان، لتظل شاهدة على اقتدار المولى عليهم، وعلى هلاكهم ليكونوا عبرة لغيرهم ممن يعتبر، ربما يؤكد مذهبنا هذا قوله تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ (يونس: ٩٢). حيث أبقى الله أجسادهم، وآثارهم من بعدهم.

٩ - الغفور الرحيم :

وأول ما ينبغي هنا أن نسلط الضوء عليه هو الفرق بين الاسمين، وكنت في الفصل الأول قد أشرت لكل منهما على حدة،^(١) ولا ضير هنا في الإشارة إليهما مجتمعين في إيجاز شديد.

(الغفور) هو الذي يستر على الذنوب، فلا يعاقب عليها " والغفران والمغفرة هو أن يصون العبد من أن يمسّه العذاب " ^(٢) ، قال الإمام الطبري : " غفورا يعني سائرا ذنوب عباده المؤمنين بالعفو لهم عن العقوبة عليها " ^(٣) .

وأما (الرحيم) فهو المنعم المتفضل على عباده، لأنها من المولى إحسان وإفضال، " وإذا وصف الباري بها فليس يراد بها إلا الإحسان المجرد " ^(٤) ، أو كما يقول الإمام العيني : " إذ المغفرة ستر الذنوب ومحوها، والرحمة إيصال الخيرات " ^(٥) ، يؤكد ذلك أن ثمة آيات كريمات بينت أن رحمة الله متنوعة متعددة، منها كشف الضر، ومنها الغيث، وخلاصة الأمر أن كل أشكال النعم وأنواعها تعتبر من رحمة الله سبحانه وتعالى:

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (المؤمنون: ٧٥).

وقال : ﴿ قُلْ لَوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴾ (الإسراء: ١٠٠).

(1) انظر الفصل الأول : ٨ .

(2) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم : ٤٠٥ .

(3) تفسير الطبري : ٢٣٩ / ٤ .

(4) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم : ٢١٦ .

(5) عمدة القاري في شرح صحيح البخاري : ٢٩٢/٢٢ .

وحين يرد هذا التجاور الجميل المؤنس بين هذين الاسمين الجليلين، (الغفور الرحيم)، فإنه يبعث في النفس شعورا بالطمأنينة، ويزرع في القلب أنسا وارتياحا، لأن اجتماعهما نعمة من أجل النعم التي يطلبها العبد ويرجوها في دنياه وآخرته.

فإذا علمنا أن هذين الاسمين الجليلين تجاورا في القرآن الكريم في اثنتين وسبعين موضعا، وهو أعلى تجاور بين اسمين من أسمائه الحسنی في القرآن الكريم على الإطلاق؛ فإذا علمنا ذلك أدركنا كم هي رحمة المولى، ومغفرته، وأنه إله رحيم غفور، ما خلق العباد إلا ليرحمهم، وما أذنبوا إلا ليغفر لهم، لقوله صلى الله عليه وسلم : " لو أنكم لا تخطئون لأتى الله بقوم يخطئون يغفر لهم " (١).

ولكن ما سر اقتران الاسمين ؟ إن الأمر يبدو واضحا عند التأمل ذلك أننا نحتاج إلى مغفرة الله، ونحتاج أيضا إلى رحمته، ولا يمكن الاستغناء بواحدة عن أخرى. هب أنه سبحانه غفر لنا ذنوبنا كلها، ولم يعاقبنا عليها، أفلا نحتاج إلى رحمة منه في حياتنا، لنتمكن من البقاء أحياء، وهب أنه غفر لنا في آخرتنا كل الذنوب، أفلا نحتاج إلى رحمته في وقفة المحشر؟! وتجاوز الصراط، ومن أين يمكن للعبد دخول الجنة لولا رحمة ربه؟! وكذلك الأمر لو أفرد الرحمة فقط، فلو رحمنا في الدنيا، وأغدق علينا كل نعمه وعطاياه، ثم حاسبنا يوم القيامة على ذنوبنا، فماذا تكون رحمته قد نفعنا؟! من تمام النعمة إذن أنه يغفر، ثم يرحم، فإذا كانت المغفرة منه بسبب استغفارنا، ثم لأنه غفور، فالرحمة منه لغير سبب منا، ولا تكون إلا لأنه رحمان في ذاته، رحيم بعباده ، تفضلا منه ومنه. وهذا تعليل لتجاورهما بشكل عام خارج النص القرآني، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد قرن بينهما في الحديث الشريف الذي أورده الإمام البخاري: " عن عبد الله بن عمرو عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه - أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم، علمني الدعاء أدعو به في صلاتي، قال : قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم " (٢).

ولكن إضافة لذلك فإننا نبحت عن سر اقترانهما في خواتم الآيات في النص القرآني، فما وجه المناسبة في الختم بالاسمين متجاورين في الآيات القرآنية ؟

(1) المستدرک : ٢٤٧/٤ .

(2) صحيح البخاري : ٢٨٦/١ .

سبق أن أشرت أن الاسمين متجاورين وردا في اثنين وسبعين موضعا ختما، ولما تتبعنا السياقات المختلفة التي وردا فيها، بان لي أنه لا يمكن تعليل هذه المواضع جميعها في سبب واحد؛ ولذا قسمت الآيات إلى مجموعة محاور تتشابه فيما بينها في وجه الحكمة في الختم بالاسمين الجليلين.

المحور الأول: دفع وهم استحقاق النعم بسبب الإيمان أو كثرة العبادة:

فإن هناك مجموعة من النعم، التي من المولى بها على عباده، لا شيء إلا لأنه غفر لهم ذنوبهم، ورحمهم برحمته. ومثال هذا المحور على سبيل التمثيل، وليس الحصر، قوله تعالى:

١ - ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (هود: ٤١).

٢ - ﴿ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (النحل: ١٨).

٣ - ﴿ نَزَّلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴾ (فصلت: ٣٢).

فالآيات السابقة تبين حكمة المولى في ختم الآيات (بالغفور الرحيم) فإنه سبحانه ما نجى نوح ومن معه، فمكنهم من السفينة، وسخرها باسمه في المجرى والمرسى، بسبب من إيمانهم أو كثرة عبادتهم، وإنما لأنه غفور رحيم، غفر لهم ذنوبهم، ورحمهم فمن عليهم بالنجاة.

قال الإمام الالوسي رحمه الله : " إن ربي لغفور رحيم، الجملة مستأنفة لبيان الموجب، أي لولا مغفرته لفرطانكم ، ورحمته إياكم لما نجاكم من هذه الطامة إيمانكم، وفيه دلالة على أن نجاتهم لم تكن عن استحقاق بسبب أنهم كانوا مؤمنين بل بمحض رحمة الله تعالى وغفرانه ^(١). وبمثله قال الإمام الزمخشري : " إن ربي لغفور رحيم، لولا مغفرته لذنوبكم ، ورحمته إياكم لما نجاكم " ^(٢).

وكذلك في الآية الثانية، حيث نعم الله كثيرة، ما كان للبشر أن يحصوها لو حاولوا عدها، وما كانت منه سبحانه إلا لأنه غفر لكم ذنوبكم، ورحمكم، فتدفقت نعمه تترى عليكم، وما كان لكم وجه استحقاق فيها، وما صنعتم ما يوجبها، ولا قمتم بوجه الشكر لها، غير أنها كانت بسبب مغفرته ورحمته. " إن الله لغفور رحيم، حيث يتجاوز عن تقصيركم في أداء شكر النعمة، ول يقطعها عنكم لتفريطكم، ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفرانها " ^(٣).

ويجري الكلام على الآية الثالثة، فما كان المولى لينزلهم هذه المنزلة في الجنة إلا لأنه غفر لهم ورحمهم، ولولا مغفرته ورحمته ما نزلوها، فما نزلوها بسبب عبادتهم وإن كثرت، وإنما بسبب من الغفور الرحيم. " وأوثر صفتا (الغفور الرحيم) هنا للإشارة إلى أن الله غفر لهم أو لأكثرهم اللوم وما تابوا منه " ^(١).

المحور الثاني: المناسبة اللفظية:

وذلك حين تشتمل الآية على الأمر بالاستغفار، أو الحث عليه، كقوله تعالى:

١ - ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (البقرة: ١٩٩).

٢ - ﴿ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ (النساء: ١٠٦).

٣ - ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ

(١) روح المعاني : ٥٧/١٢.

(٢) الكشف : ٥٤٥/١.

(٣) المصدر السابق : ٦٥١/١.

(١) التحرير والتنوير : ٣٧/١٣.

وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿ (المتحنة: ١٢)

٤- ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿ (النور: ٦٢)

إن الختم في الآيات السابقة إنما جاء ليناسب الدعوة إلى الاستغفار، والحث عليه، ومن الملاحظ أن الآيات السابقة كان الختم فيها مؤكدا بحرف التوكيد (إن) إشارة إلى أن الذنوب مهما عظمت فإن الله سيغفرها إذا استغفر صاحبها، وأقلع عن ذنبه. كأن الذنوب لما كانت عظيمة، خيف مع عظمتها ألا تغفر، فأكد المولى ذلك بأنه الغفور الرحيم .

المحور الثالث: بعد إحداث الذنوب ترغيبا في التوبة:

يتمثل هذا المحور بوضوح في الآيات التالية، قال تعالى:

١- ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿ (التوبة: ١٠٢)

٢- ﴿ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿ (المائدة: ٣٩)

٣- ﴿ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿ (النمل: ١١)

٤- ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدُرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿ (المائدة: ٣٤)

٥- ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿ (الحجرات: ٥).

٦- ﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿ (الأعراف: ١٥٣).

إن تتبع الآيات السابقة في سياقاتها المختلفة، يبين أن هناك ذنبا ما قد أحدث، وتاب صاحبه منه، وأقلع عنه، فيجيء الختم ب(الغفور الرحيم)، ليبين أن المولى سيغفر له ذنبه " وهو الغفور الرحيم، ترغيب لهم إلى التوبة والإنابة، أي ومع هذا كله إن

رجعتم وتبتم تاب عليكم، وعفا عنكم، وغفر ورحم " ^(١)، يقول الإمام الطبري : " الغفور الرحيم، إن ربي هو الساتر على ذنوب التائبين إليه من ذنوبهم، الرحيم بهم أن يعذبهم بعد توبتهم منها " ^(٢).

المحور الرابع: قرن الترغيب بالترهيب:

وهي تسمية الإمام القرطبي - رحمه الله - وإن كنت أرغب أن أسميه (التقابل) لما للتسمية قرب من النواحي البديعية كالطباق مثلا. يقول الإمام القرطبي في تفسير قوله تعالى : الرحمن الرحيم ﴿ (الفاحة:٣): " إنما وصف نفسه بالرحمن الرحيم، بعد قوله رب العالمين، ليكون من باب قرن الترغيب بالترهيب، كما قال تعالى: " إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم " ^(٣). والآيات التي تتعلق بالمحور الرابع هي:

- ١ - ﴿ اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (المائدة:٩٨)
- ٢ - ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (الأنعام:١٦٥)

- ٣ - ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (الأعراف:١٦٧).

والجمع بين الترغيب والترهيب كثيرا ما يكون في القرآن الكريم، على طريق التقابل بين اسمين كريمين، أو بين معنيين يقول ابن كثير: " وفيها ترهيب وترغيب، أن حسابه وعقابه سريع فيمن عصاه، وخالف رسله، وإنه لغفور رحيم لمن والاه واتبع رسله، وكثيرا ما يقرن الله تعالى في القرآن بين هاتين الصفتين " ^(١)، وبمثله يقول ابن عاشور : " أطنبت آيات الوعيد بأفنانها إطنابا يبلغ من نفوس سامعيها أي مبلغ من الرعب والخوف على رغم تظاهرهم بقلّة الاهتمام بها، وقد يبلغ بهم وقعها مبلغ اليأس من سعي

(1) تفسير ابن كثير : ١٩٧/٤.

(2) جامع البيان : ٢٩٩/٧.

(3) الجامع لأحكام القرآن : ١٨٤/١.

(1) مختصر ابن كثير : ٤٦٦/١.

ينجيهم من وعيدها، فأعقبها الله بيعث الرجاء في نفوسهم للخروج إلى ساحل النجاة، إذا أرادوها على عادة هذا الكتاب المجيد من مداواة النفوس بمزيج الترغيب والترهيب^(٢). إن الاقتران السابق بين الترغيب والترهيب يحدث نوعاً من التوازن، بحيث لا يطغى فيه جانب على جانب، ليظل الترغيب مؤنساً للنفوس، مطمئناً لها، وفي ذات الوقت يظل الترهيب دافعاً للعمل، وقامعاً للكسل، وشاحداً للهمم، فالخوف والرجاء منزلتان يظل العبد يتقلب بينهما، فلا يأمن مكر الله، ولا ييأس من رحمته.

المحور الخامس: الإباحة لدفع الحرج:

ولا نعني به المدلول الفقهي لمعنى الإباحة، وإنما نعني في هذا المحور أن هناك أمراً كان محظوراً، ثم أوجب الله له حكماً آخر، إما دفعاً للحرج، أو بسبب اضطرار. أو غير ذلك من الأسباب. قال تعالى :

١. ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ

وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (البقرة: ١٧٣)

٢. ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ

وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (المجادلة: ١٢)

٣. ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمَ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ

وَالْمُتَرَدِّيةُ وَالنَّطِيجَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُحِّجَ عَلَى الثُّنْبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا

بِالْأَزْلَامِ ذَلِكَ فِسْقُ الْيَوْمِ يَسُ الذِّينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ

لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ

غَيْرِ مُتَجَافٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (المائدة: ٣)

(2) التحرير والتنوير : ٣٦٥/١٢.

٤. ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعُمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا
مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ
فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (الأنعام: ١٤٥)
٥. ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا
نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (التوبة: ٩١).

٦. ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَخْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ
اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتٍ عَمَّكَ وَبَنَاتٍ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتٍ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ
وَأَمْرًا مُؤَمَّنَةً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ
الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ
حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٥٠).

الآيات السابقة حين تأملها تبين أن رخصة، أحدثها المولى لعباده، رحمة بهم، وأنه سبحانه غفور لما قدموا قبل الترخص، رحيماً بهم حين خفف عنهم. قال الإمام النسفي :
" فإن الله غفور رحيم، لا يؤاخذ بذلك، رحيم في إباحة المحذور للمعذور " (١)

١٠ - الغفور الحليم:

عرفنا فيما سبق أن (الغفور) قد كثر اقترانه ب(الرحيم)، حتى إنه زاد عن سبعين موضعاً، ولكن هناك أربعة مواضع اقترن فيها (الغفور بالحليم)، على غير العادة. قال تعالى :

- ١ - ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْغُفْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٢٥).

(١) تفسير النسفي: ٢٦٩/١.

٢ - ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنُتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٣٥).

٣ - ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (آل عمران: ١٥٥).

٤ - ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ بُدِّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (المائدة: ١٠١).

فما وجه الحكمة في العدول من (الرحيم) إلى (الحليم) ؟

ف(الحليم) كما بينت في الفصل الأول، هو بمعنى الصبور، هو الذي لا يحبس خيراتهِ وإنعامه عن عبادهِ لذنوبهم، والصافح عن عجز لا يستحق أن يكون حليماً^(١)، " والحليم ذو الصفح الذي لا يستغفره غضب فيعجل، ولا يستخفه جهل جاهل مع قدرته على العقوبة، إنما هو المتأنّي الذي لا يعجل بالعقوبة " ^(٢).

فمن حيث ورودهِ في السياقات المختلفة، فإن ثمة ذنب ما يستوجب العقوبة، لم يعاقب الله سبحانه عليه، لأنه حليم على عبادهِ، ولو تتبعنا الآيات السابقة لوجدنا في كل آية ذنب ما.

ففي الآية الأولى: الله لا يؤاخذ باللغو في الأيمان، وفي الثانية: لا جناح على المؤمنين في التعريض بخطبة النساء، أو الإضرار في القلوب، أو عقد العزم على النكاح قبل انتهاء العدة، وفي الآية الثالثة: التولي يوم التقى الجمعان في غزوة أحد، وفي الرابعة: كثرة سؤال النبي صلى الله عليه وسلم عن أشياء لا تفيد، والمفسرون حين تعرضوا لهذه الآيات لم يزدوا عن القول أن الله لم يعجل بعقوبتهم لأنه حليم.

(١) انظر الفصل الأول: ١٥.

(٢) زاد المسير : ٢٥٥/١.

قال الإمام البيضاوي : " والله غفور حلیم، لا يعاجلكم بعقوبة ما يفرط منكم " ^(١).
وقال أبو السعود : " والله غفور حلیم اعتراض تذييلي مقرر لعفوه، أي مبالغ في مغفرة الذنوب والإغضاء عن المعاصي، ولذلك عفا عنكم، ولم يؤاخذكم بعقوبة ما فرط منكم " ^(٢)، وكذا يرى الإمام أبو حيان في معرض تفسيره الآية الأولى : " والله غفور حلیم جاءت الصفتان تدلان على توسعة الله على عباده، حيث لم يؤاخذهم باللغو في الأيمان، وفي تعقيب الآية بهما إشعار بالغفران والحلم عن أن من أوعده تعالى بالمؤاخذه، وإطماع في سعة رحمته، لأن من وصف نفسه بكثرة الغفران والصفح مطموع في ما وصف به نفسه " ^(٣).

والحقيقة أنني لست مع هذه الآراء جميعها ، مع ملاحظة أن بعضا من المفسرين صمت عند الحديث عن التجاوز بين الاسمين. وتعليلي أن المولى لما قال في الختم (والله غفور...) وضح منه أنه عفا وتجاوز ولم يعاقب، لأن المغفرة كما أسلفت سابقا هي ستر ذنوب العباد، وعدم معاقبتهم عليها، فكل أقوال المفسرين في هذا الشأن تصلح أن تكون تفسيراً لورود (الغفور) في ختم الآيات التي ورد فيها، فما بال (الحليم) ؟ !

وحين عدت إلى تحليل الآيات مرة أخرى، وتتبع سياقاتها المختلفة، بدا لي تعليل آخر، ولطيفة من لطائف القرآن العظيم، التي تشير إلى دقة نظمه، ومتانة أسلوبه. ذاك أننا إذا تتبعنا الآيات الأربع السابقة، وتأملنا في كل ذنب على حده، لوجدنا أن الذنوب كلها في الآيات لها علاقة بالزمن، والسرعة التي كانت تنتابهم، بحيث إنه يمكن القول: إنه لولا سرعتهم ما أذنبوا، ولو أنهم صبروا ما وقعوا فيما وقعوا فيه، فكان الختم بصفة الحلم في الآيات السابقة تأتي لتدعو المؤمنين إلى التخلق بصفة الحلم.

فهم في الآية الأولى لو حلموا ما لغوا في أيمانهم ولا عقدوها، وفي الثانية لو حلموا لانتظروا إلى انتهاء العدة، دونما تعريض أو إضرار في النفس.

(1) تفسير البيضاوي: ٣٧١/١.

(2) إرشاد العقل السليم على مزايا الكتاب الكريم : ٨٦/٣.

(3) البحر المحيط : ٤٤٥/٢.

وفي الآية الثالثة لو أنهم حلموا وظلوا كما أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم، لما استزلهم الشيطان فأوقعهم في التولي، وفي الرابعة أنهم لو حلموا، وما تعجلوا بأسئلتهم وانتظروا حين ينزلها القرآن، لما ساءهم أن تبدي لهم، وليس أدل على ما أقول وروود ألفاظ تدل على الزمن، مثل: حتى يبلغ الكتاب أجله، وحتى هنا حرف غاية بمعنى إلى أن، فهي استغراق في الزمن المستقبل، وكذلك قوله: " وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم ... " فالظرف حين يدل على الزمن، أي وقت نزول القرآن.

١١ - الغفور الشكور:

ما أجمل ما يقتزن هذان الاسمان الجليلان (الغفور الشكور) ذاك لأنهما ما اقتربنا إلا في سياق الحديث عن المؤمنين، وأي نعمة يمنها الله على العبد أعظم من أن يغفر له ذنبه، ويشكر له عمله، كلا ليس ذلك فحسب، بل يغفر له ذنبه العظيم، ويشكر له عمله القليل. كما قال الإمام الحكي: " الغفور الشكور الذي يغفر الكثير من الزلل، ويقبل اليسير من صالح العمل، فيضاعفه أضعافا كثيرة، ويثيب عليه الثواب الجلل " (١).

ولقد اقتربنا الاسمان في ثلاثة مواضع في القرآن الكريم، قال تعالى :

١ - ﴿ لِيُوفِّيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ (فاطر: ٣٠)

٢ - وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ (فاطر: ٣٤)

٣ - ﴿ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَمَدَدَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ (الشورى: ٢٣)

ففي الآية الأولى لما قال " ليوفيهم ... ويزيدهم ... " ناسب الختم ب(شكور). قال الإمام الشوكاني : " إنه غفور شكور، تعليل لما ذكر من التوفية والزيادة " (٢).

فالمغفرة تكون على ما اقترفوا من ذنوب، والشكور يضاعف لهم حسناتهم على أعمالهم. والآية الثانية جاءت على لسان المؤمنين في الجنة، فقد سبقته بقوله تعالى : ﴿ جَنَّاتُ

عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَكُلُوا وَكَبَسُوهُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ (فاطر: ٣٣)، فهم لما دخلوا الجنة ورأوا ما رأوا من نعم، وأدركوا كم شكر الله لهم عملهم، قالوا ما قالوا.

(1) الحكي، حافظ بن أحمد: معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، تحقيق عمر بن محمود أبو عمر، دار ابن القيم، الدمام، ١٤١٠ - ١٩٩٠، ٥٠/١.

(2) فتح القدير: ٤٩٥/٤.

" فهم لما صاروا إلى كرامته بمغفرته ذنوبهم، وشكره إحسانهم، قالوا: إن ربنا لغفور شكور، وفي هذا معنى التعليل، أي بمغفرته وشكره وصلنا إلى دار كرامته " (١).
وكذلك قال الإمام ابن عاشور : " وجملته (إن ربنا لغفور شكور) استئناف ثناء على الله شكروا به نعمة السلامة أثنوا عليه بالمغفرة لما تجاوز عما اقترفوه من اللوم وحديث الأنفس ونحو ذلك مما تجاوز الله عنه بالنسبة للمقتصدين والسابقين ولما تجاوز عنه من تطويل العذاب وقبول الشفاعة بالنسبة لمختلف أحوال الظالمين أنفسهم وأثنوا على الله بأنه شكور لما رأوا من إفاضة الخيرات عليهم ومضاعفة الحسنات مما هو أكثر من صالحات أعمالهم " (٢).

وأما الآية الثالثة فالختم ب(الشكور) مناسب تماما لقوله : " نزد له فيها " ، فلا تكون الزيادة إلا من شكور، يضاعف القليل. " إن الله لغفور شكور، تذييل وتعليل للزيادة، لقصد تحقيقها بأن الله كثيرة مغفرته لمن يستحقها، كثير شكره للمتقربين إليه " (٣).

١٢ – الغفور الودود:

ما أجمل ما يقترن هذان الاسمان الجليلان العظيمان المؤمنان، مغفرة للذنوب من رب غفور، وفيض من حب خالص من رب ودود.
إن تجاوز هذين الاسمين " فيه سر لطيف وهو أنه يحب التوابين، وأنه يحب عبده بعد المغفرة، فيغفر له ويحبه، كما قال:

﴿ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾

فالتائب حبيب الله، فالود أصفى الحب وألطفه " (٤) ، قال تعالى:

﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ ﴾ (البروج: ١٤).

حيث الودود هنا فعول بمعنى فاعل، وليس كما فسره الإمام البخاري رحمه الله: بمعنى الحبيب، أي بمعنى مفعول أي محبوب، يؤكد ذلك تجاوزه مع الغفور. (٥).

(١) جلاء الأفهام : ١٧٥.

(٢) التحرير والتنوير : ٤٨٦/١١.

(٣) المصدر السابق : ١١٩/١٣.

(٤) نزاهة المشتاقين : ٤٧.

(٥) انظر: عمدة القاري في شرح صحيح البخاري: ١٢/٢٥.

يقول ابن القيم - رحمه الله :

" وتأمل سر اقتران هذين الاسمين في قوله تعالى: وهو الغفور الودود، تجد فيه من الرد والإنكار على من قال لا يعود الود والمحبة منه لعبده أبدا بعد الذنب والمعصية " (١). وهذا ما يجعل جحافل المذنبين بعد أن يصدقوا توبتهم في أمل دائم ليس للمغفرة فحسب، فهو أمر قد تكفل به غفور، ولكن لمودة خالصة من رب ودود. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: " فلا يستوحش أهل الذنوب، وينفرون منه، كأنهم حمر مستنفرة؛ فإنه غفور ودود، حيث مودته للمذنب إذا تاب إليه بخلاف القاسي الغليظ الذي لا ود فيه " (٢).

إن هذا الاقتران الجميل المؤنس الذي يجعل القلوب المذنبة تخجل، " يهيج القلب السليم، ويأخذ بمجامعه، ويجعله عاكفا على ربه الذي لا إله إلا هو، ولا رب له سواه عكوف المحب الصادق على محبوبه الذي لا غنى له عنه، ولا بد له منه، ولا تتدفع ضرورته بغيره " (٣).

ولكن ما وجه الحكمة في ورود هذين الاسمين في سورة البروج، في معرض الحديث عن فتنة المؤمنين، في قصة أصحاب الأخدود ؟

إن ورود الآية ﴿ وهو الغفور الودود ﴾ في سورة البروج، في السياق الذي وردت فيه أمر في غاية الدقة، وتمام المناسبة. يتضح ذلك في ذكر الآيات، قال تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ (١٠)، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾ (١١)، ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ (١٢)، ﴿ إِنَّهُ هُوَ بَدِيٌّ وَبَعِيدٌ ﴾ (١٣)، ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ ﴾ (١٤).

فهو سبحانه لما ذكر الذين فتنوا المؤمنين، ثم أردف الحديث عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، أورد بعدها على الترتيب تأكيد بطش الله الشديد، ثم هو الغفور

(1) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي: طريق الهجرتين وباب السعادتين، تحقيق عمر بن محمود أبو عمر، دار ابن القيم، الدمام، ١٤١٤-١٩٩٤م، ٣٥٧.

(2) النبوات: ٧٩.

(3) طريق الهجرتين: ٣٥٧.

الودود، وهو ما يمكن أن نطلق عليه مراعاة النظر الذي يعرفه العلماء أنه: " جمع الأمور المتناسبة " (٤).

فآية البطش الشديد تناسب الذين ففتوا المؤمنين والمؤمنات، وهو الغفور الودود يتناسب الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهذا من تمام التناسب وجمال التقسيم. قال الإمام ابن عاشور - رحمه الله :

" وهو الغفور الودود، جملة معطوفة على جملة إن بطش ربك لشديد؛ لأنه لما أفيد تعليل مضمون جملة (إن الذين ففتوا المؤمنين ...) ناسب أن يقابل بتعليل مضمون جملة (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ...) فعمل بقوله (وهو الغفور الودود) فهو يغفر للذين تابوا وآمنوا وعملوا الصالحات، وهو يحب التوابين ويؤدبهم " (١).

إضافة لما سبق فإنني ألمح شيئاً جميلاً، في كون هذه الآية وردت في ذاك السياق، إنه بالفعل سياق الخوف والتهويل بسبب فعلة أولئك الذين ففتوا المؤمنين والمؤمنات وأحرقوهم، ولكن المولى قال في أثناء الحديث عنهم (ثم لم يتوبوا) فهم على بشاعة فعلتهم ، وقبح صنيعهم، لو تابوا لما ذاقوا عذاب الحريق، إن ذكر هذه الجملة على الرغم من أن المولى يعلم أنهم لن يتوبوا، وكان من الممكن تقديرها، لهو دعوة جحافل المذنبين إلى التوبة ، وزرع الأمل في النجاة حتى في أثناء الخوف والتهويل، ومثل ذلك أراد سبحانه وتعالى حين أردف آية البطش الشديد، بالغفور الودود، حتى لا ييأس العباد من مغفرة خالقهم، فيقنطوا من رحمته، كيف وهو الغفور الودود، وهذا دأب القرآن الكريم في اقتران الترغيب مع الترهيب والعكس.

١٣ - السميع العليم:

الاسمان الجليلان السابقان وردا في القرآن الكريم مقترنين ختما للآيات في اثنتين وثلاثين موضعاً، وحين تتبعت الآيات آية آية، محاولاً أن أبحث عن علة الاقتران؛ بان لي أنهما ما وردا إلا وقد سبقا بقول، فإن لم يكن في الآية نفسها، كان في التي قبلها، وإن لم يكن في التي قبلها، كان متعلقاً بسبب النزول، وكون أن الآية ختمت بالسميع، إذن هناك ما يسمع، فوجب أن نبحث عنه، وأن نعمن النظر في ذلك، وهنا أنا أضع النسق العام، وأكتفي بالتمثيل فقط، بعد ما قمت به من استقراء الآيات. ولو بسطت

(4) معجم المصطلحات البلاغية: ٢٤٣/٣.

(1) التحرير والتنوير : ١٩٩/١٦.

الحديث لكل آية مع تعليلها، لما اتسع المقام، وفي كتب التفسير المتنوعة ما يغني عن الإعادة.

قال الإمام الطاهر: " والمراد بالسميع العالم بأقوالهم، التي من شأنها أن تسمع، وبالعليم ما هو أعم من أحوالهم التي ليست بمسموعات " ^(٢)، ولكن الرأي السابق على وجاهته، يحتاج إلى مزيد تأمل، فالمولى سميع ليس فقط لما من شأنه أن يسمع، ولكنه سبحانه سميع، لهمسات النفوس، وهتافات الضمائر، وما القول باللسان إلا بعض القول، فهو سبحانه يسمع نطق القلوب قبل قول اللسان، ويسمع همسات النفوس، وهتافات الضمائر قبل أن يفصح بها البيان.

قال الإمام البقاعي: " سميعاً أي بالغ السمع لكل قول، وإن خفي، نفسياً كان أو لسانياً " ^(١)، انظر إلى الإمام البقاعي يرحمه الله كيف فرق بين القول النفسي والقول اللساني، وفرق بين القول الظاهر المسموع، وبين القول الخفي، وهو أمر لا يحتاج إلى مزيد تطويل لشرحه وإيضاحه، ولا سيما وقد أكدته آيات كثيرة.

وأما أن يقترن السميع بالعليم فهو من تمام الكمال، فالقول يصدر عن ذات، فالقول شيء، ودافع القول، ومبعثه، ونية صاحبه شيء آخر، فالمولى يسمع، ولا يكتفي أن يسمع بل يعلم دوافع الأقوال، فكم من قول حق أريد به باطل، وكم من قول حسن فاه به منافق، وأبطن في قلبه النفاق، فالمولى حين يخبرنا بأنه سميع، إنما لنعلم أنه يحاسبنا على أقوالنا، فلا نقول إلا ما يرضيه من قول، وحين يقرن بالسميع العليم، كأنه يحذرنا أن لا تصدق نوايانا فيما نقول. قال الإمام البقاعي في معرض تفسير قوله تعالى:

﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (المائدة: ٧٦).

قال: " وإنما قرن بالسميع العليم، دون البصير لإرادة التهديد لمن عبد غيره، لأن العبادة قول أو فعل، ومن الفعل ما محله القلب وهو الاعتقاد، ولا يدرك بالبصر بل بالعلم " ^(٢). وهذه مجموعة من الآيات أسوقها كأنموذج. قال تعالى:

(2) المصدر السابق : ٢٦/٧.

(1) البقاعي، برهان الدين بن أبي الحسن إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات و السور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ٢٠٠٣-١٤٢٤هـ، ٣٣٣/٢.

(2) المصدر السابق: ٥١٧/٢..

١ - ﴿ وَكَأَيُّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾
(العنكبوت: ٦٠) .

فانظر إلى جمال هذه الآية وروعة النظم التي انطوت عليه، فهو لما أراد أن يعلم المؤمنين التوكل عليه وحده، ذكرهم بمشهد مألوف لديهم، لكنهم مع تكراره لا يتأملون فيه، تلك الدابة العاجزة التي لا تستطيع أن تحمل رزقها فتخبئه إلى غدها، إنه سبحانه يسمع شكايتها، ويعلم بحالها، فإذا كان المولى يسمعها، ويعلم حالها ويرزقها، أفلا يرزقكم، وأنتم أنطق منها وأقدر على السعي وطلب الرزق.

٢ - ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأعراف: ٢٠٠)

٣ - ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (فصلت: ٣٦) .

من الملاحظ أن المولى سبحانه، حينما أمرنا أن نستعيز بالله من الشيطان، ختم بالسميع العليم، وما ذلك إلا لأن الشيطان يوسوس في صدورنا، والوسوسة " هي الدعاء لطاعته بكلام خفي، يصل مفهومه إلى القلب من غير سماع صوت " ^(١)، وانظر إلى قوله كلام خفي، فالله سبحانه يسمع وسوسته، ولما كان الشيطان قد خفي عنا فإن الله يعلمه ويبطل فعله. قال الإمام الألوسي: " أو سميع بأقوال من آذاك، عليم بأفعاله فيجازيه عليها " ^(٢). هذا هو الرأي الذي نرتاح إليه، وقد ذكر بعض المفسرين غيره، من أن السميع من يسمع استعادة العبد، والعليم من يعلم صلاح أمره، ^(٣) يؤكد مذهبنا هذا أن هناك آية أخرى ورد فيها الأمر بالاستعادة، وختمت بالسميع البصير، فلو كان الأمر متعلقا بالمستعيز، لما اختلف الختم في الآيتين، ولكن لما كان الأمر متعلقا بالمستعاذ منه، وهو شيطان الجن في الآيتين الأوليين، وشيطان الإنس في الآية التالية ناسب أن يغاير الختم،

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٣٤٣/٢٠.

(٢) روح المعاني: ٢١٤/٦.

(٣) انظر: فتح القدير: ٤٠٧/٢.

وهذه الآية، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ
إِلَّا كِبَرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (غافر: ٥٦).

" وتأمل حكمة القرآن كيف جاء في الاستعاذة من الشيطان الذي نعلم وجوده، ولا نراه بلفظ السميع العليم، وجاءت الاستعاذة من شر الإنس الذين يرون بالأبصار بلفظ السميع البصير، لأن أفعال هؤلاء أفعال معاينة ترى بالبصر، وأما نزغ الشيطان فوساوس وخطرات يلقيها في القلب يتعلق بها العلم، فأمر بالاستعاذة بالسميع العليم منها، وأمر بالاستعاذة بالسميع البصير في باب ما يرى بالبصر ويدرك بالرؤية " (٤) .

وأما الآيات التي جاء الختم فيها بالسميع العليم ليناسب قولاً منطوقاً ظاهراً فهي كثيرة، اكتفي بذكر بعضها منها. قال تعالى :

١ - ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (آل عمران: ٣٥)

٢ - ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾
(البقرة: ١٢٧)

٣ - ﴿ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ١٨١)

٤ - ﴿ وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (يونس: ٦٥)

٥ - ﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾
(النساء: ١٤٨)

فالآيات السابقة يتضح في كل واحد فيها أن هناك قولاً ما، سواء صدر عن أنبياء أو عن غيرهم، لاحظ على الترتيب: (قالت امرأة عمران، ربنا تقبل منا، فمن بدله بعد ما سمعه، لا يحزنك قولهم، من القول) وهكذا في بقية الآيات.

٤ ١ - السميع البصير:

(4) بدائع الفوائد : ٤٦٣/٢.

ما سبق أن قيل في (السميع العليم)، يقال هنا في السميع البصير، بيد أن الأمر يختلف هنا قليلا، فحيث يرد الختم بالسميع البصير، يكون ثم ما يسمع، وما يبصر قد سبق الختم، سواء في مطلع الآية، أو سياقها، أو قصة النزول.

والحق أن الجمع بين (السميع البصير) بشكل عام إنما يفيد الإحاطة والمعية، فيكون للإيناس للمؤمنين أنه يسمعهم ويراهم، ويكون تهديدا للكفار وتحذيرا لهم. من أجل ذلك لما قال موسى وأخوه هارون:

﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴾ (طه: ٤٥)، أجابهم المولى

سبحانه: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ (طه: ٤٦). إنها معية الله

تحوطهم، " يريد بالنصرة والمعونة والقدرة على فرعون " ^(١)، وهو تطمين لهم، أن فرعون لن يتمكن من إيذائهم ما دام المولى يسمع ويرى، وانظر إلى جمال الحذف لمعمولي الفعلين (اسمع وأرى) الذي يفيد العموم؛ ليظل المعنى مفتوحا على كل أشكال المسموعات والمرئيات. قال الإمام الرازي في معرض تفسير قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ

اللَّهُ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (الحج: ٦١)

" أي تعلق لقوله: إن الله سميع بصير بما تقدم، الجواب أنه كما يقدر على ما لا يقدر عليه غيره، فكذلك يدرك المسموع والمبصر، ويكون ذلك كالتحذير من الإقدام على ما لا يجوز في المسموع والمبصر " ^(٢).

قال تعالى :

١ - ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ

سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (المجادلة: ١)

٢ - ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا

حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (الإسراء: ١)

(1) الجامع لأحكام القرآن : ١٨٣/١١.

(2) تفسير الفخر الرازي: ٦١/١٢.

٣ - ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ (النساء: ٥٨).

فالآيات السابقة يبدو وجه الحكمة من الختم واضحاً، ففي الآية الأولى حيث خولة بنت ثعلبة على أرجح الأقوال، جاءت تجادل رسول الله، تقول عائشة: " الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأنا في ناحية البيت تشكو زوجها، وما أسمع ما تقول ^(١)، لكن السميع البصير سمعها، وأبصر حالها وما هي عليه من الغم.

وأما آية الإسراء فثم خلاف بين المفسرين، حول المقصود بالسميع البصير في الآية، هل هو المولى أم النبي صلى الله عليه وسلم، وأياً ما كان المقصود فإن كان النبي عليه الصلاة والسلام، فلأنه سمع ما سمع وأبصر ما أبصر، وإن كان المقصود به المولى فلأنه يسمع ما قيل حول الإسراء، ويبصر ما صنع الصانعون من تكذيبهم له. وليس هنا مقام بسط الآراء والترجيح بينها، لأن المعنى يحتمل هذا وذاك. بل لعل من ثراء المعنى أن يظل الأمر هكذا يفهمه كل وفق سلامة المعنى في ذهنه واستقراره. قال الإمام الطاهر: " الأظهر أن الضميرين عائدان إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقاله بعض المفسرين، واستقر به الطيبي، ولكن جمهرة المفسرين على أنه عائد إلى الله تعالى، ولعل احتمالاً للمعنيين مقصود، وقد تجيء الآيات محتملة عدة معان، واحتمالها مقصود تكثيراً لمعاني القرآن، ليأخذ كل منه على مقدار فهمه " (٢).

وأما الآية الثالثة، آية الأمانات، فما أوقع الختم بهذين الاسمين في النفس، ذاك لأن أداء الأمانات فعل يرى، يناسبه (البصير)، وأن الحكم بالعدل والقضاء قول ينطق يناسبه (السميع).

١٥ - السميع القريب:

و(السميع القريب) تجاور ورد في القرآن الكريم في موضع واحد، قال تعالى :

(١) سنن ابن ماجه: ٦٧/١.

(٢) التحرير والتنوير : ١٧٧/٨.

﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾

(سبأ: ٥٠)، وما قيل عن (السميع) في التجاورين السابقين يقال هنا، فحيث يكون (سميع) فثم قول قد قيل، والآية السابقة وردت في سياق المجادلة بين النبي - صلى الله عليه وسلم والكفار، لأنهم قالوا قبل ذلك، أن ما جاءهم به إفك، ومرة قالوا سحر، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إفكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ (سبأ: ٤٣). أي إنه يسمع أقوالكم، وافترائكم وتناولكم على الحق، وهو قريب منكم، لو شاء عذبكم، فلا يتأخر عذابه عليكم. قال الإمام البقاعي: "أي لا يغيب عنه شيء من حال من يكذب عليه، فهو جدير بأن يفضحه كما فضحكم في جميع ما تدعونه، ولا يبعد عليه شيء لاحتاج في إدراكه إلى تأخير لقطع مسافة، بل هو مدرك لكل ما أراد كلما أراد" ^(١)، أو كما يقول الرازي: "إنه سميع قريب يسمع إذا ناديته واستعديت به عليكم، قريب يأتيكم من غير تأخير" ^(٢)، وفي كل الأحوال فإن الختم السابق يحمل تعريضا بالتهديد، لأن الآية فيها فض المجلس عن مجادلتهم، لأنه ميؤوس من هدايتهم، وهذا الذي جعل التعريض بالتهديد واردا، لأن التجاور السابق ورد في الحديث الصحيح الذي أورده البخاري ولم يحتمل هذا المعنى.

"عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم، فكنا إذا أشرفنا على واد، هللنا وكبرنا، وارتفعت أصواتنا. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: يا أيها الناس إربعوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا إنه معكم، إنه سميع قريب، تبارك اسمه وتعالى جده" ^(٣). فاستشعار المؤمن بقرب المولى منه يبعث على الراحة والطمأنينة، ويجلب السعادة والمودة، وتكون الثقة بالاستجابة.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (البقرة: ١٨٦)

(١) نظم الدرر: ١٩٦/٦.

(٢) تفسير الفخر الرازي: ٢٧٢/١٣.

(٣) صحيح البخاري: ١٠٩١/٣.

١٦ - العلي: (الكبير، العظيم، الحكيم):

اسم (العلي) ورد متجاورا مع الأسماء الثلاثة السابقة، فقد ورد مع (الكبير) في خمسة مواضع، ومع (العظيم) في موضعين، ومع (الحكيم) في موضع واحد. وقد تم توضيح المعاني اللغوية للأسماء السابقة، وتم التفريق أيضا بين (الكبير) و(العظيم) بما يغني عن الإعادة^(١)، ولعل في اقترانهما بشكل عام لطيفة تدعو للتأمل. وهو أنه ربما توهم مع (العلي) ما يفيد البعد، وفي تصور العقول أن أي شيء كلما علا بعد، وكلما بعد، تضاعل أمام الناظرين، فيبدو كما لو كان صغيرا، فيأتي اسمه سبحانه (الكبير) ليدفع هذا الوهم الناشئ عن أذهان كليلية، ويؤكد أنه على علوه كبير. ولكن ما مناسبة ورود (العلي الكبير) في السياقات التي ورد فيها؟ لنأمل الآيات ليتضح وجه الحكمة. قال تعالى:

- ١ - ﴿ ذَلِكِ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ (الحج: ٦٢).
 - ٢ - ﴿ ذَلِكِ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ (لقمان: ٣٠).
 - ٣ - ﴿ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَلِنْ يَشْرِكْ بِهِ تُمْنُونُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ (غافر: ١٢).
- فالمولى لما ذكر الباطل الذي يدعونه من دون الله ناسب أن يختم ب(العلي) إشارة إلى أن الباطل حقير وضعيف، فكونه الحق فهو إذن علي، وفي الآيات كما هو واضح موقف الكافرين، الذين يدعون باطلا من دون الله، ويدعون له العلو، فالختم إذن يهدم في أذهانهم، هذا الإدعاء الباطل، وذلك بسلب صفة العلو منهم وقصرها على الله من خلال ضمير الشأن هو. "والعلي وحده عن أن يكون له شريك، فكذب قول أبي سفيان يوم أحد: (اعل هبل)، ولما كانت النفوس لا تنقاد غاية الانقياد للحاكم إلا مع العظمة الزائدة والقدم في المجد، قال معبرا بما يجمع العظمة والقدم: الكبير " (٢).
- قال تعالى: ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَاتِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاصْبِرْنَ إِنَّهُنَّ لَأَطَعْنَ كُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴾ (النساء: ٣٤).

(١) انظر الفصل الأول: ٥٤. وكذلك الفصل الثاني: ٦٧.

(٢) نظم الدرر: ٦ / ٤٩١.

قال الإمام البقاعي في سياق تفسير الآية السابقة: " عليا كبيرا أي له العلو والكبر على الإطلاق، بكمال القدرة ونفوذ المشيئة، فهو لا يحب الباغي، ولا يقره على بغيه، وقدرته عليكم أعظم من قدرتكم عليهن ، وهو مع ذلك يعفو عن عصاه، وإن ملاً الأرض خطايا إذا أطاعه، ولا يؤاخذ به شيء مما فرط في حقه، بل يبذل سيئاته حسنات، فلو أخذكم بذنوبكم أهلككم؛ فتخلقوا بما قدرتكم عليه من صفاته لتتالوا جليل هباته، وخافوا سطوته، واحذروا عقوبته بما له من العلو والكبر " (١). فالإمام البقاعي رحمه الله أوجز القول في ذلك، وأجاد بما يغني عن الزيادة. وأما الآيتان اللتان ورد فيها العلي مقترنا بالعظيم، فذاك لأن السياق هناك سياق عظمة. قال تعالى :

١ - ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

٢ - ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ (الشورى: ٤).

أما الآية الأولى فلما ذكر سبحانه الكرسي وسعته، ناسب أن يذكر أنه علي عن كل ظن يتوهمه الظانون، فيهدم ب(العلي العظيم) كل تخيل يمكن أن يتخيله ذهن، يشبه فيه المولى بالبشر، ولا سيما أن لفظ الكرسي من الألفاظ التي يتداولها البشر فيما بينهم، فلا ينبغي تصور أن المولى له كرسي يجلس عليه، وهذا هو السبب والله أعلم في أن العلي لم يقترن بالكبير، إذ لو اقترن به لتوهم متوهم أن الختم بالكبير إنما جاء ليناسب سعة الكرسي، فيشبه المولى ويجسمه، ولكن المولى سبحانه ختم بالعلي العظيم، لأن(العظيم) يشمل الكبير ويزيد عليه " لأن العظمة عبارة عن كونه بحيث يستعظمه غيره " (٢). وما كانت آية الكرسي من أولها إلى آخرها إلا لتدل على عظمة المولى.

وكذلك الآية الثانية جاءت في سياق التدليل على عظمة الله، يؤكد ذلك أن الآية التي تليها، تبين كيف أن السماوات يكدن أن يتفطرن، والملائكة تسبح تعجبا من عظمتهم سبحانه، قال تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ سَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (الشورى: ٥). يقول الإمام الطبري : " تكاد السماوات

(1) نظم الدرر : ٢٥٣/٢.

(2) روح المعاني : ١٣٧/١.

يتشققن من فوق الأرضين من عظمة الرحمن وجلاله" (٣).

وأما (العلي الحكيم) فقد وردا في موضع واحد متجاورين في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ﴾ (الشورى: ٥١).

ما أجمل ما ختمت به تلك الآية السابقة، لأن اليهود لما سألوا النبي صلى الله عليه وسلم، أن يكلم ربه وينظر إليه، كما فعل مع موسى نزلت الآية السابقة، (١)، ومن مجمل قصة النزول، وتحليل الآية يبين وجه الحكمة في الختم.

وقد وقعت أثناء البحث على قول للإمام الطاهر بن عاشور في تعليل الختم هنا، وهو قول متقن، أنقله لأنني اعتقد أنه أصاب فيه، وما أحسبني سأزيد عليه شيئاً، قال: "وإنما أؤثر هنا صفة (العلي الحكيم) لمناسبتها للغرض، لأن العلو في صفة (العلي) علو عظمة فائقة لا تناسبها النفوس البشرية التي لم تحظ من جانب القدس بالتصفية، فما كان لها أن تتلقى من الله مراده مباشرة، فافتضى علوه أن يكون توجيه خطابه إلى البشر بوسائط يفضي بعضها إلى بعض، وأما وصفه (الحكيم) فلأن معناه المتقن للصنع، العالم بدقائقه، وما خطابه البشر إلا لحكمة إصلاحهم، وما وقوعه على تلك الكيفيات الثلاث إلا من أثر الحكمة لتيسير تلقي خطابه ووعيه دون اختلال فيه، ولا خروج عن طاقة المتلقين" (٢).

١٧ - الغني (الحميد، الحليم، الكريم):

(3) جامع البيان : ١٢٨/١١ .

(1) انظر الجامع لأحكام القرآن : ٤٨/١٦ .

(2) التحرير والتنوير : ١٦٧/١٣ .

ليس ثم أكثر وضوحاً فيما ذكرنا من تجاور الأسماء من تجاور (الغني الحميد)، ولقد ورد الاسمان متجاورين في عشرة مواضع، وفي المواضع كلها كان وجه المناسبة للختم واضحاً، لا يحتاج إلا إلى اليسير من التأمل. قال تعالى :

- ١ - ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾ (النساء: ١٣١).
- ٢ - ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ (لقمان: ١٢)

- ٣ - ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (الممتحنة: ٦)

- ٤ - ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ (التغابن: ٦).

- ٥ - ﴿ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (الحديد: ٢٤)
- فالآيتان الأوليان ورد فيهما (وإن تكفروا، ومن كفر) ومثل هذه الألفاظ يناسبها تماماً غني حميد، فلا تظنوا أنكم بعبادتكم، أو بإيمانكم تقدمون لله شيئاً، أو أنه سبحانه محتاج لها، كلا إنه غني عنكم، وعن عبادتكم، ومحمود في السماء والأرض، ولا يحتاج ثناءكم ولا شكركم، وأما الآيات الثلاثة الأخيرة، فإن الختم فيها يناسب حالة الاستغناء والتولي من قبلهم. وهي على الترتيب: (ومن يتول، وتولوا، ومن يتول) وهكذا فإن توليتهم فالله غني عنكم فأنتم وشأنكم. قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (فاطر: ١٥). قال الإمام ابن عاشور: " ومن كفر فإن الله غني حميد، لإفادة أن الإعراض عن الشكر بعد استشعاره كفر للنعمة، وأن الله غني عن شكره بخلاف المخلوقات، وهو حميد أي كثير المحمودية بلسان الكائنات كلها حتى حال الكافر به، كما قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وظِلَاهُمْ بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ ﴾ (الرعد: ١٥).^(١)

(١) التحرير والتنوير: ١١٩/١١.

يقول الإمام الطبري : " والله غني عن جميع خلقه، محمود عند جميعهم، بجميل أياديهم عندهم، وكريم أفعاله فيهم " (٢).

وأما الاقتران (الغني) ب(الحليم) فذلك من أنسب ما يكون في سياقه، قال تعالى : ﴿ قَوْلُ مَعْرُوفٍ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٦٣). فالآية تبين أن الله غني عن صدقاتهم، وإنما يقدموا ما يقدموا من صدقة لأجلهم، فكيف إذا تبع الصدقة من وأذى، فالله أغنى وأغنى عنها، فالقول الحسن، والمغفرة وهي الستر على الفقير، خير عند الله.

ولما كان الذي يمن بصدقته على خلق الله، وهو إنما أعطيها من الغني، فالله حليم عليه، لا يعاجله بالعقوبة. قال الإمام ابن القيم: " " و ختم الآية بصفتين مناسبتين لما تضمنته، فقال: (والله غني حليم) وفيه معنيان: أحدهما أن الله غني عنكم، لن يناله شيء من صدقاتكم، وإنما الحظ الأوفر لكم في الصدقة؛ فنفعها عائد عليكم لا إليه سبحانه وتعالى. فكيف يمن بنفقته ويؤذي مع غنى الله التام عنها وعن كل ما سواه ؟ ومع هذا، فهو حليم إذ لم يعاجل المان بالعقوبة، وفي ضمن هذا الوعيد والتحذير.

والمعنى الثاني: أنه سبحانه وتعالى مع غناه التام من كل وجه، فهو الموصوف بالحلم والتجاوز والصفح مع عطائه الواسع وصدقاته العظيمة، فكيف يؤذي أحدكم بمنه وأذاه مع قلة ما يعطي ونزارته وفقره ؟! " (١).

وأما اقتران (الغني بالكريم) فهو اقتران وقع لمرة واحدة، وفي اقترانهما دلالة على مطلق الكمال والتفضل، فليس كل غني كريما، وهذا نجده في البشر، ولكن المولى على غناه، فإنه كريم كريم، حتى لأولئك الذين كفروا به، كيف لا وهم يرزقهم ويحفظهم.

قال تعالى : ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ (النمل: ٤٠).

وهذا الذي عنده علم من الكتاب، دلل على علمه بفعله وقوله، وأما فعله فأحضره العرش لسليمان في أسرع ما يكون، وأما قوله فذاك أنه يعلم أن ما منحه الله له لا يعدو أن يكون اختبارا، يشكر الله عليه أم ينسبه إلى نفسه، وقرر هذا العالم بالكتاب أن الله غني عن الناس وعن شكرهم، لأن الكفر إنما هو الستر، فمن كفر بالله وجحد نعمه، فلا

(2) جامع البيان : ١١٣/١٢.

(1) طريق الهجرتين: ٥٤٤.

حاجة لله في شكره، لأنه غني عنه، وهو أيضا كريم متفضل عليه، حتى وهو على كفره، وهنا يمكن أن نلمح لطيفة في غاية الحسن أن هذا العالم بكتاب الله إنما أراد أن يشير إلى أنه إنما نال ما نال من القدرة والقوة، ليس بسبب شكره، ولا عبادته، وإنما لأن الله سبحانه وتعالى كريم، فإذا كان يمنح الكافر كرما منه، فهو إذن لما منح المؤمن لم يمنحه لشيء قدمه، فسبحان من علمه. قال الإمام الفخر: " فإن ربي غني كريم، غني عن شكره، لا يضره كفرانه، كريم لا يقطع عنه نعمه بسبب إعراضه عن الشكر " (٢).

١٨ – الثواب : (الرحيم، الحكيم):

ما أحسن ما صيغ الاسم الشريف (الثواب) على بناء فعال!! ذاك أن دلالة البناء فقط، تشعر بالأنس والسلامة، وتدعو إلى الأمل، وتشير إلى عظمة الخالق في رحمته بالخلق .

لأن بناء فعال الذي هو للمبالغة، لا يكون إلا لمن أدام الفعل، وكثر منه بحيث صار له كالحرقة. قال الإمام العسكري: " إذا تكرر الفعل وقتا بعد وقت قيل فعال، مثل علام وصبار " (١)، وعليه فإن بناء فعال يقتضي " الاستمرار والتكرار والإعادة والتجدد " (٢). فهو إذن يتوب على عبده مرة ومرة، لا يمل المولى من التوبة، ما دام العبد، تحرقه نزغة الذنب فيتوب. تماما كالبناء في اسمه الشريف (الغفار) الذي يشير إلى مغفرة بعد مغفرة، لذنب بعد ذنب.

(2) تفسير الفخر الرازي : ٢٠٠/١٢.

(1) الفروق اللغوية : ٣٣٣٦.

(2) معاني الأنبياء : ١١٠.

وتوبة العبد هي رجوعه عن المعصية إلى الطاعة، وتوبة الله على العبد هي قبول توبته، ورجوعه إلى سابق العهد قبل الذنب. وقيل " إن توبة الله على العبد قبوله توبته، وذلك يحتمل أن يرجع إلى قوله سبحانه، قبلت توبتك، وأن يرجع إلى خلقه الإنابة والرجوع في قلب المسيء، وإجراء الطاعات على جوارحه الظاهرة " (٣).

و(التواب) ورد مقترنا ب(الرحيم) في تسعة مواضع في القرآن الكريم، وورد مقترنا ب(الحكيم) في موضع واحد.

وأما عن الحكمة في اقترانه ب(الرحيم) فذاك أمر يسير، فإن العبد إذا أذنب وعصى ربه، وتاب عن المعصية، يتوب الله عليه، ثم يستغفر لذنبه، فيغفر الله له، وهما أمران يتعلقان بالماضي، ولا يكفیان فيحتاجان إلى رحمة الله. فلا تكفي التوبة من قبل المولى، لأنه لو لم يرحم، فلا معنى للتوبة من جهة العبد، وكون المولى أخبرنا عن صفاته أنها منتهى الكمال، وأنه متفضل دائماً، فالرحمة - يحسن للعبد - أن تواكب التوبة والمغفرة وكل شيء؛ من أجل ذلك اقترنت المغفرة بالرحمة كما بينت فيما سبق، مثلما هي تقترن الآن بالتوبة.

وأما عن الحكمة في ورود هذا التجاور في السياقات التي ورد فيها، فذلك لعل المناسبة اللفظية، في أغلب الآيات، حيث تشتمل الآية على الفعل (تاب) أو مشتقاته، فيناسبه حينئذ الختم بالتواب. تلك المناسبة اللفظية التي سماها الإمام الألوسي (المجاورة) وعلل بها تقديم (التواب) على (الرحيم) قال : " وتقديم التوبة للمجاورة " (١). قال تعالى :

- ١ - ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (البقرة: ٣٧)
- ٢ - ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (البقرة: ٥٤)
- ٣ - ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمَنْ ذُرِّيَّتَنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (البقرة: ١٢٨)

- ٤ - ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (البقرة: ١٦٠)
 - ٥ - ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (التوبة: ١٠٤)
- وهكذا الأمر في بقية الآيات، فالآيات السابقة وردت فيها ألفاظ التوبة على الترتيب (

(3) الجامع لأحكام القرآن : ٣٦٥/١.

(1) روح المعاني : ٣٨٦/١.

فتاب عليه ، فتوبوا فتاب عليكم ، وتب علينا ، تابوا وأصلحوا ...أتوب عليهم، يقبل (التوبة).

وأما آية الحجرات قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْنَاهُ وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحجرات: ١٢). فهي لم تشتمل على لفظ ظاهر من مشتقات التوبة في ثنايا الآية، ولكن المقام هنا مقام دعوة إلى التوبة، والإقلاع عن الذنب، وعدم العودة إليه، وأنا أرى أن الأمر بالتوبة مقدر، كأنه قال: واتقوا الله وتوبوا إليه. قال الإمام الزركشي: " ووجه هذا الختام التنبيه على التوبة من الاغتياب وهو من الظلم " (٢).

وأما آية سورة النساء، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ (النساء: ٦٤).

والمعتاد أن يقال لوجدوا الله غفورا رحيمًا، لقوله في آية أخرى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظِلْمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (النساء: ١١٠).

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (النمل: ١١).

ولكنه سبحانه في الآية السابقة قال: " لوجدوا الله توابا رحيمًا " زيادة لهم تكريما للنبي - صلى الله عليه وسلم - لأن التوبة هي مغفرة وزيادة، فاستغفارهم لو حدث، يجلب لهم المغفرة،

واستغفار النبي لهم يجلب لهم التوبة، ثم إن العدول عن ذكر (الغفور) لئلا يحدث ثقلا ما، فتكون مادة (غفر) تكررت ثلاث مرات في تقارب مكاني. وأنا أرى أنه إنما كان ذلك إكراما للنبي صلى الله عليه وسلم.

وأما اقتران (التواب بالحكيم) فقد ورد في موضع واحد في القرآن كله.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ (النور: ١٠).

وهذه فاصلة قد تحدث فيها العلماء وأفاضوا، وأكتفي هنا بذكر ما قاله الإمام الزركشي - رحمه الله: " فإن الذي يظهر أول النظر أن الفاصلة تواب رحيم، لأن الرحمة مناسبة للتوبة، وخصوصا من هذا الذنب العظيم، ولكن ها هنا معنى دقيق من أجله قال

(2) البرهان في علوم القرآن : ١٤٣ / ٤.

حكيم، وهو أن ينبه على فائدة مشروعية اللعان، وهي الستر عن هذه الفاحشة العظيمة، وذلك من عظيم الحكمة، فلهذا كان حكيم بليغا في هذا المقام دون رحيم " (١).
وأزيد أنه سبحانه مع هذا ما حرم العباد من رحمته في الآية، فقد أوردنا معطوفة على الفضل، في قوله: (فضل الله عليكم ورحمته)، فهو ما شرع الذي شرع إلا لحكمة، وهذه الحكمة لا تخلو من وجه رحمة بكم، فانظر إلى جمال النظم، وروعة هندسة البناء للمعنى، في الجمع بين الثلاثة من غير تكرير.

١٩ - (العليم الحكيم)، (العليم القدير)، (الحكيم العليم):

ثمة قاعدة عامة ينبغي الإشارة إليها في التعامل مع الأسماء المتجاورة، ذلك أن الاسمين قد يتجاورا بترتيب في سياق، ثم نجد أنه خولف عن الترتيب السابق في سياق آخر، كـ (العليم الحكيم) الذي ورد في تسعة وعشرين موضعا، ثم ورد في سبعة مواضع أخرى ترتيب (الحكيم العليم)، والبحث عن الحكمة وراء هذا التحول يحتاج إلى إعمال الذهن.

يقول ابن القيم رحمه الله: "إن مشاهدة حكمة الله في أقضيته وأقداره التي يجريها على عباده باختيارهم وإرادتهم، هي من ألطف ما تكلم فيه الناس وأدقه أغمضه، وفي ذلك حكم لا يعلمها إلا الحكيم العليم" (٢).

ولكن هناك نسق عام لا يخرج أي تجاور عنه، وهو أن السياق يحدد إلى حد كبير نوع الخواتم، وكذلك ترتيب الأسماء.

فإذا كان جوهر السياق يدور حول قضية غيب أو خلق أو أحوال أو تعليم فإن بدء الخاتمة، أو الفاصلة يكون بالعليم الحكيم، لأن الإشارة إلى العلم أهم في السياق، وإذا كان جوهر السياق يدور حول فعل للمولى قد يقع فيه تعجب من البشر، وإضمار سؤال عن السبب، فإن الختم يكون بالحكيم العليم.

إن السياق القرآني يسير بطريقة لطيفة جدا، يزاحم ما قر من توهّمات استدعتها الألفاظ المجردة، فيهدمها، ثم ينشئ بدلا منها دلالات ومعاني يخلقها هو.

(1) البرهان في علوم القرآن: ٩١/١. وانظر: المثل السائر: ٢٨٥/٢.

(2) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي: مفتاح دار السعادة ومنثور ولاية العلم والإرادة، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٨٦.

(فالحكيم العليم) مثلا ، جملة تأتي في أغلب مجيئها تعليلا لما قبلها، لأن الآية تكون مسبوقه، بفعل يبدو غريبا للبشر، يستدعي سؤالا، كأن يقال لماذا ؟ فيكون البدء بالحكيم، إجابة على هذا السؤال، ودفعاً لذاك التعجب الحاصل.

قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ (النمل: ٦)، وكان الظاهر يقتضي أن يكون البدء بالعليم، ولكن السياق يقتضي غير ذلك، لأن الكافرين كانوا قد سألوا رسول الله آيات أخرى، وطلبوا منه دلائل أكثر، وكانوا يعتقدون أن عدم تلبية مطلبهم ذلك، إنما يدل على أن محمداً غير مبعوث من قبل الله، ولو كان مبعوثاً من عنده لأيده بآيات أخرى. وهنا يأتي الرد الجميل " وإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ " ، إن ما قالوه كذب واقتراء، وهذا القرآن ليس من عندك يا محمد، بل هو من الحكيم العليم، وهنا الحكيم أكثر مناسبة للبدء، فهو سبحانه له حكمة في اختيار الآيات، وتبديلها، وحينما لا يجيبهم لما أرادوا إنما لحكمة يعلمها، وهي أنهم ربما لن يؤمنوا مهما جاءتهم من آيات. قال أبو السعود : " والجمع بين العلم والحكمة مع دخول العلم في الحكمة لعموم العلم، ودلالة الحكمة على إتقان الفعل "(١). لأن الحكمة هي " العلم بالأشياء على ما هي عليه، والإتيان بالأفعال على ما ينبغي، وقيل أن الحكيم بمعنى المحكم من الأحكام وهو إتقان التدبير وإحسان التقدير "(٢). " أو هي إصابة الحقيقة لكل شيء ووضع موضعها "(٣). إذن الحكمة كل الحكمة في فعله، وصنعه، فلا غرابة أن يكون ما يريد المولى. فاختيار معجزة النبي القرآن، وعدم تبديله، وعدم الاستجابة لمطالبهم إنما هو أمر لحكمة أرادها.

قال تعالى : ﴿ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ (الذريات: ٣٠).

هذه الآية من أوضح الآيات على الاستدلال بما نقول، لأنها تدور حول ضيف إبراهيم المكرمين، الذين جاءوا يبشروه بغلام عليم، فلما علمت زوجته صكت وجهها وقالت متعجبة: كيف يكون ذلك وأنا عجوز عقيم لا أستطيع الحمل؟! هنا جاء الرد بالآية السابقة، فقالوا لها: كذلك قال ربك.

ولما كان المتعجب منه، هو جوهر الحديث، وهو البشرى بالغلام، كان البدء بالحكيم.

(1) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم : ٢٧٣/٦.

(2) الايجي، عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد: كتاب المواقف، تحقيق د. عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م، ٣/٣٢١.

(3) التوحيد : ٣٠٦.

كانهم قالوا لها: لحكمة أرادها الله. وهذا مثال يصلح لوضوحه أن يصار إلى تفسير الآيات الأخرى على هديه.

قال الإمام ابن عاشور: "وجملة إنه هو الحكيم العليم تعليل لجملة (كذلك قال ربك) المقتضية أن الملائكة ما أخبروا إبراهيم إلا بتليغا من الله، وأن الله صادق وعده، وأنه لا موقع لتعجب امرأة إبراهيم لأن الله حكيم، يدبر تكوين ما يريد، وعليم لا يخفى عليه حالها من العجز والعقم" (١).

وبالطريقة السابقة نفسها يصار إلى تحليل ورود (العليم الحكيم) في الآيات، فالعليم أولا لأن العلم أهم في مجريات السياق، وهذه الآيات توضح ذلك. قال تعالى:

- ١ - ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (البقرة: ٣٢)
- ٢ - ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيُتوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (النساء: ٢٦)
- ٣ - ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (يوسف: ٦)
- ٤ - ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (يوسف: ٨٣).

فالآية الأولى محور الحديث فيها يدور عن التعليم، وكيف أن الله علم آدم الأسماء كلها. وفي الثانية جوهر الأمر تبين الأحكام للمؤمنين، وما يكون التبیین إلا من عليم. وفي الثالثة ويعلمك من تأويل الأحاديث، وفي الرابعة، هو العليم بصدق ما يقولون من كذبه " (٢). وهكذا قس في جميع الآيات.

وأما (العليم القدير) فقد ورد هذا التجاور في أربعة مواضع. قال تعالى :

- ١ - ﴿ أَوْ يُزَوِّجَهُمْ دُكْرَانًا وَإِنَّا نَافِعُونَ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ (الشورى: ٥٠)
- ٢ - ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ (الروم: ٥٤)

(١) التحرير والتنوير : ١٠٥/١٤.

(٢) جامع البيان : ٢٧٣/٧.

٣- ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾
(النحل: ٧٠)

٤- ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ (فاطر: ٤٤)

إذا تأملنا الآيات السابقة جميعها، نجد أن الحاجة إلى العليم فيها أكثر مناسبة، ومن أجل ذلك قدم، فالأولى تدور عن الإعطاء والحرمان، يناسبه العلم، فهو يعطي الذكران بعلم ويرزق الإناث بعلم، ويجعل العقيم بعلم، فليطمئن الجميع أن ما حدث له لا يخرج من علم الله، ويزداد اطمئنانه أكثر حين يؤكد في ذهنه أن الذي صنع ذلك قدير. وبمثل ذلك يكون الأمر في الآيات التالية، فالذي يخلق من ضعف ثم يجعل قوة ثم يجعل ضعف ثم شبيهة، الذي صنع ذلك ما صنعه إلا بعلم، فما جاء منه خبط عشواء حاشاه، ثم هو قادر على تغيير الأمور لو شاء، ويقلب الترتيب. وفي الثالثة (خلقكم ... يتوفاكم ... يرد إلى أردل العمر ...) هذه المراحل تكون بعلم الله، ثم بقدرته سبحانه على إتمامها، وتغييرها إذا شاء.

٢٠ - الحكيم الخبير: ما قد قيل عن اقتران (الحكيم بالعليم) يقترب من القول في اقتران (الحكيم بالخبير)، ذلك أن الحكيم يكون لأمر صنعه فأحكمه، وأن هذا الأمر ما كان إلا لحكمة أرادها المولى، قد تظهر على البعض، وقد تخفى، وأنه لما كان الحكيم لا يصنع ما يصنع إلا عن تمام العلم، أردف الحكيم بالخبير. قال الإمام البقاعي: "ولما كانت الحكمة لا تنتهياً إلا بدقيق العلم وصافيه ولبابه وهو الخبرة، قال الخبير، أي البليغ الخبر، وهو العلم بظواهر الأمور وبواطنها حالا ومآلاً" (١)

واسمه الخبير هو الذي أحدث الفرق بين التجاورين، الذي هو العلم ببواطن الأشياء، إضافة لظاهرها، "ووصف الحكيم تجمع إتقان الصنع فتدل على عظم القدرة، مع تعلق العلم بالمصنوعات، وصفة الخبير تجمع العلم بالمعلومات ظاهرها وبواطنها" (٢).

(1) نظم الدرر: ١٤٩/٦.
(2) التحرير والتنوير: ٤٩٢/٤.

ف(الحكيم الخبير) اقترنا في القرآن الكريم في أربعة مواضع، وفي المواضع جميعها، كان السياق يشتمل على شيء ما أوجده المولى إيجاد محكما، ولحكمة ما، ولما أردفه بالخبير فذاك لأنه خبير في خلقه. " وهو الحكيم الخبير، حكيم في أمره خبير في خلقه " ^(١)، ولناخذ مثلا على ذلك. قال تعالى : ﴿ الرِّكَابُ أَكْثَمُ آيَاتِهِ ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (هود:١). فهو سبحانه حكيم ، لأنه أحكم آيات كتابه، فهو أنزله لحكمة، وهو قد أحكم آياته، وهو خبير ببواطن البشر، وما يضمرون، وكيف يستقبلونه. وإن كان للإمام الشوكاني رأي آخر، لا أميل إليه، وأذكره " من لدن حكيم خبير، لف ونشر، أحكمهما حكيم، وفصلهما خبير، عالم بمواقع الأمور " ^(٢).

وللإمام ابن القيم كلام جميل في هذا السياق أسوقه هنا لمناسبته، وتأكيدا لما سلف " الحكيم الخبير الدالان على كمال الإرادة وأنها لا تتعلق بمراد إلا لحكمة بالغة، وعلى كمال العلم، وأنه يتعلق بظواهر المعلومات فهو متعلق ببواطنه التي لا تدرك إلا بالخبرة، فنسبة الحكمة إلى الإرادة، كنسبة الخبرة إلى العلم فالمراد ظاهر والحكمة باطنة، والعلم ظاهر والخبرة باطنة، فكمال الإرادة أن تكون واقعة على وجه الحكمة، وكمال العلم أن يكون كاشفا عن الخبرة، فالخبرة باطن العلم وكماله، والحكمة باطن الإرادة وكمالها " ^(٣).

٢١- الرحيم (الغفور، الودود):

هذان تجاوران وردا في موضع واحد، لكل منهما، في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ (سبا:٢). ومما قر في أذهاننا من خلال تتبعنا للسياق القرآني، أن المولى يقرن الغفور بالرحيم، حتى أن الغفور الرحيم وردا مقترنين في اثنين وسبعين موضعا، فلماذا تم العدول عن هذا الاقتران في هذه الآية ؟

لقد تتبعنا أقوال العلماء في هذا العدول، فما وجدت أكثرهم إلا وقد أعرض عن الخوض فيه، غير أن الإمام الزركشي أشار إليه قائلا:

(1) الأشعري، علي بن إسماعيل بن أبي بشر: الإبانة عن أصول الديانة، تحقيق د. فوقية حسين محمود، دار الأنصار، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٩٧هـ، ١٩/٢.

(2) فتح القدير : ٦٩٢/٢.

(3) بدائع الفرائد: ٨٧/١.

" وكقوله الغفور الرحيم، فإن المغفرة سلامة، والرحمة غنيمة، والسلامة مطلوبة قبل الغنيمة، وإنما تأخرت في آية سبأ في قوله: الغفور الرحيم، لأنها منتظمة في سلك تعداد أصناف الخلق من المكلفين وغيرهم، فالرحمة شملتهم جميعاً، والمغفرة تخص بعضاً، والعموم قبل الخصوص بالرتبة " (١).

وهو - يرحمه الله - يشير إلى التقديم في الرتبة، وبمثله قال الإمام ابن القيم الجوزية، ولكنني لمحت شيئاً آخر إضافة لما تقدم به العلماء الأجلاء: ذلك أن الآية السابقة جوهرها الرحمة، ومبناها على الرحمة، رحمة الله بالعباد، فيما ينزل من السماء، وفيما يخرج من الأرض، فالذي ينزل من السماء: ملائكة وأمطار وتلوج وصواعق وغيرها.

" ما ينزل من السماء من الأمطار والتلوج والبرد والصواعق والبركات ومن ذلك ما ينزل منها من ملائكة وكتبه إلى أنبيائه " (٢).

فهذه الأشياء جميعها إنما تنزل رحمة بالعباد أولاً، ثم هناك وجوه أخرى للرحمة في تنزلها، فمن رحمته أنها في نزولها غير مؤذية للعباد، وغير مفرجة لهم، ولو أن المولى مكننا من رؤية الملائكة مثلاً وهي تنزل، لما وسعتنا الدنيا فزعا وخوفاً، ولو أنه نزل إلينا الغيث دفعة واحدة لعذبنا به، وأهلكنا، وانظر إلى رحمته حين ينزل التلوج رقيقة ناعمة ممتعة غير مؤذية ولا مزعجة، أليس ذلك كله من مظاهر رحمته؟! فأبي ختم أكثر مناسبة لهذه المعاني من الختم بالرحيم الذي يذكرنا بكل هذه الأشياء، ويدعونا إلى تأملها؟!

إنه سبحانه يصنع كل ذلك، ومع ذلك تتصاعد الذنوب من العباد، وتكثر المعصية، وهو غفور لذلك، يغفر ما يجب ألا يصنعه.

وأما (الرحيم الودود) فختم جاء لمرة واحدة في القرآن الكريم. في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ (هود: ٩٠). وما أحسن هذا الختم وأطفه، وما أعلاه وأشرفه، " إن ربي رحيم ودود " ، ولا سيما وهو يأتي على لسان خطيب الأنبياء شعيب عليه السلام، كما جاء في الأثر.

(1) البرهان: ٢٤٩/٣. وانظر بدائع الفوائد: ٦٨/١.

(2) فتح القدير: ٤٤٣/٤.

" وفي قوله إن ربي رحيم ودود، وفيه سر لطيف، وهو أنه يحب التوابين، وأنه يحب عبده بعد المغفرة، فيغفر له ويحبه، كما قال: إن الله يحب التوابين، ويحب المتطهرين، فالتائب من حبيب الله فالود أصفى الحب وألطفه " (٣) .

" وما ألطف اقتران اسم الودود بالرحيم وبالعفور، فإن الرجل قد يغفر لمن أساء إليه، ولا يحبه، وكذلك قد يرحم من لا يحب، والرب تعالى يغفر لعبده، إذا تاب إليه، ويرحمه ويحبه ومع ذلك فإنه يحب التوابين " (١) .

٢٢ - الواسع (العليم، الحكيم):

إن حقيقة السعة في قول المولى (واسع عليم) إنما تكون في صفاته، " وحقيقة السعة امتداد فضاء الحيز من مكان أو ظرف امتدادا يكفي لإيواء ما يحويه ذلك الحيز بدون تزامم ولا تداخل بين أجزاء المحوي، ومعناه في حق الله هو عدم تناهي التعلقات لصفاته ذات التعليق، فهو واسع العلم، واسع الرحمة، واسع العطاء، فسعة صفاته أنها لا حد لتعلقاتها فهو أحق الموجودات، بوصف واسع، لأنه الواسع المطلق " (٢) .

وإن كان هناك من فسرهُ على أنه واسع المغفرة، وأنه واسع العلم يقول الإمام القرطبي: " واسع أنه يسع علمه كل شيء، أو هو الجواد الواسع الذي يسع عطاؤه كل شيء دليله (ورحمتي وسعت كل شيء) وقيل واسع المغفرة " (٣) .
و(الواسع العليم) تجاوز ورد في القرآن الكريم في سبعة مواضع، وفي المواضع جميعها كان يقع موقعه من الحسن والتمام، بحيث يكون في أروع تناسب مع مضمون الآية، وإنجاز مدلولها. قال تعالى :

١ - ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ١١٥) .

٢ - ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ

(3) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي: روضة المحبين ونزهة المشتاقين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٢-١٩٩٢م، ٤٧.

(1) التبيان في أقسام القرآن : ٥٧.

(2) التحرير والتنوير : ١٣٢/٣.

(3) الجامع لأحكام القرآن : ٧٧/٢.

بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿البقرة: ٢٤٧﴾.

٣- ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿البقرة: ٢٦١﴾

الختم في الآية الأولى يناسب تماما، قوله: (الله المشرق والمغرب)، والسعة هنا المقصود بها سعة الملك، وأنه سبحانه في كل مكان، فحيث كانوا يولون جهة المسجد الأقصى فثم وجهه، وما ذلك إلا لأنه واسع عليم.

" فقله واسع تذييل لمدلول (والله المشرق والمغرب)، والمراد سعة ملكه، أو سعة تيسيره، والمقصود عظمة الله " (١).

وأما كونه عليم، فلأنه لا يخفى عليه أحد، ولا تخفى عليه الوجهة التي توجهها، فالختم يؤكد ما تقدم في الآية من أن ملك الله واسع، وحيثما تكونوا وتولوا وجوهكم فثم وجه الله ولا ضير، وهو عليم بكم أينما كنتم.

وفي الآية الثانية السعة سعة الملك، فهم لما أنكروا أن يكون طالوت ملكا، مدعين أنه لم يؤت سعة من المال. كيف ذلك والله هو الواسع العليم؟! الذي لا حد لسعة صفاته بما فيها الملك الذي يعلم لمن يؤتیه وكيف يؤتیه.

وأما الآية الثالثة فإن الختم فيها يناسب تماما قوله " والله يضاعف لمن يشاء " فالمضاعفة تتناسب مع السعة غير المحدودة من قبل المولى.

الأصل كما رأينا أن الواسع يقتدر بالعليم، ولكن المولى قرن (الواسع بالحكيم) في موضع واحد، قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَتَرَكَا يُغْنِ اللَّهُ كَلَّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾

(النساء: ١٣٠). لأن الحديث يدور عن الطلاق، فالتفرق بين الزوجين حكم قضاء الله، لحكمة عظيمة، وفائدة جليلة، ولعل ما يحدث اليوم بين الأزواج يؤكد أن الطلاق لا غني عنه، بل هو ضرورة حين تتعذر استمرارية الحياة. قال الإمام الفخر: " والمعنى أنه تعالى لما وعد كل واحد منهما بأنه يغنيه من سعته، وصف نفسه بأنه واسع، وإنما جاز

(1) التحرير والتنوير : ٤٥٠/١.

ذلك لأنه واسع الرزق، واسع الفضل، واسع الرحمة، واسع القدرة، واسع العلم، فلو ذكر أنه سبحانه واسع في كذا لاختص ذلك بذلك المذكور، وقوله حكيمًا قال ابن عباس: يريد فيما حكم ووعظ، يريد فيما حكم على الزوج من إمساكها بمعروف أو تسريح بإحسان " (٢).

٣٣- العفو (الغفور، القدير):

لا مشكلة في تقديم (العفو) على (الغفور) في الآيات الكريمات الأربعة، التي ورد فيها هذا التجاور (العفو الغفور) ختمًا للآيات.

وليت شعري ما الذي دفع الإمام الزركشي رحمه الله أن يعتبر ذلك تقديمًا وتأخيرًا؟ ليقول: "ومنه ما هو رعاية للفواصل كتأخير الغفور في قوله لعفو غفور" (١). فالعفو من المولى أهم للعبد؛ لأن العفو يتعلق بالعبد مباشرة، وأما المغفرة فتتعلق بالذنب، ألا ترى أنه يقال: عفا عنه، وغفر ذنبه. "والعفو ترك عقوبة المستحق" (٢)، والمغفرة ستر الذنب وزيادة، والزيادة هي إيجاد الثواب.

فأولا يعفو المولى عن العبد ثم بعد ذلك يذهب إلى ذنوبه فيسترها، ولا يؤاخذ به، ألا ترى قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٨٦) وكيف أنه قدم العفو على المغفرة (واعف عنا واغفر لنا) ثم قدم المغفرة على الرحمة (واغفر لنا وارحمنا) وهو ترتيب دقيق، يشير إلى معنى عميق، فالعفو

(2) تفسير الفخر الرازي : ٧٠/٦ .

(1) البرهان في علوم القرآن : ٢٧٤/٣ .

(2) بصائر ذوي التمييز : ٨٠/٤ .

أولا قبل النظر إلى الذنوب، وقبل سترها، ليظل كرم الله وفضله قائما في أنه عفا عن تفضل، وفي غير سبب، فقد يعطل العفو بعد النظر إلى الذنوب على أنها قليلة، فيقال: من أجل ذلك عفا، ولكن المولى حاشاه أن يكون لكثرة الذنوب وقلتها سبب في ذلك، فإنه يعفو أولا، قدرة منه وتفضلا، وهو سبحانه أعلم بذنوب عباده، كيف وهو الذي يقول:

﴿ إِنْ اللَّهُ يَغْفِرَ الذَّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ أي حال كونها مجموعة.

هذا المعنى حين يتعلق الأمر بالعبء نفسه، فإن كان الأمر يتعلق بالعفو عن السيئات، فإن المعنى عندئذ يكون بمعنى المحو والإزالة. قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (الشورى: ٢٥) " لأن العفو تجاوز عن الذنب، وأصله المحو والطمس، وهو مأخوذ من عفت الرياح الآثار، إذا درستها ومحت معالمها " (٣).

فإذا تتبعنا السياقات الأربعة التي ورد فيها التجاور السابق، نلاحظ أن (العفو الغفور) ورد في سياقات كان العفو فيه عن خطأ ما، بسبب عدول عن الأولى في اختيار من غير حكم، أو ضعف وما شابه، فهو إذن خطأ في اختيار لا حكم فيه، أو ضعف عن إتيان الحكم. ولنلاحظ الآيات، قال تعالى:

١- ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ (الحج: ٦٠).

٢- ﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ (المجادلة: ٢)

٣- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمُ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾

(النساء: ٤٣)

٤- ﴿ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَغْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ۝ ﴾ (النساء: ٩٩).

قد لا يبدو وجه الحكمة من الختم واضحا في الآية الأولى، إذ كيف يورد العفو الغفور في سياق العقوبة والبغي، ولكن ذلك يزول حين التأمل، إذ إن الذي وقع عليه العقاب له أن يعفو أو أن يرد العقوبة بمثلها، فهو بين مباحين، فلما عدل عن الفاضل وهو العفو إلى المفضول وهو رد العقوبة، ختم المولى بالعفو ليبين له أنه لم يؤاخذ به بما عدل. قال الإمام الزمخشري: "فإن قلت كيف طابق ذكر العفو الغفور هذا الموضع؟ قلت: المعاقب مبعوث من جهة الله على الإخلال بالعقاب والعفو عن الجاني، على طريق التنزيه لا التحريم، ومندوب إليه ومستوجب عند الله المدح إن أثر ما ندب إليه، فحين لم يؤثر ذلك وانتصر وعاقب، فإن الله لعفو غفور، أي لا يلومه على ما ترك ما بعثه عليه، وهو ضامن لنصرته، ويعرض مع ذلك بما كان أولى به من العفو، ويلوح بذكر هاتين الصفتين" (١).

ولكن الإمام ابن عاشور له رأي آخر: "وإن الله لعفو غفور؛ تعليل للاقتصار على الإذن في العقاب بالمماتلة دون الزيادة مع أن البادي أظلم بأن عفو الله ومغفرته لخلقهم قضيya بحكمته أن لا يأذن إلا بمماتلة العقاب للذنوب، لأن ذلك هو أوفق بالحق، فليس ذكر وصفي عفو غفور إيماء إلى الترغيب في العفو عن المشركين" (٢).

وليس ثم تعارض بين الرأيين، ما دام يسيران وفق النسق الذي بيناه. وكذلك الآية الثانية حيث وقع يمين الظهار ولم يكن ثمة حكم له، ولا نص فيه، والآية الثالثة حيث صلى بعض المسلمين وهم لم يتخلصوا من السكر وذلك حينما لم يكن نص، ولا حكم تحريم، وبمثل ذلك الآية الرابعة حيث العدول عن الأصوب بسبب الضعف، لأن الآية نزلت في المؤمنين الذين لم يهاجروا في سبيل الله، بسبب ضعفهم. فكأن العفو يكون عن خطأ ما، لم يرد فيه نص ولا حكم، يختاره العبد فيكون فيه عدول عن الفاضل واختيار المفضول، "لأن من عادته المستمرة أن يعفو عن الخاطئين، ويغفر للمذنبين" وهو قول الإمام الألوسي.

(١) الكشف: ٨٠٨/١.

(٢) التحرير والتنوير: ٣٠٣/٩.

وأما اقتران (العفو بالقدير) فهو إنما كان لدفع توهم أن العفو منه سبحانه يكون عن ضعف وعجز، (فالقدير) يدفع هذا الوهم، وهما لم يقتربا إلا في آية واحدة في قوله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ (النساء: ١٤٩) وأما عن سبب ورودهما في السياق ذاته، فلأن الله سبحانه ندب لعباده العفو، ورغبه إليهم، في أكثر من آية، والختم هنا جاء ليناسب قوله (أو تعفوا) فهو مناسبة لفظية، أي فإن عفوتم فهذا تخلق بصفات المولى فهو كذلك عفو.

قيل: "أو تعفو عن سوء مع ما سوغ لكم من مؤاخذة المسيء، والتنصيص عليه مع اندراجة في إبداء الخير وإخفائه، إنه مبالغ في العفو مع كمال قدرته على المؤاخذة" (١). وبمثله قال الإمام الزمخشري: "أي يعفو عن الجانبين مع قدرته على الانتقام، فعليكم أن تقتدوا بسنة الله" (٢).

٣٤- رب (رحيم، غفور):

(رب رحيم) ورد في موضع واحد، قال تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ (يس: ٥٨).

وهذا التجاور ورد في سياق الحديث عن أصحاب الجنة، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاعِلُونَ * هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكُونَ * لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ * سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ (يس: ٥٨).

وأما وجه الحكمة في التعبير عن الذات العلية بالرب، فلكون الرب هو المالك المنعم، والمقام مقام إنعام وتكريم، "وتنوين رب للتعظيم، ولأجل ذلك عدل عن إضافة (رب) إلى ضميرهم، واختير في التعبير عن الذات العلية بوصف الرب لشدة مناسبته للإكرام والرضى عنهم بذكر أنهم عبدوه في الدنيا فاعترفوا بربوبيته" (١).

وأما وجه اقترانه بالرحيم، فهذا من تمام النعمة، فهو سبحانه رحيم بهم حيث غفر لهم، وما نزلوا هذا المنزل الكريم من الجنة إلا بسبب من رحمته.

(١) إرشاد العقل السليم: ٢٤٨/٢.

(٢) الكشف: ٢٩١/١.

(١) التحرير والتنوير: ٥٦/١٢.

قال الإمام الطبري: "يعني رحيم بهم إذ لم يعاقبهم بما سلف لهم من جرم في الدنيا" ^(٢)، ولكن للرحمة فيما أحسب وجها آخر، أنه رحمهم حيث من عليهم بالرؤية، والتمكن من ذلك، ولو لم يرحمهم لفرعوا، لأن بشريتهم غير قابلة لتلقي قول المولى ولا حتى رؤيته، يؤكد ذلك قصة موسى حينما قال رب أرني أنظر إليك، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا، ولكنه برحمته يتدارك المؤمنين في الجنة فيمكنهم من رؤيته .

قال الإمام البقاعي في هذا المعنى: "رحيم أي عظيم الإكرام بما ترضاه الألوهية، كما كانوا في الدنيا يفعلون كل ما فيه الرضا، فيرحمهم في حال السلام و سماع الكلام، بلذة الرؤية مع التقوية عن الدهش، والصعق، لعظيم الأمر، وبالتأهيل لهذا المقام الأكرم مع قصورهم عنه" ^(٣).

وأما قوله (رب غفور) فقد ورد هذا التجاور مرة واحدة أيضا، في قوله تعالى :
﴿ لَقَدْ كَانَ لِسِيَّ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جِئْنَاكَ مِنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ (سبأ: ١٥).

والمولى قد جمع بين طيب البلدة التي يقال إنها كانت غير سبخة، ولم يكن بها بعوض، ولا ذباب، وبين المغفرة التي تشير فيما تشير إليه إلى جملة من المعاني التي يحتملها السياق، فهو من جهة غفر لهم كفرهم القديم بسبب إيمان بلقيس، ومن جهة أخرى يغفر لهم ذنوبهم بسبب ما يشتمل رزقهم من حرام، "ومعنى غفور متجاوز عنكم أي عن كفرهم الذي كانوا عليه قبل إيمان بلقيس" ^(٤). وقيل أنه إنما جمع لهم "بين طيب البلدة والمغفرة للإشارة إلى أن الرزق قد يكون فيه حرام" ^(٥).

لكن الأرجح والله أعلم أن ما هم فيه من نعمة يستوجب مضاعفة الحمد والعبادة، وهم حين لم يفعلوا ذلك لم يعاقبهم وإنما يغفر لهم، فالتقصير عن حمد النعمة يستوجب الاستغفار، كأن المولى

يقول لهم: إنني ما جعلت لكم بلدة طيبة، ولا أدمت عليكم نعمتي إلا لأني لا أؤخذكم بذنوبكم وتقصيركم، وإنما أغفر لكم، وهو علة دوام النعمة عليكم. ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ

(2) جامع البيان : ٤٥٥/١٠ .

(3) نظم الدرر: ٢٧٢/٦ .

(4) التحرير والتنوير : ٣٦٩/١١ .

(5) فتح القدير : ٤٥٤/٤ .

بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَائَةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ ﴿النحل: ٦١﴾.

٣٥- رؤوف رحيم:

يجدر أولاً التفريق بين الاسمين السابقين، وتحديد مدلول كل منهما، وإن كانا في تشابه كبير، وكنت قد شرحت كل اسم على حدة في الفصل الأول، ولا أراه كافياً، لأن المدلول اللغوي لم يكن قادراً على التفريق بينهما.

والحديث هنا يدور حول محورين: الفرق بينهما، وسبب تقديم أحدهما على الآخر. "والرؤوف صيغة مبالغة من الرأفة وهي صفة تقتضي صرف الضرر، والرحيم وصف عن الرحمة، وهي صفة تقتضي النفع لمحتاجه" ^(١).

وكذا يقول الإمام أبو السعود: "لأن الرأفة عبارة عن إيصال النعم الصافية عن الآلام، والرحمة إيصال النعمة مطلقاً، وقد يكون مع الألم لقطع العضو المتألم" ^(٢).
والحق أن هذا التفريق هو أصح تفريق وأدقه، وهو الذي يحتمله السياق الذي ورد فيه هذا التجاور، وكنت قد مررت على فروق أخرى لعلماء، فأعرضت عنها لعدم دقتها فيما أحسب، ولأن سنن اللغة لا تجري عليه.

قال الإمام المباركفوري في شرح (التحفة): "وبين الرؤوف والرحيم فرق لطيف وإن تقرباً في المعنى، وقد تكون الرحمة مع الكراهة، ولا تكاد الرأفة تكون معها، وقيل الرأفة عبارة عن السعي في إزالة الضرر، والرحمة عبارة عن السعي في إيصال النفع" ^(٣).

وأما وجه الحكمة في تقديم الرؤوف على الرحيم، فيبدو واضحاً بعد التفريق السابق، ذاك أن الرأفة التي من آثارها دفع الضرر، أهم للعبد وأحوج من جلب المنفعة التي تكون من آثار الرحمة.

قال الإمام الألوسي: "وقدم الرؤوف على الرحيم لأن الرأفة مبلغة في رحمة خاصة، وهي رفع المكروه وإزالة الضرر، كما يشير إليه قوله تعالى: (ولا تأخذكم

(١) التحرير والتنوير: ٣١٠/٩.

(٢) إرشاد العقل السليم: ١٧٤/١.

(٣) تحفة الأحوذى: ٤٠٤/٨.

بهما رافة في دين الله) أي لا ترأفوا بهما فترفعوا الجلد عنهما، ودفع الضرر أهم من جلب المنفعة، ولهذا قدمت في قوله : (رافة ورحمة ورهبانية ابتدعوها " (١).

و(الرؤوف الرحيم) تجاورا في ثمانية مواضع في القرآن الكريم، وفي المواضع جميعها كان السياق يؤكد صدق التفريق السابق وسلامته ، فما من موضع وردا فيه إلا وكان ثمة ما يوقع العباد في حرج وضيق وضرر، فيدفعه المولى، ليس ذلك فحسب بل يفيض المولى على العباد بالرحمة، ثم يعلل ذلك بأنه رؤوف رحيم. أي فلولا رأفته بالعباد، ورحمته بهم ما دفع عنهم ضرر، ولا كشف عنهم كرب. وهذه بعض الآيات التي ورد فيها التجاور السابق تؤكد ما ذهبنا إليه، وهي أنموذج فقط . قال تعالى :

١ - ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (التوبة: ١١٧)

٢ - ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغِيَةِ إِلَّا بِشَقِّ النَّفْسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (النحل: ٧)

٣ - ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (الحج: ٦٥)

٤ - ﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (الحديد: ٩).

٥ - ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (النور: ٢٠).

والآية الأخيرة سبقت بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (النور: ١٩)، وقد نزلت في حادثة الإفك " وجواب لولا محذوف لدلالة ما قبله عليه، أي يعاجلكم بالعقوبة " (٢).

(1) روح المعاني ٧/٢. وكذلك : ٥٢/١١.

٣٦- الواحد القهار:

هذا تجاور جميل ورد في القرآن في ستة مواضع، وكان في المواضع جميعها في تمام المناسبة، ذلك أنه ما ورد إلا في سياق إثبات الوجدانية لله سبحانه وتعالى، والتدليل على وحدانيته وقهره.

" وهو الواحد القهار، واحد في ذاته، واحد في صفاته، واحد في أفعاله، قهار لجميع خلقه داخلون تحت قدرته، والسموات مطويات بيمينه، ومقهرون في قبضته، وتحت سلطانه قهر اقتدار " ^(١) ولو تأملنا الآيات لبان لنا هذا الوجه. قال تعالى:

- ١ - ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (غافر: ١٦)
- ٢ - ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (إبراهيم: ٤٨)
- ٣ - ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَتَاخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ فَعَمَّا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (الرعد: ١٦)
- ٤ - ﴿يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرَأَيْتَ مُتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (يوسف: ٣٩)
- ٥ - ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (الزمر: ٤).

فالآيتان الأوليان وجه الحكمة في الختم وضح حيث ظهرت دلائل قدرته على قهره العباد، " وذكر الصفتين (الواحد القهار) دون غيرهما من الصفات العلى، لأن لمعنييهما مزيد مناسبة بقوله (لمن الملك اليوم) حيث شوهدت دلائل الوجدانية لله وقهره جميع الطغاة والجبارين " ^(٢)، ولكن السؤال الآن لماذا اقترن الواحد بالقهار لا بغيره؟! ووجه الحكمة في ذلك هو دفع توهم ممن يتوهم أنه كونه واحدا، فقد يتكاثر عليه ويغلب، لكثرة

(2) فتح القدير : ٢٢/٤.

(1) ابن الحجاج القطفي، شيبث بن إبراهيم بن حيدة: حز الغلاصم في إفحام المخاصم عند جريان النظر في أحكام القدر، تحقيق عبد الله عمر البارودي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ، ٦٩.

(2) التحرير والتنوير : ٤١٦/١٢.

ما في الكون من مظاهر القوة، والقهار يأتي لدفع هذا الوهم، ويثبت أنه سبحانه على وحدانيته فلا يتكاثر عليه ولا يغلب، بل يقهر العباد جميعا، وهو تأكيد على وحدانيته، إذ لو كان معه إله لما قهره، ولو كان في الكون ملك غيره لما أفناه. ولنا أن نتأمل بناء المبالغة (القهار) ليبين لنا أنه كثير القهر دائمه، متمكن من قهر الجميع مهما كانت قوتهم وكثرتهم.

٣٧- الرحمن الرحيم:

ما ترتاح نفس وتطمئن ارتياحها لهذين الاسمين الجليلين العظيمين، وما طلب أمرؤ أعظم من أن يطلب رحمة، وما أخذ الله، وما أعطى، ولا أنزل الله ولا أبقى إلا بسبب من رحمته. وأي اطمئنان يتغلغل في حنايا الفؤاد، أعظم من اطمئنان لرحمة.

من أجل ذلك ليس غريبا أن يكون الاسمان متجاورين في البسملة، التي بها يبتدأ في كل شيء، وليس غريبا أن يكون الاسمان في أعظم سورة في القرآن، وهي الفاتحة السبع المثاني.

وليس غريبا أن نردد الاسمين الجليلين كل يوم في صلاتنا ما يزيد عن خمسين مرة، لنطمئن إلى أن الرحمان الرحيم لا يتركنا لكرب الدنيا، ولا لهول الآخرة.

إن الاسمين الشريفيين وردا مقترنين في القرآن الكريم في ستة مواضع، على اعتبار أن البسملة في الفاتحة آية، وما اجتمعا إلا لتقرير رحمة الله بعباده، فيما نزل لهم من أحكام مثلما هو الحال في الفاتحة ﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ (الفاتحة: ٣)، أو فيما نزل لهم من آيات

بينات مثلما هو الحال في قوله تعالى: ﴿ نُزِّلَ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ (فصلت: ٢).

قال الإمام ابن عاشور رحمه الله: " وإيثار الصفتين (الرحمن الرحيم) على غيرهما من الصفات العلية للإيماء إلى أن هذا التنزيل رحمة من الله بعباده، وفي ذلك استحقاق الذين أعرضوا عن الاهتداء بهذا الكتاب بأنهم أعرضوا عن رحمة، وأن الذين اهتموا به هم أهل المرحمة " (١).

بل إن المولى سبحانه حينما شرع في ختم سورة الحشر بأسمائه الحسنی وصفاته، ختم الآية الأولى في المقطع بهما.

(1) التحرير والتنوير : ٤٩٨/١٢.

قال تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ (الحشر: ٢٢).

" ووجه تعقيب صفة العلم بصفة الرحمة أن العلم يقتضي أن لا يغيب عن علمه شيء من أحوال خلقه، وحاجتهم إليه، فهو يرحم المحتاجين إلى رحمته، ويهمل المعاندين إلى عقاب الآخرة " (٢).

والتمييز في المدلول اللغوي بين الاسمين كنت قد وضحته فيما سبق، ولا ضير هنا من إيراد قول الإمام ابن القيم " وأما الجمع بين الرحمن والرحيم ففيه معنى وهو أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه وتعالى، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف والثاني للفعل، فالأول دال على أن الرحمة صفة، والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته " (١). وأما قوله تعالى : ﴿ وَالْهَكْمُ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ

الرَّحِيمُ ﴾ (البقرة: ١٦٣). فوجه ورود الختم فيها أن الخطاب موجه للكفار، كما جاء في تفسير البغوي " سبب نزول هذه الآية أن كفار قريش قالوا يا محمد صف لنا ربك وانسبه، فأنزل الله تعالى هذه الآية " (٢)، فالآية فيها بيان للألوهية والوحدانية، ونفي ما سواه آلهة يزعمونها، فلو لا رحمته بهم لأهلكهم بشركهم. قال الإمام الفخر الرازي: " واعلم أنه سبحانه إنما خص هذا الموضع بذكر هاتين الصفتين لأن ذكر الإلهية الفردانية يفيد القهر والعلو فعقبهما بذكر هذه المبالغة في الرحمة ترويحاً للقلوب عن هيبة الإلهية وعزة الفردانية وإشعاراً بأن رحمته سبقت غضبه وأنه ما خلق الخلق إلا للرحمة والإحسان " (٣).

٣٨ - اللطيف الخبير:

(2) السابق : ١٦/١٥.

(1) بدائع الفوائد : ٢٨/١.

(2) تفسير البغوي: ١٧٨/١.

(3) تفسير الفخر الرازي : ١٩٧/٢.

ورد هذان الاسمان الجليلان متجاورين في خمسة مواضع من القرآن الكريم، وقد بينت المعنى اللغوي للاسمين في الفصل الأول، ويجدر هنا أن أشير إلى أن اللطيف يحتمل معنيين بهما نفسا وروده مفردا ومتجاورا.

المعنى الأول : أنه من لطف بضم الطاء، " أي دق وخف ضد ثقل وكثف، فهو إذن صفة من صفات ذات الله تعالى، وهي صفة تنزيهه عن إحاطة العقول بماهيته، أو إحاطة الحواس بذاته وصفاته، وهو الذي ينبغي التفسير به في كل موضع اقترن فيه وصف اللطيف بوصف الخبير كالذي هنا والذي في سورة الملك " (٤).

والمعنى الثاني: أنه من لطف بفتح الطاء " بمعنى رفق و أكرم واحتفى، فهو إذن من أمثلة المبالغة، يدل على وصفه تعالى بالرفق والإحسان إلى مخلوقاته، وإتقان صنعه في ذلك، وكثرة فعله ذلك يدل على صفة من صفات الأفعال، وعلى هذا المعنى حمله سائر المفسرين والمبينين لمعنى اسمه اللطيف في عداد الأسماء الحسنى .

وهذا المعنى هو المناسب في كل موضع جاء فيه وصفه تعالى به مفردا معدى باللام أو بالباء نحو:

﴿ وَرَفَعَ أَبْوِيَهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبْتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (يوسف: ١٠٠). وقوله: ﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ (الشورى: ١٩) " (١).

والحق أنه في غير الصواب أن نفس كل موضع ورد فيه اللطيف مقترنا بالخبير على أنه من اللطف بضم الطاء، أي الخفة والدقة، فإن ثمة مواضع يحتمل فيها المعنى الآخر، الذي هو الرفق، كما ورد في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحج: ٦٣) .

فالمعنى هنا لا يحتمل إلا الرفق بالمخلوقات، والرحمة بها، حيث أنزل الماء من السماء، ولولا رفقهم بهم لأهلكهم الماء بنزوله، فما الكيفية التي نزل بها إلا ملمح من ملامح لطفه. لذلك نجد ابن عاشور عاد عند تفسيره الآية السابقة ليؤكد ما قلناه ولو

(4) التحرير والتنوير : ٦٦/٥ .
(1) التحرير والتنوير : ١٣٨٠/١ .

بوجه من الوجوه، يقول : " إن الله لطيف خبير في موقع التعليل للإنزال أي أنزل الماء المتفرع عليه الاخضرار لأنه لطيف؛ أي رقيق بمخلوقاته؛ ولأنه عليم على ترتيب المسببات على أسبابها " ^(٢) .

وليست الآية الوحيدة في ذلك إنما ثمة آية أخرى، وهي قوله تعالى : ﴿ وَادْكُرْ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُمْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٣٤)، حيث قال الإمام الطبري في تفسير خاتمة الآية السابقة : " إن الله كان ذا لطف بكن إذ جعلكن في البيوت التي تتلى فيها آياته، خبيراً بكن إذ اختاركن لرسوله أزواجاً " ^(٣) .
أما الآيات الثلاث المتبقية وهي:

- ١ - ﴿ لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (الأنعام: ١٠٣)
- ٢ - ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (الملك: ١٤).
- ٣ - ﴿ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَتَىكَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِي بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ (لقمان: ١٦).

فالآيات السابقة جاء اللطيف فيها من اللطف وهو الدقة والخفة، فالآية الأولى تشتمل على ما يسميه بعض البلاغيين مراعاة النظير. فاللطيف يناسب قوله (لا تدركه الأبصار) والخبير يناسب قوله (وهو يدرك الأبصار). " وجملة وهو اللطيف الخبير معطوفة على جملة لا تدركه الأبصار، فهي صفة أخرى، أو هي تذييل للاحتراس دفعا لتوهم أن من لا تدركه الأبصار لا يعلم أحوال من لا يدركونه " ^(١) .

وكذا الآية الثانية فإنها مسبوقة بقوله تعالى : ﴿ وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (الملك: ١٣). فإنهم إن أسروا أو جهرُوا فإن ذلك سواء، لأنه يعلم خلقه، وأسرار عباده مهما دقت وخفيت، ولأنه لطيف فدقة السر وخفائه تتناسب مع لطف المولى " اللطيف أي الذي يعلم ما بثه في القلوب لأنه يصل إلى الأشياء بأضدادها فكيف

(2) المصدر السابق: ٣٠٦/٩.

(3) جامع البيان : ٢٠٣/١٠.

(1) التحرير والتنوير : ٦٥/٥.

بغير ذلك ، والخبير أي بالغ العلم بالظواهر والبواطن فكيف يخفى عليه شيء من الأشياء" (٢).

إن آية سورة لقمان السابقة تؤكد ذلك المعنى الذي ذهبنا إليه، حيث أن الحسنة أو المعصية أو الرزق على قول بعض المفسرين مهما دقت واختفت، فإنه لطيف حيث يستخرجها من مكامن خفائها، " فهو عظيم المت (٣) بالوجوه الخفية الدقيقة الغامضة في بلوغه، وخبير أي بالغ العلم بأخفى الأشياء فلا يخفى عليه شيء ولا يفوته أمر " (٤).

٣٩- القوي العزيز:

لم يرد في القرآن الكريم مطلقا تجاور (العزيز القوي) بهذا الترتيب، وإنما ورد كما هو معنون (القوي العزيز)، وهي مسألة يبدو فهمها في غاية البساطة والسهولة، لأن المولى سبحانه وتعالى يدفع بالاسم الأخير ما يلصق بالاسم الأول من معان يتكلفها ذهن المتأمل، فالعزيز يشمل كل معاني القوة، فما عز إلا لقوة، فيجيء إرداف (القوي) حينئذ شيء من الزيادة غير المستحسنة، لأنه انتقال من الأقوى في المعاني إلى الأضعف.

(2) نظم الدرر : ٧٥ / ٨.

(3) المت : التوسل، والموات : الوسائل. انظر الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، ٦٤٢/١.

(4) نظم الدرر : ١٩/٦.

وأما أن يبدأ بالقوي ويردّفه بالعزیز فأمر في تمام الدقة. لأنه ليس كل قوي عزيزاً، فكم من أشكال للقوة يمتلكها البشر ولا عزة فيها، بل يكسوها الذل، وتعلوها القنطرة. فبان لنا إذن شيئاً من وجه الحكمة في الاقتران، وأما أن يجيء هذا الاقتران في موضعه في خواتم الآيات، فذاك لحاجة السياق، فالسياقات المختلفة التي ورد فيها إنما تتطلب معنى القوة، لأن فيها ما يدل على قوته، وعظيم فعله فيأتي بالختم كتعليل يبين لنا به سبب الفعل. وهذه بعضاً من الآيات كنماذج للتدليل. قال تعالى :

١ - ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحديد: ٢٥).

فأى ختم يحسن لمثل هذه الآية غير ذاك الذي ختمت به، والآية من أولها إلى آخرها تتحدث عن القوة، إن في إرسال الرسل، أو في إنزال الكتاب والحديد الذي هو رمز للقوة والبأس الشديد في أسمى معانيهما.

قال الإمام الطبري في الآية السابقة: " قوي على الانتصار ممن بارزه بالمعاداة، وخالف أمره ونهيه، عزيز في انتقامه منهم لا يقدر أحد على الانتصار منه مما أحل من العقوبة " (١).

وبمثله قال الإمام ابن عاشور : " وجملة إن الله لقوي عزيز تعليل لجملة (أرسلنا رسلنا بالبينات) إلى آخرها، لأن الله قوي عزيز في شؤونه القدسية، فكذاك يجب أن تكون رسله أقوياء أعزة، وإن تكون كتبه معظمة موقرة " (٢).

٢ - ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَأْلُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ (الأحزاب: ٢٥). فانظر كيف أنه لما ذكر أنه سبحانه رد الذين كفروا، وما في معنى الرد من قوة، ناسب الختم بمعنى القوة، ولما استأنف الحديث في قوله (وكفى الله المؤمنين القتال) دفع وهم من يتوهم أنه كفاهم لضعف أو غيره، فناسب الختم أن يكون بإثبات معنى القوة والعزة.

(1) جامع البيان : ٦٨٨/١١.

(2) التحرير والتنوير : ٤٢١/١٤.

قال الإمام الزركشي: " فإن الكلام لو اقتصر فيه على قوله، وكفى الله المؤمنين القتال، لأوهم ذلك بعض الضعفاء موافقته للكفار في اعتقادهم أن الريح التي حدثت كانت سبب رجوعهم، ولم يبلغوا ما أرادوا، وأن ذلك أمر اتفاقي فأخبر سبحانه في فاصلة الآية عن نفسه بالقوة والعزة ليعلم المؤمنين أن تلك الريح التي هبت ليست اتفاقاً بل هي من إرساله سبحانه على أعدائه كعادته "(١).

٣- ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحج: ٤٠). والختم في الآية السابقة يناسب تماماً قوله (ولينصرن الله من ينصره)، والآية قد اشتملت على مؤكدات وختمت بتوكيد، ليقر في ذهن كل متردد أن الله ناصر أوليائه، ومن نصره " ولكن بعض المفسرين يرى أنها تعليل ، ولا كثير فرق " وجملة (إن الله لقوي عزيز) تعليل لجملة (ولينصرن الله من ينصره) أي كان نصرهم مضمونا لأن ناصرهم قدير على ذلك بالقوة والعزة " (٢).

فالملاحظ إذن أن الختم بالقوي العزيز يكون في سياق يتطلب القوة والعزة.

قال تعالى: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (المجادلة: ٢١).

فانظر كيف ناسب الغلبة ذكر القوة قال الإمام البغوي : " غلبة الرسل منهم على نوعين من بعث منهم بالحرب فهو غالب بالحرب، ومن لم يؤمر بالحرب فهو غالب بالحجة " (٣).

٤٠- الخلاق العليم:

ورد هذا التجاور في القرآن الكريم في موضعين اثنين، في قوله تعالى :

(1) البرهان في علوم القرآن : ٧٩/١.

(2) التحرير والتنوير : ٢٨٣/٩.

(3) معالم التنزيل : ٦٢/١.

١ - ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (الحجر: ٨٦)

٢ - ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (يس: ٨١).

(الخالق) بناء للمبالغة يشير إلى الكثرة، وإعادة الفعل مرة بعد مرة، فأما من جهة الكثرة فلكون المولى يخلق خلقا كثيرا لا حد له، ولا نهاية لعلما به، وأما من جهة الإعادة، فلأنه يخلق مرة بعد مرة، ويعيد الخلق.

ليس إذن غريبا أن يأتي الختم بالخالق في معرض الحديث عن البعث، وإقامة الساعة. لأن ذلك يتناسب مع إعادة الخلق.

فالآية الأولى سبقت بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ (الحجر: ٨٥)، فالخالق هنا إنما ورد ليناسب قوله (إن الساعة لآتية).

"وجملة (إن ربك هو الخالق العليم) في موقع التعليل للأمر بالصفح عنهم" (١).

وكذلك الآية الثانية فإنها مسبقة بقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَسَيَ خَلَقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي

الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (يس: ٧٨)، فالتختم بـ (الخالق العليم) يتناسب مع الآية السابقة، ومع قوله (بقادر على أن يخلق مثلهم) وفي الآية إشارة إلى كثرة خلقه، وإيداعه، حيث خلق السماوات والأرض، وهو قادر على أن يخلق بشرا مثلهم، لأنه هو الذي خلقهم أول مرة. فالذي يوجد من عدم، وينشئ على غير مثال سبق، والذي يعيد الخلق مرة بعد مرة، ويخلق خلقا من بعد خلق، في تنوع وكثرة، وتميز وتفرد، يكون خلاقا.

هذا في مناسبة الختم بـ (الخالق). والسؤال الآن ما وجه الحكمة في اقتران (الخالق) بـ (العليم) في الآيتين السابقتين ؟

واضح أن الخالق يشمل العليم، فما يخلق إلا عن قدرة وعلم، وكيف يتصور أن يكون خلق دونما علم، ولا سيما إذا كان خلقا محكما متقنا بديعا رائعا كخلق المولى سبحانه وتعالى، فإذا كان العليم ينضوي في معنى الخالق، فما فائدة إعادتها ؟

(١) التحرير والتنوير : ٤٩٨/٧.

هنا يمكن ملاحظة أن البعث يكون لأجساد قد بليت، وجثث قد فنيت، فاختلطت بالتراب وامتزجت به، والعليم الذي يعلم كل ذرة من جسد فني أين ذهبت، ومع أي العناصر اتحدت، فإنه سبحانه عالم بها، والعليم الذي هو بناء للمبالغة يناسب هذا المعنى. قال ابن كثير: " وقوله (إن ربك هو الخالق العليم) تقرير للمعاد، وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة؛ فإنه الخالق الذي لا يعجزه خلق شيء، العليم بما تمزق من الأجساد، وتفرق في سائر أقطار الأرض " (١).

ولكن الإمام ابن عاشور رحمه الله لمح معنى آخر، في غاية الروعة، والجمال، وهو لا يلغي ما ذهبنا إليه، وإن كان لا يوافقه، وهذه بلاغة القرآن وروعته، وعظيم أسرارها. " وجملة إن ربك هو الخالق العليم، في موقع التعليل للأمر بالصفح عنهم، أي لأن في الصفح عنهم مصلحة لك ولهم، يعلمها ربك، ومصلحة النبي صلى الله عليه وسلم، هي كمال أخلاقه، ومصلحتهم في الصفح رجاء إيمانهم، فالله هو الخالق لكم ولهم، العليم بما يأتيه كل منكم، وفي وصفه الخالق العليم إيماء إلى بشارة النبي صلى الله عليه وسلم، بأن الله يخلق من أولئك ما يعلم أنهم يكونون أولياء للنبي صلى الله عليه وسلم، وهم الذين آمنوا بعد نزول الآية لقول النبي صلى الله عليه وسلم: لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد، وتلك هي نكتة ذكر وصف الخالق دون غيره من الأسماء الحسنى " (٢)

٤١ - الشاكر العليم :

قد بينت في الفصل الأول الفرق بين الاسمين (الشاكر و الشكور)، والمعنى اللغوي لهما، وهذا التجاور ورد مرتين في القرآن الكريم في قوله تعالى:

١ - ﴿ إِنَّ الصَّافَا وَالْمُرُوَّةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ١٥٨).

٢ - ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ (النساء: ١٤٧).

وأما أن يتجاور الاسمان على الترتيب الذي سبق، فذاك إثبات لوصف الشكر للمولى، والشكر في حقه سبحانه، أنه يثيب على العمل القليل الأجر الكبير، فما أعمال

(١) تفسير القرآن العظيم : ٧٣٤/٢.

(٢) التحرير والتنوير : ٧٤/١٠.

العباد إلا شكر للمولى على نعمة، فكيف يشكرهم على شكره، وهو الذي مكنهم من شكره؟ إن هذا لا يكون إلا على سبيل التلطف. والحقيقة أن الختم بالشاكر من تمام المناسبة، لأنه في الأولى يناسب قوله (ومن تطوع خيرا)، وفي الثانية يناسب قوله (إن شكرتم وآمنتم).

وأما أن يقترن الشاكر بالعليم، فما هو إلا دعوة للإخلاص، وذلك بصدق التوجه إلى الله سبحانه وتعالى، لأنه يعلم النوايا، ومبعث الأعمال. قال الإمام الثعالبي: "وفي قوله عليما تحذير وندب إلى الإخلاص" ^(١). وكذا يرى الإمام الرازي: "ويحتمل أنه يريد أنه عليم بما يأتي العبد فيقوم بحقه من العبادة والإخلاص، وما يفعله لا على هذا الحد، وذلك ترغيب في أداء ما يجب على شروطه، وتحذير من خلاف ذلك" ^(٢).

"وقوله (فإن الله شاكر عليم) دليل الجواب إذ التقدير ومن تطوع خيرا جوزي به، لأن الله شاكر، أي لا يضيع أجر محسن، عليم لا يخفى عنه إحسانه وذكر الوصفين؛ لأن ترك الثواب عن الإحسان لا يكون إلا عن جحود الفضيلة، أو جهل بها فلذلك نفيا بقوله (شاكر عليم)" ^(٣). وبمثل ما سبق يكون وجه الحكمة من الختم في الآية الثانية، لأنها في سياق الحديث عن المنافقين، فقد سبقت بقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَكُنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ (النساء: ١٤٥).

فكأن المولى سبحانه يقول لهم إنه ليس في حاجة إلى تعذيبهم، ولا يرغب في جعلهم في الدرك الأسفل من النار، وإن عليهم أن يؤمنوا ويشكروا ربهم، فإن صنعوا لأنه شاكر، يعطي الكثير من الأجر على القليل من العمل، وعلیم يعلم نوايا العباد، وعملهم وإن دق وخفي، فيعطيه أجرهم كاملا غير منقوص.

٤٢ - الحليم الغفور:

(1) الثعالبي، عبد الرحمن: الجواهر الحسان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١/٤٢٧.

(2) تفسير الفخر الرازي: ١٨٠/٢.

(3) التحرير والتنوير: ٥٦/٢.

ما أجمل ما تجاور الاسمان الجليلان على هذا الترتيب، و(الحليم الغفور) تجاور
ورد في موضعين فقط في القرآن الكريم. قال تعالى :

١- ﴿ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (الإسراء: ٤٤).

٢- ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أُمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (فاطر: ٤١).

ولكن بعض العلماء رأى أن الختم في الآية الأولى بـ (الحليم الغفور)، لا يظهر إلا بعد مزيد تأمل، " فالختم بالحلم والمغفرة عقب تسابيح الأشياء غير ظاهر في بادي الرأي " ^(١)، وبمثل ذلك قال الإمام الزمخشري، وخرجه بثلاثة أوجه ^(٢)، وهؤلاء العلماء إنما يرون أن الختم يتعلق بقوله: ﴿ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾، وبعضهم يتأول في معنى تسبيح الكائنات، وبعضهم يجريه على الحقيقة.

يقول الإمام الفخر الرازي: " إنه كان حليما غفورا فذكر الحليم والغفور وههنا يدل على أن كونهم بحيث لا يفقهون ذلك التسبيح جرم عظيم صدر عنهم، وهذا إنما يكون جرما إذا كان المراد من ذلك التسبيح كونها دالة على كمال قدرة الله تعالى وحكمته، ثم إنهم لغفلتهم وجهلهم ما عرفوا وجه دلالة تلك الدلائل، أما لو حملنا هذا التسبيح على أن هذه الجمادات تسبح الله بأقوالها وألفاظها لم يكن عدم الفقه لتلك التسبيحات جرما ولا ذنبا، وإذ لم يكن ذلك جرما ولا ذنبا لم يكن قوله (إنه كان حليما غفورا) لاتقا بهذا الموضع " ^(٣).

فالإمام الرازي نفي التسبيح على الحقيقة، لأنه لو أثبت له كان الختم في غير موضعه، وتأول بأن التسبيح كونه دالة على كمال القدرة، ولكني أظن أن للأمر وجهان آخر، له وجهة عندي لا تقل عن رأي الإمام الفخر رحمه الله على وجاهته، ذاك أن الختم ليس متعلقا بالآية وإنما متعلق بما سبقها من آيات، ومن ثم ينتظم الختم في السياق العام للمقطع، فالآية قد سبقت بقوله تعالى:

(1) الإتيان في علوم القرآن : ٢٧٦/٢.

(2) البرهان في علوم القرآن : ٩٢/١.

(3) تفسير الفخر الرازي: ٢٢٢/١٠.

﴿ أَفَأَصْنَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾

(الإسراء: ٤٠)، وحين تجري الختم على أنه يتعلق بذاك القول العظيم الذي قالوه في حق المولى عز وجل، وأنه حلیم عليهم فلا يسرع في عقابهم، وغفور لهم حين يتوبون عن مقاتلتهم تلك، فإن الختم حينئذ يحسن بل يكون في غاية المناسبة، ولا نؤول التسبيح الذي يراه جل العلماء على أنه على الحقيقة.

وهذا في الحقيقة رأي لعلماء أجلاء ذهبوا هذا المذهب. يقول الإمام الطبري:

" إن الله كان حلیمًا، لا يعجل على خلقه الذين يخالفون أمره، ويكفرون به، ولولا ذلك لعاجل هؤلاء المشركين الذين يدعون معه الآلهة والأنداد بالعقوبة، غفورا ساترا عليهم ذنوبهم إذا هم تابوا منها " (١). وبمثله قال الإمام ابن عاشور: " وجملة إنه كان حلیمًا غفورا، استئناف يفيد التعريض بأن مقاتلتهم تقتضي تعجيل العقاب لهم في الدنيا، لولا أن الله عاملهم بالحلم والإمهال وفي ذلك تعريض بالحث والإقلاع عن مقاتلتهم ليغفر الله لهم " (٢).

وأما الآية الثانية فالختم بالحليم الغفور واضح فيها، ودقته في مكانه لا تخفى على المتأمل. فقد سبقت الآية بقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أُرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنَّهُمْ يَعْدُو الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾ (فاطر: ٤٠)، والآية كما نرى تدور حول أولئك الذين اتخذوا شركاء من دون الله، وهو ظلم عظيم، وبهتان كبير، حق للسماوات والأرض أن تنهد من هذا الإفك. " فإن قيل: فما معنى ذكر الحلم هنا؟ قيل لأن السماوات والأرض همت بما همت به من عقوبة الكفار، فأمسكهما الله تعالى عن الزوال بحلمه وغفرانه أن يعاجلهم بالعقوبة " (٣)، وبمثله قال الإمام الألوسي: " حلیمًا غفورا، فلذا حلم على المشركين وغفر لمن تاب منهم مع عظم جرمهم المقتضي لتعجيل العقوبة، وعدم إمساك

(1) جامع البيان: ٨٤/٨.

(2) التحرير والتنوير: ٢٤١/٨.

(3) معالم التنزيل: ٤٢٦/١.

السموات والأرض وتخريب العالم الذي هم فيه، فلا يتوهم أن المقام يقتضي ذكر القدرة لا الحلم والمغفرة " (٤).

قال الإمام الزمخشري: " إنه كان حليماً غفوراً، غير معاجل بالعقوبة حيث يمسكها وكانتا جديرتين بأن تهد هذا لعظم كلمة الشرك كما قال: ﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَّقَطُّنَ مِنْهُ وَتُنَشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴾ (٥).

وهكذا يبين لنا أن (الحليم) قدم ليناسب ما هو عليه الواقع من حلمه بهم على عظيم جرمهم، و(الغفور) الذي يغفر لهم إن هم تابوا عن قولهم وأقلعوا عن ظلمهم.

٤٣ - الحي القيوم:

اسمان جليلان عظيمان متجاوران، " مذكوران معا في ثلاث سور، وهما من أعظم أسماء الله الحسنى، حتى قيل أنهما الاسم الأعظم فإنهما يتضمنان إثبات صفات الكمال، واقتران القيوم بالحي يستلزم سائر صفات الكمال، ويدل على دوامها وبقائها، وانتفاء النقص والعدم عنها " (١).

ولكن الاسمين السابقين وردا في موضع واحد ختما للآية الكريمة، في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ (آل عمران: ٢).

ونحن حين نناقش تجاورهما هنا، إنما نعني ورودهما في المواضع الثلاثة. فقد وردا في آية الكرسي وهي كما جاء في الأثر أعظم آية في القرآن، كما ورد في صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم " قال يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم ؟ قال: قلت الله ورسوله أعلم، قال يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم ؟ قال قلت: الله لا إله إلا هو الحي القيوم. قال: فضرب في صدري وقال: ليهنك العلم أبا المنذر " (٢).

أي ليكن العلم هنيئاً لك.

(4) روح المعاني : ٢٠٤/٢٢.

(5) الكشف : ١٠٤٠/١.

(1) الحنفي، ابن أبي العز: شرح العقيدة الطحاوية، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٣٩١ هـ، ١٢٠.

(2) صحيح مسلم : ٥٥٦/١.

"وقوله (الحي القيوم) إشارة إلى صفة الذات وجلاله، فإن معنى القيوم هو الذي يقوم بنفسه فلا يتعلق قوامه بشيء، ويتعلق به قوام كل شيء، وذلك غاية الجلال والعظمة " (٣).

وأما (الحي) فلأن للمولى حياة ليست كحياة البشر، كيف وهو الذي يمنح البشر الحياة، وكل ميت يبيت فيه الحياة، ولكن قد يتوهم مع اسمه الحي أنه سبحانه يحتاج لغيره في حياته، وأن لحياته أسبابا، فيقرن (الحي) ب(القيوم) ليدفع هذا الوهم.

"ولما كانت حياة الله سبحانه وتعالى لا تشبه حياة المخلوقين، اتبع الله وصف الحياة لنفسه بما ينفي المشابهة مع خلقه حتى لا يتوهم أن حياته من جنس حياة المخلوقين، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، فالمخلوق حي ولكنه يقوم بغيره، والله حي ولكنه يقوم بنفسه " (٤)، هذا حين يتجاوزان بشكل عام، وأما حين ورودهما في السياق، فإن لهما شأنًا آخر.

قال الإمام ابن عاشور: "وأُتبع بالوصفين (الحي القيوم) لنفي اللبس عن مسمى هذا الاسم، والإيماء إلى وجه انفراده بالإلهية، وأن غيره لا يستأهلها، لأنه غير حي أو غير قيوم فالأصنام لا حياة لها " (١). والإمام ابن عاشور ضرب مثلا بالأصنام، وهذا صحيح ولكن يمكن أيضا أن نضرب مثلا بعيسى عليه السلام، في أولئك الذين عبدوه من دون الله، ليبين المولى لهم أن الله حي ليس كحياة البشر، قيوم وعيسى عليه السلام وأمه كانا يأكلان الطعام، ولا يقومان بأنفسهما. يؤكد ذلك سبب نزول الآية "أخرج ابن أبي حاتم عن الربيع أن النصراني أتوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فخاصموه في عيسى فأنزل الله: "الله لا إله إلا هو الحي القيوم " (٢).

٤٤- البر الرحيم:

(3) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد: جواهر القرآن، تحقيق د. محمد رشيد رضا القبانى، دار إحياء العلوم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م، ٧٤.

(4) عبد الخالق، عبد الرحمن: منهج جديد لدراسة التوحيد، الدار السلفية، حولي، تونس، ٤٧.

(1) التحرير والتنوير: ٢٥/٣.

(2) لباب النقول في أسباب النزول: ٥١.

ورد الاسمان الجليلان متجاورين في موضع واحد في القرآن الكريم في سورة الطور، وذلك على لسان المؤمنين في الجنة، بعدما رأوا ما رأوا من نعيم أنعمه الله عليهم، وما وجدوه من خير أفاضه المولى عليهم. قال تعالى : ﴿ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ (الطور: ٢٨).

وجاء أن " البر الصادق فيما وعد " ^(٣)، وجاء أيضا أنه " المحسن، كما يدل عليه اشتقاقه من البر بسائر موادها، لأنها ترجع إلى الإحسان، كبر في يمينه أي صدق. إحسان في ذاته، ويلزمه الإحسان للغير، وأبر الله تعالى حجه أي قبله " ^(٤). وسواء كان المعنى أنه الصدق في الوعد، أو الإحسان والتوسع في وجوه الخير، فإن منبعهما واحد كما بين الإمام الألوسي، واختلف علماء القراءات في كسر همزة إن أو فتحها، فقد " قرأ نافع والكسائي إنا كنا من قبل ندعوه أنه هو البر الرحيم، بفتح الألف (أي بفتح الهمزة) المعنى أي ندعوه لأنه هو البر الرحيم، أي لرحمته يجيب من دعاه فكذا ندعوه.

قال أبو عبيد: من نصب أراد ندعوه بأنه أو لأنه هو البر، فيصير المعنى إنه يدعى من أجل هذا، وقرأ الباقون إنه بكسر الألف قطعوا الكلام مما قبله، واختار أبو عبيد الكسر، وقال: إن ربنا كذلك على كل حال " ^(٥).

وسواء كانت الهمزة مفتوحة فتفيد التعليل، أو مكسورة فتفيد الابتداء، فإن تجاور الاسمين السابقين يحتمل الوجهين. فمن جهة أنهم كانوا يدعونه ويخلصون له دعاءهم لأنه يجيب دعاءهم، ويصدق وعده لهم، فيحسن إليهم. أو أنهم حين وجدوا ما وجدوا في الجنة، وكانوا في الدنيا مقصرين، وما قدموا إلا القليل من العمل، وقع في قلوبهم أنهم ما نالوا الذي نالوه، من عظيم العطايا، إلا لأنه بهم بر، فأحسن إليهم وأعطاهم على القليل الكثير، وما وجودهم في الجنة يرفلون في نعيمها إلا ببره ورحمته. فقد جاء في الأثر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما من أحد يدخله عمله الجنة، فقيل ولا أنت يا رسول الله قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني ربي برحمة " ^(١).

(3) الجامع لأحكام القرآن : ٦٣/١٧.

(4) روح المعاني : ٣٥/٢٧.

(5) ابن زنجلة، عبد الرحمن بن محمد: حجة القراءات، تحقيق سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٢-١٩٨٢، ٦٨٤.

(1) صحيح مسلم : ٢١٦١/٤.

ولعل قولهم في الآية التي سبقتها: ﴿ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ (الطور: ٢٦) وقولهم (إنا كنا ندعوه) يناسبها (البر)، فلما كان ذلك يستدعي توهم أنهم إنما نالوا ما نالوا بإشفاقهم ودعائهم، دفع هذا التوهم بالرحيم. فإن قيل فلماذا لم يذكر الرحمة فقط؟ كان الجواب أنها لا تكفي وحدها بل تحتاج إلى عمل، وحتى لا يتوهم أن الاستغناء عن العمل يكون سببا في الرحمة، من أجل ذلك كان الجمع بين هذين الاسمين الجليلين الكريمين .

٤٥- الشكور الحليم :

لم يرد الشكور في القرآن الكريم إلا في أربعة مواضع، ثلاثة اقترن فيها مع الغفور (الغفور الشكور)، وفي موضع واحد اقترن مع الحليم. في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ تَرْضَاؤُاَ اللّٰهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَاعِفُهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّٰهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (التغابن: ١٧).

وكون أنه بدء بـ (الشكور) فعليه مدار البحث، لأن منهجنا في تجاور الاسمين أن يدور تحليلنا حول الاسم الأول، لأنه يكون من مقتضيات السياق.

ومن الطبيعي إذن أن نلاحظ أن اسمه (الشكور) يناسب قوله تعالى (يضاعفه لكم) فما ورد (الشكور) في موضع من مواضعه الأربعة إلا حين يكون في مثل هذا المعنى، معنى مضاعفة الأجر والثواب. ولكن ما بال (الحليم) جاء مقترنا بالشكور في هذا الموضع؟ والحق أن كتب التفسير ربما في أكثرها قد نذرت بما أرجو، ولم أجد فيما وقع في يدي من كتب، من العلماء إلا قلة قد بحث هذه المسألة .

والآية تأتي في سياق الدعوة إلى الإنفاق، والخطاب فيها موجه للمؤمنين، وما أرى إلا أن (الحليم) جاء ليناسب قوله (ويغفر لكم)، و الجملة السابقة معطوفة على جواب الجزم، لأن الجملة شرطية، ولكن جملة (يغفر لكم) ذاتها، ما وجه الحكمة في إقحامها في هذا السياق؟

إن (يغفر لكم) والله أعلم - قد جاءت لتبين عظيم البركة في الإنفاق، وكيف أنه بسبب منه، يضاعف الله الأجر، ويغفر الذنب، والمغفرة تكون بعد الإنفاق، لأنها معطوفة على الجواب، وطبيعة المغفرة أنها تكون لذنوب لها علاقة بالتقصير في الإنفاق والتباطؤ في الشروع به. أو ربما من بركة ذلك أنه يغفر ذنوبا سلفت، و ما يعزز ثقتنا بهذا المذهب هو الختم بـ (الحليم) فالله حليم بعباده حين أذنبا وتباطؤا في الاستغفار والإنفاق، لم

يعاجلهم بالعقوبة، ولا قفل عليهم باب المغفرة. وقد عقد الإمام البخاري بابا سماه (باب الصدقة تكفر الخطيئة) وأورد فيه أحاديث في هذا المعنى^(١).

٤٦ - الحميد المجيد:

هذا تجاوز ورد على لسان الملائكة حين بشروا زوجة إبراهيم عليه السلام بالولد، وتعجبت من قولهم، كيف تلد وهي عجوز، وإبراهيم عليه السلام شيخ كبير. فجاء القول في سورة هود: ﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾ (هود: ٧٣). والأصل هنا في السياق اسمه المقدم (الحميد)، "وهو محمود الأفعال مستحق لجميع المحامد لم في الصيغة من المبالغة، والمجيد المتصف بالمجد وهو كمال الشرف والكرم والصفات المحموده"^(٢).

ولعل الحميد يأتي هنا يحمل معنى الذي يحمد عباده، فإبراهيم عليه السلام لما استجاب لأمر ربه وأطاعه، حمده المولى وهو تعليل لصنيع الله له، فما صنع المولى ما صنع إلا لأنه حميد، يحمد أفعال العباد.

قال الإمام ابن عاشور: "وجملة إنه حميد مجيد تعليل لتوجه رحمته وبركاته إليهم بأن الله يحمد من يطيعه، وبأنه مجيد أي عظيم الشأن لا حد لنعمه، فلا يعظم عليه أن يعطيها ولدا وفي اختيار وصف الحميد من بين الأسماء الحسنى كناية عن رضى الله تعالى على إبراهيم عليه السلام وأهله"^(٣).

ولعل المجيد كذلك، تعليل لما ستكون عليه ذرية إبراهيم من مجد، وسؤدد. لأن "المجيد من مجد بضم الجيم وأصله الرفع"^(١).

وفي ختم الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم أيضا بهذين الاسمين دلالة على ذلك، جاء في الأثر، أن النبي -صلى الله عليه وسلم، قال: قولوا اللهم صل على محمد وعلى

(1) صحيح البخاري : ٥٢٠/٢.

(2) العظيم آبادي، محمد شمس الحق العظيم: عون المعبود شرح سنن أبي داود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ، ١٨٧/٣.

(3) التحرير والتنوير : ١٧١/٧.

(1) فتح الباري: ٣٥١/٨.

آل محمد كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد " (٢).

٤٧- الولي الحميد:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (الشورى: ٢٨). ما أحسن ما ختمت الآية بهذا الختم، وزينت بهذين الوصفين الجليلين، فتزيل الغيث يناسبه (الولي) لأن الولي يغيث عباده، ويتولى أمرهم، ويتكفل بهم، ولا يتركهم لمكروه، وليس أنسب من هذا الاسم في هذا المكان للإشارة إلى ولاية الله. ومما يزيد الختم بهاء وجمالا إرداف (الولي) ب(الحميد)، وهو اقتران جميل يناسب قوله (من بعد ما قنطوا) وكذلك قوله (وينشر رحمته).

إن ذكر القنوط في الآية تستحضر معه حالة الشدة التي هم عليها، والبؤس والفاقة التي أصابتهم، فإذا ما أنزل الغيث، فإن أول ما يستحضر هنا حالة الحمد التي لهجت بها ألسنتهم، وعلت بها أصواتهم، فإنه حميد يستحق أن يحمد لأن أفعاله محمودة. " وذكر وصفي (الولي الحميد) دون غيرها لمناسبتها للإغاثة لأن الولي يحسن إلى مواليه، والحميد يعطي ما يحمد عليه، ووصف حميد فاعيل بمعنى مفعول " (٣). قال الإمام الثعالبي رحمه الله: " وينشر رحمته قيل: أراد بالرحمة المطر، وقيل أراد بالرحمة هنا الشمس، وذلك أن المطر إذا ألم بعد القنط حسن موقعه، فإذا دام سئم فتجيء الشمس عظيمة الموقع " (٤).

٤٨ - الكبير المتعال:

قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ (الرعد: ٩)

تجاوز ورد في القرآن الكريم في موضع واحد، " والكبير يوصف به الذات وصفاتها القائمة بها " (١)، ومن معاني الكبير: العظيم الذي له العظمة، والله جل عن أن

(2) صحيح البخاري: ١٨٠٢/٤.

(3) التحرير والتنوير: ١٢٧/١٣.

(4) تفسير الثعالبي: ١١٠/٤.

يكون كبيراً في الذات كذوات البشر، وإنما هو الكبير وكل ما عداه حقير صغير. ولكن (الكبير) وصف قد يستدعي معه توهم التشبيه، فتبدأ العقول في تخيل أعظم أشكال الكبر، وهو وهم لا ينبغي أن يكون، من أجل ذلك نرى أن الوصف بـ (المتعال) يزيل هذا الوهم ويؤكد أن العقول لا تحيط به، وهنا يراد تنزيه المولى عن كل وهم، وعن أي ظن " والكبير الذي يجلب عما نعت به الخلق من صفات المخلوقين، ويتعالى عنه والمراد تنزيهه سبحانه في ذاته وصفاته عن مدانة شيء منه " (٢). وجل علماء التفسير على أن المتعالي، هو الله الذي تنزهه عن نعوت المخلوقات، وتنزهه عما يقوله المشركون. " والكبير مجاز في العظمة إذ قد شاع استعمال أسماء الكثرة، وألفاظ الكبر في العظمة تشبيهاً للمعقول بالمحسوس، وشاع ذلك حتى صار كالحقيقة، والمتعالي المترفّع، وصيغت الصفة بصيغة التفاعل للدلالة على أن العلو صفة ذاتية له لا من غيره، والمراد هنا بالرفعة المجاز عن العزة التامة بحيث لا يستطيع موجود أن يغلبه، أو المنزه عن النقائص " (٣).

ولكن ما وجه المناسبة في ورود (الكبير) في هذا الموقع من الآية ؟
لعل الحكمة تبين للمتأمل حين يتابع السياق القرآني وهو يوضح قدرة الله وعظمته في الكون، حيث مد الأرض على اتساعها، وخلق فيها ما خلق، إن الآيات السابقة كونيّة مشاهدة كبيرة ضخمة واسعة، الأرض وما مدها، والرواسي والأنهار والليل والنهار، وعالم الغيب وعالم الشهادة. هذه الأشياء على كبرها وضخامتها خلقها إله كبير، أكبر منها عظمة، وهي غيرها دونه. وحتى لا ينحرف الذهن إلى الحجم والجسم وما شابه، أردف بالمتعالي الذي هو متعال عن كل وصف، وعن أن يحيط به علم، أو يتوصل إليه وهم، سبحانه ليس كمثله شيء.

(1) ابن القيم الجوزية، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعتلة، تحقيق د. علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤١٨-١٩٩٨م، ١٣٧٥/٤.

(2) روح المعاني: ١١٠/١٣.

(3) التحرير والتنوير: ٣٤٤/٧.

٤٩ - الهادي النصير:

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾
(الفرقان: ٣١)

هذه الآية وردت بعد قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾
(الفرقان: ٣٠).

فالآيتان قول ورد: قول محكي عن النبي صلى الله عليه وسلم، ورد من المولى سبحانه وتعالى، وذلك حينما شكَا النبي للمولى هجران قومه للقرآن، وعدم الاستماع إليه، وعدم الإيمان به وتصديقه، والرد الإلهي فيه مزيد إيناس للنبي. إن حال النبي مع قومه ليس فريدا بل ثمة أحوال مشابهة لحالته، إنها سنة الله في أن يجعل سبحانه لكل نبي يبعثه، أو رسول يرسله عدوا عاتيا مجرما، وكون أن الله الذي جعله عدوا فهو الذي يهديه إن شاء، " وإنما قال (هاديا ونصيرا) لأن المشركين كانوا يصدون الناس عن اتباع القرآن لئلا يهتدي أحد به " (١)، وكأنه يقول له: " كفاك يا محمد بربك هاديا يهديك إلى الحق، ويبصرك الرشد، ناصرا لك على أعدائك، فلا يهولنك أعداؤك من المشركين " (٢). وكفى في الآية بمعنى اكتف .

يقول الإمام الألوسي: " وعد كريم له عليه الصلاة والسلام، بالهداية إلى كافة مطالبه، والنصر على أعدائه، أي كفاك مالك أمرك ومبلغك إلى الكمال هاديا لك إلى ما يوصلك إلى غاية الغايات التي من جملتها تبليغ ما أنزل إليك، وناصر لك عليهم على أبلغ وجه " (٣)

ولكن ما وجه الحكمة في الجمع بين (هاديا ونصيرا) وتقدير الأول على الثاني؟
إن الختم بهذا التركيب والترتيب معا يبعث في نفس النبي ما يبعث من الاطمئنان، والسكينة، والتسلية وذلك من ثلاثة وجوه:

(١) تفسير ابن كثير: ٤٢٣/٣.

(٢) جامع البيان: ٣٨٥/٩.

(٣) روح المعاني: ١٤/١٩.

١ - أن أعداء النبي الذين جعلهم الله له أعداء، سيهدي جزءا منهم، فيؤمنون به، لأن الله هو الهادي على الحقيقة، وهذا ما يؤكد الختم ب(هاديا). فهي إذن بشارة.

٢ - أن الجزء المتبقي من المشركين الذي لم يهتد، والذي سيظل عدوا، هذا الجزء سيمكن الله نبيه منه وينصره عليه، وهذا المعنى مبعثه قوله (نصيرا)، من أجل ذلك - والله أعلم - كان الجمع بين الاسمين، لأنهم أعداء النبي على الحقيقة قسما: قسم سيهديه الله، وآخر سيهزمه الله. فالختم إذن كأنه بشرى بالانتصار: الفكري بالهداية، والعسكري بالغلبة والظفر.

٣ - وأما أنه سبحانه قدم هاديا على نصيرا، فذلك مما تهتز له القلوب، وتميل له الرؤوس طربا واستشعارا برحمة الله، لأن الأصل في مبعث النبي الهداية، فالهداية التي هي إنقاذ الناس أولا، ولا شيء قبلها، هداية في غير إكراه ولا قهر، وليست هداية بعد الهزيمة والانكسار. ثم النصر والتمكين، فلم يبعث الله الرسل لقهر الخلق ومحاربة البشر، كلا، إنما أرسلهم بالرحمة للهداية.

ثم إن ثمة معنى آخر يتبدى من ترتيب هذا الختم، وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم، لم يشك في قوله لمولاه إلا أنهم ضلوا وما اهتدوا، فما طلب النبي صلى الله عليه وسلم النصر عليهم، ولا قهرهم وهزيمتهم، وإنما طلب هدايتهم، وهو الذي - حين ناداه ملك الجبال أن يطبق عليهم الأخشبين - قال: "بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئا" ^(١)، إذن فأي ترتيب غير هذا لم يكن ليوافق ما يرغبه النبي، ولا ما طوى عليه جوانحه، فالله سبحانه يعلم ما يبغى نبيه فيعطيه ما يريد، وزيادة.

٥٠ - القريب المجيب:

(1) صحيح البخاري : ١١٨٠/٣.

قال تعالى: ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ (هود: ٦١).

إن أول ما يستوقف المتأمل في تلك الآية هو بناء ختمها، في قوله: (إن ربي)، وعدوله عن اسم الجلالة، وهو ما يذكرنا بموسى عليه السلام حين قال لقومه: ﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (الشعراء: ٦٢). كأن صالح عليه السلام أحس بأنهم لن يؤمنوا وأنهم سيرتكبون حماقتهم بقتل الناقة، فعدل عن لفظ الجلالة إلى (ربي) لأنهم حين يصنعون ما يصنعون من القبائح، والمعاصي لن يكون قريباً منهم، ولا مجيباً لهم، فهو القريب المجيب لمن أقر له بالربوبية، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن (ربي) في السياق تشير إلى منعة صالح عليه السلام، فربه قريب منه مجيب له، لا يحتاج الأمر في مواجهتهم إلا أن يدعو القريب المجيب، فينكل الله بهم، والوعظ حينئذ يكون أوقع في نفوسهم، وأبعد أثراً في قلوبهم إذا علموا هذا المعنى.

ومما يلاحظ أيضاً أن اقتران الاسمين مرتبط بالتوبة والاستغفار، فالختم بهما أدعى إلى الإسراع في التوبة، والشروع في الاستغفار. "فقوله قريب مجيب مقرون بالتوبة والاستغفار، أراد قريب مجيب لاستغفار المستغفرين التائبين إليه، وقد قرن القريب بالمجيب ومعلوم أنه لا يقال إنه مجيب لكل موجود، وإنما الإجابة لمن سألته ودعاه" (١). ولكن للإمام ابن عاشور وجهة أخرى لا تخلو من وجاهة "وجملة إن ربي قريب مجيب استئناف بياني، كأنهم استعظموا أن يكون جرمهم مما يقبل الاستغفار، فأجيبوا بأن الله قريب مجيب، وبذلك ظهر أن الجملة ليست بتعليل، وحرف (إن) فيها للتأكيد تنزيلاً لهم في تعظيم جرمهم منزلة من يشك في قبول استغفاره" (٢)، وهو أمر مقبول فيما أحسب لو أن محاورتهم انتهت إلى هداية، ولكن النص القرآني يشير إلى أنهم أنكروا ما جاء به صالح عليه السلام .

٥١- الحق المبين:

هذا التجاور لم يرد إلا مرة واحدة في آيات حادثة الإفك، قال تعالى: ﴿ يَوْمَذِيُوفِيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ (النور: ٢٥). وكانت الآيتان اللتان سبقتا هذه

(١) شرح قصيدة ابن القيم : ٢٢٩/٢.

(٢) التحرير والتنوير : ١٦٣/٧.

الآية هما قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (النور: ٢٣)، ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (النور: ٢٤).

وأرجح الأقوال في اسمه (الحق) أنه المحق العادل قال الإمام الزمخشري: " فإن قلت ما معنى قوله هو الحق المبين، قلت معناه ذو الحق البين، أي العادل الظاهر، العدل الذي لا ظلم في حكمه، والمحق الذي لا يوصف بالباطل، ومن هذه صفته لم تسقط عنده إساءة مسيء، ولا إحسان محسن، فحق لمثله أن يتقى ويجتنب محارمه " (٣).

والآية تتحدث عن المنافقين، لكن بعضا من العلماء يرى أنها للمؤمنين، ونحن مع الرأي الأول أميل، لأن المؤمنين قد علموا أن الله هو الحق المبين في الدنيا، وتيقنوا من ذلك، ولو لم يكن ذلك قد تحقق لما استقر الإيمان في قلوبهم.

" ويعلمون يومئذ أن الله هو الحق الذي يبين لهم حقائق ما كان يعدهم في الدنيا من العذاب، ويزول حينئذ الشك فيه عن أهل النفاق " (١)، وقال الإمام الألويسي : " وهذه الجملة ظاهرة جدا في أن الآية في ابن أبي وأضرابه من المنافقين الرامين حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم " (٢).

فإذا علمنا أن الآية في المنافقين بان لنا عندها وجه الحكمة في الختم بهذين الاسمين الكريمين. ذلك أن المنافقين عندما رموا حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما رموا، لم يكونوا ليؤمنوا بأن الله هو الحق، ولو آمنوا لما صنعوا ما صنعوا، ولم يكونوا ليؤمنوا بيوم الحق الذي فيه سيحاسبون، ولو أنهم آمنوا لأعدوا لذلك اليوم. ولو أنهم استحضروا حسابهم وعقابهم على ما يفعلون من جرم بحق رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرضه لخافوا وكفوا. أما وإنهم كذلك، إذن يذكرهم الله بذلك اليوم حين تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم، في ذلك اليوم يوفيه الله حسابهم العدل الذي لا ظلم فيه، ويؤمنون عندها - في غير نفع - أن الله هو الحق، وأن ما يصدر عن الحق حق، وأن ما أوعدهم به حق قائم ماثل أمامهم، وأن ما وعدتهم به آلهتهم، وزينته لهم شياطينهم إنما هو الباطل، وليس أبين من ذلك الحق الذي يظهر ويجلو، فلا يدعي أحد يومها مشاركته. ويقر الشيطان أن ما وعدهم به باطل لأنه لم يتحقق، وأن الله قد وعدهم وعد

(3) الكشف : ٨٣٥/١.

(1) جامع البيان : ٢٩٢/٩.

(2) روح المعاني : ١٩٢/١٠.

الحق، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (إبراهيم: ٢٢) .

٥١- الملوك المقدر:

أول ما يستوقف المتأمل لهذا التجاور الرائع المؤنس، هو العدول عن اسمه تعالى (الملك والملك) إلى (الملوك)، وكذلك العدول عن اسمه (القادر والقدير) إلى (المقدر). وأعود هنا لأؤكد أن الدلالة اللفظية للملك أكثر بلاغة من الاسمين السابقين، (الملك والقادر)، وكذلك الحال في (المقدر) فإن اللفظ أكثر دلالة على المبالغة من (القدير والقادر) لأنه يشمل الاسمين السابقين وزيادة، والزيادة التي نعيها هنا أنه يشير إلى التصرف، الذي يعني القدرة التامة على تقليب الأمور وتغييرها، وجعلها على وجوه كثيرة، وهي دلالة على التمكن التام المطلق والسيطرة الكاملة؛ ولعل قوله تعالى يوضح ذلك: ﴿ أَوْزَيْنَاكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴾ (الزخرف: ٤٢)، فانظر إلى قوله (عليهم) وما تحمل من معنى التمكن.

والتجاور السابق ورد في موضع واحد في القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَهْرٍ ﴾ (القمر: ٥٤).

وقال سبحانه: ﴿ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ (القمر: ٥٥).

وهنا مجموعة من المحاور مطروحة لتحليل التجاور السابق، أولها: عن وجه الحكمة من التجاور، وثانيها: تقديم المليك على المقتدر، وثالثها: العدول إلى الاسمين، ورابعها: عن سبب تنكير الاسمين في الآية.

والآية كما نري جاءت في سياق الحديث عن المؤمنين الذين من الله عليهم فأدخلهم الجنة، وقربهم منه، " لأن القرابة من الملوك لذينة كلما كان الملك أشد اقتدارا كان المتقرب منه أشد التذاذا ، وفيه إشارة إلى مخالفة معنى القرب منه من معنى القرب من الملوك، فإن الملوك يقربون من يكون ممن يحبونه وممن يرهّبونه مخافة أن يعصوا عليه، وينحازوا إلى عدوه فيغلبونه، والله تعالى قال مقتدر، لا يقرب أحدا إلا بفضله " (١)

فليس كل ملك مقتدر قادر، فإن ثمة ملوك في الدنيا عاجزون، لا يقدرّون على شيء، فافتقران الاسمين يدفع وهم التساؤل عن حال الملك وقدرته، فيجيء المقتدر ليؤكد تمام القدرة، ولأن القرب من الملوك لذينة كما بين الإمام الفخر قبل قليل، فحينما يدخلون الجنة لا شيء يسرهم أكثر من قرب من المليك، وحظوة عنده.

وأما اختيار البنائين والعدول عن غيرهما من الأبنية، فإن له موقعا من الحسن لا يخفى على متأمل، فالمؤمنون لما كانوا في الجنة، يتمتعون ويهنئون بما أعد لهم، حسن أن يقال مليك لما للفظ من رقة وتحنان وأنس، فإن غيره من الأبنية (الملك والمالك) فيها ما فيها من عظمة المعاني، التي قد توقع في قلوبهم الرهبة والخوف، ولكن المليك لفظ فيه أنس الضيافة، ولذة القرب، ولا رهبة ولا خوف ولا فزع، وإنما أمن واطمئنان، ولعل مجيء اسمه (الملك) مع يوم الدين، يناسب ما في ذلك اليوم من خوف ورهبة.

بل وجمل عندي اختيار الحطيئة اللفظ ذاته حين كان الخطاب موجها للفاروق، في شيء من الاستعطاف والترحم والتحنن، يقول:

(١) تفسير الفخر الرازي: ٨٢/٥.

تحنن علي هداك المليك ولا تأخذني بقول الوشاة فإن لكل زمان رجالا (١)

كأن الحطيئة أدرك ما للفظ من أنس الضيافة، ولذة القرب، وإحلال الأمن والهناء، فأراد أن يذكر عمر - رضي الله عنه - بأن ما أكرمه الله به من ملك، يجب أن لا يصار فيه إلى الفزع والخوف، وإنما إلى معاني الرحمة والقرب، تخلقا بصفات المليك.

هذا فيما يتعلق بالمليك فما بال المقتدر ؟ ليت شعري وماذا يحسن غير هذا الاسم؟ إنه لا أحد يمكن أن يحقق للمؤمنين ما يريدون، ويجيبهم عما يسألون، ويعطيهم ما يشتهون، غير المقتدر الذي يتصرف في كل شيء باقتدار وتمكن. إن وجودهم في الجنة موضع طلب دائم، واشتهاء لا ينقطع، فكيف يكون ذلك بغير المقتدر، والعدول هنا لدلالة البناء على البلاغة في المعنى، ثم لأن المولى عدل في الاسم الأول فإنه عدل في الاسم الثاني، ليتناسب الاسمان، فيعطيان إضافة إلى جمال المعنى، حلاوة الإيقاع وحيويته.

وأما أن الاسمين جاءا غير معرفين، فلإمام الألويسي في ذلك رأي نسوقه يقول: "ونكر مليكا ومقتدرا للإشارة إلى أن ملكه تعالى وقدرته عز وجل لا تدري الأفهام كنهها، وأن قربهم منه سبحانه بمنزلة من السعادة والكرامة بحيث لا عين رأت، ولا أذن سمعت مما يجل عن البيان وتكل دونه الأذهان" (٢). إذن التذكير هنا يفيد التعظيم، (٣) كأنه عظم أمرهما بحيث يصل إلى حد الإبهام، فلا تصل العقول إلى تصور ما يفيضه المولى على عباده المؤمنين بسبب قدرته، وملكه.

٥٢-الفتاح العليم:

قال تعالى : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَاتِحُ الْعَلِيمُ ﴾ (سبأ: ٢٦)، و(الفتاح) جملة من المعاني، منها الحاكم الذي يحكم بين العباد يوم القيامة، والذي هو موقعه في هذا التجاور الذي لم يرد في القرآن الكريم كله إلا في هذا الموضع.

(1) الأصفهاني، أبي الفرج: الأغاني، تحقيق سمير جابر، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٧٩/٢.

(2) روح المعاني : ١٤٦/١٥.

(3) انظر التحرير والتنوير: ٤٢٤٠/١. والكشاف : ١٢١١/١.

"والفتح عند العرب :القضاء والحكم، والفتح القاضي بلغة أهل اليمن " (١)، " وروى عكرمة عن ابن عباس أنه قال: ما كنت أدري ما قوله تعالى(ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين) حتى سمعت ابنة ذي يزن الحميري وهي تقول: أفتحك، يعني أقاضيك " (٢).

فإذا تم أن (الفتح) بهذا المعنى فإن موقعه في الختم يحسن ويجمل، لسببين: الأول ليناسب الفعل (ثم يفتح بيننا)، ثم السبب الثاني أن الآية مسبقة بقوله تعالى: ﴿ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرُمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (سبأ: ٢٥)، والسؤال لا يكون إلا يوم القيامة، ومن ثم يجمع بيننا ثم يفتح بيننا يوم القيامة أي يقضي بيننا، وكل يسأل عن عمله، فلا تسألون عن فعلنا، ولا نسأل عن إجرامكم، فالموطن موطن قضاء وفصل، وحكم بين طرفين، فلا يحسن غيره، ولا يستقيم المعنى بسواه.

وأما أن الاسم (الفتح) اقترن ب(العليم) فهذا مما زاد حسنه وبهائه وفيه تأكيد على أن ما يحكم به المولى الحق عينه، فهو حكم نابع عن علم مطلق بالعباد وأفعالهم وأحوالهم. قال الإمام ابن عاشور : "وجملة وهو الفتح العليم، تذييل بوصفه تعالى بكثرة الحكم وقوته، ولإحاطة العلم وبذلك كان تذييلاً لجملة (يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق) المتضمنة حكماً جزئياً، فذيل بوصف كلى، وإنما اتبع الفتح بالعليم للدلالة على أن حكمه عدل محض، لأنه عليم لا تخف بحكمه أسباب الخطأ والجور الناشئة عن الجهل والعجز واتباع الضعف النفساني الناشئ عن الجهل بالأحوال والعواقب " (٣). وبمثله قال الإمام الزركشي: " ختم بصفة العلم إشارة إلى الإحاطة بأحوالنا وأحوالكم وما نحن عليه من الحق وما أنتم عليه من الباطل، وإذا كان عالماً بذلك فنسأله القضاء علينا وعليكم بما يعلم منا ومنكم " (٤).

٥٣- الخبير البصير:

(1) فتح القدير : ١٦١/١.

(2) البرهان: ٢٩٣/١.

(3) التحرير والتنوير : ٣٩٠/١١.

(4) البرهان : ٨٤/١.

يبدو للوهلة الأولى أن الجمع بين الاسمين الكريمين الشريفين قد يكون مراعاة للفاصلة القرآنية، وليس هذا مذهبنا في الفواصل " لأن إعجاز القرآن ليس في السجع، وذلك لأن الشاعر يختار اللفظ الفاسد لضرورة الشعر والسجع، ويجعل المعنى تبعاً للفظ، والله تعالى يبين الحكمة على ما ينبغي، ويجيء باللفظ على أحسن ما ينبغي " (١)، إذن فثمة ما يستدعيه المعنى لهذا التجاور الجميل.

إن الخبير كما بان في الفصل الأول يتعلق بالأمور الباطنة، و دواخل البشر، ونواياهم، والبصير يتعلق بأحوالهم الظاهرة، وما هم عليه من سلوك، وما سيقومون به. " والجمع بين وصفي (خبير) و (بصير) لأن وصف (خبير) دال على العلم بمصالح العباد، وأحوالهم قبل تقديرها، وتقدير أسبابها، أي العلم بما سيكون ، ووصف بصير دال على العلم المتعلق بأحوالهم التي حصلت، وفرق بين التعليقين للعلم الإلهي " (٢).

قال الإمام الشوكاني: " والمراد بكونه سبحانه خبيراً بصيراً أنه محيط بحقائق الأشياء ظاهراً وباطناً لا تخفى عليه منه شيء " (٣).

والتجاور السابق ورد ختماً في خمسة مواضع في القرآن الكريم، وفي المواضع جميعها أريد هذا المعنى ، العلم بأحوال العباد باطنها و ظاهرها، ومما يحسن ذكره في هذا المقام أن المواضع الخمسة جميعها كان الختم فيها مشتملاً على ذكر لفظ (بعباده)، أي إنه خبير بصير بعباده، فالاسمان يدوران حول العباد، والعلة فيما أحسب أن للعباد باطن خفي، وظاهر جلي ولا ثالث، فأفاد ذكر الاسمين الجمع بين الظاهر والباطن، وهو إشارة إلى الاهتمام بسلامة النوايا الباطنة، وصحة الأعمال الظاهرة.

وهو المعنى نفسه الذي يشير إليه تقديم الخبير على البصير " وتقديم الخبير لتقدم متعلقه من الاعتقادات والنيات التي هي مبادئ الأعمال الظاهرة؛ لأن العبرة بما في القلب، كما يدل عليه أن الله سبحانه وتعالى لا ينظر إلى صوركم وأعمالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم ونياتكم، ونية المؤمن خير من عمله " (٤).

(1) تفسير الفخر الرازي: ٨٢/١٥.

(2) التحرير والتنوير: ١٢٥/١٣.

(3) فتح القدير: ٣٠٧/٣.

(4) روح المعاني: ٤٥/١٥.

وكون أن المتقدم (الخبير) فلا يعن لمتأمل أن الاهتمام فقط بالنوايا، من أجل ذلك أردفه المولى بالبصير، للدلالة على الاهتمام بالأعمال إضافة للنوايا قال الإمام ابن عاشور: "وتقديم الخبير على البصير؛ لأنه أشمل، وذكر البصير عقبه للعناية بالأعمال التي هي من المبصرات، وهي غالب شرائع الإسلام، وقد تكرر إرداف الخبير بالبصير في مواضع كثيرة من القرآن " (١).

قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (الشورى: ٢٧). والختم السابق في تمام الحسن والمناسبة، بل وترتيب الاسمين على ذلك النحو أجمل، وما هو إلا مناسبة معنوية لصدر الآية، فإنه لما ذكر (لبغوا في الأرض) ناسبه أن يبدأ بالخبير لأنه يعلم داخلهم، ولما قال (ولكن ينزل بقدر ما يشاء) ناسبه (البصير) لأنه أبصر بأحوالهم، وتدبير أمورهم وما فيه صلاحهم.

ولقد وقعت على قصة أوردتها (الحموي) في خزانته يحسن ذكرها هنا لمناسبتها ما نحن فيه، يقول: "ومن أظرف ما أنقله هنا من النقد اللطيف في هذا الباب أن قاضي القضاة عماد الدين ابن القضاة نظم قصيدة وعرضها على أخيه، فأنتهى منها في المديح إلى بيت يقول فيه:

خبير بتدبير الأمور فمن يرى سوى ما يراه فهو في هذه أعمى

فقال له شيخنا قاضي القضاة علاء الدين: يجب أن تقول لأجل المناسبة المعنوية موضع (خبير) بصير " (٢). فما أحسن ما عدله أخوه رحمهما الله، وليت شعري كيف تأتى له أن يقول (خبير) وتدبير الأمور لا يناسبها إلا بصير يقوم على الأحوال، ثم ما حوى هذا البيت من هذه التشكيلات البصرية في قوله على الترتيب (يرى، يراه، أعمى).

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (الإسراء: ٣٠).

والمولى يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم، أن لا يقبض يده، ولا يبسطها، بل يعتدل بين الأمرين، لأنه سبحانه الذي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده، فهو يعلم من من

(١) التحرير والتنوير: ٤٨١/١١.

(٢) ابن حجة الحموي، تقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله: خزانة الأدب وغاية الأرب، تحقيق عصام شعيثو، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧، ٣٦٨/١.

العباد يصلحه الرزق، ومن يفسده، وهذا المعنى له علاقة (بالخبير) فإنه حين يعلم إن الغنى يفسد العبد، لا يتركه بل يعطيه ما يصلح به نفسه ، وهذا المعنى يتعلق (بالبصير). فهو يقبض ويبسط، لأنه بالعباد خبير وبصير، وانظر إلى إحياء الرحمة في قوله (بعباده) فهو ما يصنع إلا ما فيه صلاحهم، لأنه خلقهم ويعلمهم جيداً.

الفصل الثالث

ظواهر بلاغية في خواتم الآيات

التأكيد

التقديم والتأخير

الالتفات

التكرار

الإظهار في موضع الإضمار

بناء الخاتمة في الآية

أولاً: التأكيد: ١- أهميته ونسبته:

قال الإمام العلوي: " التأكيد تمكين الشيء في النفس وتقوية أمره، وفائدته إزالة الشكوك وإمالة الشبهات عما أنت بصدده " (*)، وتتبع أهمية التأكيد من حيث كونه أحد أهم مباحث علم المعاني، ذاك العلم الجليل الشأن، العظيم النفع، ولما قسم البلاغيون البلاغة إلى ثلاثة فنون: المعاني و البيان والبديع، تربع علم المعاني على عرشها مزهوا، وتنقل بين أفيائها مياسا فتيا،و كان التوكيد من أهمها شأنا، وأعلاها منزلة، ولا تتأتى معرفة أغراضه إلا من أوتى حظا من دقة التأمل، ورهافة الحس، حتى أن الإمام العلوي امتدحه وأعلى منزلته: " وكم من كلام هو عن التحقيق طريد، حتى يخالطه صفو التوكيد، فعند ذاك يصير قلادة في الجيد، وقاعدة للتجويد " (١).

لقد روي عن ابن الأنباري أنه قال: " ركب الكندي المتفلسف إلى أبي العباس، وقال له: إني لأجد في كلام العرب حشوا، فقال له أبو العباس: في أي موضع وجدت ذلك؟ فقال: أجد العرب يقولون: عبد الله قائم، ثم يقولون: إن عبد الله قائم، ثم يقولون: إن عبد الله لقائم. فالألفاظ متكررة والمعنى واحد. فقال أبو العباس: بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ، فقولهم عبد الله قائم، إخبار عن قيامه، وقولهم إن عبد الله قائم، جواب عن سؤال سائل، وقولهم إن عبد الله لقائم، جواب عن إنكار منكر قيامه، فقد تكررت الألفاظ ؛ لتكرر المعاني، قال: فما أحر المتفلسف جوابا " (٢).

إن قلة هم الذين يحسنون الكشف عن معاني التأكيد، ويستطيعون تبين أوجه استخدامه، لأن الأمر له علاقة بما قر في ذهن المخاطب، من قوة في المعنى، أو تردد أو إنكار، وهو ما يصعب رصده؛ لأن المعاني خبيئة في نفوس أصحابها، واستقرار المعنى في نفس المخاطب

(*) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: ٦/٢.

(١) العلوي، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم: الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، تح. محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٥-١٩٩٥م، ٢٨٧.

(٢) الجر جاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن: دلائل الإعجاز في علم المعاني، تح. عبد الحميد هندوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢-٢٠٠١م، ٢٠٦.

أو تملأه، إنما يملأ على الأديب أو القائل دقة في الرصد، وتمكن من استخدام الأنسب في التعبير، لتكون العبارة على مستوى من القوة لتلائم حال المخاطب.

" وهذا التوكيد يختلف قلة وكثرة على وفق أحوال الإنكار، لأن وظيفة الخبر حينئذ هي تثبيت هذا المعنى في تلك النفس الراضة له، فلا مفر من أن تكون قوة العبارة، ووثاقتها ملائمة لحال النفس قادرة على الإقناع "(٣).

فليس إذن ترفاً أن يزين الأسلوب في العربية بأداة أو أكثر من أدوات التأكيد، ولكنه ما جاء إلا لحاجة، وما تزامم إلا لغرض أصيل، فأدوات التأكيد تقرر النفس الراضة، وتجاهه الأفكار المعاندة، وتزامم دواخل النفوس، فتدعو إلى التبين والتبصر.

وفي ذلك يقول الإمام العلوي: " اعلم أن التأكيد تمكين الشيء في نفسه، وتقوية أمره، وفائدته إزالة الشكوك، وإمالة الشبهات عما أنت بصدده، وهو دقيق المأخذ، كثير الفوائد " (١).

فالأسلوب في كل الأحوال يجب أن يراعي حال المخاطب، ما إذا كان خالي الذهن فيساق الكلام في غير توكيد، ويؤكد للمتردد الشاك، ويضاعف للمنكر، ويسمى الأول الابتدائي، والثاني الطلبي، والثالث الإنكاري.

" ومناسبة التسمية واضحة لأنك في الأول تبتدئ به المعنى في النفس، والثاني تواجه به تردداً وكأن النفس طالبة للخبر، والثالث تواجه إنكاراً " (٢)

والبلاغيون حين يذكرون التوكيد يشيرون إلى قصة أصحاب القرية التي وردت في سورة يس، والتي تبدو في غاية الحسن والروعة، للتعامل مع النفس الإنسانية، ومنطق المجادلة، ويحسن هنا الإشارة إليها لتكتمل الفكرة. قال تعالى :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ (يس: ١٣).

(3) أبو موسى، محمد : خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، دار التضامن، القاهرة ، الطبعة الثانية، ١٤٠٠-١٩٨٠م، ٤٨.

(1) الطراز : ٢٨٧.

(2) خصائص التراكيب: ٥١.

﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ﴾ (يَس: ١٤)، ﴿ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ (يَس: ١٥)، ﴿ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ (يَس: ١٦).

فأصحاب القرية كما ترى أنكروا على الرسل وكذبوهم، ومن هنا جاء الخطاب مؤكداً بمؤكدين، إن والجملة الاسمية، ولما تصاعدت وتيرة الإعراض والإنكار من قبل أصحاب القرية، باستخدامهم أسلوب القصر (النفي والاستثناء)، والتكذيب في قولهم (إن أنتم إلا تكذبون)، هنا تبرز الدقة في رد الرسل عليهم السلام في حشد أكبر قدر من أساليب التوكيد لتلك العقلية المعاندة الراضية، بإعادة طرح القضية من جديد بأساليب متصاعدة (قالوا ربنا يعلم إننا إليكم لمرسلون) فجاءت على هذا النحو من التوثيق والتوكيد، مؤكدة بأن والجملة الاسمية، وكذلك اللام، والإشارة إلى علم الله. " فقد وضح إذن كيف تتكاثر عناصر التوكيد وفقاً لتصاعد أحوال الإنكار في هذا الحوار القرآني الخصب، وهكذا نجد نبذة التوكيد تعلو وتهبط في مراقبة دقيقة لمواقع المعاني في النفوس، وما تتطوي عليه دواخلها " (١).

٢- طرائق التوكيد:

لكننا حين نحصر التوكيد في الكلام، وفق حال المخاطب ونقصه على ثلاثة أضرب فقط، إنما نحن عندها نضيق واسعاً، ونخفض عالياً، ونكبل التأكيد عن أن يبين عن مواطن الحسن والدقة في سياقات متعددة، لا يصلح تطبيق طرائقه عليها. فماذا يقال حينئذ في آيات قرآنية جمة غزيرة أكدها المولى مخاطباً بها الأنبياء والرسل، أحسن عندها أن يقال أن المخاطب كان متردداً أو منكراً؟ أو تلك التي جاءت مؤكدة على لسان الرسل والأنبياء وفيها الخطاب موجه للمولى سبحانه وتعالى فماذا يمكن عندها أن يقال؟!

من أجل ذلك نرى أن الكلام قد يجري " على خلاف الظاهر من حال المخاطب، أي أن المتكلم لا يعتد بهذا الواقع في صياغته، وإنما يجري على أمور اعتبارية تنزيلية

(١) خصائص التراكيب : ٥١.

يلحظها هو ويعتبرها مقامات يصوغ عبارته على مقتضاها، وذلك موطن دقيق، لا يهتدي إلى مواقعه الشريفة إلا ذكي النفس " (٢).

إن هذا الخروج عن مقتضى الظاهر والجري على خلافه في استخدام أساليب التوكيد، كإنزال المنكر منزلة غير المنكر، أو العكس، أو أن ينظر المتكلم فيها إلى حال نفسه، وتمكن المعاني منها - هو الذي جعل للتوكيد موطنًا دقيقًا، وموقعًا من الحسن لا يخفى إلا على بليد الشعور سقيم الخيال.

" ومن ذلك أنه قد ينزل غير المنكر منزلة المنكر، إذا بدا عليه شيء من أمارات الإنكار فيخاطب بأسلوب التوكيد في الأمر الذي لا ينكره " (٣)، ومنه قوله تعالى:

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ (المؤمنون: ١٥)، ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ (المؤمنون: ١٦).

إن نظرة سريعة للآيتين تكشف عن أن المولى قد أكد الآيتين لأنهما يقرران حقيقتين مهمتين هما: الموت والحياة.

ولكنه سبحانه قد أكد آية الموت بأكثر مما أكد آية البعث، وعلى الرغم من أن الموت مؤكد في أذهاننا نعاينه ولا ننكره، فإن المولى أكد به بان واللام وبناء اللفظ على الحالة الاسمية،

فيما لم يؤكد آية البعث إلا بمؤكد واحد فقط، وما ذلك إلا أنه أنزل غير المنكرين للموت منزلة المنكرين، لأنه بدا عليهم أمارات الإنكار من خلال تماديهم في الغفلة، وتناسيهم قضية الموت، وعدم العمل من أجل تلك اللحظة، وهو من ثم حين صنع ذلك، وضع قضية البعث مما لا ينكر وأنزل المخاطبين فيه منزلة المترددين " تنبيهًا لهم على ظهور أدلتهم، وحثًا على النظر فيها ولهذا جاء على الأصل تبعثون " (١).

وكذلك من تلك الضروب أن " ينزل المنكر منزلة غير المنكر لعدم الاعتداد بإنكاره، لأنه ليس له دليل عليه، ولو أنصف ونظر نظرة متأنية لعدل عن هذا الإنكار " (٢).

(2) المصدر السابق: ٥١.

(3) السابق: ٥٦.

(1) خصائص التراكيب: ٥٧.

(2) المصدر السابق: ٥٤.

فالمنكر أحيانا حين لا يكون له وجه حق في إنكاره، كجده آيات وبراهين محققة واضحة لا لبس فيها ولا غموض - إنما يسره ويرضي عناده أن يسوق إليه المخاطب كلامه مطرزا بأساليب التوكيد، وما ذلك إلا لاعتقاده جهلا بوجاهة إنكاره، وصوابية ما هو عليه، ومثل هذا النوع من البشر يحسن معه أن ننزله منزلة غير المنكر، وأن يساق الكلام إليه على ما هو عليه من حقيقة في غير توكيد، وبكل هدوء وثقة. وخير مثال على ذلك قوله تعالى:

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ (الجمعة: ١).

فالمولى سبحانه في الآية يوشي الآية بأسمائه الحسنی في غير توكيد، و" هو خبر منكور عند الجاحدين ، ولكن القرآن لم يعبأ بهذا الإنكار، وساق الحقيقة الضخمة في هذا الهدوء الوثائق الحكيم " (٣). ومن ذلك كثير في القرآن الكريم، كقوله تعالى:

﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ (الزمر: ١)

تلك الآية التي وردت مكررة في ثلاث سور من القرآن الكريم، بالصيغة نفسها. و" هناك ضروب من التوكيد، لا ينظر فيها إلى حال المخاطب وإنما ينظر فيها المتكلم إلى حال نفسه، ومدى انفعاله بهذه الحقائق، وحرصه على إذاعتها وتقريرها في النفوس كما أحسها مقرررة أكيدة في نفسه " (٤).

وبهذا النوع نفس كثيرا من غوامض التوكيد. ومثاله قول الشاعر:

إنا لنرخص يوم الروع أنفسنا ولو نسام بها في الأمن غسلينا (١)

ويحسن هنا في التمثيل لهذا الضرب ما ذكره الزمخشري في تفسير قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ ﴾

(البقرة: ١٤).

" فإن قلت : لم كانت مخاطبتهم المؤمنين بالجملة الفعلية، وشياطينهم بالاسمية محققة بأن، قلت: ليس ما خاطبوا به المؤمنين جديرا بأقوى الكلامين، لأن أنفسهم لا تساعد

(3) السابق: ٥٤.

(4) السابق: ٥٧.

(1) ديوان الحماسة: ٢٦/١.

عليه، إذ ليس من عقائدهم باعث ومحرك، وهكذا كل قول لم يصدر عن أريحية وصدق رغبة واعتقاد، وأما مخاطبة إخوانهم فهم فيما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اليهودية والقرار على اعتقاد الكفر والبعد من أن يزلوا عنه على صدق رغبة، ووفور نشاط، وارتياح للتكلم به " (٢).

وما أكد المنافقون قولهم لشياطينهم حين خلوتهم بهم بالجملة الاسمية والتصدير بإن وأسلوب القصر إلا لأن معاني الكفر قد انقدحت في أذهانهم، واستقرت في قلوبهم ثابتة لا يغيرها طول صحبة للمؤمنين وعيش بين ظهرائهم، ومعلوم أن التعبير بالاسم أكد من التعبير بالفعل لأن الاسم يدل فيما يدل على الثبات.

ومن ضروب التوكيد أيضا ما لا ينظر فيه إلى حال المخاطب، حال كونه مترددا أو منكرا، فقد يكون المخاطب متيقنا، ومع ذلك يؤكد الكلام رغبة من المتكلم في تقوية معنى الفكرة في ذهن السامع، لعظم شأنها " وقد يكون دواعي التوكيد هو رغبة المتكلم في تقوية مضمون الكلام عند المخاطب وتقريره في نفسه، وإن كان غير منكر له، كقوله تعالى:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴾ (الإنسان: ٢٣) وقوله:

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (الشعراء: ٦٨) (٣).

إن مثل هذا النوع من التوكيد يكون أحيانا عند إرادة شد انتباه السامع وإيقاظه وتهيئته ، لما سيلقى على السمع من عظيم المعاني وشريف الأفكار. وكذلك من المواطن الذي يحسن فيها التوكيد، وتبدو في ثناياها فضيلته، أن يأتي في ختم جمل، تشتمل قدرا من الأوامر والنواهي والتحذير، أي أنها تشتمل على طلب ما، حينها يحسن التوكيد.

(2) الكشف : ٣١/١.
(3) خصائص التراكيب: ٦٠.

" فمن ذلك أن تكون الجمل السابقة متضمنة إشارات أو إيماءات تنثير في النفس المتلقية تساؤلاً فتسعفها الجملة الثانية بما يزيل التردد، ويجيب عن هذا الهمس، فيدخل قدرا من التوكيد في بناء العبارة ليواجه هذا التردد، ومن ذلك الجمل المؤكدة في الكلام الفصيح والواقعة عقب الأمر والنهي أو الإرشاد والتوجيه " (١).

٣- التأكيد في خواتم الآي:

والتأكيد في خواتم الآيات القرآنية يجيء مشتملا على أسماء الله الحسنى وصفاته، فقد يكون التذييل مشتملا على اسم واحد، أو اسمين أو أكثر. وقد اختلف التأكيد من موقع لآخر، فهناك خواتم جاءت مؤكدة بمؤكد واحد، كان في الغالب الحرف (إن)، كقوله تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: ٢٠).

وهو كثير في القرآن الكريم، وهناك خواتم اشتملت على مؤكدين (إن واللام) كقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة: ١٤٣).

أو مؤكدة ب (إن وضمير الفصل) كقوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَّقَطْنَ مِنْ فَوْقِنَ وَالْمَلَائِكَةُ يَسْبَحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الشورى: ٥). وهناك خواتم جاءت مؤكدة بثلاثة مؤكدات كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النحل: ١١٠).

(1) خصائص التراكيب: ٥١.

إن التوكيد في خواتم الآيات جاء في حركة مرنة، وتتوع يتغام مع حركة المعنى ورسوخه في النفس الإنسانية، فهو يكشف عن دخائل النفوس حين تحتاج إلى ما يزيل تردددها، أو حين تحتاج إلى ما يعلل وهمها.

ولم يأت التوكيد جامدا على حالة واحدة ثابتة، من شأنها أن تسم النصوص بالجمود، وتكبل المعاني عن حرية التحليق في دخائل النفس الإنسانية.

والخواتم القرآنية المؤكدة المشتمة على الأسماء الحسنى تجيء في غالبها للتعليل، حين يقتضي الأمر التعليل لمعنى قد سبق، ومن ثم فهي تؤكد على معاني الأسماء الحسنى، والصفات العليا، التي توشى الآيات بها " فنرى القرآن يؤكد صفات الله عز وجل، حتى يستقر الإيمان بها في القلوب، فنسمعه يقول مكررا ومؤكدا في كثير مما يكرره (إن الله على كل شيء قدير،) (إن الله واسع عليم) (إن الله عزيز حكيم) فهذا التأكيد يقرر هذه الصفات في النفس، وإذا تكررت هذه الصفات في النفس انبثق منها العمل الصالح المبني على أساس من الإيمان المكين " (١).

١- التأكيد ب(إن) و(أن):

(إن) حرف في العربية اشتهر في صلاحيته للتأكيد في مواطن يعجز عنها غيره، ولا يحسن فيها سواه، من أجل ذلك رأينا من خلال استعراضنا لمواطن التوكيد في الخواتم، أنها جاءت مؤكدة لما يزيد عن مائة ختم لآيات كريمات، وهي بذلك كانت الأكثر استخداما، وسجلت أعلى رقم من حيث استخدامها، بالمقارنة مع حروف التوكيد الأخرى أو طرقه ووسائله.

ولعل كثرة دوران هذا الحرف في القرآن الكريم بشكل خاص، وفي العربية بشكل عام، يجعل له من الأهمية ما يستحق معه أن يضاء حوله بالدراسة والتحليل.

(1) شيخون، محمود السيد : من أسرار البلاغة في القرآن، مكتبة الكليات الأزهرية، الطبعة الأولى، ١٤٠٤م
١٩٨٤م

يشير الإمام الجر جاني رحمه الله - إلى أهمية (إن) ووظيفتها التي تتجاوز ما عده البلاغيون لها، من حيث قدرتها على الربط بين الكلام بعضه ببعض، ويورد بيتا لبشار مستدلا به على حسن موقعها، يقول بشار:

بكرا صاحبي قبل الهجير إن ذاك النجاح في التبكير

وذلك أنه: هل شيء أبين في الفائدة ، وأدل على أن ليس سواء دخولها وأن لا تدخل ؟ أنك ترى الجملة إذا هي دخلت ترتبط بما قبلها، وتأنف معه، وتتحد به، حتى كأن الكلامين قد أفرغا إفراغا واحدا، وكأن أحدهما قد سبك في الآخر،

حتى إذا جئت إلى (إن) فأسقطتها، ورأيت الثاني منها قد نبا عن الأول، وتجافى معناه عن معناه، ورأيت أنه لا يتصل به ولا يكون منه بسبيل " (١).

وهو شاهد جميل ذاك الذي استدل به الإمام، ولعل موطن الحسن لموقعها فيه، وراحة النفس بها في مكانها، ليست فقط تتبع من أنها ترتبط بما قبلها، وتتحد به، كما لو أنها وما قبلها قد سبكا معا، وإنما تتبع أهميتها في أنها تأتي بعد طلب، وهو التبكير في صدر البيت، وهو ما يحرك ذهن لبيان سببه، أو التعليل له، وكأن الحركة الذهنية بدأت في الاضطراب مع صدر البيت احتاجت معه لهدأة، وتسكين، فجاءت (إن) بما تحمله من توكيد وتعليل، وحسن ربط، فاستقر المعنى في النفس على نحو مكين.

وأني يمكن أن يحسن غيرها في مكانها، ولو كانت فقط لربط الكلام بعضه ببعض، لحسن غيرها من حروف الربط، ولكنها تحمل ما لا يحمله غيرها من معان، ولذا نرى الإمام الزركشي يقول: " واعلم أن كل جملة صدرت ب(إن) مفيدة للتعليل، وجواب سؤال مقدر " (٢). وما يكون التعليل إلا حينما تتشوق النفس لحاجة عند تزامم المعاني وتدافعها وانفتاح النص لها، أو عند غرابة ما يشهدها النص، أو بعد طلب من أمر أو نهى وغيره، ينقدح في ذهن المتلقي له سؤال ما، أو وهم ما يدفعه بالتوكيد. وبمثل الذي قاله الإمام الزركشي، ذكر الإمام السيوطي: " (إن) بالكسر والتشديد على أوجه: أحدهما

(1) دلائل الإعجاز : ٢٠٧.

(2) البرهان في علوم القرآن: ٤٠٦/٢.

التأكيد والتحقيق وهو الغالب (إن الله غفور رحيم) قال عبد القاهر: والتأكيد بها أقوى من التأكيد باللام، وقال: أكثر مواقعها بحسب الاستقراء جواب لسؤال مقدر، إذا كان للسائل فيه ظن. والثاني للتعليل، أثبتته ابن جني ومثله بنحو (واستغفروا الله إن الله غفور رحيم) وهو نوع من التوكيد " (٣).

وهي على تلك الصورة التي أوردها الجر جاني كثيرة، في القرآن الكريم يقول: " وهذا الضرب كثير في التنزيل جدا، وهي على الجملة من الكثرة بحيث لا يدركها الإحصاء " (٤)، ولكننا أدركنا منها مائة وزيادة، نعلل ورودها في مطالع الختم بما ذهب إليه مجموع أقوال العلماء السابقين، على علمنا بصعوبة وخفاء البحث عن جماليات التركيب بها، وأنه يحتاج إلى دقة نظر، ومزيد فحص تأمل.

يقول الجر جاني رحمه الله: " وليس الذي يعرض بسبب هذا الحرف من الدقائق والأمور الخفية يدرك بالهويناء " (١).

ومن خلال تتبعنا لحرف التوكيد (إن) في الخواتم القرآنية ، لوحظ أنه يأتي فيما يزيد على مائة موضع، يأتي مؤكدا لخواتم مشتملة على اسم واحد من أسمائه الحسنى فيما يزيد عن خمسين موضعا، فيما يأتي مؤكدا لخواتم مشتملة على اسمين من أسمائه الحسنى في أكثر من ستين موقعا.

وفي كل الأحوال التي وردت فيها (إن) في مطالع الختم فإنها كانت دائما من الحسن بحيث لا يمكن الاستغناء عنها أو استبدالها بغيرها، لما لها كما بينا من قدرة على ربط الكلام بعضه ببعض، وسبكه على نحو يجعله متما سكا كأنه قد صب في قالب واحد، وهي إضافة إلى ذلك تفيد التعليل في أغلب مواضعها، قال تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ

وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً ﴾ (النصر: ٣). " وحيث كان التوكيد بـ (إن) هنا غير مقصود به رد إنكار، ولا إزالة تردد، إذ لا يفرضان في جانب المخاطب، فقد تمخض (إن) لإفادة الاهتمام بالخبر وتأكيد، وقد تقرر أن من شأن (إن) إذا جاءت على هذا الوجه، أن تغني غناء فاء الترتيب والتسبب وتفيد التعليل، وربط الكلام بما قبله كما تفيد الفاء " (٢).

(3) الإتيان في علوم القرآن: ٤٥٤/١.

(4) دلائل الإعجاز: ٢٠٧.

(1) دلائل الإعجاز: ٢١٤.

(2) التحرير والتنوير: ٤١٩/١٦.

ف(إن) تأتي أحيانا لدفع تردد أو إزالة إنكار حينما يحتمل السياق ذلك مثاله قول المولى تعالى: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أُمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (غافر: ٤٤) وقوله:

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (النحل: ٢٨).

لقد بان لي أن هذا الحرف(إن) يحتمل التعليل في جميع مواضع وروده في القرآن الكريم، وهو حين يرد كذلك يحتاج إلى مزيد تأمل، ليحس المتأمل بارتياحه من وضع هذا الحرف موضعه من السياق. ومثال ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (المائدة: ٧).

وقوله: ﴿ وَذَكَرَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة: ١٠٩).

يقول الإمام ابن عاشور: " وشأن إن إذا قصد مجرد الاهتمام أن تكون قائمة مقام فاء التفريع مفيدة للتعليل " (١).

وما قيل عن (إن) يقال عن (أن) بيد أن ثمة فروق بين الحرفين، يمكن ملاحظتها، فقد وردت (أن) المشددة مؤكدة ما يزيد عن عشرين ختما في مواضع مختلفة في القرآن الكريم، وهي شقيقة أختها المكسورة، ولكنها لما وقعت هي ومعموليها " جزأ من جملة مفتقرة إلى اسم مرفوع أو منصوب، أو مجرور، ولا سبيل

(1) التحرير والتنوير : ٣٤٥/٥.

للحصول على ذلك الاسم المطلوب إلا من طريق مصدر منسبك من (أن) مع معموليها " (٢)، وجب فتحها عندئذ. يقول الإمام الزركشي: " أن المفتوحة نحو علمت أن زيدا قائم، وهي حرف مؤكد كالمكسورة، نص عليه النحاة، واستشكله بعضهم، ويفرق بينها وبين المكسورة، فإن التأكيد في المكسورة للإسناد، وهذه لأحد الطرفين " (٣).

ووجه الاستشكال هنا كونها للتأكيد مع مصدرها، لأنها يتوصل بها لانعقاد المصدر، وحين ينعقد لا يكون عندها توكيد، ولكن الإمام السيوطي ومعه جملة من العلماء يصر على أنها للتوكيد، وأنها تؤكد المصدر المنحل وليس المصدر المنسبك يقول: " تؤول مع اسمها وخبرها بالمصدر نحو (لتعلموا أن الله على كل شيء قدير) أي قدرته، وقد استشكل كونها للتأكيد بأنك لو صرحت بالمصدر المنسبك منها لم يفد تأكيدا وأجيب بأن التأكيد للمصدر المنحل " (٤).

لقد لوحظ أن الخواتم المؤكدة ب(أن) تسبق في أغلب الأحوال بالفعل (علم) وتقليباته مثل: (اعلموا، يعلم، واعلم، إلخ...) قال تعالى :

(2) حسن، عباس: النحو الوافي، دار المعارف، الطبعة الحادية عشرة، ١/٦٤٢.

(3) البرهان في علوم القرآن: ٢/٤٠٧.

(4) الإتيان في علوم القرآن : ١/٤٥٥.

﴿ مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

(البقرة: ١٠٦).

٢ - ﴿ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَاغْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٠٩).

٣ - ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٦٠).

ولكن السؤال لماذا سبقت (أن) المفتوحة بهذا الفعل ؟ أو لماذا فتحت بعده ولم تكسر ؟
والحقيقة أنها حين تكسر تكون قد تهيأت لبدء كلام جديد، واذنت بانقطاع كلام مضى، " فإن كسرت كان الكسر فيها إشعارا بتجريد المعنى الذي هو التوكيد عن توطئة الجملة للعمل في معناها، فليس بين المكسورة والمفتوحة فرق في المعنى إلا أنهم أرادوا توطئة الجملة لأن يعمل الفعل الذي قبلها في معناها " (١).

فهي تفتح إذن ليتمكن الفعل من العمل فيها، وما يسهل ذلك إلا حين تفتح، لأن الكلام عندها يكون له خفة، وحين تكسر فهي تكسر " لأن الكسر في هذا الموطن أولى لأنه أثقل من الفتح، والثقل أولى أن يعتمد عليه ويصدر الكلام به، والفتح أولى بما جاء بعد الكلام لخفته، وأن المتكلم ليس في عنفوان نشاطه " (٢).

وأما أن الفعل الذي سبقها كان (علم) وتقلباته، فإن ذلك مما يحسن، لأنها لما كانت تفيد معنى التوكيد، لم يحسن معها إلا أفعال تدل على اليقين، والعلم واحد منها " لكي لا يقع التعارض والتناقض بينهما (أي بين ما يدل عليه العامل وما يدل عليه المعمول) وهذا هو ما جرت عليه الأساليب الفصيحة، حيث يتقدمها ما يدل على اليقين والقطع، مثل اعتقدت وعلمت وتيقنت ولا يقع شيء قبلها من ألفاظ الطمع والتوقع والإشفاق والرجاء، وغيرها من الألفاظ التي يجوز أن يوجد ما بعدها أو لا يوجد " (٣).

(1) بدائع الفوائد: ٣٠٢/٢.

(2) المصدر السابق: ٣٠٢/٢.

(3) النحو الوافي: ٦٤٤/١.

إن مما يعرض في أثناء تأمل الخواتم ،أن الفعل الذي يسبق(أن) كان في أغلب الأحوال فعل أمر ، والخطاب فيه للجماعة (اعلموا) وما ذاك إلا لأن معاني تلك الأسماء ما استقرت في نفوسهم على النحو المطلوب، فنرى المولى يأمرهم بأن يعلموا ذلك على وجه التأكيد والتمكن، لتشيع تلك المعاني الشريفة، في ثنايا نفوسهم، وخلجات قلوبهم، فتحيل إيمانهم إلى قوة دافعة خلاقية، لأنه متى انعقد قلب المؤمن على معاني الأسماء الحسنى الشريفة، سما وعلا، واستمد بعضا من معانيها، وتخلق بأخلاقها. ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المائدة: ٩٨). وقوله:

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْتُمْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تَأْخُذُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٣٥).

٢- التأكيد ب(إن واللام):

ورد هذا النوع من التوكيد في خواتم الآيات في القرآن الكريم في ستة مواضع، وحيث تحدثنا عن (إن) فيما سبق، وهنا نضيف أن اللام هذه تسمى المزلحقة، وهي حرف توكيد "تفيد تأكيد مضمون الجملة، ولهذا زحلقتها عن صدر الجملة كراهية ابتداء الكلام بمؤكدتين، وإذا جاءت مع (إن) كانت بمنزلة تكرار الجملة ثلاث مرات، لأن (إن) أفادت التكرير مرتين، فإذا دخلت اللام صارت ثلاثا" (١).

وأما الجمع بينهما وجعل ذلك للمنكر وفق قصة أبي العباس، فهو مما يحسن "لأنه إذا كان الكلام مع المنكر، كانت الحاجة إلى التأكيد أشد، وذلك أنه أحوج ما تكون إلى الزيادة في تثبيت خبرك، إذا كان هناك من يدفعه وينكر صحته" (٢).

وحيث إن المعنى لا يحتمل الإنكار في بعض السياقات التي ورد الختم فيها جامعا بين الحرفين السابقين، لأن المخاطب في بعضها هو النبي صلى الله عليه وسلم، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (الحج: ٦٥). فلا يحتمل المعنى هنا أن يقال إن النبي متردد أو منكر في رحمة المولى ورأفته.

(١) البرهان: ٤٠٨/٢.

(٢) دلائل الإعجاز: ٢١٤.

ومن هنا نقول إنه حيث يتأتى فهم تردد ما من قبل المخاطب في الآية، فإنه يحسن معه الختم بهذين الحرفين، كقوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (البقرة: ١٤٣).

نفوس المؤمنين قلقة مضطربة، وعقولهم حرجة في فهم هذا التحويل المحير في أمر الاتجاه للكعبة، وتنقذ الأسئلة في أذهانهم عن مصير أعمالهم التي قدموها، فيجيء التأكيد تسكيناً لهذه النفوس، وطمأنة لتلك الضمائر في رأفته سبحانه ورحمته في عدم إضاعة تلك الأعمال، وما يضير المؤمنين أنى اتجهوا بعد ذلك ما دامت أعمالهم قد قبلت، إن التأكيد في مثل هذه الحالة يكون هدأةً للنفوس المترقبة المنتظرة.

يقول الإمام أبو حيان: "ولما كان نفي الجملة السابقة مبالغاً فيها من حيث لام الجحود، ناسب إثبات الجملة الخاتمة مبالغاً فيها، فبولغ فيها بأن واللام وبالوزن على فعول وفعيل، كل ذلك إشارة إلى سعة الرحمة وكثرة الرأفة" (١).

ولكن ماذا يمكن أن يقال حيث لا يصلح فهم إنكار ولا تردد في سياق الآية، إن الأمر عندها يتجاوز المخاطب وحالته مثلما بينا في بداية الحديث عن التوكيد، ليناسب المعاني وعظمتها وشرفها. ولنتأمل قوله تعالى:

١ - ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (الحج: ٦٥).

٢ - ﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (الحديد: ٩).

إن التوكيد ب(إن واللام) في الختمين السابقين، يأتي لإحداث حالة من التناسب بين عظيم فعل المولى، وبين تأكيد الصفات الحسنى التي تعلل لهذا الفعل، ففي الآية الأولى حيث إمساك السماء أن تقع على الأرض، وتسخيرها في الأرض، وجريان الفلك، وهي

(١) البحر المحيط: ٢٠/٢.

أشياء من عظيم فعله، وجليل صنعه، وإنزاله الآيات البينات في الآية الثانية وتعليل ذلك لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، إنما يكون لرأفة المولى بالناس ورحمته بهم، وحين كانت الرأفة والرحمة موازية ومساوية لتلك الأشياء العظيمة، وبالحجم نفسه، كان من المناسب أن تجيء الصفات مؤكدة مساواة وموازية لعظم آثار تلك الصفات.

إن مما يحسن ذكره هنا من دقائق التأكيد ولطائفه، قوله تعالى:

١ - ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (الأنعام: ١٦٥).

٢ - ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يُسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (الأعراف: ١٦٧).

فانظر لروعة التأكيد ودقته في كلا الآيتين، فإنه سبحانه ابتداء يؤكد المغفرة والرحمة بتوكيدين ثابتين في الحالتين، وهو ما يعني أن الرحمة والمغفرة هما الأصل، ولكن لما كانت الآية الأولى آية ابتلاء للعمل، كان التوكيد للمغفرة والرحمة بمؤكدين، وسرعة العقاب بمؤكد واحد، ليشير إلى غلبة الرحمة والمغفرة دائماً على العقاب، وما أحسب أن إيراد العقاب هنا إلا من قبيل الطباق الذي يجمع بين الضدين فيوضحهما ليظل الإنسان بين رغبة ورهبة، بل إن شئت قل: بين رهبة وزيادة رغبة.

وأما الآية الثانية فهي آية عقاب، لأنها وردت في بني إسرائيل، فأن يجيء العقاب مؤكداً بمؤكدين أمر في غاية التناسب والدقة، ولكنني كنت أحسب أنه ما دام سياق الآية حول العقاب فإن نبرة توكيد المغفرة والرحمة ستخفت، وسيقل توكيدها، ولكن العكس هو الذي كان، وهو ما يؤكد بوضوح لا يقبل شكاً أن الرحمة والمغفرة ثابتتين ثبات التوكيد في الآيتين، وأن العقاب متغير تغير التوكيد في الآيتين، فإلى لجمال التوكيد الذي كشف لنا عن هذه المعاني الخبيئة، وأماط اللثام عن تلك الدرر الثمينة. وقرأ في السياق ذاته قوله تعالى: ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (فصلت: ٤٣).

٣- التأكيد ب(إن وضمير الفصل "هو"):

تعلو نبرات التوكيد حين تعظم المعاني، وحينما يتجاسر الهمس والتردد على الظهور ليستحيل إلى رفض وإنكار، وضمير الفصل له شأن عظيم في تلك القضية، ويقوم بأدوار لا يقوى غيره على القيام بها، " وسمي ضمير الفصل لأنه يفصل بين الخبر والصفة، وذلك إذا قلت: زيد هو القائم، فلو لم تأت ب(هو) لاحتمل أن يكون القائم

صفة لزيد، أو خبراً عنه، فلما أتيت ب(هو) تعين أن يكون القائم خبراً عن زيد^(١)، وهذه هي الوظيفة الأولى له في الجملة. أما الوظيفتان الأخريان فهما كما يقول السيوطي: "ولضمير الفصل ثلاثة فوائد: الإعلام بأن ما بعده خبر لا تابع، والتأكيد والاختصاص"^(٢).

والاختصاص إنما يكون من خلال اختصاص المسند إليه بالمسند دون غيره، كما يرى الإمام الشوكاني: "وفائدة ضمير الفصل الدلالة على اختصاص المسند إليه بالمسند دون غيره"^(١).

ومعنى دون غيره في قول الإمام أي: اختصاص معنى المسند في المسند إليه فقط؛ فإن قلت: زيد هو القائم، كأنك خصصت القيام لزيد دون سواه من الجالسين.

إن ضمير الفصل يفيد معنى الحصر، أي حصر المعنى في المسند إليه ونفيه عن سواه "ومن طرق الحصر ضمير الفصل نحو زيد هو القائم، ويفيد إثبات القيام له ونفيه عن غيره، ومنه (فالله هو الولي) بعد قوله: أم اتخذوا من دونه أولياء"^(٢).

إن جماليات ضمير الفصل في النص القرآني، وبخاصة الخواتم المشتملة على أسمائه الحسنی، تتبع من أنه يرد في سياقات معينة يحصر الضمير فيها معاني الصفات على المولى وحده، وينفيها عن سواه، ولئن كان هناك ما يحتمل معه اشتراك في فعل ما فإن ضمير الفصل يخلص المعنى من أوهام الشركة.

"واستدل له السهيلي بأنه أتى به في كل موضع ادعى فيه نسبة ذلك المعنى إلى غير الله، ولم يؤت به حيث لم يدع، وذلك في قوله (وأنه هو أضحك وأبكى) فلم يؤت به في (وإنه خلق الزوجين، وأن عليه النشأة الأخرى) لأن ذلك لم يدع لغير الله، وأتى به في الباقي لادعائه لغيره"^(٣).

وهو استدلال جميل به نفس مجيء هذا الضمير في الخواتم المشتملة على أسماء الله الحسنی، يقول الإمام السهيلي: "وقد استنبطت دلالاته على الحصر من قوله

(1) شرح ابن عقيل: ٣٧٢/١.

(2) الإتقان: ٥٥/١.

(1) فتح القدير: ٥٨/١.

(2) الصنعاني، محمد بن إسماعيل: أصول الفقه المسمى (إجابة السائل شرح بغية الأمل)، تح. القاضي حسين بن أحمد، د. حسن محمد مقبولي الأهدل، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م، ٢٥١.

(3) الإتقان ١٣٧/٢.

(فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم) لأنه لو لم يكن للحصر لما حسن، لأن الله لم يزل رقيباً عليهم، وإنما الذي حصل بتوفيته أنه لم يبق لهم رقيب غير الله " (٤).

ونحن نذهب أبعد من ذلك فيما يتعلق بالحصر، إن حصر المعنى في المسند إليه، ونفيه عن غيره، كأنما هو من وجه آخر إثبات لغيره ما يخالفه، فإذا قلنا: الله هو العزيز، فإن هذه الجملة، تثبت العزة لله وحده، وتتفيتها عن سواه، وما نزيده نحن أنها تشير إلى ما يقابل المعنى في سواه، فهي إشارة إلى أن غيره تلتصق به معاني الذلة والهوان.

قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (لقمان: ٢٦).

فالآية لا تشير فقط إلى اختصاص المولى بالغنى، وقصره عليه مع تأكده، وإنما تشير إلى أن ما عداه، من آلهة مدعاة تلتصق بها الحاجة، ويعتريها النقص، ومن ثم فهي في ملكية للمولى، ومحتاجة إليه.

ومثل ذلك كثير في القرآن الكريم، وبمثله يعطى للخواتم المؤكدة بضمير الفصل، كقوله تعالى :

١ - ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (غافر: ٢٠)

٢ - ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (الذريات: ٥٨)

٣ - ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (الحج: ٦٢).

وهكذا يمضي السياق في جميع الآيات المشتمة على ضمير فصل، إثبات معاني الأسماء الشريفة الجليلة للمولى، وقصرها عليه، ومن ثم إلصاق أضدادها لما سواه، وهو جوهر الجمال في هذا الضمير.

ولقد لمحت ذلك واضحا جليا في قوله تعالى لموسى عليه السلام : ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ (طه: ٦٨). وذلك لما أوجس في نفسه خيفة موسى، إن بناء العبارة في

(4) المصدر السابق: ١٣٧ / ٢.

الآية السابقة تشير إلى جملة من المؤكدات، أراد المولى سبحانه بها أن يطمئن موسى أن الغلبة والظفر إنما هي له، وله فقط، وأن خصمه سيهزم قطعاً، وبالتالي يقضي على كل ذرة من خوف في داخله.

ومن جملة المؤكدات: التأكيد بأن المشددة، وضمير الفصل، وصفة العلو، وبناء الاسم على التفضيل، وتعريف اسم التفضيل، كل هذه المؤكدات ذكرها العلماء في تصانيفهم، ولكن ما لم يذكروه فيما وقع في يدي، أن ضمير الفصل هنا صنع صنيعة، لأنه لما كان اسم التفضيل يشير في بنائه بشكل عام إلى المشاركة بين الطرفين، اقتضى ذلك أن يكون للسحرة جزء من علو، وهذا ما ليس الأمر عليه، فجاء ضمير الفصل ليسلب هذه المشاركة في العلو و يؤكد الصفة التي تقابلها في السحرة، ليجعل العلو صفوا خالصا لموسى.

وحتى لا يقال فما بال كل هذه المؤكدات لموسى عليه السلام ؟ أيمكن قد بلغ به الخوف مبلغا يحتاج معه كل أشكال التأكيد السابقة، وهو يعلم أن الله أرسله، وأنه حتما سيظهره ؟!

إنها خيفة موسى، مع ما تحمله تلك اللفظة من دلالات، ولكنها خيفة مشروعة، لم تكن بسبب من البشر، ولا من ذلك السحر الباطل " إنما هو خوف ظهور السحرة عند العامة، ولو في وقت ما، وهو وإن كان موقنا بأن الله سينجز له ما أرسله لأجله، لكنه لا مانع من أن يستدرج الله الكفرة مدة قليلة لإظهار ثبات المؤمنين " (١).

(1) التحرير والتنوير : ٦٨/٩.

وهكذا يكون ضمير الفصل منبعاً لجملة من الدلالات يدركها من يتأمل القرآن، ويقف عند معانيه، ولنا أن نتأمل هاتين الآيتين لنجد أنهما تطابقتا إلا في ضمير الفصل الذي ذكر في واحدة، وحجب عن الأخرى ليضيف ما يضيف من معان ودلالات. قال تعالى:

١- ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (فصلت: ٣٦) .

٢- ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأعراف: ٢٠٠).

ما يستوقفنا في الآيتين السابقتين سؤال ملح، يفرضه علينا ضمير الفصل، لماذا أثبت الضمير في سورة (فصلت) ولم يذكره في سورة (الأعراف) ؟

يبين الجواب حين نضع كل آية في سياقها، فالآية الأولى مسبوقة بقوله : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (فصلت: ٣٣)، ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (فصلت: ٣٤)، ﴿ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (فصلت: ٣٥)، ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (فصلت: ٣٦). فلما كان السياق دعوة إلى عمل يشق على النفس الإنسانية التخلق به، وهو دفع السيئة بالحسنة، وهي منزلة متقدمة، وشاقة، لأن الإنسان قد يقوى على الصبر على السيئة، وقد يقوى أكثر فيسامح ويعفو، ولكن أن يقابل السيئة بحسنة من طرفه فهو من الصعوبة بمكان، من أجل ذلك قال: وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم، ولعظم الأجر الذي يقابل ذلك العمل الجليل، فإن وسوسة الشيطان تتضاعف، وجهده يزداد، فناسبه التوكيد بضمير الفصل لعظم حاجة المستعيز، الذي يستدعي وجوده تعريف الاسمين، لأن ضمير الفصل لم يرد في القرآن الكريم مع أسماء نكرة.

هذا من جهة، ومن أخرى أن السياق ههنا " لإثبات صفات كماله، وأدلة ثبوتها، وآيات

ربوبيته، وشواهد توحيده ^(٢). وليس الأمر كذلك في سورة الأعراف، فأية الأعراف جاءت مسبقة بقوله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (الأعراف: ١٩٩).

وهو مطلب يسير كما ترى فيه العفو والإعراض عن الجاهلين، فيناسبه، تأكيد بسيط كما جاء في الآية. يقول ابن القيم : " وحيث اقتصر على مجرد الاسم ولم يؤكد، أريد إثبات مجرد الوصف الكافي في الاستعاذة، والإخبار بأنه سبحانه يسمع ويعلم فيسمع استعاذتك فيجيبك، ويسمع ما تستعيز منه فيدفعه عنك، فالسمع لكلام المستعيز، والعلم بالفعل المستعاذ منه ^(١) . وقد أورد ابن الزبير الغرناطي أنه حيث لم يؤكد لم يكن هناك ما يوهم اشتراك في صفات، وحيث أكد كان هناك ما يوهم اشتراك في صفات العلم والسمع ، فأفردها الله سبحانه وتعالى ^(٢) .

٤- التأكيد ب(إن وضمير الفصل " أنت ") :

ما قد قيل فيما سبق يختص بضمير الفصل بشكل عام، ولكن سوغ لي هنا الفصل بين الضميرين، أن الضمير (أنت) جاء في خواتم الآي يحمل دلالات يمكن أن تتدرج في إطار عام .

فهو قد ورد في اثني عشر موضعا في القرآن الكريم، وفي المواضع جميعها جاء على لسان الأنبياء أو الملائكة أو الرسل أو غيرهم كما سنرى. وكذلك مما يلحظ أن هذا الضمير ورد في سياقات تشتمل على طلب أو نفي، ونقصد بالطلب: الأمر أو النهي الذي غرضهما الدعاء، لأن الأمر أو النهي إذا صدرا من الأدنى إلى من هو أعلى منزلة كان غرضهما الدعاء، إذن فقد جاء هذا الضمير بعد نفي أو دعاء.

(2) ابن قيم الجوزية، محمد بن بكر أيوب الزرعي: إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، تح. محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٥-١٩٧٥م ٩٦..

(1) إغاثة اللهفان : ٩٦. وانظر: السامرائي، فاضل صالح: التعبير القرآني، دار عمار، عمان، الطبعة الثانية، ١٤٢٢-٢٠٠٢م : ١٤٢.

(2) انظر: القرناطي، احمد بن إبراهيم بن الزبير: ملاك التأويل القاطع بروي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه من اللفظ أي التنزيل، تحقيق سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٨٣ م - ١٤٠٣هـ، ٣٨٧/١.

فلا يصح إذن أن يقال إن المخاطب هنا منكر أو متردد، لأن المخاطب هو المولى سبحانه وتعالى، كما لا يستقيم أن يقال إن المتكلم متردد أو منكر؛ لأن الآيات وردت على ألسنة من لا يعتقد فيهم إلا اليقين بالله وصفاته كما بينت كالأنبياء والرسل والراسخون في العلم... إلخ.

وجوهر الأمر أن الختم المشتمل على ضمير الفصل (أنت) إنما يجيء في معرض الثناء، وإثبات كمال الصفات للمولى، فإنهم لما كانوا يدعون مولاهم، كان عليهم أن يمتدحوه بآكد ما تصل إليه العبارة، وأشرف ما تبلغه الإشارة، ثم لما كانت هذه الصفات جليلة عظيمة، مستقرة في نفوسهم،

ثابتة في أفئدتهم وعقولهم، كان عليهم أن يذكروها بما هي عليه من ثبات عندهم، وأن يعكسوها على ما هي عليه من تأكيد ووضوح.

و"هناك ضروب من التوكيد، لا ينظر فيها إلى حال المخاطب وإنما ينظر فيها المتكلم إلى حال نفسه، ومدى انفعاله بهذه الحقائق، وحرصه على إذاعتها وتقريرها في النفوس كما أحسها مقرر أكيدة في نفسه" (١).

وبمثل هذا نعلل للتأكيد بضمير الفصل (أنت) في جميع الآيات التي ورد فيها. مع التذكير على أن إثبات الصفات للمولى وتفرد به، إنما هو سلب لتلك الصفات عن غيره، وإثبات ما يقابلها لغير الله. يقول ابن عاشور في معرض تفسير قوله تعالى :

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

(البقرة: ١٢٧). "وجملة إنك أنت السميع العليم تعليل لطلب التقبل منهما وتعريف جزأي الجملة والإتيان بضمير الفصل يفيد قصرين للمبالغة في كمال الوصفين له تعالى بتنزيل سمع غيره وعلم غيره منزلة عدم" (٢). ويمكن تطبيق ما قيل على هذه الآيات، قال تعالى :

(1) خصائص التراكيب: ٥٧.

(2) التحرير والتنوير: ٤٨١/١.

١. ﴿ رَبَّنَا لَا تُغِثْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ (آل عمران: ٨)
٢. ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ (ص: ٣٥)
٣. ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (غافر: ٨)
٤. ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ (المائدة: ١١٦)
٥. ﴿ إِذِ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (آل عمران: ٣٥).

٥- التأكيد ب(إن واللام وضمير الفصل):

وهي أقصى طاقة تحملها العبارة ليتخلق التأكيد بها على أكمل وجه، لتقابل أقصى قمة إنكار، وحين نرى هذا النوع من الخواتم المؤكد بأربعة تأكيدات: إن واللام وضمير الفصل وتعريف الاسمين الجليلين الكريمين، ندرك عندها أن قدرا من الإنكار قد وقع، تستنفر من أجله العبارة بأقصى درجات التوكيد لمواجهة هذا الإنكار، ومجابهة ذلك الرفض، قال تعالى :

﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (آل عمران: ٦٢).

ليس الختم فقط هو المؤكد، وإنما الآية كلها من بدئها إلى نهايتها، وما ذاك إلا لأن المخاطب منكر رافض، مشرك مع الله، يتخذ المسيح عليه السلام إله من دون الله، لأن النصارى لما علموا من عيسى أنه يحيي الموتى، ويبرئ الأكمه والأبرص، صار عندهم هذا الخلط، فأراد المولى أن ينبههم بأقصى طاقة للتوكيد أن عيسى ليس إله، كيف وما هو بعزیز ولا حكيم ؟ ولئن أعطي عيسى عليه السلام هذا القدر من القدرة، فإنه لا يكفي للالوهية التي هي العزة والغلبة وعدم القهر، وهم يقولون أنه قد قتل.

قال الإمام الفخر: " وفيه إشارة إلى جواب النصارى، وذلك لاعتمادهم على أنه قدر على إحياء الموتى، وأنه كان يخبر عن الغيوب " (١).
وأما الآية الثانية فقولته تعالى:

﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (الحج: ٦٤).

ليس غريبا أن تكون هذه الآية مؤكدة بهذه الطاقة التأكيدية العالية، لأن الآية تأتي في سياق آيات كثيرة مؤكدة بتوكيد ين أو أكثر، بل إن مما يقال أن من سمات هذه السورة كثرة المؤكدات، وما ذلك إلا لأنها تفتتح ببيان حال المنكرين المجادلين في الله. قال تعالى :

﴿ وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ ﴾ (الحج: ٣) وقوله:
﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ (الحج: ٥٥).

إن ذكر أحوال المنكرين المعاندين في السورة سبب مهم لفهم تدبيج السورة بهذا الحشد من أدوات التوكيد .

(1) انظر تفسير الفخر الرازي : ٩٤/٤ . بتصرف.

قال الإمام الألوسي: " وزيادة هو هاهنا دون ما في سورة لقمان من نظير هذه الآية لأن ما هنا وقع بين عشر آيات كل آية مؤكدة مرة أو مرتين، ولهذا أيضا زيدت اللام في قوله تعالى (إن الله لهو الغني الحميد، دون نظيره في تلك السورة، ويمكن أن يقال تقدم في هذه السورة ذكر الشيطان فلهذا ذكرت هذه المؤكدات " (١) .

وأما قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (الشعراء: ٩). مكررة ثماني مرات على امتداد السورة، فإن لها شأنًا عظيمًا، فهي موجهة للنبي صلى الله عليه وسلم، ولا يحتمل مع ذلك أن يقال إن المخاطب كان منكرا أو مترددا، فلماذا جاءت الآيات على هذا النحو من التأكيد ؟

إننا حين نستعرض مطلع السورة ندرك أنها جاءت تسليّة للنبي صلى الله عليه وسلم، حينما ألح عليه كفار قريش أن يأتي بآية، قال تعالى : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (الشعراء: ٣)

﴿ إِنَّ نَزْلَ عَلَيْنَا مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ (الشعراء: ٤).

فلما كانت تسليّة لقلب الحبيب فإن التوكيد حسن عند ذلك، لأنه يحدث مزيد اطمئنان، وبرد يقين، ولا سيما إذا تكرر على مدار السورة. هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن الآية تكررت في أعقاب تنزيل العقاب على أمم سالفة بعد تكذيب وقع منهم، وهذا تعريض لكفار قريش، فالتوكيد يناسب تماما شدة العقاب الذي أنزله المولى بالكفار من الأمم الغابرة، ولطيف الرحمة بالمؤمنين من أنبيائه.

ثم نهاية كل قصة تكذيب فيها ما يبرهن على عزته حين أهلك، ولم يمانعه أحد، وعلى رحمته حين رحم ، ولعل لفظ (ربك) دون لفظ الجلالة يكشف عن بعض هذه المعاني، في مجابهة المعاندين المستكبرين الرافضين.

(1) روح المعاني : ١٧/١٩١.

ثانياً: التقديم والتأخير:

إن (التقديم والتأخير) في اللغة العربية يقف دليلاً ساطعاً على ما تكتنزه اللغة العربية من طاقات إيحائية، ومستويات تعبيرية، قلما توجد في لغة من اللغات. إذ إن طاقات الإيحاء، ومستويات الدلالة تتماوج مع حركة اللفظ في الجملة من حيث تقدمه أو تأخره، بحيث يكون المعنى تبعاً للفظ، وحالة استقراره في الجملة. "إنه باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنتظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قدم فيه شيء، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان" (١).

فمنذ انفجار هذا الينبوع المتدفق على يد الإمام الجرجاني، وابتكاره نظرية النظم القائمة على رصد حركة المعنى في الجملة وفق ترتيبات قواعد علم النحو، والدراسات تترى في هذا المجال محاولة أن تتوقف على أسرار الجمال، ومواطن الإعجاب فيه.

والحق أن العالم الجليل سيبويه قد سبق الإمام الجرجاني في هذا الفن الجميل الرائع، بيد أنه قد اكتفى في تعليقه ظواهر التقديم والتأخير في الجملة بالعناية والاهتمام. قال صاحب الكتاب: "كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعاً يهمانهم ويعنيانهم" (٢).

مما دفع الإمام الجرجاني إلى القول "واعلم أنا لم نجد لهم اعتمدوا فيه شيئاً يجري مجرى الأصل غير العناية والاهتمام" (٣). وهو يشير إلى صاحب الكتاب في ذلك.

ومع علمنا أن العناية والاهتمام واحدة من جماليات التقديم والتأخير إلا أنه لا يمكن أن تختزل تلك الجماليات فقط في هذا اللون "وقد وقع في ظنون الناس أنه يكفي

(١) دلائل الإعجاز: ٧٧.

(٢) الكتاب: لسبويه: ٦/١.

(٣) دلائل الإعجاز: ٧٧.

أن يقال إنه قدم للعناية ولأن ذكره أهم، ولتخليهم ذلك قد صغر أمر التقديم والتأخير في نفوسهم، وهونوا الخطب فيه " (4).

والحقيقة أن البلاغيين قد اهتموا بهذا الفن وجعلوا علم المعاني مجال دراسته، وخاصة ما يتعلق بتقديم المسند والمسند إليه، ومتعلقات الفعل. وبحثوا علله وأغراضه، وهي مستفيضة في كتب البلاغة العربية.

ولقد قسم الإمام الجرجاني رحمه الله - التقديم والتأخير إلى قسمين:

١ - تقديم على نية التأخير: " وذلك في كل شيء أقررت مع التقديم على حكمه الذي كان عليه، كالمفعول إذا قدمته على الفاعل (ضرب عمرا زيد) " (1) وكذلك فيما يختص بمتعلقات العامل، " كتقديم المفعول به على فعله، و تقديم الحال على فعله، وتقديم الظرف والجار والمجرور على فعلهما، وتقديم الخبر على المبتدأ، وهو في الغالب يفيد الاختصاص " (2).

٢ - تقديم لا على نية التأخير: " ولكن على أن تنقل الشيء عن حكم إلى حكم، وتجعل له بابا غير بابه، وإعرابا غير إعرابه، وذلك أن تجيء إلى اسمين يحتمل كل واحد منهما أن يكون مبتدأ ويكون الآخر خبرا له فتقدم تارة هذا على ذاك كقولك: (ضربت زيدا) و(زيد ضربته) " (3).

فهو إذن تقديم ألفاظ بعضها على بعض في غير عامل، كتقديم لفظ على آخر، في موضع، ثم تأخيره في موضع آخر.

فمن الأول قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥)، وقوله: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (الزمر: ٦٦) وقوله: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنْصَبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (إبراهيم: ١٢).

ومثال الثاني أن يقدم ألفاظا على غيرها لعل قد تكون التقدم بالزمان، كقوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثُمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِينِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ (العنكبوت: ٣٨)، وقد تكون التقدم بالسببية كقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ

(4) المصدر السابق: ٧٧.

(1) دلائل الإعجاز: ٧٧.

(2) التعبير القرآني: ٤٩.

(3) دلائل الإعجاز: ٧٧.

الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ (البقرة: ٢٢٢) فإن التوبة كما يرى ابن الأثير سبب في التطهير من الدنس، ومنه ما يكون تقدم بالشرف كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيَسْتَمِعَ نِعْمَةً عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ (المائدة: ٦) فإن الوجه أشرف من اليد، وكذلك الرأس أفضل من الرجل. ^(١) على أن التقديم للاهتمام يمكن أن ينسحب على كل تقديم، سواء كان على نية التأخير، أو مما لا عامل له ولقد " جعل السكاكي التقديم للعناية مطلقا سواء كان من معمولات الفعل أو غيرها " ^(٢).

تقديم المتعلق على المسند:

على أننا هنا لا نتناول التقديم والتأخير بشكل عام في القرآن الكريم، فهذا مما لا يدخل في نطاق الدراسة، وإنما نهدف فقط إلى تناول التقديم والتأخير الذي يقع في بناء الخاتمة التي تشتمل على أسماء الله الحسنى، كقوله تعالى :

﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة: ٢٠)، حيث قدم شبه الجملة (على كل شيء) وهو المتعلق على المسند (قدير). ولقد قمت باتباع التقديم والتأخير في الخواتم القرآنية المشتملة على الأسماء الحسنى فوجدته لا يعدو هذا النوع، تقديم المتعلق الذي هو في الأغلب شبه جملة، على المسند، وقد بلغ ما يزيد على مائة وخمسة وأربعين موضعا.

(1) انظر : الطراز للعلوي: ٢٣١.

(2) طبق، عبد الجواد محمد: دراسة بلاغية في السجع والفاصلة القرآنية، دار الأرقم، الطبعة الأولى، ١٤١٣-١٩٩٩م، ١١٨.

ومثال تقديم المتعلق على المسند ما مثل له الزمخشري في قوله تعالى :

﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾ (مريم: ٩).

" حيث قصد الاختصاص هو علي هين، وإن كان مستصعبا عندكم أن يولد بين هرم وعافر" (٣)، فالتقديم إذن في مثل هذا النوع كما يراه الزمخشري يفيد الاختصاص، وبمثله يقول الإمام الطوفي : " ومنها تقديم الجار والمجرور وله صورتان:

أن يكون في كلام مثبت، وفائدته اختصاص المجرور دون غيره بإسناد ما بعده من معنى الكلام إليه، كقوله تعالى (ومن كفر فعليه كفره) ولو قال فكفره عليه لاحتمل قبل ذكر الجار والمجرور التردد المذكور، وكقوله تعالى (له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير) أفاد أنه قادر على كل مقدور، بخلافه (وهو قدير على كل شيء) إذ يحتمل قبل ذكر لفظ العموم أنه قدير على بعض الألفاظ فقط " (٤).

وكذا يرى الإمام العلوي في (الطراز): " واعلم أن الظرف لا يخلو حاله إما أن يكون واردا في الإثبات، أو يكون واردا في النفي، فإذا ورد في الإثبات فتقديمه على عامله إنما يكون لغرض لا يحصل مع تأخيرها وهو على وجهين: أولها دلالاته على الاختصاص، كقوله تعالى: (له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير) ، فهذا الظرف لا وجه لتقديمه على عامله إلا ما ذكرناه من الاختصاص " (١).

وأما كون المتعلق يتقدم على المسند في كلام منفي، فهو كقولك : هذا سيف لا فيه عيب " وفرق بين قولك : هذا سيف لا عيب فيه، وقولك: هذا سيف لا فيه عيب، فالأول لنفي العيب فقط، والثاني لنفيه على وجه الاختصاص وفيه إثبات العيب لغيره من السيوف " (٢)، من أجل ذلك نرى قوله تعالى (لا ريب فيه) فهنا لم يحدث تقديم، حيث وقع النفي " للريب عن الكتاب الكريم دون التعرض لمعنى الاختصاص، ولو قال : لا فيه ريب لأفاد قصر نفي الريب عليه وأن هناك ريبا في الكتب الأخرى وليس هذا المراد " (٣). ولن نطيل الوقوف عند هذا النوع المنفي، لأن التقديم والتأخير في خواتم الآيات لم يكن منفيًا.

(3) الكشف: ١٤٦.

(4) الطوفي، سليمان بن عبد القوي بن عبد الكريم: الإكسير في علم التفسير، تح. عبد القادر حسين، دار الأوزاعي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٩-١٩٨٩م، ١٩٢.

(1) الطراز : ٢٣٦.

(2) خصائص التراكيب : ٢٥٠.

(3) المصدر السابق : ٢٥٠.

لقد اعتبر الإمام العلوي أن الغرض الثاني للتقديم والتأخير في الجملة المثبتة، أنه لمراعاة السجع في قوله : " وثانيها أن يكون تقديمه من أجل مراعاة المشاكلة لرؤوس الآي في التسجيع " ^(٤). وهو ما لا يقول به كثير من البيانين، " وكثير من البيانين لا يوافقون على تفسير الخصائص البلاغية في القرآن تفسيراً يرجع إلى اللفظ الذي منه الحسن البديعي لذلك يرفضون كلام الشيخين العلوي وابن الأثير والذي نراه أنه لا تزامم في النكات والأسرار وأن التقديم في الآيات الكريمة يفيد الفائدةين " ^(٥).

إن تفسير التقديم والتأخير لغرض مناسبة رؤوس الآي، أمر لم يعد مقبولا، ولا مقنعا أن يقال قدم وأخر مراعاة للفاصلة، فإن المتحدث عنه كلام رب العالمين، الذي لا يخضع لضرورة، ولا يضطر إلى شكل بعينه، ولئن كان السجع يعد من جماليات البديع الذي جرت عليه سنن العربية، ودرج في لغة العرب واستخدمه أدباؤها وخطباؤها، وأن القرآن قد جاء على لغة العرب، وأنه لا تقليل من قدر القرآن في استخدام السجع؛ إلا أنه لا يحسن أن يعلل التقديم والتأخير بهذه العلة، وإنما يجب إمعان النظر والتأمل في جماليات التركيب في نظم القرآن، ليتسنى كشف مواطن جمالية أخرى يكون السجع أحدها وليس كلها.

وحتى أولئك الذين عللوا المخالفة للأصول بالمناسبة، ولم يذكروا معها أي علة بلاغية أخرى، ومنهم ابن الصائغ الذي أورد له السيوطي أربعين موضعا خولف فيه عن الأصل على رأيه، فإنهم احتاطوا لأنفسهم، ولم يقللوا باب البحث عن علل أخرى يقول الشيخ شمس الدين ابن الصائغ فيما أورده السيوطي : " ولا يمتنع في توجيه الخروج عن الأصل في الآيات المذكورة أمور أخرى مع وجه المناسبة، فإن القرآن العظيم كما جاء في الأثر لا تفنى عجائبه " ^(١).

هذا مع العلم أن هناك آيات كثيرة سأسوقها في موضع الحديث عنها وردت يصلح معها تأخير المتعلق على المسند، حيث يصلح لرأس الآية التقديم والتأخير على حد سواء.

(4) الطراز: ٢٣٦.

(5) الخصائص: ٢٥٠.

(1) الإتيان: ٢٧٠/٢.

فالباحث لا يرى أن تعليل التقديم والتأخير لرعاية رؤوس الآي، أو الفواصل كاف، وإنما من تمام الإعجاز أن يجتمع الأمران معاً، أمر سلامة المعنى ودقته وتمامه مع ما يحمله من وجوه بلاغية مختلفة يشع بها اللفظ، وأمر مراعاة جماليات سبك العبارة، وعذوبة قفل الآية بها مراعاة لإيقاع آيات سبقتها، وآيات تتلوها وهما معاً ما يتم به الإعجاز، أما غير ذلك فهو مم ينطبق على الشعراء شعرهم و نثرهم.

يقول الإمام الزمخشري: "ولا تحسبن المحافظة على الفواصل لمجرد ما مع بقاء المعاني على سدادها على النهج الذي يقتضيه حسن النظم والتثامه، كما لا يحسن تخير الألفاظ المونقة في السجع، السلسة على اللسان إلا مع مجيئها منقادة للمعاني الصحيحة المنتظمة، فأما أن تهمل المعاني، ويهتم بتحسين اللفظ وحده غير منظور فيه إلى مؤداه على بال فليس من البلاغة في فتيل أو نقيض" (٢).

وكذا يقول الإمام الرازي: "وإعجاز القرآن ليس في السجع، وذلك لأن الشاعر يختار اللفظ الفاسد لضرورة الشعر والسجع، ويجعل المعنى تبعاً للفظ، والله تعالى بين الحكمة على ما ينبغي، وجاء باللفظ على ما ينبغي" (٣).

إذن إذا سلمنا بالقول أن التقديم في الخواتم يكون لرعاية الفواصل، فإنه يجب أيضاً البحث عن تعليل آخر يضاف إلى السبب السابق، ليس لأننا نتكلف البحث، وإثبات الإعجاز، بل لأن الأمر هو كذلك على حقيقته، إشعاع لمعنى جديد نابع من حركة اللفظ في السياق.

وقد قسمت التقديم والتأخير في الخواتم قسمين:

قسم يفصل بين المسند والمسند إليه بشبه الجملة (على كل شيء) حيث يتقدم المتعلق على المسند. كقوله تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: ٢٠).

وقسم آخر يفصل فيه بين المسند والمسند إليه بالفعل المضارع (يعملون) مسبوقاً بشبه الجملة الباء و(ما) الموصولة. كقوله تعالى: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ

(2) دراسة بلاغية في السجع والفاصلة القرآنية: ٥.

(3) تفسير الفخر الرازي: ٨٢/١٥.

يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ (آل عمران: ١٢٠).

أولاً: تقدم شبه الجملة (على كل شيء):

وردت شبه الجملة السابقة مقدمة فيما يزيد عن خمسين موضعاً في القرآن الكريم، وكانت في المواضع جميعها ختماً للآيات الكريمات.

ولقد وردت مقدمة على المسند في جميع المواضع، وكان المسند دائماً صفة من صفات الله الحسنى. (كالتقدير) كقوله تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: ٢٠).

أو (الشهيد) كقوله تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (المائدة: ١١٧).

أو (الحفيظ) كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾ (هود: ٥٧).

أو (الرقيب) كقوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَغْنَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً﴾ (الأحزاب: ٥٢).

وكان واضحاً أن تقدمها مع (التقدير) أكثر من غيره، حيث بلغ تكرارها مع (التقدير) ما يزيد عن ثلاثين مرة.

والبحث في هذا السياق يدور عن أهمية هذا التقديم، وقيمه الجمالية. وعلماء التفسير رأوا في هذا التقديم أنه لرعاية الفاصلة، ومنهم من رأى أنه للحصر يقول أبو السعود في سياق تفسير قوله تعالى:

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (المائدة: ١٢٠).

"وتقديم الجار والمجرور على الفعل لرعاية الفواصل " (١). وبمثله يقول الإمام الألويسي: "وتقديم (بكل شيء) على بصير للفاصلة أو للحصر " (٢).

واضح أنه ليس من سلامة النظم ولا من عذوبته أن يتأخر الجار والمجرور، وأن تقدمه أعطى جمالا للنظم من حيث عذوبة السبك، ومتانة البناء، وسلامة الإيقاع وحسن القفل به، ولكن إضافة لذلك تبرز أهمية التقديم في كونه أيضا يفيد الاختصاص، فإن المولى وحده هو الذي يختص بقدرته على كل شيء دون سواه، وهو الذي يتفرد بكل وصف تقدمت عليه شبه الجملة.

إن شبه الجملة (على كل شيء) تستقل بعدم صلاحيتها للتعلق بأي وصف للبشر، أو أي مخلوق، وهي على ما هي عليه من شمول مطلق لا تصلح إلا للمولى، فهو سبحانه على كل شيء قدير، وهو على كل شيء حفيظ، وهو كذلك على كل شيء شهيد إلى غير ذلك من صفات ينفرد بها المولى.

وحين نجد هذا المتعلق متقدما فإن ما يشع لنا بتقدمه من معنى أنه ليس المقصود إثبات معنى المسند إلى المسند إليه فقط، وإنما المقصود إثبات معنى المتعلق إلى المسند أولا، ومن ثم يسند المعنى بطبيعة التركيب إلى المسند إليه.

فالفرق بين التركيبين (والله قدير على كل شيء) و (الله على كل شيء قدير) أن الأول فيه إثبات معنى القدرة لله سبحانه وتعالى أولا، ومن ثم إثبات شمولية قدرته على الأشياء كلها، ولكن الأخير فيه أولا: إثبات الشمولية لمعنى القدرة ومن ثم إسنادها إلى الله سبحانه وتعالى واختصاصه بها دون غيره، ومن العلماء من يذهب أن التركيب يفيد أيضا نفيا عما سواه.

إذن ليس سواء في المعنى تقدم المتعلق وعدمه، فقد بان أن التقدم فيه زيادة في المعنى لا يتأتى بغيره. ولا يتحقق بسواه.

إن مثل ذاك التقديم يبرز صفات الله سبحانه وتعالى على كمالها، بحيث يجعلها صفوا خالصا للمولى لا يشاركه فيها أحد من البشر، وهو معنى يراد من كل تقديم

(1) إرشاد العقل السليم: ١١٤/٣.

(2) روح المعاني: ٢٩/١٦.

وتأخير على هذا النحو الذي بيناه، لأن العبد إلى ذلك أحوج، فإن العبودية التي انفطر الإنسان عليها تحتاج ليس فقط إلى إثبات كل معاني الكمال للمولى، وإنما ترغب في تجريدها وقصرها عليه، بحيث تكون خاصة به دون غيره.

ومن هنا كان " من الأسس التي بني عليها ترتيب المتعلقات أنهم يقدمون منها ما هو أوثق صلة بغرض الكلام وسياقاته " ^(١). فتجريد الصفات واختصاص المولى بها وحده هو الأهم في قفل تلك السياقات المختلفة (الآيات). لأن الأذهان قد تتوهم أن ثم من يشارك المولى في صفاته، وأن أحدا ربما يرى أن الإنسان قادر أو بصير لقوله تعالى :

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ (الإنسان: ٢).

فينصرف ذهنه على شراكة الإنسان مع خالقه في صفاته، فيأتي التقديم والتأخير ليزيل هذا الوهم، ويثبت في اختصاص فريد معنى الصفة للمولى، بشمولها وكمالها. يؤنسنا فيما ذهبنا إليه أن السياق حينما يتطلب إثبات القدرة مثلا على شيء بعينه لا يؤت بالجار والمجرور (على كل شيء) وإنما يحدد الأمر بدقة كقوله تعالى :

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴾ (النساء: ١٣٣).

أو كقوله : ﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَأْثَمَ ظُلْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ (الحج: ٣٩).

ففي الآيتين السابقتين لم يتطلب السياق الجار والمجرور الذي يفيد الشمول، ذلك لأن الأمر المشار إليه محدد في الآيتين، وهو الذهاب بالناس في الآية الأولى، ونصر المظلومين في الثانية، وهو ما يؤكد أن التقديم والتأخير يكون استجابة للسياق، وما ينتجه من معاني، وما يشع به من دلالات.

على أن التغيير في الترتيب له من التأثير ما يفوق التركيب الأصلي " فكل شيء يخالف العادة هو أكثر تأثيرا في الفهم من المألوف " ^(٢).

قال تعالى : ﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (هود: ٤).

فالملاحظ أن الآية السابقة لم تختتم مثلا بقوله و(الله قدير) إذن لفهم قدرته على إحياء الموتى وإرجاعهم إلى مولاهم فقط، ولكن التقديم في الآية يؤكد المعنى السابق ويزيد أن المولى يختص بذلك وحده، وزيادة في تثبيت المعنى أنه قدرته مطلقة تشمل

(1) خصائص التراكيب: ٢٩٤.

(2) إفادات التقديم وأشكاله (مقالة): رشيد بلحبيب.

كل شيء يمكن أن يتخيله العقل أو يرقى إليه الخيال.

قال تعالى: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة: ٢٥٩).

ففي الآية السابقة نرى أن عزيز بعد أن بانث له قدرة مولاه على الإحياء وتيقن حق اليقين برويته بناظريه مظاهر قدرة الله، لم يكن ليقول (أعلم أن الله قدير) وإنما كان استنتاجه مما رأى أن الله على كل شيء قدير، فهو المختص بتمام القدرة وكمالها، وهو الذي على كل شيء يقدر فلا يعجزه شيء.

إن هناك مجموعة من الخواتم القرآنية يجب حسبما أرى أن يتقدم فيها المتعلق، ولا يحسن بتأخره النظم، كقوله تعالى:

١ - ﴿ رَبُّكُمْ الَّذِي يُرْجِي لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ (الإسراء: ٦٦).

٢ - ﴿ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾ (طه: ٣٥).

٣ - ﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ (مريم: ٤٧).

فالآيات الثلاثة السابقة ليس المقصود فيها إثبات معنى الصفة للمولى سبحانه وتعالى، وإنما كان المراد وفق سياق المعنى إثبات تعلق الصفة بالجار والمجرور، فالرحمة في الآية الأولى مختصة بهم، فلما قدم مظاهر رحمته عليهم، كان يلزم بيان أنها لهم دون غيرهم، وكذا في الآية الثانية المراد أنه بهما بصيرا، لأن المعنى البؤرة وسياق النص يدور عنهما، وكذا إبراهيم في حوار مع أبيه أراد بيان أن حفاوة الرحمن كانت به دون غيره، لأن السياق يتمحور حول إبراهيم عليه السلام.

إن من تمام النظم أن تتحرك الألفاظ تقدما وتأخيرا وفق حركة المعنى البؤرة في السياق، " وهو ما يفهم من تحديد بؤرة الاهتمام بمضمون اللفظ بواسطة التقديم والتأخير " (١).

(1) إفادات التقديم وأشكاله: رشيد بلحبيب.

ثانياً: تقديم (بما تعملون) على المسند:

وهذا نوع يبين فيه الغرض الحقيقي للتقديم، ويتجلى بوضوح ذاك لأنه إن جاز أن يقال في النوع الأول أن التقديم كان لمراعاة الفاصلة ولا تستقيم سلامة النظم إلا بتقديمه، وأنه لا يحسن ختم الآية بالمتعلق (على كل شيء) فلا يقبل هذا القول هنا مطلقاً، لأن المتعلق والمسند كليهما مما يحسن به الختم، بل يكون الختم بكليهما وفق رؤوس الآي، ومراعياً للفاصلة تماماً، ولا سيما أن القرآن الكريم حفل بهذين النوعين: نوع تقدم فيه المتعلق (بما تعملون) ونوع تأخر فيه، وحسن كل نوع في موقعه. مثال الأول قوله تعالى:

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكُونُوا الشَّاهِدَةَ وَمَنْ يَكُنْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٨٣).

ومثال الثاني قوله سبحانه: ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غَلَامٌ وَأَسْرُوهُ بَضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ (يوسف: ١٩).

ففي الآية الأولى قدم (بما تعملون) على (عليم)، فطاب التقديم وجمل، وهو مما يصلح الختم به، ولكن إيثار التقديم كان لمعنى. وفي الآية الثانية قدم (عليم) على (بما يعملون) فجاء الكلام على أصله في غير تقديم.

ففي مثل هذا النوع يستبعد تماماً القول كان التقديم لمراعاة رؤوس الآي، لأن في التأخير - كما رأيت - صلاحية لرعاية رؤوس الآي.

وهنا أعيد التأكيد على مبدأ قد قرره العلماء من قبل، وأساس عام يفهم التقديم والتأخير في سياقه، وهو أن العرب تقدم من هو بسياق الكلام أهم، ويتقدم من الألفاظ الذي هو ألصق بمحور الحديث وبؤرته، وهو الذي جعل العلماء يبحثون عن المعنى البؤري ليتسنى لهم فهم جماليات التركيب، من تقديم وتأکید وحذف وما شابه.

ففي المثالين السابقين يمكن فهم التقديم والتأخير بسهولة حين الإطلال على المعنى البؤرة في السياق. فآية سورة البقرة تأتي في سياق تشريعات يشرعها المولى للبشر، ويوضح لهم بها سبل التعامل، وهي تجلت في مجموعة من الأوامر والنواهي الواضحة الصريحة (فرهان مقبوضة، فليؤد الذي أؤتمن أمانته، وليتق الله ربه، ولا تكتموا الشهادة) إن هذه الأوامر والنواهي تتعلق بالأعمال التي تصدر عن العباد، وإن

المهم هنا هو أعمال العباد، وإنه لا يراد إثبات صفة العلم المطلق للمولى في الآية ، وإنما المراد أنه يعلم أعمالهم، ومن هنا كان تقديم الأعمال. لأن في التقديم تحذير لهم، قال الإمام الفخر رحمه الله: " والله بما تعملون عليم وهو تحذير من الإقدام على هذا الكتمان، فإنه يعلم أنه تعالى يحاسبه على كل تلك الأفعال، ويجازيه عليها " (١).

وأما الآية الثانية التي في سورة يوسف فإن محور الآية هو رصد أفعالهم، وما قاموا به تأمر وكيد بأخيه يوسف عليه السلام، فالإشارة إلى العلم هنا أهم، لأن النفس هنا تكون قلقه خوفا على يوسف، وترغب في ما يشير إلى معية الله له، ومن هنا كان بناء الخاتمة على الأصل، حيث بدأ ب(العليم)، فلا أهمية أن يتقدم المتعلق (بما يعملون)، فليس المهم هنا أعمالهم وإنما المهم أن الله يعلمها ومن ثم يحيط يوسف برعايته فيحبط مكرهم.

والحق أنني تتبعت الآيات التي تقدم فيها المتعلق (بما تعملون)، وتتبعته التي تأخر فيها، وجاءت على الأصل، فوجدتها لا تخرج عن هذا المبدأ.

فالآيات التي تقدم فيها المتعلق (بما يعملون) كان المحور فيها هو العمل والسلوك، وهو المهم ومن ثم كانت تشتمل في أغلبها أوامر ونواه واضحة، وكأن المراد هو التحذير والتنبيه إلى استقامة السلوك وفق ما أمر الله به ونهى عنه، وحين يتقدم المتعلق فللذهن عندها أن ينصرف إلى أن المولى أراد الإشارة إلى أهمية الأعمال، وأنها هي البؤرة في معنى الآية ولهذا قدم ما يشير إليها. والآيات في هذا المقام كثيرة تبلغ ما يزيد عن الثلاثين، ولكنني سأكتفي بإيراد بعضها.

قال تعالى :

١ - ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ

بَصِيرٌ ﴾ (البقرة: ١١٠)

٢ - ﴿ وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (البقرة: ٢٣٤).

٣ - ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ

(1) تفسير الفخر الرازي: ١٣٤/٤.

كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿ (آل عمران: ١٥٦).

٤ - ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَتَى إِلَيْكُمُ السَّلَامُ لَسْتُ مُؤْمِنًا نَبْتَعُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿ (النساء: ٩٤).

فالآيات السابقة تقدم فيها المتعلق (بما تعملون) لأن المهم في الآيات السابقة هو السلوك الناتج، الذي يجب أن يراعي صاحبه رضى الله، ومن ثم كانت الآيات تشتمل على أوامر ونواه على الترتيب (أقيموا الصلاة، فلا جناح عليكم، لا تكونوا كالذين كفروا، فتبينوا).

ففي الآية الأولى آية سورة البقرة يقول الإمام ابن عاشور رحمه الله: " تذييل لما قبله، وفي هذا وعد لهم ويتضمن وعيد لغيرهم " (١). فليس تركيب الخاتمة يشير إلى إثبات صفة البصر لله سبحانه وتعالى فحسب بل الإشارة إلى أن أعمالهم واقعة تحت بصره، ولما كان التقديم للأعمال فكأنه حث للمؤمنين وتحذير لغيرهم.

وحين تتبعت الخواتم التي جاءت على الأصل، والتي بلغت ما يزيد عن خمس عشرة آية، بان لي أنه حسن فيها المجيء على الأصل لأن المحور في الآية لم يكن إلا الإشارة إلى صفة المولى كالقدرة والعلم والبصر وغيرها. قال تعالى:

١ - ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنِ أَمْرَهُمْ لَيُخْرِجَنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةً مَعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿ (النور: ٥٣).

٢ - ﴿ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿ (النحل: ٢٨).

٣ - ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿ (النور: ٤١).

(1) التحرير والتنوير: ٤٤٠/١.

فانظر في الآية الأولى كيف أن المنافقين لما كانوا كاذبين في قسمهم وأمروا أن لا يعيدوا القسم لأن طاعتهم كاذبة معروف كذبها لا يغير وهنّها القسم، وكان الأمر متعلق بما هو آت أو ما استقر في أعماقهم، كان الأحوج للسياق الإشارة إلى علم الله بما في قلوبهم، ولأنه أخبر عن مكنونات صدورهم في الآية أكد ختمها بأنه الخبير بهم وبنواياهم وبأعمالهم. فإن الختم يأتي كالتعليل لما أخبر عنهم "وجملة إن الله خبير بما تعملون صالحة لتذييل الاحتمالات المتقدمة وهي تعليل لما قبلها" (١).

ثم انظر إلى جمال التركيب في الآية الثانية، فإنهم لما أنكروا أعمال السوء التي اقترفوها، كان الأنسب للسياق أن يشار إلى علم الله لأنه هو الذي سيدحض حجتهم، ويبين عن كذبهم، لذا جاءت الآية مؤكدة، ولم يتقدم فيها المتعلق مع صلاحيته للتقديم، وظل (العليم) في موقعه لم يؤخر لأن السياق إليه أحوج، وهو إلى دحض حجتهم أقرب. وكذا في الآية الثالثة فإن تسبيح الأشياء جميعها في السماء والأرض والمخلوقات كلها، بما فيها الطيور أمر في منتهى الغرابة بالنسبة لنا لأننا نجهله، وكونه يقع في دائرة جهلنا فإننا إلى إثبات العلم به من جهة المولى أحوج، ولما كان تسبيح الجمادات والكائنات مظنة وهم أن تسبيحها لعدم أهميته، وانفطارها عليه، غير مهتم به من قبل المولى، كانت الإشارة إلى علم الله به أكثر أهمية للسياق منه ذاته، فبعد تبين فعل الكائنات من تسبيح وصلاة لزم بعدها الإشارة إلى علمه بهذا التسبيح.

إن الدراسة المتأنية والعميقة والواعية للتقديم والتأخير في القرآن الكريم بعامة وفي خواتم الآيات بخاصة يكشف عن وجوه من الإعجاز ما كانت لتظهر بغيره، ويبين عن كمال المعنى وشرفه.

وليس الأمر فقط يقف على إظهار جوانب الإعجاز بل إن فهم التقديم والتأخير يساعد إلى حد كبير على فهم المعاني القرآنية بدقة، من خلال حركة تدفق الدلالات، وهو ما يملئ على جمهور الدارسين في هذا الحقل أن يهتموا أولاً بدراسة السياق والمعنى البؤري فيه، وتحديد وجهة المعنى وحركته في السياق.

(1) التحرير والتنوير: ١٩/١٠.

ثالثاً: الالتفات:

الالتفات فن جليل من فنون البلاغة العربية، جرى اللسان العربي قديماً وحديثاً على سننه، وله حظ عظيم من تراث العرب البلاغي، فضلاً عن حضوره الوافر في التراث الأدبي شعراً كان أو نثراً. ولأهميته جعل الإمام العلوي يمتدحه قائلاً: "اعلم أن الالتفات من أجل علوم البلاغة وهو أمير جنودها، والواسطة في قلائدها وعقودها"^(١). ولعل أقدم إشارة وردت في كتب التراث يمكن التقاطها حول الالتفات هي القصة التي أوردها الإمام القيرواني في (العمدة) عن الأصمعي المتوفى سنة ٢١٦ هـ "وحكي عن إسحاق الموصلي أنه قال: قال لي الأصمعي: أتعرف التفات جرير؟ قلت: وما هو؟ فأشددني:

أتنسى إذ تودعنا سليماً بعود بشامة سقي البشام

ثم قال: أما تراه مقبلاً على شعره، إذ التفت إلى البشام، فدعا له، "^(٢). وزيادة في الحفاوة بهذا الفن لقب ب(شجاعة العربية)، يقول الإمام العلوي: "وقد يلقب بشجاعة العربية والسبب في تلقيبه بذلك هو أن الشجاعة هي الإقدام. والرجل إذا كان شجاعاً فإنه يرد الموارد الصعبة، ويقتحم الورط العظيمة حيث لا يردّها غيره، ولا يقتحمها سواه"^(٣). والإمام العلوي يرى أنه فن تختص به اللغة العربية وتتفرد به عن سائر اللغات، "ولا شك أن الالتفات مخصوص بهذه اللغة العربية دون غيرها"^(٤). ولئن كان من المناسب أن يلقب ب(شجاعة العربية) إلا أن التعليل لهذه التسمية محل نقاش ذلك أن الشجاعة تكون فيما نحسب في المقدرة على ترك خطاب المخاطب والالتفات عنه إلى غيره، وكذلك في مواجهة المخاطب بالخطاب بعد أن كان موجهاً للغائب. أو هو بعبارة أخرى كما يرى أحد علماء البلاغة المعاصرين "والذي نراه لأن الشجاعة هنا إقدام على أنماط من التعبير مخالفة لما يقتضيه الأصل؛ لأنها تعبير بأسلوب الخطاب في سياق الغيبة، وذكر الغيبة في سياق الخطاب، وهذا إن تأملته ضرب من الشجاعة، يتلاءم مع ما ذكره (ابن جني) في باب سماه (شجاعة العربية) وأراد به الحذف والتقديم والحمل على المعنى وغير ذلك مما هو خلاف الأصل"^(٥).

(١) الطراز: ٢٦٥.

(٢) العمدة: ٣٨١/١.

(٣) الطراز: ٢٦٥.

(٤) المصدر السابق: ٢٥٦.

(٥) خصائص التراكيب: ١٩٥.

فإذا ما أردنا التأمل في معنى الالتفات لغة فإن الأصل الثلاثي للفظ يكشف إلى حد كبير عن معناه الاصطلاحي، فالفعل (لفت) في اللغة يشير إلى التحول والانصراف " لفت وجهه عن القوم: صرفه، وتلفت إلى الشيء، والتفت إليه: صرف وجهه إليه " (١). ولعل هذا هو مكن السر في التسمية بهذا الاسم " وسمي بذلك أخذاً له من التفات الإنسان يميناً وشمالاً، فتارة يقبل بوجهه وتارة كذا، وتارة كذا، فإنه ينتقل من صيغة إلى صيغة، ومن خطاب إلى غيبة، ومن غيبة إلى خطاب إلى غير ذلك " (٢).

إن أسلوب الالتفات في معناه الاصطلاحي : هو العدول من أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر مخالف للأول " (٣) وهو كما نرى تعريف شامل لم يقتصر على ذكر أوجه الكلام من خطاب وغيبة وتكلم، ويعلل الإمام العلوي لهذا التعريف قائلاً: " وهذا أحسن من قولنا : هو العدول من غيبة إلى خطاب ومن خطاب إلى غيبة لأن الأول يعم سائر الالتفاتات كلها، ولا شك أن الالتفات قد يكون من الماضي إلى المضارع وقد يكون على عكس ذلك " (٤).

إن من أوائل الذين بانوا عن جمالية الالتفات ووظيفته في الجملة هو الإمام الزمخشري رحمه الله، حين شرع في تفسير سورة الفاتحة، وبحث عن سر الالتفات من الغيبة إلى الخطاب فيها، في قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الفاتحة: ٢)، ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ (الفاتحة: ٣)، ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ (الفاتحة: ٤)، ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (الفاتحة: ٥).

" فإن قلت لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب، قلت: هذا يسمى الالتفات في علم البيان، وقد يكون من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم وذلك على عادة افتتانهم في الكلام، وتصرفهم فيه، ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجراءاته على أسلوب واحد، وقد تختص مواقع بفعائد " (٥).

وشرع الزمخشري رحمه الله في توضيح الفوائد وما اختص به هذا الموضوع، غير أن بعض من جاء بعد الإمام الزمخشري لم يرقه ما قال وجعل ينقض قوله عروة

(1) اللسان : ٢١٤/١٣.

(2) الطراز : ٢٥٦.

(3) المصدر السابق: ٢٥٦.

(4) الطراز : ٢٦٥.

(5) الكشف : ٨/١.

عروة، كابن الأثير، ثم انبرى من يحمل راية الدفاع عنه، والانتصاف له، كالعلاوي يرحمهم الله جميعا.

ولسنا هنا بصدد تحليل تلك المساجلة التي كانت بينهم، والوقوف عليها إلا بالقدر الذي يوضح به حدود الالتفات.

يقول ابن الأثير: "والذي عندي في ذلك أن الانتقال من الخطاب إلى الغيبة، أو من الغيبة إلى الخطاب لا يكون إلا لفائدة اقتضته، وتلك الفائدة أمر وراء الانتقال من أسلوب إلى أسلوب، غير أنها لا تحد بحد، ولا تضبط بضابط، ولكن يشار إلى مواضع منها ليقاس عليها غيرها" (١).

وهذا الكلام في معرض الرد على الإمام الزمخشري حين قصر الالتفات - حسبما يزعم ابن الأثير - على أنه انتقال من أسلوب لأسلوب تطرية لنشاط السامع، والحق أن عبارة الزمخشري التي أوردتها قبل قليل تشير إلى تلك الفائدة التي يعنيها الإمام ابن الأثير.

والنص القرآني يكتنز بظاهرة الالتفات، وهي ظاهرة تستحق المزيد من الدراسات التي ينبغي أن تتفرد لها، وتبين عن مواقع الحسن، وتكشف عن مواطن الجمال فيها.

إن صور الالتفات كثيرة ومتنوعة في القرآن الكريم، فهي قد تكون انتقال من الغيبة إلى الخطاب كآيات سورة الفاتحة التي أوردتها قبل قليل .

أو كقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَكِدًا ﴾ (مريم: ٨٨)، ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴾ (مريم: ٨٩)، حيث انتقل من الخطاب للغائب في قوله تعالى: (وقالوا) إلى الانتقال للمخاطب في قوله: (لقد جئتم)، والفائدة الحسنة التي يراها ابن الأثير هي:

"زيادة التسجيل عليهم بالجرأة على الله تعالى والتعرض لسخطه، وتنبية لهم على عظم ما قالوه، كأنه يخاطب قوما حاضرين بين يديه، منكرًا عليهم وموبخًا بهم" (٢).

ومن صورهِ أيضا الرجوع من الخطاب إلى الغيبة كقوله تعالى :

(1) المثل السائر: ٤/٢.

(2) المصدر السابق: ٥/٢.

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَبِيبَةٍ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (يونس: ٢٢).

وفي هذه الآية صرف الكلام من الخطاب في قوله تعالى (كنتم في الفلك) إلى الغيبة في قوله تعالى (وجرين بهم) وفائدة ذلك " أنه ذكر لغيرهم حالهم، ليعجبهم منها كالمخبر لهم

ويستدعي منهم الإنكار عليهم " (١) أو أن الانتقال من الخطاب للغيبة في الآية " هي أنهم كانوا في مقام الخطاب كائنين في الفلك (كنتم في الفلك) فهم في مقام الشهود والوجود، ثم لما جرت بهم الريح ذهبوا بعيدا عن مقام الخطاب فلام هذه الحال طريق الغيبة " (٢). وهناك من يرى أن سر الالتفات في الآية: " هو المقت والتباعد والطرده، وهو اللائق بحال هؤلاء، لأن من كان صفته أن يقابل إحسان الله إليه بالكفران، كان اللائق به ما ذكرناه " (٣).

ومن هذه الصورة أيضا قوله تعالى :

﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبٍّ لَيْرٌ تَوْفِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْتَوِي عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ (الروم: ٣٩). حيث انتقل من الخطاب في قوله تعالى (تريدون وجه الله) إلى الغيبة في قوله (فأولئك هم المضعفون) وفائدته كما يرى الزمخشري: " أنه التفات حسن، كأنه لما قال لملائكته، وخواص خلقه: فأولئك الذين يريدون وجه الله بصدقاتهم، هم المضعفون، فهو أمدح من أن يقول: فأنتم المضعفون " (٤).

تلك إذن بعض من نماذج الالتفات في القرآن الكريم بعامة، أردت التذليل على بعض صورته الجميلة في القرآن الكريم. وخواتم الآيات القرآنية التي اشتملت على أسماء الله الحسنى كانت أيضا مطرزة بهذا الفن الجميل الرائع، وموشاة بدلالاته، ولقد أعطت المعنى حالة من الثراء قلما يمنحها إياه أي فن من فنون البلاغة الأخرى.

(1) المثل السائر: ١٠/٢.

(2) خصائص التراكيب: ١٩٨.

(3) تفسير الفخر الرازي: ٧٣/٩.

(4) الكشف: ٩٦٦/١.

لقد تتبعت خواتم الآيات فوجدتها جاءت على ثلاث صور فقط من الصور الست التي جاء عليها الالتفات: صورة الانتقال من المخاطب إلى الغائب، وصورة الانتقال من الغائب إلى المخاطب، وصورة الانتقال من الغيبة للتكلم. ولكن ينبغي الإشارة إلى أن تتبع الالتفات في الخواتم كان على وفق القراءات القرآنية جميعها، وليس على قراءة حفص وحده، فقد كان يقرأ حفص مثلاً الختم بتاء الخطاب فيما يقرؤها غيره بالياء.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا أَنَا لَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (آل عمران: ١٨٠).

جاء في البحر المحيط: "وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: يعملون على الغيبة جريا على يبخلون وسيطوقون، وقرأ الباقر: بالتاء على الالتفات فيكون ذلك خطابا للباخلين" (١).

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ (الفتح: ٢٤).

قال الإمام ابن خالويه في (الحجة في القراءات السبع): "إجماع القراء على الياء بمعنى الغيبة، إلا ما اختاره أبو عمرو من التاء بمعنى الحضرة" (٢). وهكذا فإني لم أعدد آية فيها التفات إلا إذا كانت تقرأ بالوجهين، أو أن أحدا من القراء يقرأ بها. ولما كان الالتفات في الخواتم محصورا فقط في الصورتين السابقتين، لزم أن نقف عندهما، لنبين عن جمالياتهما، وما يكتنزان من دلالات.

١- صورة الانتقال من الخطاب إلى الغيبة:

مما يجدر ذكره أن البلاغيين من العلماء لم يضعوا أغراضا محددة لكل صورة من صور الالتفات، وإنما اكتفوا بغرضين عامين هما غرض الالتفات بشكل عام، وهما تطرية نشاط السامع، وإيقاظ إصغائه إلى الكلام.

(١) البحر المحيط: ٤٥٢/٣.

(٢) ابن خالويه، الحسين بن أحمد: الحجة في القراءات السبع، تح عبد العال سالم مكرم، دار الشروق، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠١ هـ، ٣٣٠/١.

وهما غرضان يلجأ إليهما البلاغي حين لا تتقدح في ذهنه فائدة الالتفات في الموضع، وهما يشيران إلى مقدرة العربية في التصرف والاتساع في الكلام.

ولذا رأينا الزمخشري - رحمه الله - يقول بتخصص كل التفات بفائدة، حولها يعمل الفكر، ويطل التأمل. ومعرفة مقام الخطاب من أهم ركائز فهم فائدة الالتفات في هذه الصورة، فقد يكون سياق النص مبنياً على خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم، أو خطاب المؤمنين، ويصار إلى الوعيد في السياق أو غيره مما تأباه النفس، فيترفق حينئذ بالمخاطب فيلنقت عنه إلى الغيبة، لطفاً به ورفقا. قال تعالى:

﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٢).

" (إن الله كان بما تعملون خبيراً) يقرأ بالياء والتاء " (١). وهذه الآية الأمر فيها موجه للنبي صلى الله عليه وسلم " وحينما ينصب السياق القرآني على توجيه الرسول صلى الله عليه وسلم، فإنه يعتمد إلى الالتفات من الخطاب إلى لغيبة في بعض القراءات رفقا ولطفاً به، وكأنه غير معنى بخطاب التحذير إلا على سبيل الرمز والإشارة " (٢).

قال تعالى : ﴿ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (المنافقون: ١١).

" وقرئ: يعملون بالياء التحتانية " (٣)، وبناء السياق على الخطاب، لأن الآية التي سبقتها قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ مِمَّنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (المنافقون: ١٠).

والخطاب حين ينصرف إلى الغيبة على القراءة الأخرى، فإنما يكون لفائدة، وهي أن المولى سبحانه يربأ بالمؤمنين أن يكونوا من الذين لا ينفقون، فيصرف الخطاب إلى غيرهم رفقا بهم وتنبئها لهم ألا يكونوا من أولئك الذين ييخلون، فيفجأهم الموت حيث لا ينفع الندم .

٢- صورة الانتقال من الغيبة إلى الخطاب:

تبدو الفائدة أكثر وضوحاً في هذا النوع من الالتفات، ذلك بأنه ينطوي على إقبال على المخاطبين،

(1) الحجة في القراءات السبع: ٢٨٩/١.

(2) محمد، أحمد سعد: التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٢١-٢٠٠٠م، ٣٥٣.

(3) إرشاد العقل السليم: ٣٣٧/٦.

أو إن شئت فقل مواجهة، " ففي مقام الذم والوعيد ينطوي الالتفات من الغيبة إلى الخطاب على مواجهة المتلقين بالتوبيخ والتقريع والإنكار والدلالة على شدة الغضب " (٤).

قال تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (النور: ٥٣).

فالالتفات في الآية تقريع لهم بمواجهتهم بحقيقة ما انطوت عليه قلوبهم، " أي مطلع على سرائركم ففاضحكم، والتفت من الغيبة إلى الخطاب لأنه أبلغ في توبيختهم " (١).

قال تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (آل عمران: ١٨٠).

" قرأ ابن كثير وأبو عمرو : يعملون على الغيبة جريا على يبخلون وسيطوقون، وقرأ الباقون: بالتاء على الالتفات فيكون ذلك خطابا للباخلين " (٢).

وهنا الالتفات إليهم بالخطاب دلالة على شنيع فعلهم، وأنهم يستحقون العذاب بسبب بخلهم، يقول الزمخشري: " وقرئ بالتاء والياء، فالتاء على طريقة الالتفات، وهي أبلغ في الوعيد " (٣). ومن المواضع التي كان الالتفات فيها للتهديد والوعيد، قوله تعالى :

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَخْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّجِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة: ٩٦).

" قرأ الجمهور :يعملون بالياء على نسق الكلام السابق، وقرأ الحسن وقتادة والأعرج ويعقوب بالتاء على سبيل الالتفات والخروج من الغيبة إلى الخطاب وهذه الجملة تتضمن التهديد والوعيد " (٤).

(4) محمد، أحمد سعد: التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية، مكتبة الآداب، القاهرة، ط٢، ١٤٢١-٢٠٠٠م، ٣٤٢.

(1) البحر المحيط: ٦٤/٨.

(2) المصدر السابق : ٤٥٢/٣.

(3) الكشف : ٢٢٣/١.

(4) البحر المحيط : ٥٠٦/١.

إن الخطاب المفاجئ بالتاء (الالتفات) فيه ما فيه من المواجهة بحقيقة ما تكنه صدورهم، ومن ثم فضح لرغبتهم، وعقابهم عليها. وجعل القضية موضع الجلال من الأمور التي تستوجب أن يلتفت من أجلها. ليحذر أولئك الودادون التعمير، الحريصون على أي شكل من أشكال الحياة. وهكذا يلحظ أن من فوائد الالتفات إلى المخاطب: الإقبال الذي يشير إلى مزيد اهتمام بالمخاطب. أو المواجهة التي تعني في أحد أشكالها، التهديد والوعيد، ومن ثم تشير إلى خطورة القضية التي هي مدار التناول.

قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُبْذَرُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَشَيْئاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَانْتَأَتْ أَكْثُهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنَّ لَمْ يُصْبِحْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (البقرة: ٢٦٥).

"قرأ الزهري بالياء، فظاهره أن الضمير يعود على المنافقين، ويحتمل أن يكون عاما فلا يختص بالمنافقين بل يعود على الناس أجمعين.

وقرأ الجمهور بالتاء على الخطاب، وفيه التفات، والمعنى أنه تعالى لا يخفى عليه شيء من الأعمال والمقاصد من رياء وإخلاص وفيه وعد ووعد " (١).

إن قضية الإنفاق ابتغاء مرضاة الله، والإخلاص النية فيها لله، لهما من الأمور التي تستوجب الالتفات إلى المخاطب؛ حثا له على الإخلاص، وترغيبا له على الإنفاق.

إن الالتفات في الآية السابقة أعطى ثراء للمعنى، فالختم بدونه يوقف المعنى على معنى الوعد، وفي الالتفات ثراء بحيث يحتمل المعنى الوعد والوعيد، وعد للمؤمنين إذا أخلصوا نفقاتهم لله وحده، ووعد للمنافقين الذين ينفقون على وجل، غير متبئين للأجر الذي يعقبهم على إنفاقهم. يقول الإمام الشوكاني: "وفي هذا ترغيب لما لهم في الإخلاص، مع تهريب من الرياء ونحوه" (٢).

٣- صورة الانتقال من الغيبة إلى التكلم:

إنها صورة تشير فيما تشير إليه من معان، إلى معنى التعظيم، لأن الحديث حينئذ يكون بنون المتكلم، ولعل (أبا حيان) لمح ذلك في توجيه قراءة الفعل (ويعلمه) في الآية الكريمة: ﴿وَيَعْلَمُ الْكُتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ (آل عمران: ٤٨).

قال: "وأما على قراءة النون، فيكون من باب الالتفات، خرج من ضمير الغيبة إلى ضمير التكلم لما في ذلك من الفخامة" (٣). إن تعظيم الفاعل حين إسناد الفعل إليه، يشير إلى عظمة الفعل وخطره وأهميته. تلك الأهمية التي يراد تنبيهها في أذهان المتلقين، وقد يكون من مستتبعات العظمة اختصاص الفاعل بالفعل، على نحو لا يستطيعه غيره. ومن ثم دعوة إلى إعمال الذهن في ذاك الفعل نفسه، والتوقف عنده طويلا لمعرفة مغزى أن ينسب إلى ضمير التكلم. يؤنسنا في هذا أن هذا النوع من الالتفات اختص بأفعال لها خطرهما، والتأمل فيها له ما له من وقع في تقرير المعنى المراد.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتَثِيرُ سَحَاباً فُسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ الْفُشُورُ﴾ (فاطر: ٩). "وكان الالتفات هنا ذا مغزى مهم لأن السماء الدنيا وما فيها من كواكب من أظهر وأوضح الآيات التي تشير إلى القدرة الخالقة والتي يحث القرآن على النظر إليها كثيرا، الالتفات إذن كأنه لفت إلى الموضع الذي تؤخذ منه العبرة، وتدنو به الحقيقة الدالة من القلوب المعبرة" (١).

وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتَثِيرُ سَحَاباً فُسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ الْفُشُورُ﴾ (فاطر: ٩). سار السياق في الآية السابقة على بناء الغيبة، ولكنه جرى إلى التكلم في قوله (فسقناه) ولو ظل على سياق الغيبة لقال (فساقه).

(1) البحر المحيط: ٦٧١/٢.

(2) فتح القدير: ٤٣١/١.

(3) البحر المحيط: ١٥٨/٣.

(1) خصائص التراكيب: ٢٠٠.

إن بناء الفعل (سقناه) على التكلم جاء على أقصى درجات البلاغة، ويكشف عن جمالية الالتفات في النص القرآني، لأن هذا الفعل يدل على أن التحكم في الرزق وتوزيعه على الخلائق، وإنبات الأرض البلقع به هو من اختصاص المولى فقط، ولخطورته ينسب إليه مباشرة على الحقيقة، فليست إذن قوانين الكون، ولا سرعة الرياح وضعفها هي التي تسوق وإنما المولى فقط. بل إن ثمة أسراراً وإشارات مهمة يميّط الالتفات للثام عنها، لتبين عن دقة البناء، وعمق المعنى، وثراء المدلول، ما كان ليتسنى أن نتعقد أيدينا عليها بغيره، ولا أن نقر عيوننا عليها بسواه.

قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الإسراء: ١).

إن هذه الآية نالت حظها من الالتفات على نحو يبطل معه قول القائلين إن الالتفات يكون من أسلوب لأسلوب خشية الملل والسأم حين يطول الكلام. فقد كثر الالتفات فيها حتى أحصى الإمام الزركشي أربعة مواضع. " فقد تكرر الالتفات في أربعة مواضع، فانتقل عن الغيبة في قوله: (سبحان الذي أسرى بعبده)، إلى التكلم في قوله: (باركنا حوله)، ثم عن التكلم إلى الغيبة في قوله: (ليريه)، بالياء على قراءة حسن، ثم عن الغيبة إلى التكلم في قوله: (آياتنا)، ثم عن التكلم إلى الغيبة في قوله: (إنه هو السميع البصير) " (١).

وما يهمنا هنا هو الانتقال من الغيبة إلى التكلم في الآية والوقوف على أسرارها، ولقد حظيت هذه الآية باهتمام الإمام ابن الأثير - رحمه الله - فجال فيها متأملاً، يقول عن الالتفات فيها:

" وسأذكر ما سنح لي فيه فأقول: لما بدأ الكلام بسبحان ردفه بقوله الذي أسرى، إذ لا يجوز أن يقال الذي أسرينا؛ فلما جاء بلفظ الواحد والله تعالى أعظم العظماء، وهو أولى بخطاب العظيم في نفسه الذي هو بلفظ الجمع، استدرك الأول بالثاني؛ فقال: (باركنا) ثم قال: (لنريه من آياتنا) فجاء بذلك على نسق (باركنا) ثم قال: (إنه هو) عطفاً على أسرى، وذلك موضع متوسط الصفة؛ لأن السمع والبصر صفتان يشاركهما فيهما غيره، وتلك حال متوسطة، فخرج به عن خطاب العظيم في نفسه إلى خطاب غائب. فانظر إلى هذه الالتفاتات المترددة في هذه الآية الواحدة التي جاءت لمعان اختصت بها، يعرفها من يعرفها، ويجعلها من يجعلها " (٢).

والحقيقة أن ما سنح لهذا الإمام العظيم لم يكشف بوضوح عن أسرار الالتفات في الآية. ولكن جولة الإمام الألوسي في ثناياها كانت أعمق، فأشار إلى مزايا الالتفات فيها. " (الذي باركنا حوله) صفة مدح وفيها إزالة اشتراك عارض " (٣). وإزالة الاشتراك العارض هو ما أشرت إليه قبل قليل عن قيمة الالتفات من الغيبة إلى المتكلم في اختصاص الفاعل بالفعل على نحو لا يستطيعه غيره. ولكن الانتقال إلى المتكلم في الآية يضيف أهمية أخرى إلى المسجد الأقصى، وهي أن مباركة المولى له كانت مباشرة، ولعظمها نسبها لعظمته في نون العظمة التي يسميها النحاة.

إنها مباركة دائمة، وينابيع متدفقة من الخير أوجدها المولى سبحانه، لتظل تلك الأرض مقدسة مباركة، فهي لعظمتها نسبت للعظيم مباشرة، مثلما كانت الآيات كذلك في قوله (من آياتنا) لأنها آيات عظيمة، خطيرة، نسبت إلى العظيم. يقول الإمام الألوسي: " وصرف الكلام من الغيبة التي في قوله: (سبحان الذي أسرى بعبده) إلى صيغة المتكلم المعظم في (باركنا) و(نريه من آياتنا) لتعظيم الآيات والبركات لأنها كما تدل على مدلول الضمير تدل على عظم ما لأضيف إليه وصدر عنه، كما قيل: إنما يفعل العظيم العظيم " (١).

(1) البرهان في علوم القرآن: ٣٢٢/٣.

(2) المثل السائر: ٦/٢.

(3) روح المعاني: ١٦/٩.

(1) روح المعاني: ١٨/٩.

رابعاً: التكرار:

فن أصيل من فنون البلاغة العربية، له منزلته ومكانته، قد جرى على لسان العرب، وورد على سنن كلامهم، يسميه بعض البلاغيين (التكرير)، ومنهم من ينسبه إلى علم البيان، كالإمام ابن الأثير: "واعلم أن هذا النوع من مقاتل علم البيان، وهو دقيق المأخذ" ^(١). ومنهم من أورده في علم المعاني كالإمام محمد بن علي الجرجاني، فقد عدّه من وجوه الإطناب ^(٢). وقد عدّه الإمام العلوي من علم البيان وأورده تحت باب التوكيد، ويشير إلى أهميته قائلاً: "فليس يخفى موقعه البليغ ولا علو مكانته الرفيع" ^(٣).

ولقد ثار جدل حول التكرار في القرآن الكريم، من العلماء من أثبته، ومنهم من نفى أن يكون في القرآن الكريم تكراراً، وأولئك الذين أثبتوه، قد عدوه من مظاهر الإعجاز، وسحر البيان، واعتبروه نمطاً من أنماط التربية في القرآن الكريم، وطريقة أصيلة من طرق التأثير في السلوك الإنساني، فساقوا من أجل ذلك الأدلة، وقدموا البراهين.

لكن بعضاً من الذين تنكبوا طريق الهداية، وعميت أفئدتهم، وفسدت قرائحهم، تعاملوا عن جماله، فما أنزلوه منزلته، ولا قدروه قدره. أولئك هم المستشرقون ومن تبعهم، فقد رأوه زيادة لا قيمة لها، يتوزع بين السياق في غير انتظام. "ومهما يكن من شيء، فللتكرار القرآني دلالاته الفنية التي لا يسبر غورها إلا الفكر المتأمل والذوق الشفاف" ^(٤).

(1) المثل السائر: ١٤٦/٢.

(2) الجرجاني، ركن الدين محمد بن علي بن محمد: الإشارات والتنبيهات، تعليق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٢٣-٢٠٠٢م، ١٢٧.

(3) الطراز: ٢٨٦.

(4) عامر، فتحي أحمد: المعاني الثانية في الأسلوب القرآني، منشأة المعارف، الإسكندرية، ٤٤٤.

إن من العلماء من رفض فكرة التكرار بالجملة في القرآن الكريم، ليس فقط التكرار في القصص القرآني، بل حتى التكرار في المقاطع والآيات، ومن هؤلاء د. فضل عباس. يقول:

"ومن هنا قالوا إن آيات العقيدة قد كررت في كتاب الله لتثبيت العقيدة في النفوس، وكذلك القصة القرآنية، كذلك بعض الجمل القرآنية ومع إجلالنا وتقديرنا لأولئك العلماء... لكن الذي نطمئن لتقريره بعد تدبر لكتاب الله، وإعلاء الفكر، وإطالة الوقوف مع آيات الكتاب أن لا تكرر البتة في كتاب الله" (٥).

ولكن أولئك الذين نفوا التكرار في القرآن الكريم، لم ينفوه إلا من حيث أن المقصود من كل كلمة تكرر لفظها في القرآن هي غير الكلمة الأخرى، فدلالة الأولى تختلف عن دلالة الثانية، وما تشيعه الجملة الأولى من إحياءات يختلف عما تشيعه الجملة الثانية. يقول الإمام الباقلائي: "لقد علمنا أن الله تحدى المعارضين بالسور كلها ولم يخص، فعلم أن جميع ذلك معجز، وذلك لأن الكلمات المكررة لفظاً، هي ذات معان جديدة بعد تكرارها" (١).

وجوهر الأمر أن التكرار فن من فنون البلاغة، ولئن قيل أن التكرار كان يجري على لسان العرب، وأن القرآن الكريم جاء على سنن العربية في القول، فإنه قد قيل الشيء الكثير، وقرر الجزء الهام من دفع شبهات الذين عابوا التكرار في القرآن، وهذا هو الذي دفع (ابن قتيبة) إلى القول: "وأما تكرار الكلام من جنس واحد وبعضه بجزئ عن بعض كتكراره ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ (الكافرون: ١)، وقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (الرحمن: ١٣). فقد أعلمتكم أن القرآن نزل بلسان القوم، وعلى مذاهبهم ومن مذاهبهم التكرار: إرادة التوكيد والإفهام؛ لأن افتتاح المنكلم والخطيب في الفنون، وخروجه عن شيء إلى شيء أحسن من اقتصاره في المقام على فن واحد" (٢).

لم يكن التكرار إذن بدعة قرآنية لم يسبق إليها، ولو كان لبهر الألباب على ما هو عليه من حسن وجمال. فلا مناص من الإقرار بهذا الفن، وقد ظهر واضحاً في القرآن الكريم، وليس من خدمة للقرآن، ولا إظهاراً لإعجازه أن نقول بخلوه من التكرار، ولكن التكرار وحده من غير غرض هو ما ننزه القرآن الكريم عنه، من أجل ذلك يجب أن نطيل النظر والتأمل في أي القرآن لإدراك سره، والوقوف على مغزاه.

يقول الإمام ابن الأثير: وبالجملة فاعلم أنه ليس في القرآن مكرر لا فائدة في تكريره، فإن رأيت شيئاً منه تكرر من حيث الظاهر فأنعم بنظره فيه فانظر إلى سوابقه ولواحقه لتكتشف لك الفائدة منه" (٣).

والتكرار في القرآن يشمل تكرار القصص القرآني، كقصة موسى عليه السلام وقصص الأنبياء والرسل. وكذلك تكرار الألفاظ والمقاطع والآيات. والذي نحن بصدده ليس تكرار القصص لأن العلماء قالوا فيه وأفاضوا. وبينوا أسرارها ودواعيها، وكشفوا عن وجوه الإعجاز فيه.

ولكن تركيزنا هنا سيكون على تكرير المقاطع الذي هو مدار بحثنا هنا في خواتم الآيات.

لقد قسم الإمام ابن الأثير التكرار إلى قسمين: (١)

١ - ما كان التكرير في اللفظ والمعنى، فكقولك لمن تستدعيه: أسرع أسرع.

٢ - ما كان في المعنى دون اللفظ، فكقولك: أظعن ولا تعصني، فإن الأمر بالطاعة نهي عن المعصية.

وقد قسم النوع الأول الذي هو التكرير في اللفظ والمعنى إلى:

أ- الفرع الأول:

ما دل على معنى واحد والمقصود به غرضان مختلفان. كقوله تعالى:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ (الكافرون: ١)، "وقد ظن قوم أن هذه الآية تكرير لا فائدة فيه، وليس الأمر كذلك، فإن معنى قوله (لا

أعبد) يعني في المستقبل من عبادة آلهتكم، وإلا أنتم فاعلمون فيه ما أطلبه منكم من عبادة إلهي (ولا أنا عابد ما عبت) أي وما كنت عابد قط فيما سلف ما عبت فيه، يعني أنه لم يعهد مني عبادة صنم في الجاهلية في وقت ما، فكيف يرجي مني في الإسلام (ولا

(5) عباس، فضل حسن وسناء فضل: إعجاز القرآن الكريم، ٢٣٣.

(1) إعجاز القرآن للباقلاني:

(2) الدينوري، عبد الله بن مسلم بن قتيبة: تأويل مشكل القرآن، تعليق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية

بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٣-٢٠٠١م، ١٤٩.

(3) المثل السائر: ١٤٩/٢.

(1) المثل السائر: ١٤٨/٢.

أنتم عابدون) في الماضي في وقت ما أنا على عبادته الآن " (٢).

ومما يجري هذا المجرى قوله تعالى : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ (الفاتحة: ١) وقوله: ﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ (الفاتحة: ٣). " فكرر الرحمن الرحيم مرتين والفائدة في ذلك أن الأول يتعلق بأمر الدنيا والثاني يتعلق بأمر الآخرة، فما يتعلق بأمر الدنيا يرجع إلى خلق العالمين في كونه خلق كلا منهم على أكمل صفة، وأعطاه جميع ما يحتاج إليه، حتى البقرة والذئب، وقد يرجع إلى غير الخلق كإدراك الأرزاق وغيرها، وأما ما يتعلق بأمر الآخرة فهو إشارة إلى الرحمة الثانية يوم القيامة الذي هو يوم الدين " (٣).

٢- الفرع الثاني:

إذا كان التكرير في اللفظ والمعنى يدل على معنى واحد، والمراد به غرض واحد، كقوله تعالى: ﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَرًا ﴾ (المدثر: ١٩)، ﴿ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَرًا ﴾ (المدثر: ٢٠).

" والتكرير دلالة على التعجب من تقديره وإصابته الغرض " (١).

ومن هذا الفرع قوله تعالى : ﴿ أَوَّلَىٰ لَكَ فَأُوَّلَىٰ ﴾ (القيامة: ٣٤)، ﴿ ثُمَّ أَوَّلَىٰ لَكَ فَأُوَّلَىٰ ﴾ (القيامة: ٣٥).

وعلى هذا الفرع ورد قول النبي صلى الله عليه وسلم: " أن بني هشام بن المغيرة، استأذنوا في أن ينكحوا ابنتهم علي بن أبي طالب فلا آذن ثم لا آذن ثم لا آذن، إلا أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم، فإنما هي بضعة مني، يربيني ما أربأها، ويؤذيني ما آذاها " (٢).

" فقوله لا آذن ثم لا آذن ثم لا آذن من التكرير الذي هو أشد وقعا من الإيجاز؛ لانصباب العناية إلى تأكيد القول في منع علي رضي الله عنه من التزوج بابنة أبي جهل ابن هشام " (٣)

وكذلك ورد قول النبي صلى الله عليه وسلم: " الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام " (٤).

(2) المصدر السابق : ١٤٩/٢.

(3) السابق : ١٤٩/٢.

(1) المثل السائر : ١٥٠/٢.

(2) صحيح البخاري : ٢٠٠٤/٥.

(3) المثل السائر : ١٥٠/٢.

(4) صحيح البخاري : ١٢٣٧/٣.

يقول الإمام العلوي في معرض تعليقه على الحديث الشريف: " يعني أنه نبي ابن نبي بن نبي فقد تتوسخ من الأصلاب الشريفة إلى الأرحام الطاهرة، فهذا تكرير بالغ دال على نهاية الشرف، وإعظام المنزلة ورفع الرتبة عند الله " (٥).

إن أول أهمية تبرز للتكرار هي أنها تجعله محور الحديث، فينصب عليه الذهن تأملاً وتحليلاً، فيؤكد معناه، ويثبت محتواه ولفظه.

إن اللفظ في التكرير له أهمية أيضاً ولو أراد القائل أن يؤكد المعنى فقط، ويرسخه في الذهن، لعمد إلى تكرير المعنى دون اللفظ الذي يمكن أن يكون بالإطناب مثلاً. ولكنه حين يكرر باللفظ فإنما يبغي تأكيد المعنى، وتثبيت اللفظ في الذهن.

يقول ابن الأثير : " واعلم أن المفيد من التكرير يأتي تأكيداً له وتشبيهاً من أمره، وإنما يفعل ذلك للدلالة على العناية بالشيء الذي كررت فيه كلامك، إما مبالغة في مدحه أو ذمه " (١).

إن الإمام العلوي يؤكد صعوبة البحث في هذا النوع من التكرار " واعلم أن ما نورد في هذا القسم ينبغي إمعان النظر فيه لغموضه ودقة مجاريه، ومن أجل ورود التأكيد من جهة اللفظ والمعنى والتكرير في كتاب الله تعالى ظن بعض من ضاقت حوصلته، وضعفت بصيرته عن إدراك الحقائق، والتطلع إلى مآخذ الدقائق، وأنه خال عن الفائدة، وأنه لا معنى تحته إلا مجرد التكرير لا غير وهذا خطأ وزلل " (٢).

أغراض التكرار:

شرح البلاغيون في البحث عن أغراض التكرار، وبيان فوائده، ولقد تتبعوا النص القرآني بدقة، فألف الإمام الكرمانى كتابه (أسرار التكرار في القرآن) الذي قال في مقدمته :

(5) الطراز: ٢٨٩.

(1) المثل السائر: ١٤٧/٢.

(2) الطراز: ٢٨٧.

" إن الأئمة قد اقتصروا على تصنيف المكررات، ولم يشتغلوا بذكر وجوها وعللها، والفرق بين الآية ومثلها هو المشكل الذي لا يقوم بأعبائه إلا من وفقه الله لأدائه " (٣). ولعل الإمام الزمخشري كان يقف عند هذا الفن طويلا حينما كانت تعرض له الظاهرة في تفسيره، فنراه يقول عن التكرار في تفسير قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ (القمر: ١٧) " فائدته أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين ادكارا واتعاضا، وأن يستأنفوا تنبيهها واستيقاظا، إذ سمعوا الحث على ذلك البعث، وأن يقرع العصا مرات ويقعقع لهم الشن تارات لئلا يغلبهم السهو، ولا تستولي عليهم الغفلة " (٤)

فيما يرى الإمام الجرجاني أن غرض التكرار هو الزجر. يقول :

" التكرير للزجر إشارة إلى تكرير اللفظ لفائدة، كقوله تعالى : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (التكاثر: ٣)، ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (التكاثر: ٤) .

وقوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (الرحمن: ١٣). فإنه تعالى ذكر نعمه وعقبا بهذا القول زجرا لهم " (١).

ومن أغراضه أيضا التأكيد والإنذار، كقوله تعالى : ﴿ الْقَارِعَةُ ﴾ (القارعة: ١)، ﴿ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ (القارعة: ٢)، ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ (القارعة: ٣). " فقد أكد الإنذار بتكراره ليكون أبلغ في التحذير والتخويف " (٢).

ويكون من أغراضه " زيادة التنبيه على ما ينفي التهمة، ليكمل تلقي الكلام بالقبول، ومن قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ (غافر: ٣٨) .

﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾ (غافر: ٣٩) فإنه كرر فيه النداء لذلك " (٣).

(3) الكرمانى، محمود بن حمزة بن نصر: أسرار التكرار في القرآن، تج. عبد القادر أحمد عطا، دار بو سلامة تونس الطبعة الأولى، ١٤٠٠.

(4) الكشف: ١/١٢١٠.

(1) الجرجاني، ركن الدين محمد بن علي بن محمد: الإشارات والتنبيهات، تعليق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٢٣-٢٠٠٢م، ١٢٧.

(2) علوان، محمد ونعمان شعبان: دراسات في البلاغة العربية (من بلاغة القرآن) المعاني والبيان والبدیع، الدار العربية، الطبعة الثانية، ١٩٩٨م، ١٤٥.

(3) البرهان في علوم القرآن: ١٤/٣.

" ويأتي للتذكير بنعم الله التي لا تحصى، كقوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (الرحمن: ١٣) فقد كررها بعد كل نعمة " (٤).

ويذهب بعض العلماء المحدثين إلى أن التكرار " دلالة اللفظ على المعنى مردداً، لتأكيد غرض من أغراض الكلام، أو للمبالغة فيه، أو التنويه به، والإشارة إليه بالذكر، ويشمل ذلك: المدح والوعد والوعيد والتهويل " (٥).

وهكذا يتضح لنا أن علماء البلاغة قد اجتهدوا في البحث والتنقيب عن أغراض التكرار، وأن كل تكرار في القرآن الكريم لا بد وأن يكون له قيمة أو غرض، أو يشير إلى معنى، أو يكشف عن إحياء. أو يطبع في النفس أثراً.

إن مما ينفرد به التكرار في القرآن الكريم أن له تأثير متزايد، وسحر لا ينقطع، يدرك ذلك كل من له بالقرآن صلة، تلاوة أو تأملاً، فلا يخلق على كثرة الرد.

وإذا كان التكرار في كلام البشر يكون عبئاً وثقلاً على جماليات النص كلما ازداد إلا أنه في القرآن الكريم على غير ذلك، يزداد جمالاً وثراء كلما ازداد موضعه.

ولنا أن نتأمل سورة الرحمن فنرى كيف تكرر قوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (الرحمن: ١٣) فيها إحدى وثلاثين مرة، فما زادها إلا جمالاً وخفة وحسناً.

التكرار في خواتم الآيات:

والتكرار في خواتم الآي شأنه شأن التكرار في بقية مواضعه من القرآن الكريم، ما كان إلا لغرض، وما وجد إلا لفائدة. ويمكن أن تقسمه إلى قسمين:

١ - تكرر اللفظ في الخواتم:

كقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴾ (النساء: ٤٥).

وقوله: ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاغْلُظْوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ (الأنفال: ٤٠).

وكتكرار (الرحمن الرحيم) في سورة الفاتحة، إذا عدت البسملة آية على أرجح الأقوال.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (الفاتحة: ١)، وقوله: ﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ (الفاتحة: ٣).

٢ - تكرر الآية كاملة:

(4) من بلاغة القرآن الكريم : ١٤٥ .

(5) المعاني الثانية : ٤٤٢ .

كتكرار قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (الشعراء: ٩). في ثمانية مواضع من سورة الشعراء.

وتكرار قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (الواقعة: ٧٤) مرتين في سورة الواقعة.

وتكرار قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الحديد: ١) مرتين في سورة الحديد، وأخرى في سورة الصف في قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الصف: ١). وسأعرض لهذين القسمين في شيء من التفصيل.

أولاً: تكرار اللفظ في الخاتمة:

١ - قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ (النساء: ٤٥). فقد تكرر المقطع (وكفى بالله) مرتين في الختم، وكان من الممكن أن يكون الختم مثلاً (وكفى بالله ولياً ونصيراً) كقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ (الفرقان: ٣١). حيث عطف ولم يكرر.

إن مما يلفت النظر في الختم أن لفظ الجلالة أظهر في موضع الإضمار، أظهر في الأولى وكرر في الثانية، وذلك لعظيم المعاني التي يقررهما السياق.

"وتكرير الفعل في الجملتين مع إظهار الاسم الجليل لتأكيد كفايته عز وجل مع الإشعار بالعلية" ^(١).

إنه لمن انحسار الفهم أن يحصر هذا التكرار في غرض واحد، لذا رأينا العلماء اتجه كل منهم إلى منحى معين في تفسير التكرار "وتكرير الفعل في الجملتين مع إظهار الجلالة في مقام الإضمار لا سيما الثاني لتقوية استقلالهما المناسب للاعتراض، وتأكيد كفايته عز وجل في كل من الولاية والنصرة والإشعار بعليتهما، فإن الألوهية من موجباتها لا محالة" ^(٢).

(١) روح المعاني : ٤٥/٥.

(٢) إرشاد العقل السليم : ٢٩٥/٢.

فأبو السعود رحمه الله أشار إلى استقلالية الجمل في تقوية المعنى وتأكيدده، ومرجع ذلك إلى عظم المعنى المطروق، الذي فيه إثبات معنى الولاية والنصرة للمؤمنين، ولا سيما وهم يواجهون عدوهم.

ولكن الإمام الرازي يتجه إلى منحى آخر يقول: " فإن قلت: ما الفائدة في تكرير قوله (وكفى بالله) ؟ والجواب: أن التكرار في مثل هذا المقام يكون أشد تأثيرا في القلب وأكثر مبالغة " (٣).

إنه اتجه إلى منحى آخر وهو أن تكرير لفظ الجلالة، وإظهاره إنما يبعث على الاطمئنان، والهيبة والثقة في نصره الله وولايته.

وتكرير الفعل (كفى) أكثر توكيدا للمعنى، وأشد مبالغة، إن هذا التكرير وفق التركيب السابق يأتي في سياق العداوة مع اليهود الذين يريدون أن يضل المؤمنين سبيلهم، ويمعنون في عدائهم، وهنا نجد أن نفوس قلقة تحتاج إلى مزيد طمأنينة بالنصرة والتثبيت.

يقول الإمام ابن عاشور: " وجملة (وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا) تذييل لتطمئن نفوس المؤمنين بنصر الله لأن الإخبار عن اليهود بأنهم يريدون ضلال المسلمين وأنهم أعداء للمسلمين من شأنه أن يلقي الروح في قلوب المسلمين، فكان قوله (وكفى بالله وليا) مناسبا لقوله (ويريدون أن تضلوا السبيل) وكان قوله (وكفى بالله نصيرا) مناسبا لقوله (بأعدائكم) أي فانه ينصركم " (٤).

٢ - قال تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ اتَّهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (الأنفال: ٣٩)، ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاغْلُظْوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ (الأنفال: ٤٠).

إنه ليس غريبا أن يكون التكرير مع الولاية والنصرة، وأن تكون الولاية والنصرة في سياق تحدي الأعداء وقتالهم، لأن النفس حينها تتطلع إلى معونة المولى ونصره وتأييده.

(٣) تفسير الفخر الرازي: ١٢٠/٥.

(٤) التحرير والتنوير: ٤٣٢/٣.

والآية السابقة تجيء بعد أمر بالقتال، وفعل الأمر فيها بالعلم يؤكد ولاية الله، وهنا يبرز لنا استقلال الجملتين تقوية لمعنى كل منهما، وتكرير الولاية في (مولاكم - مولى) يؤكد معنى الولاية، لتستقر في نفوس المؤمنين علما و يقينا، لا ظنا وتوقعا، وتكرير الفعل (نعم) يشير إلى استحقاق المولى بالمدح والثناء على هاتين الصفتين، كل على حده، فكل صفة منهما لها مظهر يستوجب الثناء.

يقول الإمام البقاعي رحمه الله : " ثم استأنف مدحه بما هو أهله تعريفا بقدره، وترغيبا في توليه " (١).

٢ - تكرار الآية كاملة:

أ- قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (الشعراء: ٩).

هذه الآية وردت مكررة ثماني مرات في سورة الشعراء، ووزعت على طول السورة وعرضها، ولأن السورة تقص قصص الأنبياء والرسل، فقد أخبرتنا السورة عن سبع قصص على الترتيب هي قصة: (موسى و إبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب) لذلك جاءت هذه الآية موزعة في نظام دقيق، حيث كانت خاتمة لكل قصة، مما جعل هذه السورة تتفرد بهذه الظاهرة العجيبة، التي لم تشابهها سورة أخرى

ونحن هنا ننقب عن أسرار التكرار فيها، ونحاول أن نميط اللثام عن مغزاه، لأن جماليات التركيب لهذه الآية من اقتران الاسمين الجليلين، وتقديم أحدهما على الآخر، وعناصر التوكيد فيها كنا قد درسناه كل في بابه.

إن أول ما تجدر ملاحظته من هذا التكرار أنه قام بتفكيك السورة إلى تسع صور فنية محكمة، تركز كلها على هذه الآية، بحيث تصلح هذه الآية المكررة أن تكون هي المفتاح الأساسي لفهم السورة ومرادها.

حيث تمثل كل لوحة فنية سورة مستقلة بذاتها، تصلح أن تقف منتصبه لوحدها، مكتملة الملامح، مستقرة الأركان.

واللوحات الفنية التي رسمها النص القرآني تتشابه فيما بينها، بحيث يبدو مبدؤها وختمها كما لو كانا شيئا واحدا، مع أنهما ليسا كذلك.

(1) نظم الدرر : ٢١٨/٣.

إن هذا التنوع العجيب في الصور الفنية التسعة التي اشتملتها السورة، يضيف حالة من الثراء، ليس فقط من جهة أن مقاطعها تكبر حيناً وتصغير حيناً آخر، بل من حيث أن المكونات الجزئية للصورة تختلف من صورة إلى أخرى، وإن كانت كلها جميعاً تفضي إلى مضمون واحد، وتتمركز حول معنى واحد.

إن تكرار تلك الآية يشير فيما يشير إليه من معانٍ إلى أن بداية قصص الأنبياء والرسل جميعها واحدة، وذات مضمون واحد ثابت، وأن نهايتها كذلك واحدة، وذات معنى واحد ثابت، وهو هلاك المعاندين المكذبين وإن اختلف شكل الهلاك وطريقته في كل مرة. وما ذاك إلا لأن الإله الذي يرسل هؤلاء الرسل جميعاً واحداً، يتصف بالوحدانية، و يتفرد بالكمال والبقاء.

وحيث إن هذه السورة تستعرض رحلة الإنسانية مع أنبيائها ومآلها، وحيث أن النبي صلى الله عليه وسلم - جزء من مسيرتها، وخاتم لها، فإن في ذلك مواساة له، وإيناس حين أعرضت قريش عنه، ولا سيما وأن هذه السورة مكية.

يقول الإمام أبو السعود: " هذا آخر القصص السبع التي أوحيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لصرفه عن الحرص على إسلام قومه، وقطع رجاءه عنه، ودفع تحسره على فواته " (١).

ولعل أجمل ما قيل من تعليل في تكرير هذه الآية هو قول الإمام الزمخشري:

" فإن قلت: كيف كرر في هذه السورة في أول كل قصة ما كرر ؟ قلت: كل قصة منها كتنازل برأسه، وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها، فكانت كل واحدة منها تدلي بحق في أن تفتتح بما افتتحت به صاحبها، وأن تختتم بما اختتمت به، ولأن في التكرير تقريراً للمعاني في الأنفس، وتنبيهاً لها في الصدور، ألا ترى أنه لا طريق إلى تحفظ العلوم إلا ترديد ما يراد تحفظه منها، وكلما زاد ترديده كان أمكن له في القلب، وأرسخ في الفهم، وأثبت للذكر، وأبعد من النسيان، ولأن هذه القصص طرقت بها آذان

(1) إرشاد العقل السليم: ٢٦٣/٦.

وقر عن الإنصات للحق، وقلوب غلف عن تدبره، فكوثر بالوعظ والتذكير، وروجعت بالترديد والتكرير لعل ذلك يفتح أذنا، أو يفتق ذهنًا، أو يصقل عقلا طال عهده بالصقل، أو يجلو فهما قد غطى عليه تراكم الصدا " (٢).

وهكذا يرى الإمام الزمخشري أن هذه الآية مع القصص التي تتلوها كالمطرقة التي تطرق القلوب مرة، ، والأذان والأذهان مرة أخرى.

٢ - قال تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ (الواقعة: ٧٤).

هذه الآية في سورة الواقعة وهي سورة مكية، وينبع الاهتمام بهذه الآية من كونها جعلت في ركوع المسلمين في صلاتهم، لقوله عليه الصلاة والسلام لما نزلت: " اجعلوها في ركوعكم " (١). ومن حيث أنها تكررت مرتين في تلك السورة الذي يبلغ عدد آياتها أربع وسبعين آية.

ومما يجدر ذكره أن الآية السابقة كانت ختما للسورة وهو أمر بالتسبيح، ولقد ابتدأت السورة التي تليها وهي سورة الحديد أيضا بالتسبيح. قال تعالى: ﴿ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (الحديد: ١).

ولقد جاءت الآية السابقة في سياق محكم، وموقع متقن غاية الإتقان، بحيث لا يصلح غيرها مكانها. إنها جاءت بعد عرض مفصل لأشكال عظمة المولى، وتعداد نعمه على العباد، من حيث خلقهم: ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴾ (الواقعة: ٥٨)، ﴿ أَلَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ (الواقعة: ٥٩)، أو من حيث نعمة إنزال الماء: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴾ (الواقعة: ٦٨)، ﴿ أَلَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴾ (الواقعة: ٦٩)، ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ (الواقعة: ٧٠). أو من حيث نعمة خلق النار: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴾ (الواقعة: ٧١)، ﴿ أَلَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴾ (الواقعة: ٧٢).

وبعد عرض المولى هذه النعم والعطايا، والتي هي من دلائل العظمة، يجيء التسبيح فطرة من الإنسان، فيلهج بالتسبيح والحمد والثناء.

(2) الكشف: ٣/٣٢٣.

(1) المستدرک: ٢/٥١٢.

فما تملك نفس سوية عاقلة إلا أن تسبح لموجد الوجود، لأن التسبيح الذي هو العبادة سر الخلق، ومحور الوجود، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦).

وإنما يجيء التكرار هنا لأهمية الأمر بالتسبيح وخطورته، وعظيم شأنه، ومن حيث أنه الأمر بالتسبيح تكرر فإن ملمحا يمكن أن يدرك وهو معاودة التسبيح مرة بعد مرة، وعدم الانقطاع عنه.

وأن يرد الأمر في سياق تتعدد فيه دلائل العظمة فلأن المولى يستحق أن تلهج كل ذرة في هذا الوجود بالتسبيح.

٣- قال تعالى: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الحشر: ١) وقال أيضا: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الصف: ١). وقوله تعالى: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الحديد: ١).

أول ما يستوقف المتأمل أن الآيات قد ابتدأت بالتسبيح، وجاءت على بناء الماضي، وهو تقرير بأن الكائنات جميعها قد سبحت مولاهم لأنها جبلت على التسبيح، وفيه تعريض بأولئك الذين غفلوا عن التسبيح.

وحيث أن الآيات السابقة افتتحت بالفعل الماضي، فإن آيات آخر قد افتتحت بالفعل المضارع. قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الجمعة: ١) وقال سبحانه: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التغابن: ١).

وما ذلك إلا إشارة إلى أن التسبيح دائم مستمر، في الماضي والحاضر، منذ أن خلق الله الوجود، وأوجد الكائنات وفطرها على التسبيح، قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (الإسراء: ٤٤).

وقال أيضا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (النور: ٤١).

إن كل الوجود يسبح مولاه، فالتسبيح ركيزة الوجود، ولما كانت السور المبدوءة بالتسبيح تستعرض مظاهر قدرة الله وعظمته، وتعدد نعمه وآلائه، حسن عندها البدء بالتسبيح هو براعة استهلال للسورة في غاية الروعة والجمال. يقول الإمام ابن عاشور: " افتتاح السورة بالإخبار عن تسبيح أهل السماوات والأرض لله تعالى براعة استهلال " (١).

فإذا كان أمر التسبيح بهذه الخطورة، وعى هذا القدر العالي من الأهمية، بحيث انتثر بين ثلثي الآيات، فبدأ به في مطلع خمس سور من القرآن الكريم، وعبر عنه بالماضي والمضارع والأمر، فإن لتكراره مغزى وهو التأكيد على أهميته، والإبقاء على استحضاره في الأذهان قائماً.

خامساً: الإظهار في موضع الإضمار:

ينتمي هذا الفن البلاغي إلى علم المعاني، أحد أهم علوم البلاغة الثلاثة، وحين يذكره البلاغيون يجمعون القول عنه في باب (أحوال المسند إليه)، وتحت عنوان خروج الكلام عن مقتضى الظاهر.

وحقيقة الأمر أن للمسند إليه ضوابط وقواعد ينبغي أن لا يخرج عنها، ولكنه حين يخرج عن تلك القواعد والأصول إنما يخرج لفائدة بلاغية تراد من هذا الخروج. ومن جملة ذلك أنه حين يذكر الاسم ظاهراً، وأريد الحديث عنه لا يكرر وإنما يؤتى بضمير يعود عليه؛ ليتم به الكلام وتقع به الفائدة وهذا هو الأصل.

يقول الإمام الزركشي: " والأصل في الأسماء أن تكون ظاهرة، وأصل المحدث عنه كذلك، والأصل أنه إذا ذكر ثانياً أن يذكر مضمراً للاستغناء به عن الظاهر السابق " (١).

هذا هو الذي تجري عليه سنن العربية، ولكن العربية أيضاً عرفت أحوالاً أخرى، يعاد فيها ذكر الاسم الظاهر، ولا يؤتى بالضمير فيكون إظهاراً للاسم في موضع يصح فيه الإضمار والإتيان بالضمير.

(١) التحرير والتنوير : ٧٣/١٥.

(١) البرهان : ٤٨٤/٢.

وهذا الخروج إنما يكون لفائدة بلاغية غير فوائد إتمام المعنى، وإيجاز الكلام، يقول الإمام الألوسي: " والعرب إذا فحمت شيئاً كررته بالاسم الذي تقدم له " (٢). والإمام الألوسي هنا أشار إلى واحدة من فوائد الخروج عن الأصل وهي التفخيم والتعظيم، ولكن العلماء عدّوا فوائد كثيرة لهذا الخروج. منها مثلاً: الاستلذاذ بذكره، وزيادة التقدير، وإزالة اللبس، وتعظيم الأمر، والتنبيه على علة الحكم. وغير ذلك من فوائد.

على أننا يجب أن ننتبه إلى أن الضمير الذي يصح أن يقع موقع الاسم الظاهر، فتتم به فائدة الكلام، ويتوصل به إلى المعنى المراد، ليس هو تماماً الاسم الظاهر، فهو لا يساويه، ولا ينطبق عليه بكل ظلاله إلا في الحكم الإعرابي الذي يتم به المعنى، إذ يظل الاسم الظاهر ينفرد بجملة من المزايا عن الضمير، منها مثلاً:

أن الأثر الذي يتركه الاسم الظاهر ويلقي بظلاله على النفس أقوى وأكثر تأثيراً من الضمير، لأن تصور الذهن عن كليهما مختلف من حيث إيقاع ظلاله على النفس، ثم إنه يستطاع بناء جملة مستقلة ذات إحياء قوي وفعال، يصح أن تقوم مقام المثل أو الحكمة، أو أن تكون تذييلاً مناسباً لمعنى مطروق، في حين أن الضمير يقصر أحياناً عن ذلك.

"وقد أدرك البلاغيون وحي الكلمة وعملها بما يثيره لفظها من شئون في النفس، لا يستطيعها الضمير العائد عليها، فأشاروا إلى أن الكناية - ويعنون بها الضمير - والتعريض لا يعملان في العقول عمل الإفصاح والتكشيف، فإذا كان الضمير يعطي إشارة ذهنية إلى العائد عليه تحضره في النفس إلا أن قدراً كبيراً من التأثير يظل الاسم الظاهر محتفظاً بها، ولا يستطيع الضمير حملها نيابة عنه، لأنها تتولد حين يقرع اللفظ السمع بجرسه، وارتباطاته المختلفة التي اكتسبها في قصته الطويلة مع الكلمات والأحداث والمواقف " (١).

ولو تأملنا في المثال الشعري الذي يورده العلماء في هذا الباب:

نغص الموت ذا الغنى والفقير

لا أرى الموت يسبق الموت شيء

(2) روح المعاني : ٣٣٤/١.

(1) خصائص التراكيب: ١٩٣.

فالشاعر قد أظهر لفظ (الموت) حيث يصح إضماره، فيقول: (لا أرى الموت يسبقه شيء) ولك أن تنتظر إلى وقع لفظ (الموت) وما يستدعيه من رهبة وخوف وفزع، وما يستحضره إلى الذهن من مشاهد وصور وأحداث وما يحرك في الذهن من معان، وبين الضمير الذي يومئ بإشارة بسيطة إلى الموت في غير وقع ولا صدق.

إن إعادة اللفظ مظهرًا أتاح للشاعر أن يبين عن عقدة الموت التي استقرت في أعماقه، والتي هي مصدر البؤس والتغصن لدى الشاعر وغيره. " ولا شك أن سواد بن عدي وهو شاعر قد تزايد إحساسه بمشاعر مختلفة من الرهبة والتعظيم، فألح على الكلمة إلحاحًا وكررها مظهرة في موضع إضمارها لما أراد تعظيم شأن الموت وتهويل أمره " (٢).

إن إدراكنا للفرق الدقيق بين الاسم الظاهر والضمير من حيث يكتنز كل واحد منهما من مدلول، وما ينفرد به الاسم عن الضمير من دلالات وارتباطات ذهنية مختزنة هو المدخل لفهم أغراض الإظهار في موضع الإضمار. ولعل العلماء - رحمهم الله - قد فطنوا لهذا المدخل، وتنبهوا إليه، فلم يألوا جهدًا في تبين أغراض الإظهار وفوائده البلاغية.

فقد عد الإمام الزركشي مثلًا مجموعة من الأغراض البلاغية للخروج على خلاف الأصل في الإظهار منها : (١)

١ - التعظيم: كقوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٨٢).

٢ - قصد الإهانة والتحقير: كقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْغُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ

(2) التوجيه البلاغي: ١٧٨.

(1) البرهان: ٤٨٤/٢.

يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَّى مِنْكُمْ مَنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿النور: ٢١﴾. حيث أعاد ذكر لفظ الشيطان مظهرا.

٣ - تربية المهابة وإدخال الروعة في ضمير السامع: كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (النساء: ٥٨). وقوله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ﴾ (الحاقة: ١)، ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾ (الحاقة: ٢).

٤ - تعظيم الأمر: كقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ (الإنسان: ١)، ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (الإنسان: ٢).
" ولم يقل خلقناه للتنبيه على عظم خلق الإنسان " (٢).

٥ - قصد العموم: كقوله تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ (الكهف: ٧٧).

" ولم يقل استطعمهم للإشارة بتأكيد العموم، وأنهما لم يتركا أحد من أهلها إلا استطعماه وأبى، ومع ذل قابلهم بأحسن الجزاء، وفيه التنبيه على محاسن الأخلاق، ودفع السيئة بالحسنة " (٣).

(2) المصدر السابق: ٤٩١/٢.

(3) البرهان: ٤٩٥/٢.

وبما أورده الإمام الزركشي لقصد العموم قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَتَرَىٰ نَفْسِي إِلَّا النَّفْسَ لَأَمَّارَةً بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (يوسف: ٥٣).

" فإنه لو قيل: (إنها لأماراة) لاقتضى تخصيص ذلك، فأتى بالظاهر ليدل على أن المراد التعميم، مع أنه برئ من ذلك لقوله بعده (إلا من رحم ربي) ^(١) .

على أن ملاحظتنا على الآية تأخذ شكلا آخر، وهو أن قصد التعميم فيما أحسب لم يكن بسبب الإظهار، وإنما كان بسبب الحذف، حذف الضمير فليس الاسم المظهر هو نفسه الذي ذكر قبله، فالاسم المظهر الأول (نفسى) المضاف إلى ضمير المتكلم، واللفظ الثاني (النفس) في غير ضمير.

ولو أعاد اللفظ كما هو فقيل: (إن نفسى لأماراة بالسوء) لم يفد العموم، وإنما ظل على التخصيص بنفس يوسف عليه السلام.

وإنما فيما أحسب أن التعميم كان بسبب حذف الضمير، وإطلاق اللفظ، فيكون المقطع القرآني كما لو يجري مجرى المثل من حيث استقلالية الجملة وبقاء المعنى كاملا وتاما في حال استقطاعها من النص واستخدامها في مواطن مشابهة تصلح للتمثيل.

ومهما يكن من أمر فإن الأمثلة السابقة إنما كانت تتناول الإظهار بشكل عام، سواء كان الاسم المظهر لفظ الجلالة أو أي لفظ آخر، كالنفس في الآية السابقة من سورة يوسف، و الحاقة في آية سورة الحاقة وغيرها.

على أننا حين نتناول الإظهار في موضع الإضمار في خواتم الآيات القرآنية، نعني به فقط إظهار لفظ الجلالة (الله) في مواضع يصح أن يقوم الضمير مقامها، إما لأن لفظ الجلالة قد ذكر ظاهرا قبلها، وإما لأن سياق الآيات يدل على صيرورة الجملة إلى هذا المعنى.

والأمثلة كثيرة جدا في القرآن الكريم موزعة على طول النص القرآني وعرضه كما لو كانت حبات الدر يوشى بها النص في سحر وجمال.

(١) المصدر السابق: ٤٩٥/٢.

كقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة: ١٤٣).

حيث أظهر لفظ الجلالة في ختم الآية، ولم يقل إنه بالناس لرؤوف رحيم، ولو قال لجاز لأنه عطف الضمير على اسم ظاهر (وما كان الله ليضيع إيمانكم).
والحقيقة أن الإظهار في موضع الإضمار في خواتم الآيات القرآنية جاء على وفرة ملحوظة بحيث يمكن القول أنه يشكل ظاهرة واضحة الملامح، فقد قل أن يعطف بالضمير على ظاهر، إلا ما كان لسبب كأن لا يصح البناء إلا به.
وأنت حين تجيء لتتأمل في خواتم الآيات تجد تلك الظاهرة تلوح لديك قائمة، وتستدعي التأمل والتحليل، مع التأكيد مرة أخرى على أن حديثنا يدور حول إظهار لفظ الجلالة (الله) وليس غيره.

وعلماء البلاغة رحمهم الله - حين تناولوا فكرة الإظهار في موضع الإضمار، وصفوا القواعد العامة لها، وكانت تلك القواعد عندهم شاملة عامة، تحتاج إلى تفصيل وتطبيق عملي على النماذج القرآنية جميعها.
ومن خلال إطلاعي المتواضع - أو فيما تيسر لي من تأليفهم - لاحظت أن تلك الظاهرة التي أشرت إليها قبل قليل لم تحظ بنصيب من دراساتهم، ولم يدلوا بدلوهم فيها على وجه الخصوص، فيما ظل حديثهم عاما عن خروج الكلام على مقتضى الظاهر.

وكان على أن أتجه إلى علماء التفسير ممن درسوا البلاغة فبانئت شذراتها في مصنفاتهم، وأولوها رعاية واهتمام في تفاسيرهم ومن هؤلاء الإمام أبو السعود والألوسي وابن عاشور^(١).

إن أغراض الإظهار في خواتم الآيات عندهم اختلفت من عالم لآخر، ولكن يمكن ملاحظة أنها تتدرج تحت محددات تتلخص فيما يلي:

(1) وهناك مفسرون آخرون كالإمام أبي حيان والفخر الرازي.

١ - تربية المهابة وإلقاء الروعة: فحيث يذكر الاسم الجليل في موضع يصح أن يضم فيه فإن ذلك يكون لما له من هيبة، ولما يلقي من روعة في قلوب السامعين، كقوله تعالى:

﴿وَأَتَمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَخْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكِ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (البقرة: ١٩٦).

" وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتربية المهابة وإدخال الروعة " (١).
وكقوله تعالى :

﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ (البقرة: ١٦٥).

" وإظهار الاسم الجليل في مقام الإضمار لتربية المهابة وتقويم المضاف، وبيان كمال قبح ما ارتكبه " (٢). وبمثله يذهب الإمام الألوسي قال تعالى:

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (آل عمران: ١٩).

" وفي إظهار الاسم الجليل تربية للمهابة وإدخال للروعة " (٣).
قال تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرُبًا لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّبُ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (آل عمران: ١٥٦).

(١) إرشاد العقل السليم : ٢٠٧/١.

(٢) المصدر السابق: ١٨٦/١.

(٣) روح المعاني: ١٠٧/٣.

وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتربية المهابة وإلقاء الروعة والمبالغة في التهديد والتشديد في الوعيد^(٤).

ويمكن ملاحظة أن هذا النوع من الإظهار يكون في سياق يتعلق بضبط السلوك الإنساني، ومن ثم نجده يشتمل على أمر ونهي أو تنبيه وما شابه، وليس أكثر تربية للمهابة في قلوب المخاطبين من ذكر هذا الاسم الجليل، الذي يقتضي ذكره وقوع الهيبة والخشوع والمراقبة وهو قمة ما يرتجيه السياق.

على أن اسم المولى سبحانه باعث للارتياح والاطمئنان، وذكره من دواعي الأمن والسعادة، وبذكره ترتاح النفوس وتهلأ، وتصفوا القلوب وتبرأ، ولكن وقوع الهيبة والروعة في نفس المخاطب إنما يكون من وقوع اللفظ في سياق يستدعي ذلك، لأن الأوامر والنواهي وما يترتب

عليها من عقاب حين المخالفة، ومن استحضار مراقبة المولى سبحانه وتعالى للعبء، هو الذي يخلق هذا الجو النفسي الذي ينتج معنى الرهبة والمهابة والخوف وما شابه.

٣ - الإشعار بعلّة الحكم وتأكيّد استقلال الجملة:

قال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (النور: ٣٥).

" وإظهار الاسم الجليل لتأكيد استقلال الجملة و الإشعار بعلّة الحكم " (١).

(4) إرشاد العقل السليم: ١٠٤/٢.

(1) إرشاد العقل السليم: ١٧٧/٦.

وأما ما يقصد باستقلال الجملة فهي أن تكون كاملة بحيث لو اقتطعت من السياق الذي هي فيه، يظل المعنى فيها على تمامه وكماله، ويحسن استخدامها في مواطن خارج السياق. فالختم (والله بكل شيء عليم) مقطع مستقل المعنى، واضح المدلول مشحون بكل الرموز الذهنية المرتبطة بألفاظه.

ولو أننا أضمرنا وقلنا (وهو بكل شيء عليم). فهي جملة ليست مستقلة، حيث لا يحسن اقتطاعها من السياق إلا ووضعها في سياق مثله، فلا تقوم بذاتها بغير قرينة تشير إلى مدلولها، لاحتمال أن يكون الضمير عائداً على غير مرجعه الأصلي، اللهم إلا ما يشير إليه تقديم المتعلق واستحالة أن يكون لغير الله.

وأما ما يقصد بالإشعار بعلّة الحكم فهو أن الختم يأتي تعليلاً لمعنى سابق في الآية، وهو ضرب الأمثال للناس مثل هذا النوع من الأمثال المحسوسة التي تخاطب الحواس. قال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَلَّمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝ (النساء: ٥٦).

يقول الإمام الألوسي في الختم السابق: " وإظهار الاسم الجليل لتعليل الحكم " (١). قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝ (الحشر: ١٨).

" وإظهار اسم الجلالة في مقام الإضمار فتكون الجملة مستقلة بدلالاتها أتم استقلال مجرى الأمثال ولتربية الهابة في نفس المخاطبين " (٢).

(1) روح المعاني: ٦٠/٥.

(2) التحرير والتتوير : ١١/١٥.

إن الإمام ابن عاشور ينفرد باستنتاجه صلاحية الإظهار في الختم أن يكون تذييلاً يجري مجرى المثل والحكمة، فنراه يقول في معرض تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (المائدة: ١٧). " ووقع فيه إظهار اسم الجلالة في مقام الإضمار ليكون كاملاً مستقلاً بذاته لأن شأن التذييل أن يكون كالمثل " (٣). ثم نراه في موضع آخر في تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً﴾ (الأحزاب: ٣٩). " وإظهار اسم الجلالة في مقام الإضمار حيث تقدم ذكره، لقصد أن تكون هذه الجملة جارية مجرى المثل والحكمة " (٤).

إن الربط بين إظهار اسم الجلالة وبين التذييل الذي هو فن بلاغي أصيل، وجريانه مجرى المثل والحكمة واضح عند الإمام ابن عاشور، حيث أعانه على ذلك الربط القول باستقلالية الجملة، التي تتيح للختم أن يكون تذييلاً، حتى أننا في أغلب الأحيان نجده يصرح بأن الخواتم تذييل بلاغي.

إن هناك أغراضاً لا حصر لها للإظهار، ولكنها جميعاً تتدرج فيما أحسب تحت الفائدتين السابقتين، ومنها مثلاً التمكين الذي قاله الإمام القرطبي: " وإن كان المظهر غير اسم إشارة، فالعدول إليه عن المضمّر لزيادة التمكين، وإما لإدخال الروع في ضمير السامع، وتربية المهابة، وإما لتقوية داعي المأمور " (٥).

والتمكن الذي يعنيه الإمام القرطبي هو تمكين معنى المسند في المسند إليه. " وهناك ضرب من وضع الظاهر موضع المضمّر يراد به تقرير المظهر، وتمكينه في القلوب، ومن ذلك قوله تعالى: (قل هو الله أحد)، وأثر المظهر على المضمّر لأن للفظ الجلالة بمدلوله الكريم وقعا عظيماً في القلوب والمراد تمكين الألوهية، وإشاعة هيمنتها في الضمائر، وخذ المصحف واقرأ فيه من أي موضع تشاء تجد هذا الأسلوب وكأنه أصل من أصول البلاغة القرآنية، تجد أسماء الله الحسنى وخصوصاً هذا الاسم الأعظم

(3) المصدر السابق: ٩/١٠.

(4) المصدر السابق: ٢٧٣/١١.

(5) القرطبي: الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبدیع (مختصر تلخيص المفتاح)، تح. رحاب عكاوي، دار الفكر العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠ م، ٦٢.

تقع هذا الموقع في كثير من الجمل القرآنية لينساب نورها الغامر في القلوب، وتشيع مدلولاتها فتتمكن من النفوس، زيادة تمكن، وتتقرر في السرائر أحسن قرار، وبذلك تتربى مهابة الحق وحده في الأمة التي يرببها القرآن " (١).

إن للفظ الجلالة وقعه الخاص، وإحياه الأخاذ، فما من لفظ يعمل عمله في القلوب، ويصنع صنيعه في المشاعر والأحاسيس مثل هذا الاسم الجليل المقدس واسم الجلالة الأكرم هو واسطة العقد، ودرته الثمينة بل يكاد القرآن كله يتمحور حول هذا الاسم الجليل ويبنى عليه.

وما من اسم يبعث في النفس الرغبة والرغبة معا، ويشيع في الجوانح الأمل والانقباض غير هذا السم الجليل.

إنه اللفظ الوحيد في متون اللغة كلها الذي لا يزيده التكرار إلا عذوبة وسحرا، ولا يضيفي عليه الإظهار إلا هيبة وقداسة، وفي كل موضع يكرر أو يظهر فيه، تقف معان جديدة، وتتقضى دلالات، وتتبعث أحاسيس ومشاعر.

ولو أن لفظا آخر غير هذا الاسم الجليل كرر في القرآن على هذا النحو من التكرار، وأظهر على هذه الوفرة من الإظهار.. لملت النفس ذكره، وسئمت الأذن سماعه، وضاق به القلب، وتصدعت به جدران الروح، ولكن الروح ظمأى لتكراره وإظهاره، متلذذة بسماعه وقرآنه، يقول الشاعر:

يا مطربي حديث من سكن الغضى هجت الهوى وقدحت في حراق

كرر حديثك يا مهيج لوعتي إن الحديث عن الحبيب تلاق (٢)

هذه الخاصية الساحرة لاسمه تعالى، جعلت إظهاره في خواتم الآيات، آية من آيات الحسن والجمال، فمكنت به الختم من القيام بوظيفته الخلاقة في السياق القرآني. ومنحته قدرة على النهوض بذاته في الجملة واستقلالها، فحسن بذلك أن يجري مجرى الحكم والأمثال، وصلاح أن يستقطع من النص فيقرر ما يقرر من معان في الأذهان في شيء من التأثير الفعال في العقل والضمير معا.

وهو في الحقيقة حين يظهر في الخواتم يصح مع هذا الإظهار أن يجمع جملة من الفوائد البلاغية في الموضع الواحد .

(1) خصائص التراكيب: ١٩٣.

(٢) البرهان: ٤٨٨ / ٢.

بحيث يصح أن يكون إظهاره للتعظيم، وتربية المهابة، ولبيان علة الحكم، واستقلالية الجملة، والتأكيد، والتشديد في الوعيد، والإيناس، والتلذذ بسماعه. حتى أن بعض العلماء كان يجمع الكثير من الفوائد في الموضع الواحد، فظهر ما ظهر من حسن الختم به، يقول الإمام الحموي رحمه الله: " فينبغي لكل بليغ أن يختتم كلامه في أي مقصد كان بأحسن الخواتم، فإنها آخر ما يبقى على الأسماع، وربما حفظت من بين سائر الكلام لقرب العهد بها " (1).

(١) الطراز: ٤٨٥.

٦- بناء الخاتمة في الآية:

لبناء الخاتمة في الآيات الكريمات شأن خاص، ونظام له ملامح ثابتة، حتى إنه يمكن القول إن طريقة بناء الخاتمة تشكل ظاهرة بلاغية تستدعي بحثها وتأملها، والغوص في أعماقها للوصول إلى مكنن الحسن وموطن الفائدة منها.

لقد تم تناول بعض الظواهر البلاغية المنبني ختم الآية عليها من تقديم وتأخير، وتوكيد وتكرار والتفات وإظهار الضمير وإضماره في هذا الفصل. وهي ظواهر لها علاقة مباشرة ببناء الخاتمة، وقد بان أن هذه الظواهر البلاغية ملحق مهم من ملامح بناء الختم. ولكن هذا المبحث تحت هذا العنوان يهدف إلى دراسة بناء الخاتمة من حيث كونها جملة اسمية أو فعلية، ودلالة ذلك من ناحية بلاغية، والوقوف على أسباب الختم بهذا النوع أو ذاك من الجمل.

إن المتأمل في كتاب الله لن يحتاج إلى مزيد جهد ليكتشف أن خواتم الآيات جاءت في أغلبها جملة اسمية. المسند إليه كان فيها هو لفظ الجلالة (الله) أو الضمير الذي ينوب عنه في أداء المعنى في الجملة (هو).

قال تعالى :

﴿ قُلْ إِنْ تُحِبُّوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ بُدُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (آل عمران: ٢٩). وقال:

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (التغابن: ١١) وقال سبحانه:

﴿ لَا يُؤْخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤْخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٢٥) وقال تعالى:

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٩).

تلك باقية من آيات الله جاء الختم فيها جملة اسمية، المسند إليه فيها اسم، وكذلك المسند. فهل لإيثار الجملة الاسمية فائدة بلاغية هنا ؟ يلزم بداية التفريق الدلالي بين التعبير بالجملة الاسمية والتعبير بالجملة الفعلية. فالجملة الاسمية إنما تفيد ثبوت المسند للمسند إليه، فيما تفيد الجملة الفعلية الاستمرار والتجدد. هذه أول إشارة يمكن التقاطها في الفرق بينهما.

" والجملة الاسمية موضوعة للإخبار بثبوت المسند للمسند إليه، بلا دلالة على التجدد والاستمرار، وإذا كان خبرها اسما فقد يقصد به الدوام والاستمرار الثبوتي بمعونة القرائن... والجملة الفعلية موضوعة لإحداث الحدث في الماضي أو الحال فتدل على تجدد سابق أو حاضر " (١). يقول الإمام الطوفي: " في الخطاب بالجملتين الفعلية والاسمية، وهو بالثانية أبلغ منه بالأولى وأكد " (٢).

والبلاغيون يستدلون على ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ ﴾ (البقرة: ١٤).

حيث عبر المنافقون بمستويين من الخطاب، الذين آمنوا وبنوا فيه خطابهم على الجملة الفعلية، وشياطينهم وبنوا فيه الخطاب على الجملة الاسمية، وفي ذلك فائدة تكشف لنا ما انطوت عليه نفوسهم.

قال ابن الأثير: " فإنهم خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية وشياطينهم بالجملة الاسمية المحققة بأن المشددة، لأنهم في مخاطبة إخوانهم بما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اعتقاد الكفر والبعد من أن يزلوا عنه على صدق رغبة ووفور نشاط، وأما الذي

(1) الكليات : ٣٤١.

(2) الإكسير : ٣٠٤.

خاطبوا به المؤمنين فإنما قالوا تكلفا وإظهارا للإيمان خوفا ومداجاة، ولأنهم ليس لهم في عقائدهم باعث قوي على النطق في خطاب المؤمنين بمثل ما خاطبوا به إخوانهم من العبارة المؤكدة " (٣).

وفي سلام إبراهيم للملائكة دلالة على ما ذهب إليه من أن الجملة الاسمية تفيد الثبوت والفعلية تفيد التجدد. وتأمل ثناء الله سبحانه على إبراهيم في إكرام ضيفه من الملائكة، قال تعالى :

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ (الذريات: ٢٤)، ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ (الذريات: ٢٥).

ففي هذا الثناء على إبراهيم وجوه منها:

" قوله لهم سلام بالرفع وهم سلموا عليه بالنصب، والسلام بالرفع أكمل، فإنه يدل على الجملة الاسمية الدالة على الثبوت والتجدد، والمنصوب يدل على الفعلية الدالة على الحدوث والتجدد، وإبراهيم حياهم أحسن من تحيتهم، فإن قولهم: (سلاما) يدل على سلمنا سلاما، وقوله: (سلام) أي سلام عليكم " (١).

كانهم قالوا: نسلم سلاما حادثا متجددا. فرد عليهم قائلا: سلام عليكم دائم لا ينقطع. وبمثل ذلك قال الإمام الرازي:

" إن إبراهيم أراد أن يرد عليهم بالأحسن، فأتى بالجملة الاسمية، فإنها أدل على الدوام والاستمرار، فإن قولنا: جلس زيد لا ينبئ عنه؛ لأن الفعل لا بد فيه من الإنباء عن التجدد والحدوث، ولهذا لو قلت: الله موجود الآن لأثبت العقل الدوام، إذ لا ينبئ عن التجدد، ولو قال قائل: وجد الله الآن. لكان ينكره العاقل لما بينا، فلما قالوا: (سلاما)، قال: (سلام) عليكم مستمر دائم " (٢).

فقد وضح إذن أن التعبير بالجملة الاسمية أكد من حيث نسبة المسند إلى المسند إليه، ومن حيث أنها تدل على الثبوت، ثبوت الوصف ليس حدوثه.

(3) المثل السائر : ٥١/٢.

(1) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي: جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام، تحقيق شعيب الأرنؤوط؛ عبد القادر الأرنؤوط، دار العروبة، الكويت، ١٤٠٧-١٩٨٧م، ٢٧٢/١..

(2) تفسير الفخر الرازي: ٢١٣/١٤.

وحتى تفيد الثبوت يلزم أن يكون المسند اسما وليس فعلا " فالجملة الاسمية لا تدل على الثبوت إلا إذا كان المسند اسما، وأما إذا كان فعلا فلا تفيد ذلك، إذ من المعلوم أن قولك: (هو يحفظ) جملة اسمية لكنها لا تفيد الثبوت، بخلاف قولك: هو حافظ " (٣).

والإمام القرطبي ويني وضح ذلك في حديثه عن المسند، يقول: " وكونه جملة فإن فعليتها لإفادة التجدد واسميتها لإفادة الثبوت، فإن من شأن الفعلية أن تدل على التجدد، ومن شأن الاسمية أن تدل على الثبوت، وعليهما قول رب العزة: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ ﴾ (البقرة: ١٤). " (٤).

وهذا هو الذي عليه الختم في الآيات الكريمات، فمن جهة كان الختم المشتمل على أسماء الله الحسنى وصفاته جملة اسمية، ومن جهة أخرى كان المسند اسما من أسمائه الحسنى، أو وصفا، هذان الأمران جعلتا معنى المسند يلصق بالمسند إليه ويلتحم به على وجه الثبوت والدوام.

والسبب في أن الجملة الاسمية تدل على الثبوت وأن الفعلية تدل على التجدد، أن الفعل في اللغة العربية، إما أن يكون ماضيا أو مضارعا أو مستقبلا، والماضي مقيد بالزمن الماضي، والمضارع مقيد بالزمن الحاضر، ولكن الاسم غير مقيد بزمن.

لذلك قال الإمام القرطبي عن المسند: " وأما كونه فعلا فللتقييد بأحد الأزمنة الثلاثة على أخصر ما يمكن مع إفادة التجدد، وأما كونه اسما فلا إفادة عدم التقييد والتجدد " (١).

وللإمام الجرجاني كلام جميل حول هذا المعنى يقول:

" الاسم موضوع على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئا بعد شيء وأما الفعل فموضوعه على أنه يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئا بعد شيء، فإن قلت: (زيد منطلق) فقد أثبت الانطلاق فعلا له من غير أن تجعله يتجدد ويحدث منه شيئا فشيئا، بل يكون المعنى فيه كالمعنى في قولك: زيد طويل، وعمره قصير، فكما لا تقصد ها هنا إلى أن تجعل الطول أو القصر يتجدد ويحدث بل توجبهما وتثبتهما فقط، وتقتضي بوجودهما على الإطلاق، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَحَسْبُهُمْ أَيْقَاطُ وَهُمْ رُقُودٌ وَنَقَلَهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾

(3) معاني الأبنية: ١٧.

(4) الإيضاح: ٨٣.

(1) الإيضاح: ٧٥.

وَكَلِمَتٌ مِنْهُمْ رُغْبًا ﴿١٨﴾ (الكهف: ١٨). فإن أحدا لا يشك في امتناع الفعل ها هنا، وأن قولنا: وكلبهم يبسط ذراعيه، لا يؤدي الغرض وليس ذلك إلا لأن الفعل يقتضي مزاوله وتجدد الصفة في الوقت، ويقتضي الاسم ثبوت الصفة وحصولها " (٢). إذن " كون الاسم دالا على الثبوت، كان الوصف بالاسم أقوى من الوصف بالفعل " (٣). لأنه يدل على تمكن الوصف من المسند إليه، وثبوته على وجه الدوام والاستمرار، بخلاف الفعل الذي هو مقيد بالزمن، فإن الختم في قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (النور: ٦٤) يفيد أن صفة العلم (المسند) مسندة إلى الله (المسند إليه) على وجه الثبوت والدوام، فهو عليم لم يسبق بجهل، فلم يكن - حاشاه - غير عالم فعلم، وعلمه لا يكون على وجه التجدد والتتابع، بل أزلي، وهو مستمر ثبوته أزلي دائم. فهو سبحانه عليم قبل خلق ما يعلم، وعليم بعد فناء الخلق. هذه المعاني يمكن التقاطها من مبني الخاتمة، واسميتها، واسمية المسند. فالختم السابق الذي جاء على الاسمية، أقوى وأكد وأبلغ وأدوم من أن يقال (والله يعلم كل شيء).

فصفات الله وأسماءه أزلية مطلقة ثابتة دائمة، لم توجد على مراحل، ولم تتجدد، وجدت قبل أن يخلق الله الخلق، وقبل أن يوجد الزمن، وستظل بعد فناء الخلق، وانقضاء الزمن.

ولما كان هذا شأنها كان التعبير عنها بأفضل ما يدل عليها، فكانت الجملة الاسمية وفيه للتعبير، وقادرة على أن تنبئ عن أزليتها وثبوتها ودوامها، ليس ذلك فحسب بل أضفى علم المعاني بجمالياته وتنويعاته المختلفة، من تأكيد وتقدير وتأخير والتفات وإظهار في موضع الإضمار على الختم حسنا أي حسن، وتأكيدا في أجمل ما يكون التأكيد، واختصاص الصفات بالمولى، وسلبها عن عداه، فجعلت أسماء الله وصفاته صفوا خالصا للمولى، لا يشاركه فيها أحد.

(2) دلائل الإعجاز : ١١٨.

(3) معاني الأبنية في العربية: ١٤.

هكذا إذن دقة في البناء غاية في الإحكام، فحين يراد الإشارة إلى حدوث المعنى وتجده، تستنهض مكانن الجملة الفعلية، لأداء المعنى والوفاء له على أتم ما يكون.

قال تعالى :

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَمْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُو بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ (محمد: ٤).

" فانظر كيف جاء ب(ضرب) منصوبا وذلك على تقدير الفعل: أي فاضربوا، ولم يأت به بالرفع، وذلك لأنه موقوت بالمعركة، وليس أمرا دائما " (١) .

وحين يراد الإشارة إلى الثبوت تنهض الجملة الاسمية للوفاء للمعنى، وهنا يحسن الاستدلال بقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴾ (الأعراف: ١٩٣).

ففي الآية السابقة جاء التعبير عن دعوتهم لهم بالجملة الفعلية، وصمتهم بالاسمية، لأنه فيما نعلم أن الحالة الثابتة للإنسان هي الصمت، وإنما الحديث خروج عنه، فلم يقل سبحانه أو أنتم تصمتون، لأن الجملة الفعلية لن تكون وفية للتعبير عن معنى ثبوت الصمت الملازمة للإنسان، في حين كانت أقدر على التعبير عند الدعاء لأنه حادث عارض.

" فإن قلت: هلا قيل : أم صمتم ؟ ولم وضعت الجملة الاسمية موضع الفعلية ؟ قلت: لأنهم كانوا إذا حاربهم أمر دعوا الله دون أصنامهم، كقوله (وإذا مس الناس الضر) فكانت حالهم المستمرة أن يكونوا صامتين عن دعوتهم، فقيل: إن دعوتهم لم تفترق الحال بين إحداثكم دعاءهم، وبين ما أنتم عليه من عادة صمتكم من دعائهم " (١).

(١) التعبير القرآني : ٢٢.

(١) الكشف : ١٨٢/٢.

على أنه يمكن أن يعبر عن المعنى الحادث بالجملة الاسمية، ولكن حينئذ يكون المراد أنه سيتحقق على وجه اليقين، " وربما كان الأمر لم يحدث بعد، ومع ذلك يؤتى بالصيغة الاسمية للدلالة على أن الأمر بمنزلة الحاصل المستقر الثابت، ونحو ذلك قولك: أترأه سيفشل في مهمته ؟ فتقول : هو فاشل. وذلك لوثوقك بما قررته أي كأن الأمر تم وحصل وإن لم يحدث فعلا " (٢).

ويحسن الاستدلال على ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٣٠). فلم يقل المولى (إني سأجعل) كأن اسم الفاعل يشير إلى وقوع الأمر على وجه اليقين، فهو في عداد الفعل الذي تم.

وقوله تعالى: ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ (المؤمنون: ٢٧).

فانظر قوله: (إنهم مغرقون) فلم يقل: (إنهم سيغرقون) فكأن إغراقهم صار في عداد الأمر الذي تم وانتهى، ومقطوع القول فيه.

وقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ (العنكبوت: ٣١). فقد عبر المولى بقوله: (إننا مهلكو) ولم يعبر بقوله : (إننا سنهلك) فكأن أمر الإهلاك واقع لا محالة، سيكون على وجه اليقين.

إن من صحة العقيدة وسلامتها في قلب المؤمن، أن يعتقد بأسماء الله وصفاته، وبمقدار رسوخ هذه المعاني في قلبه وثباتها، يثبت الإيمان، و ترسخ العقيدة، من أجل ذلك كانت الآيات الكريمة تذييل بتلك الأسماء والصفات، وهي مطرزة في خواتم محكمة البناء، موزعة كحبات الدر، وكان التعبير عن تلك المعاني الجليلة العظيمة بالجملة الاسمية، التي بينت علة إينارها، وبإسناد تلك الصفات جميعها لله، غير ما وشيت به من حلل علم المعاني، الذي زادها توكيدا، وعمقا واستقرارا في النفوس، ورسوخا في القلوب.

وقد لوحظ أن الخاتمة الاسمية تجيء مرة مشتملة على صفة واحدة من صفات المولى العظيمة الجليلة، كالرأفة بالعباد في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (البقرة: ٢٠٧).

وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (آل عمران: ٣٠).

فما نحسب أن بناء الخاتمة على الجملة الفعلية، على أي شكل كان البناء، يمكن أن ينفذ إلى القلوب نفاد الخاتمة الاسمية السابقة، ولا أن استقرار المعاني الجليلة وثباتها في النفوس تكون كما هو عليه البناء القرآني المتقن.

وأنت حين تقتطع هذا الختم الجليل وتضمه إلى حنايا قلبك، تستشعر معه تلك الرأفة الوافرة، على أجمل ما تكون الرأفة. ويستحيل الخوف في أعماقك أملا وحبًا، لمولى عظيم، لم تتسع رأفته للمؤمنين فحسب، بل امتدت لتشمل العباد، بما يحمله اللفظ من دلالة واتساع.

وكذلك تجيء الخاتمة مشتملة على صفة القدرة، قال تعالى : ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة: ٢٨٤).

أو صفة العلم، كقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (النور: ٣٥).

أو شهادته على الأشياء كلها قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَعْمَهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسَوَّاهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (المجادلة: ٦).

ومرة تأتي الخاتمة مشتملة على صفتين جليلتين من صفات المولى، يأتي الختم

بهما جملة اسمية، ليزيد معناهما رسوخا وثباتا في القلب، وليحسن الاستشهاد به مقتطعا من السياق يؤدي غرضه في مواطن مختلفة.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (آل عمران: ١٢٩)

وقال سبحانه: ﴿إِلَّا تَصْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ٤٠)

وقال: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

وقال سبحانه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُم وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (النساء: ٢٦).

وقال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦٣).

(كان) في بناء الخاتمة:

إن ثمة مجموعة من الخواتم القرآنية اعتمدت في بنائها على (كان)، كقوله تعالى :

﴿ مَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ۝ (النساء: ٨٥) . وقوله سبحانه:

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ (النساء: ١٧) . وقوله جل شأنه:

﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ۝ (الكهف: ٤٥) .

ولما تكرر ورودها كثيرا بحيث زاد عن سبعين موضعا، صار حضورها في بناء الآية ملفتا بحيث يشكل شبه ظاهرة تستوجب البحث والتأمل.

وسواء كانت واقعة في صدر الخاتمة كالآيات السابقة، أم واقعة بعد الحرف الناسخ (إن) كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ۝ (الإسراء: ٣٠) . فإنه لا فرق فيما نحسب في المدخل لدراسة الظاهرة.

و(كان) كما يرى الإمام الأصفهاني: " عبارة عما مضى من الزمان وفي كثير من وصف الله تعالى تنبئ عن معنى الأزلية، ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَافُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٢٧)

وما استعمل منه في جنس الشيء متعلقا بوصف له هو موجود فيه فنتبيه على أن ذلك الوصف لازم له، قليل الانفكاك منه. قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا فَلَاحَ نَجَاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ (الإسراء: ٦٧)، فذلك تنبيه على أن ذلك الوصف لازم له قليل الانفكاك منه " (١).

فالرأي الأول إذن أنها تفيد الأزلية، أزلية الصفة، وبه قال الإمام الزركشي: " فحيث وقع الإخبار (بكان) عن صفة ذاتية، فالمراد الإخبار عن وجودها، وأنها لم تفارقه " (١).

قال الإمام الفخر في تفسير قوله تعالى : ﴿ مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا ﴾ (النساء: ٨٥). " إنما قال (وكان الله على كل شيء مقيتا) تنبيهها على أن كونه تعالى قادرا على المقدورات صفة كانت ثابتة له من الأزل، وليست صفة محدثة، فقوله (كان) مطلقا من غير أن قيد ذلك بأنه كان من وقت كذا و حال كذا يدل على أنه كان حاصلًا من الأزل إلى الأبد " (٢).

ويرى بعض العلماء أنها ترد للتأكيد، وقد عدها الإمام ابن عاشور مؤكدة في قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ (النصر: ٣). يقول : " وقد اشتملت الجملة على أربع مؤكدات هي: أن وكان وصيغة المبالغة في التواب وتنوين التعظيم فيه " (٣).

(1) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ٤٩٥.

(1) البرهان في علوم القرآن : ١٢٤/٤.

(2) تفسير الفخر الرازي : ٢١٥/٥.

(3) التحرير والتنوير : ٤١٨/١٦.

فيما عدها الإمام الدامغاني صلة في الكلام : " تفسير (كان) على خمسة أوجه منها :
صلة في الكلام مثل قوله تعالى : (وكان الله عليما حكيما) (النساء: ١٧) يعني : والله
عليم حكيم، وهي هاهنا صلة في الكلام ونحوه كثير " (٤).

وأيا ما كان الأمر، فإنها حين ترد في الختم المشتمل على أسماء الله الحسنى وصفاته
فإنها تفيد الأزلية والاستمرار والدوام.

ولكن ما وجه الفائدة أن يتضمن الختم لفظا يفيد معنى الأزلية ؟ وهل يمكن حذف (كان)
من الآيات التي اشتملت عليها ؟

إن القارئ المتأمل لكتاب الله يلاحظ أنه حيث وجدت (كان) في الختم، كان لها حسن،
من حيث سبك الألفاظ، ويدرك هذا الإحساس بشكل أكثر وضوح حين حذفها وتلاوة
الآية بدونها، طبعاً مع ما يترتب على حذفها من تغيير الحكم الإعرابي لمعموليها.

ولكن الإحساس فقط لا يقف دليلاً على فائدتها في الآيات الكريمات، ويجب البحث عن
أشياء أخرى.

والحق أن حضورها الملفت في النص القرآني شغلني، ولقد تتبعته أقوال العلماء بشأنها،
فلا تعدو أقوالهم عن الإشارة إلى أزليتها، أو زيادتها.

فمثلاً يشير الإمام الألوسي إليها في تفسير قوله تعالى : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمُ لِلذَّكَرِ
مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ
وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ
إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا
فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (النساء: ١١) قائلاً : " والخبر عن الله تعالى بمثل

هذه الألفاظ كما قال الخليل كالخبر بالحال والاستقبال، لأنه تعالى منزّه عن الدخول
تحت الزمان، وقال سيبويه: القوم لما شاهدوا علماً وحكمة، وفضلاً وإحساناً تعجبوا فقيل
لهم: إن الله تعالى كان كذلك، أي لم يزل موصوفاً بهذه الصفات، فلا حاجة إلى القول
بزيادة (كان) كما ذهب إليه البعض " (١).

ولكن إذا صح تأويل ذلك مع اسميه تعالى (العليم الحكيم) فكيف يصح مع أسماء لا

(4) الوجوه والنظائر: ٣٩٣.

(1) روح المعاني: ٣/٣٥٧.

يشاهد أثرها كالغفور مثلاً ؟ وهل القوم يشاهدون مغفرته سبحانه ليتعجبوا ويقال لهم: إنه كان غفارا ؟!

وبنحوه ذهب الإمام أبو حيان في تفسير قوله تعالى : ﴿ أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝ ﴾ (النساء: ١).

يقول : " لا يراد ب(كان) تقييد الخبر بالمخبر عنه في الزمان الماضي المنقطع في حق الله تعالى، وإن كان موضوع (كان) ذلك. بل المعنى على الديمومة فهو تعالى رقيب في الماضي وغيره علينا " (٢).

لقد تتبعناها في خواتم الآيات في القرآن الكريم، وموقعها في بناء الجملة، وورودها في السور القرآنية، ورصدت حضورها في الخواتم مع بعض الأسماء الحسنى دون بعض فبان لي جملة من الملاحظات، أحسب أنها هدأت من إلحاحي وكشفت عن بعض أهميتها في السياق القرآني.

١ - إن الأزلية التي تشيعها (كان) في الختم تؤكد معاني الصفات الجلية للمولى، من حيث أن أزلية الصفات موجودة ثابتة قبل أن يوجد ما يدل عليها ويظهرها، فهي كائنة قبل الزمان، وباقية بعده، فالمولى عليم قبل أن يخلق ما يعلم، وهو رحيم قبل أن يوجد من تظهر عليه الرحمة، وهو عزيز منذ كان قبل أن توجد آثار عزته ومظاهرها. وهو غفور حيث لم يكن عباد يذنبون، وإنما الذنوب أظهرت آثار صفة المغفرة للمولى سبحانه وتعالى. قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ۝ ﴾ (النساء: ٦٤). وتأمل قوله

تعالى (لوجدوا الله) فالتوبة والرحمة صفتان للمولى قبل أن يذنبوا، وقبل أن يستغفروا. يؤنسنا فيما ذهبنا إليه أن (كان) تكررت مع (العليم) سبع عشرة مرة، وتكررت مع (الغفور) سبع عشرة مرة أيضاً، فيما تكررت مع (الرحيم) خمس عشرة مرة. مع ملاحظة أن (كان) لم ترد إلا مع أسماء فيها معاني الرجاء، والقدرة والكمال مثل : (القدير، المقيت، اللطيف، الخبير، فلم ترد مثلاً مع : (شديد العقاب، سريع الحساب).

٢ - وحيث وجدت (كان) في الخاتمة فإن ثمة حدث ما تتمحور حوله الآية، فتأتي (كان) لتباشر عملها فيه، وتسلط الأضواء الكاشفة عليه، وتشير إلى أن معاني صفات المولى في الختم تسلطت على محور الآية (الحدث) فكان صفاته الأزلية قد بانّت وظهرت في الحدث. قال تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَأْلُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ (الأحزاب: ٢٥).

إن القوة والعزة صفتان أزليتان للمولى، ولكن ورود (كان) لم تأت فقط لترسخ هذا المعنى، وإنما جاءت (كان) لتفتح لنا نافذة لنطل على الحدث الذي بانّت فيه مظاهر القوة والعزة للمولى سبحانه وتعالى.

وقال أيضا: ﴿وَأَوْزَكْنَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدْيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّأُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢٧).

فقدرة الله سبحانه وتعالى أزلية، ولكن (كان) في الختم كشفت عن مظهر من مظاهر تلك القدرة في حدث ما هو توريث المؤمنين أرضا وأموالا وديارا من عدوهم، في ذلك الوعاء الزمني الذي دار فيه الحدث.

ولو أننا قرأنا الآية من غير (كان) وقلنا (والله على كل شيء قدير) لأثبتنا القدرة المطلقة للمولى مع ثبوتها ودوامها، وهذا يكون مناسب لسياق يراد منه ترسيخ معنى القدرة في الأذهان فقط، وأما (كان) فإنها تشتمل المعنى السابق، وتسلط الأضواء على ذاك الحدث الذي بانّت فيه آثار القدرة، مع الإحساس بالوعاء الزمني الذي تم فيه الحدث.

٣ - ومن الفوائد الجليّة ل(كان) في الخواتم، أنها تحيل معموليها من الرفع إلى النصب، فتأتي صفات المولى معها منصوبة، موقوفا عليها بالألف الممدودة. قال تعالى: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (الأحزاب: ٧٣).

لقد وردت (كان) كما بينت قبل قليل فيما يزيد عن سبعين موضعا، ومن اللافت حقا أنها وردت في سورة (النساء) في سبعة وثلاثين موضعا، وفي (الأحزاب) في خمسة عشر موضعا، وفي (الفتح) في سبعة مواضع، فما سر ورودها في هذه السور بهذه الكثرة ؟

إنه يمكن القول أن لكل سورة في القرآن الكريم بصمة خاصة تميزها عن غيرها، وبتأمل السور الثلاث يتضح أن هذه السور قد بنيت خواتم الآيات فيها على النصب، حيث كانت الفاصلة في الختم منصوبة، مختومة بألف ممدودة، فجاءت (كان) إذن لتحيل الختم من الرفع إلى النصب ليراعى فيه إيقاع الآيات، وتوافق الفواصل، لتظل الإيقاعات الجميلة العذبة متتالية لا تنقطع. فهي تتيح التعبير عن الصفات الجلية للمولى وفق إيقاعات خاصة مشحونة بالدلالات.

فمن دلالات الإيقاع المبني على الفاصلة المنصوبة المنتهية بألف ممدودة، أن (كان) لما كانت تحمل معنى الأزلية، كان خبرها المنصوب المنتهي بالألف الممدودة يوحي بالأبدية في معنى الصفة، أي استمرارها إلى الأبد، وهو معنى يستحضره الذهن عند مد الألف وانفراج الشفتين عند النطق بها وتدفق الهواء، ليتدفق معنى الصفة ويرسل على نحو لا نهائي.

وتأمل قوله تعالى :

﴿ وَالَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمُ فَأَذْوُهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ (النساء: ١٦). وقوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ (النصر: ٣) وقوله تعالى:

﴿ رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ (الإسراء: ٦٦).

الفصل الرابع

الدلالة الإحصائية لأسماء الله الحسنى في خواتم الآيات

أولاً : دلالة الإحصاء للأسماء في القرآن الكريم.

ثانياً: الأسماء الحسنى في الخواتم المكية والمدنية

مقدمة:

تتبع دوافع هذا البحث تحت هذا العنوان، من حقيقة باتت مستقرة في الأذهان، راسخة في القلوب، وهي أن هذا القرآن وثيقة الله الخالدة، ورسالته الباقية للبشر. ولما أحاطها المولى بالحفظ والصون لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩)، صار الإيمان بها، وانعقاد القلب على صدقها ودقتها، وأنها من لدن رب العالمين، كما هي باقية محفوظة منذ نزولها على قلب النبي صلى الله عليه وسلم - وحتى يومنا هذا - من الحقائق الثابتة البينة التي لا يشك فيها عاقل، ولا يماري فيها إلا جاهل.

فالقرآن الكريم إذن مستودع الأسرار الإلهية، والإشارات الربانية، فما من حرف ولا لفظ إلا لوجوده معنى، ولتكراره مغزى، ويقف خلفه جملة من الدلالات.

من أجل ذلك انبرى العلماء يحصون الأسماء، يحاولون التقاط إشارات دلالية منها حسب كثرة دورانها في القرآن الكريم.

وفي ضوء ذلك يأتي البحث في هذا الفصل، مقتصرًا على عمليات إحصائية للخواتم المشتملة على أسمائه الحسنى فقط، وهو يقوم على أساسين:

- ١ - إحصاء الأسماء الحسنى المفردة والمتجاورة في الخواتم التي هي مدار الدراسة.
- ٢ - رصد ظواهر يمكن أن يكون لها مدلولات بلاغية من خلال إحصاء عدد مرات ورود الاسم في الخواتم، وقراءة ذلك قراءة دلالية من خلال مقارنته مع غيره من الأسماء.

على أن الإحصاء الذي أردناه لا نهدف معه إلى إعطاء توثيق رقمي للأسماء الحسنى، وإنما أن يمدنا فقط بما يتيح أن نقارن بين اسم واسم، لأن التوثيق الرقمي منبع آخر ورده العلماء، وألفوا فيه، وليس هو محل اهتمامنا في هذا الفصل.

وهذا الفصل يحاول أن يجيب على جملة من التساؤلات:

ما هي الأسماء التي أعطت أعلى نسبة دوران في الآيات؟ وما دلالة ذلك؟

ثم هل توجد علاقة ذات دلالة بين القرآن الحكيم والمدني من جهة، وبين الخواتم المشتملة على أسمائه الحسنى من جهة أخرى؟

وهل لطبيعة بناء الخاتمة وتركيبها دلالة بين القرآن والمكي والمدني .

أولاً: دلالة الإحصاء للأسماء في القرآن الكريم:

١ - الأسماء المفردة:

تدور الأسماء الحسنى في القرآن الكريم على نحو لافت يدعو للملاحظة والتأمل، فتارة يأتي الاسم مفرداً مطلقاً كقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: ٢٨٤).

وتارة يرد هذا الاسم المفرد مقيداً كقوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ (النساء: ١٣٣).

وتارة يرد الاسم متجاوزاً كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لَكُمْ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (النحل: ٧٠).

وجل ما ورد في الخواتم من أسماء بلغ إحصاؤها ثلاثة وسبعين اسماً جاءت على النحو المبين أدناه:

الرقم	الاسم	المفرد	المتجاوز	الرقم	الاسم	المفرد	المتجاوز
١ -	العليم	٥٧	٩٧	٢٤ -	الواسع	-	٨
٢ -	الرحيم	٤	١١٠	٢٥ -	الواحد	١	٦
٣ -	الحكيم	-	٩١	٢٦ -	الرحمن	-	٦
٤ -	الغفور	٢	٨٨	٢٧ -	العظيم	٤	٢
٥ -	العزیز	٤	٨٣	٢٨ -	القهار	-	٦

٦-	الرب	٥٠	٣	٢٩-	الكبير	-	٦
٧-	السميع	٢	٤٣	٣٠-	العفو	-	٥
٨-	القدير	٣٩	٥	٣١-	اللطيف	-	٥
٩-	الخبير	٢٥	١٨	٣٢-	ذو الانتقام	-	٤
١٠-	البصير	٢٧	١٥	٣٣-	الشكور	-	٤
١١-	الحميد	١	١٦	٣٤-	علام الغيوب	٤	-
١٢-	الشديد	١٥	-	٣٥-	الغفار	١	٣
١٣-	الغني	٢	١٢	٣٦-	الحسيب	٣	-
١٤-	الشهيد	١٣	-	٣٧-	المقتدر	٢	١
١٥-	الوكيل	١٣	-	٣٨-	الولي	٢	١
١٦-	التواب	١	١٠	٣٩-	الوهاب	٢	١
١٧-	الحليم	-	١١	٤٠-	الحفيظ	٢	-
١٨-	الرءوف	٢	٨	٤١-	الخالق	-	٢
١٩-	ذو الفضل	٩	-	٤٢-	ذو الجلال والإكرام	٢	-
٢٠-	القوي	٢	٧	٤٣-	الرقيب	٢	-
٢١-	السريع	٨	-	٤٤-	الشاكر	-	٢
٢٢-	العلي	-	٨	٤٥-	الأعلى	٢	-
٢٣-	المحيط	٨	-	٤٦-	القريب	-	٢
٤٧-	الكريم	١	١	٦٣-	القادر	١	-
٤٨-	المجيد	١	١	٦٤-	القدوس	-	١
٤٩-	المولى	-	٢	٦٥-	القيوم	-	١
٥٠-	الودود	-	٢	٦٦-	المبين	-	١
٥١-	الأحد	-	١	٦٧-	المتعالي	-	١
٥٢-	الأكرم	١	-	٦٨-	المتين	-	١

٥٣-	البر	-	١	٦٩-	المجيب	-	١
٥٤-	الحفي	١	-	٧٠-	المقيت	١	-
٥٥-	الحق	-	١	٧١-	الملك	-	١
٥٦-	الحي	-	١	٧٢-	الهادي	-	١
٥٧-	ذو القوة	-	١	٧٣-	المليك	-	١
٥٨-	الرزاق	-	١				
٥٩-	الصمد	-	١				
٦٠-	عالم الغيب		١				
٦١-	الفتاح	-	١				
٦٢-	الفعال	١	-				

إن الجدول السابق يبين حركة ورود الأسماء المفردة، والمتجاورة في الخواتم القرآنية بعامّة.

ومن خلال ملاحظة الجدول السابق يتبين أن هناك أسماء حظيت بقدر عال من الدوران في الخواتم بلغت في بعض الأسماء ك(العليم) مائة وأربعة وخمسين مرة، وأسماء أخرى لم ترد إلا مرة واحدة مثل: (أحد) و(الأكرم) و (الصمد). ولكن ما يمكن أن يتوقف عنده هو مجموعة من الأسماء بلغ تكرارها ما يزيد عن أربعين موضعا وهي عشرة أسماء جاءت على النحو التالي:

- ١ - العليم — (١٥٤).
- ٢ - الرحيم — (١١٤).
- ٣ - الحكيم — (٩١).
- ٤ - الغفور — (٩٠).
- ٥ - العزيز — (٨٧).
- ٦ - السميع — (٤٥).
- ٧ - القدير — (٤٤).
- ٨ - الخبير — (٤٣).

٩ - البصير — (٤٢).

ما أجمل أن تتكرر تلك الأسماء الشريفة الجليلة على هذا النحو، إذ ليس عبثاً أن تكون هي التي تكررت، وأن يكون (العليم) قد تربع على سلمها. وأن يتلوّه (الرحيم) ثم (الحكيم) ثم (الغفور) ... إلخ.

وهي أسماء جليلة يمكن القول إنها تشتمل معاني الأسماء الحسنى المتبقية جميعها، بحيث تتدرج معانيها تحت مبانيتها.

إن اللفظ يدور في النص ويتردد حسب أهميته وحاجة النص إليه، لما يشيع من معان، ويقدم من دلالات، بحيث يعتبر المعنى البؤرة الذي تدور حوله المعاني، وتنعقد عليه الفكرة العامة.

فمن جهة انتشرت أسماء الله الحسنى وصفاته كحبات الدر، توشح النص على طول القرآن وعرضه، فكانت كنجوم السماء المتألئة تماماً، تزينه وتشع منه بأنوار يهتدي بها السائرون إلى الله، الراغبون في الهداية والرشاد.

فما تمر على مقطع إلا وينتصب لك اسم جليل، تسكن روحك بأشعاع معناه في كيائك، فيحيلك إلى طاقة نورانية تحلق بك عالياً، تسمو بك فوق الطين، وتخلخل ما لصق بك من ظلام المادة ورداعتها.

إن عظمة تلك الأسماء وروعها تجعلك عند الوقوف على كل اسم جليل أن تدرك حالة النقص التي جبل عليها البشر، فتستشعر النقص في ميدان الكمال، وتحس بالدونية في رحابة العظمة.

ف(العزیز) يشعرك بالذلة، و(القدير) يجعلك تستشعر حالة العجز التي أنت عليها، و(العليم) يحيلك إلى عوالم الجهل المستقرة بين جنباتك قال تعالى: ﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ

قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: ٨٥).

لقد شكلت الخواتم المشتملة على أسماء الله الحسنى ظاهرة قرآنية فريدة، لها معالمها ودلالاتها. وقد أبان إحصاؤنا للأسماء عن أن جل الأسماء الحسنى تتركز في الخواتم، وتستقر فيها، فتكتسب الخواتم إذن أهمية من خلال احتوائها تلك الدرر النفيسة. وتشكل بؤراً إشعاعية عالية من خلال تلك الطاقة النورانية المستقرة في معاني الأسماء. إن إحصاءنا للأسماء في الخواتم بان عن أن (العليم) سجل أعلى نسبة دوران في الخواتم، وفي ذلك دلالة مهمة، ومغزى في غاية الوضوح.

فالقُرآن الكريم جاء في زمن كانت الجاهلية راسخة متأصلة، ثابتة متغلغلة ليس فقط في حياة القوم بل في عقولهم وسلوكهم، وهل ثم جهل أكبر من أنهم جهلوا خالقهم فتأهوا في أتون الكفر، وتخطبوا في ظلام الشرك؟! فكان من المناسب جدا أن يدور (العليم) على هذا النحو من الكثرة، ليقمع مضارب الجهل الكامنة في النفوس والمستقرة في العقول.

إن أخرج ما يحتاج الإنسان إليه في كل عصر، وفي كل حين هو العلم، العلم بالخالق أولا، قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ (محمد: ١٩)، وما يتعلق بالخالق من توحيد، وإفراد بالربوبية، والألوهية.

ثم يجيء بعد ذلك العلم بالأمور الدنيوية، ومتطلباتها لإعمار الكون وخلافة الإنسان فيه. ومن ثم إقامة العدل عليه.

إن كثرة دوران هذا الاسم الشريف الجليل (العليم) يشير إلى المعنى البؤرة في القرآن الكريم كله، وهو عقيدة التوحيد، توحيد الخالق، وما يستتبعها من مستلزمات العلم بفروعها.

وهذا ليس إغراقا في التحليل، ولا تعسفا في التأويل، ولا ليا لأعناق النتائج، وإنما هو حقيقة واضحة ثابتة، يعضدها ويقويها أن طليعة موكب النور الذي تدفق من السماء إلى الأرض كانت (اقرأ)، ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق: ١). فعل العلم وأداته؛ لأن في (اقرأ) انحسار للمد الجاهلي بكل أشكاله وتنوعاته، وتصديع لأركان الجهل وتوابعه من كفر وشرك وضلال.

فإذا كان أول أمر للمولى هو (اقرأ)، ليفجر ينبوع العلم في فيافي الجهل، وأول سورة تشتمل على أدوات العلم (القلم)، ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (العلق: ٣)، ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ (العلق: ٤)، فلماذا لا يكون (العليم) طوفا على آي القرآن يزينها، فيلنقي مغزاه مع مغزى البدء ب(اقرأ)، فيدلان على أن إلها عزيزا عليما يقف خلف هذا القرآن المعجز.

﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (غافر: ٢).

ثم يجيء في الترتيب اسمه تعالى (الرحيم) يطوف في ربوع الخواتم مائة وأربع عشرة مرة بما يحمل من إحياءات متجددة، ومعان متدفقة تلازم المتأمل لكتاب الله، منذ الآية الأولى إذا اعتبرنا البسملة آية على رأي بعض الأئمة.

وحاجة الإنسان إلى الرحمة تأتي بعد حاجته إلى العلم؛ وذلك في رحلة الهداية والإيمان والبحث عن الحق؛ لأن الإنسان إذا علم ما كان يجهل عن خالقه، واستبان نعمة المولى عليه وجود نفسه وجهله وعصيانه، عظم عليه ما كان يصنعه، وأدرك أنه كان في خطيئة عظيمة يحاسبه عليها مولاه، فتفرع نفسه، ويسكن الخوف قلبه، فتذهب نفسه حسرات على ما قدم.

ثم إذا ما علم أن بعد الموت حياة، ووقفه بين يدي المولى، وجنة أو نار، وخلود وبقاء، تضاعف الخوف لديه، وتكاثر الفرع عليه. فيأتي (الرحيم) ليزيل فرع نفسه، ويذهب خوف قلبه، فيملأه أماناً وسكينة، وأملاً ورجاء؛ فيدفعه إلى العمل، والشروع في العبادة، والقيام على استحقاقات الاستخلاف في الأرض من دعوة وجهاد وإقامة للعدل.

فيبنتلى مرة ومرة، وتواجهه الأقدار بما تحمل، وتتنصب في طريقه عقبات وعقبات، فيقف متأملاً حائراً، فيأتي (الحكيم) ليسكب برد اليقين في أعماقه ويرشده إلى أن للمولى حكمة خلف كل شيء، وأنه سبحانه يضع الأمور حيث ينبغي أن توضع، وينزل الأشياء منازلها، وما تلك الحكمة والإتقان التي أقيم عليها الكون إلا دلالة على أن حكيمًا يقف خلفها.

وما جملة الأوامر والنواهي التي أمرنا الله بها، ونهانا عنها، إلا لحكمة أرادها، سواء ظهرت لنا أم خفيت عن أنظارنا، من أجل ذلك نرى أن دوران الاسم الجليل (الحكيم) في ربوع الخواتم إحدى وتسعين مرة، يمنح المتأمل للنص القرآني حالة من الاستقرار النفسي والتسليم التام لقضاء الله سبحانه وتعالى، ويفتح الباب واسعا أمام العقل البشري لينفذ إلى حكمة المولى من وراء خلق الأشياء، وجعل الأحوال.

وفي رحلة العباد في دنياهم يذنبون، ويسرفون في ذنوبهم وهي فطرة فطرهم الله عليها، وحتى لا يقنط العباد من رحمة الله فيتمادوا في ذنوبهم، تطوف اسمه الجليل (الغفور) على خواتم الآي تسعين مرة، ليؤكد أن إلها إله مغفرة ورحمة. لم يخلقنا ليعذبنا، ولذا نرى أن (شديد العقاب) تكررت ثلاث عشرة مرة، وهي نسبة قليلة قياسا ب(الغفور). حتى إن (شديد العقاب) يرد في بعض المواضع التي يقترن فيها بالمغفرة. قال تعالى:

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المائدة: ٩٨).

﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّولِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ﴾ (غافر: ٣) .

إن تكرار (الغفور) على هذا النحو يبعث على الاطمئنان، ويشعل في النفس الأمل، ويقضي على اليأس والقنوط. قال تعالى:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر: ٥٣).

ويأتي في الترتيب بعد (الغفور) اسمه الجليل (العزیز) حيث ورد هذا الاسم في سبعة وثمانين موضعا، في خواتم الآيات، ولم يرد مفردا بل جاء مقترنا مع غيره من الأسماء.

وهو اسم يشيع في النفس حالة من الأنس، وشيئا من التضرع الدائم، لإله عزيز لا يقهر، ولا يغالب فيما يريد، بل تتم مشيئته على وجه الغلبة، وتكون إرادته على وجه القهر.

إن نفوس العباد التي جبلت على الذلة والهوان، والضعف والانكسار تصبو إلى المنعة، وتطمح إلى العزة، ولا تستمد هذه وتلك إلا من معينها، من العزيز. قال تعالى:

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْورُ ﴾ (فاطر: ١٠). وقال سبحانه:

﴿ يَقُولُونَ لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (المنافقون: ٨).

فأي إحساس بالعزة يبعثها هذا الاسم الجليل في تطوافه على خواتم الآيات، فيشيع ما يشيع من معاني القهر والمنعة والغلبة، ويؤكد ما يؤكد من معاني العزة المستقرة في نفوس المؤمنين المستمدة من العزيز.

ثم يجيء في الترتيب أربعة من الأسماء الحسنى متقاربة في تكرارها، وهي: (السميع) في خمسة وأربعين موضعا، و(القدير) في أربعة وأربعين، و(الخبير) في ثلاثة وأربعين، و(البصير) في اثنين وأربعين.

ولئن كانت الأسماء السابقة (العليم والرحيم والحكيم والغفور) أسماء رجاء تبعث على السكينة، وتشعل الأمل؛ فإن هذه الأسماء جاءت على غير ما أرادته الأسماء الأولى، إنها تجيء لتيقظ مكان النفس إلى الامتثال للطاعة، والتحذير من المخالفة، والإبقاء على حال المراقبة؛ لأن المولى سميع، وبصير، وخبير، ولاحظ كيف توزعت هذه الأسماء على نحو يجعل من معانيها محركا لضبط سلوك البشر بأنواعه: العملي الظاهر الذي لا يخفى على البصير، أو القولي الناطق الذي لا يعزب عن السميع، حتى ولو كان همس الضمائر، أو وحي الأرواح. وكذلك السلوك الباطن الذي يسبره الخبير.

ثم (القدير) في إشارة واضحة إلى قدرة المولى على كل شيء، من عقاب المذنبين إذا أذنبوا، وإثابتهم إن هم أحسنوا. قال تعالى: ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَنْ تُبَدُّوا مَا

فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿البقرة: ٢٨٤﴾.

ولئن جاز أن ننتع أسماء المجموعة الأولى (العليم والرحيم والحكيم والغفور) بأسماء الرجاء والأمل، وأن ننتع أسماء المجموعة الثانية (السميع والقدير والخبير والبصير) بأسماء التحذير والترهيب والمراقبة؛ فإن معنى جميلاً يمكن أن يلتقط من ذلك، حيث جاء تكرار أسماء المجموعة الأولى ضعف تكرار أسماء المجموعة الثانية ويزيد.

ف(الرحيم والغفور) تكرر على الترتيب (١١٤ - ٩٠) مرة. فيما تكرر (السميع والخبير والبصير) على الترتيب (٤٥ - ٤٣ - ٤٢). وهذا الأمر ليس عبثاً، ولا عابراً، وإنما مغزاه واضح، ومعناه جليل، وهو يشير إلى قاعدة ثابتة راسخة في القرآن الكريم، وهي غلبة الرجاء على الخوف، وهو طمأنة الخلق المتأملين كتاب الله أن ربهم رب مغفرة، وإلاهم إله رحمة، وأن رحمته سبقت غضبه.

٢ - الأسماء المتجاورة:

يجري إحصاء الأسماء المتجاورة أيضاً على نحو يرسخ القاعدة السابقة، وهي تغليب الرجاء على الخوف، وطمأنة الخلق إلى مغفرة الله ورحمته، كما هو مبين أدناه:

الرقم	التجاور	العدد	الرقم	التجاور	العدد
١	العزیز الحکیم	٤٧	١٢	الغفور الشکور	٣
٢	العزیز الرحیم	١٣	١٣	الغفور الودود	١
٣	العزیز العليم	٦	١٤	السميع العليم	٣٢
٤	عزیز ذو انتقام	٤	١٥	السميع البصير	١٠
٥	العزیز الحمید	٣	١٦	السميع القريب	١
٦	العزیز الغفار	٣	١٧	العلي الكبير	٥
٧	العزیز الغفور	٢	١٨	العلي العظيم	٢
٨	العزیز الوهاب	١	١٩	العلي الحکیم	١

٩	العزیز المقتدر	١	٢٠	الغنی الحمید	١٠
١٠	الغفور الرحیم	٧١	٢١	الغنی الحلیم	١
١١	الغفور الحلیم	٤	٢٢	الغنی الکریم	١

الرقم	التجاوز	العدد	الرقم	التجاوز	العدد
٢٣	التواب الرحیم	٩	٤١	القوی العزیز	٧
٢٤	التواب الحکیم	١	٤٢	الخالق العلیم	٢
٢٥	العلیم الحکیم	٢٩	٤٣	الشاکر العلیم	٢
٢٦	العلیم القدیر	٤	٤٤	الحلیم الغفور	٢
٢٧	الحکیم العلیم	٧	٤٥	الهی القیوم	١
٢٨	الحکیم الخبیر	٤	٤٦	البر الرحیم	١
٢٩	الرحیم الغفور	١	٤٧	الشکور الحلیم	١
٣٠	الرحیم الودود	١	٤٨	الحمید المجدید	١
٣١	الواسع العلیم	٧	٤٩	الولی الحمید	١
٣٢	الواسع الحکیم	١	٥٠	الکبیر المتعالی	١
٣٣	العفو الغفور	٤	٥١	الهادی النصیر	١
٣٤	العفو القدیر	١	٥٢	القرب المجیب	١
٣٥	رب رحیم	١	٥٣	الملیک المقتدر	١
٣٦	رب غفور	١	٥٤	الفتاح العلیم	١
٣٧	رعوف رحیم	٨	٥٥	الخبیر البصیر	٥

٣٨	الواحد القهار	٦	٥٦	
٣٩	الرحمن الرحيم	٦	٥٧	
٤٠	اللطيف الخبير	٥	٥٨	

والنتائج التي تم التوصل إليها من إحصاء الأسماء المتجاورة، تؤكد مخرجات الإحصاء في الأسماء المفردة، وكلاهما يرسخ تلك القاعدة التي أثبتناها.

فليس غريباً أن يكون (الغفور الرحيم) هذا التجاور الجميل سجل أعلى نسبة حضور في خواتم الآي، حيث تطوف في ربوع الخواتم إحدى وسبعين مرة، يشيع ما يشيع من معاني الأمل والرجاء. قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر: ٥٣). وقال سبحانه:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (آل عمران: ١٢٩). وقال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (المائدة: ٧٤).

وهكذا تتعاقب نتائج إحصاء الأسماء المفردة مع إحصاء الأسماء المتجاورة في ترسيخ تلك الحقيقة الثابتة في كتاب الله ، حقيقة سعة الرحمة الإلهية للمخلوقات الضعيفة العاجزة، وحقيقة المغفرة الواسعة للطوايير المذنبة من البشر.

ثم يجيء في ترتيب إحصاء الأسماء المتجاورة (العزیز الحكيم) الذي يطوف على خواتم الآي سبعا وأربعين مرة، يشع ما يشع من معان، و يغرس ما يغرس حقائق، وهي أن هذا الكون وما فيه ما هو إلا مظهر من مظاهر عزته، وأن الكون وما خلق فيه ما وجد إلا لحكمة.

فعلى الضعفاء الذين قهروا على الضعف أن ينهلوا من ينبوع العزة العذب الصافي، وعلى أصحاب العقول الصلدة البليدة أن يعملوها في البحث عن حكمة المولى من خلق الوجود، وجعل الأشياء ، وتقدير المقادير. إنه يمكن القول أن أسماء أربعة للمولى دارت مفردة ومتجاورة في خواتم الآي، وسجلت أعلى نسبة في الحالتين وهي: (الرحيم والغفور والعزیز والحكيم).

ليؤكد المولى معانيها في أذهان العباد، وتتعمق في نفوسهم، فتتعدد قلوبهم عليها، ويعلمون أن رحمة المولى الواسعة ناتجة عن عزة الله القاهرة، وأن مغفرته الجمّة ناشئة عن حكمته الوافرة.

ثانياً: الأسماء الحسنى بين الخواتم المكية والمدنية:

لست هنا بصدد تفصيل القول في القرآن المكي والقرآن المدني، ولا الغوص في تفاصيل التعاريف، فذلك أمر فصل القول فيه في مصنفات أسباب النزول، ومباحث علوم القرآن، وفي كتب التفسير بالمأثور. فالعلماء قد أفاضوا في الحديث عن المكي والمدني، والفرق بينهما، وضوابط كل منهما، وخصائص الأسلوب، والموضوعات التي تم تناولها في كليهما.^(١)

لكنني لم أجد - فيما وقع عليه إطلاعي - أحداً أشاراً إلى حركة ورود الأسماء الحسنى وفق ترتيب النزول، ولا حتى وفق ترتيب القرآن المكي والمدني.

ولقد اعترضتني مجموعة من التساؤلات أثناء البحث في هذا المدخل:
بم انفرد القرآن المكي عن القرآن المدني فيما يتعلق بالأسماء الحسنى؟ وما هو أول ما نزل من الأسماء؟ وما دلالاته؟ وهل ثم أسماء حسنى شكلت ملامح القرآن المدني؟

وكان علي أن أقوم بإحصاء الخواتم المكية والخواتم المدنية، ثم أثبت كل منهما وفق ترتيب النزول.^(٢)
لقد أخذت بأشهر التعاريف للمدني والمكي، وأكثرها دقة، وهو أن القرآن المكي ما نزل قبل الهجرة، وأن القرآن المدني ما نزل بعدها يقول الإمام السيوطي: "واعلم أن للناس في المكي والمدني اصطلاحات ثلاثة، أشهرها أن المكي ما نزل قبل الهجرة، والمدني ما نزل بعدها، سواء نزل بمكة أو بالمدينة، عام الفتح أم بحجة الوداع، أم بسفر من الأسفار"^(٣).

وحين نتلو القرآن متأملًا تجد أن هناك سمات معينة تتسم بها الآيات المكية، بحيث تحدد ملامحها، وتطبعها بطابع مميز، وأن هناك سمات أخرى للآيات المدنية، تدل عليها، فتميزها من بين الآيات.
فإذا كان الأمر كذلك في الآيات فإن ذلك ينطبق على الخواتم، ومن ثم ينطبق على توزيع الأسماء الحسنى.
هذا التمايز الواضح بين القرآن المكي والقرآن المدني يعكس ملامح مرحلتين مختلفتين أشد الاختلاف، كل مرحلة لها ظروفها المحيطة بها، وعواملها المؤثرة فيها وخطابها.
فما يصلح لخطاب المسلمين في المدينة لا يصلح لخطابهم في مكة، وما يحتاجه المسلمون في المدينة غير ما يحتاجونه في مكة.

" فنجد في مكي القرآن ألفاظاً شديدة القرع على السامع، تقذف حروفها شرر الوعيد والسنة العذاب، ف(كلا) الرادعة الزاجرة، والصاخة والقارعة، والغاشية والواقعة، وألفاظ الهجاء في فواتح السور، وآيات التحدي في ثناياها، ومصير الأمم السابقة، وإقامة الأدلة الكونية، والبراهين العقلية، كل هذا نجده من خصائص القرآن المكي... وحين تكونت هذه الجماعة نرى الآيات المدنية طويلة المقاطع، تتناول أحكام الإسلام وحدوده،

(1) يمكن الإطلاع على: البرهان في علوم القرآن للزركشي، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي، ومناهل العرفان للزرقاني، القطان، مناع خليل: مباحث في علوم القرآن، المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٢١-٢٠٠٠. وأسباب النزول للسيوطي.

(2) انظر: الزهري، ابن شهاب: تنزيل القرآن، تج. صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الحديث، بيروت.

(3) الإتقان: ٣٥/١.

وتفصل أصول التشريع، وتضع قواعد المجتمع، وتحدد روابط الأسرة، وصلات الأفراد، وعلاقات الدول والأمم وهذا هو الطابع العام للقرآن المدني ^(١).
 فإذا ما نظرنا إلى الأسماء الحسنى وجدنا أن هناك مؤشرات ذات دلالة، تؤكد ما ذهب إليه العلماء من ملامح التفريق بين المكي والمدني، وهذا النموذج الإحصائي التطبيقي على بعض الأسماء الحسنى يؤكد ذلك :

النموذج (الأول)

الرقم	الاسم	في القرآن المكي	في القرآن المدني
١	الأكرم	١	-
٢	الأعلى	٢	-
٣	الأحد	١	-
٤	الصمد	١	-
٥	العزیز الرحيم	١٣	-
٦	الواحد القهار	٥	١
٧	الرحيم الودود	١	-
٨	الغفور الودود	١	-
٩	الرزاق ذو القوة المتين	١	-

النموذج (الثاني)

الرقم	الاسم	في القرآن المدني	في القرآن المكي
-------	-------	------------------	-----------------

(١) مباحث في علوم القرآن : ٥٠.

١	العليم	٤١	١٦
٢	القدير	٢٥	١٢
٣	الخبير	٢٠	٢
٤	البصير	١٧	٩
٥	الشهيد	٩	٤
٦	الغفور الرحيم	٤٥	٢٤
٧	العزیز الحكيم	٣٠	١٦
٨	العليم الحكيم	٢٧	٤
٩	السميع العليم	١٩	١١

من خلال عرض النموذجين السابقين يمكن رصد مجموعة من المؤشرات ذات دلالات، فمن جهة هناك مجموعة من الأسماء الحسنی وردت في القرآن المكي ولم ترد في القرآن المدني، وهناك مجموعة من الأسماء الحسنی وردت في القرآن المدني ووردت في المكي، لكنها جاءت في المدني ضعف مجيئها في المكي وزيادة. وهما ملاحظتان جديرتان بالتأمل.

الملاحظة الأولى :

إن هناك مجموعة من الأسماء الحسنی وردت في القرآن المكي، ولم ترد في المدني مطلقاً، كما لم تتكرر كثيراً، بحيث وردت لمرة واحدة أو مرتين. وحين نتأملها نجد أنها أسماء تتعلق بصفات الذات العلية: (الأكرم، الأعلى ، الأحد، الصمد). وهو أمر يمكن فهمه من خلال فهمنا لطبيعة المجتمع الجاهلي وتكوينه.

إن العرب قبل الإسلام كانت تستبد بهم الوثنية، وعقائد الشرك المختلفة، من عبادة الأصنام، اللات والعزى ومناة وغيرها، وتلك العقائد الفاسدة كانت متجذرة فيهم، راسخة في ضمائرهم، ورثوها عن آبائهم، فأصبح الحفاظ عليها من وجهة نظرهم أحد أشكال الانتماء للقبيلة، والوفاء لميراثها، فضلاً عن أن يكون اعتزاز بالآباء والأجداد.

وحينما نزل القرآن الكريم على قلب النبي - صلى الله عليه وسلم - كان أول ما يحتاج إليه في ذلك هو هدم تلك العقائد الوثنية، وإثبات بطلان اعتقادهم من خلال الوقوف معهم على معرفة الخالق، وصفاته وأسمائه، فكانت الآية الأولى في القرآن: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ (العلق: ١) حيث أحالهم المولى سبحانه إلى حقيقة أنه هو

وحده رب محمد وغيره، وهو الذي خلق كل شيء شيء، وهو في حقيقته هدم لما انطوت عليه نفوسهم من عقائد فاسدة، ثم يجيء قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (العلق: ٣). فهو الأكرم لأنه رب كل شيء، وهو الأكرم لأنه خلق

كل شيء، ومن ثم أكرم من أصنامهم التي يكرمونها، ثم تجيء الأسماء تترى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾

(الأعلى: ١)، وقوله تعالى:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (الإخلاص: ١)، ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ (الإخلاص: ٢).

إنها أسماء تكشف بوضوح عن صفات هذا الإله الذي جاء يدعوهم محمد إليه، وهي صفات كمال، تقرر عقيدة التوحيد، فتهدم كل اعتقاداتهم، فأصنامهم التي يعبدونها ليست آلهة، لأن إله الكون الحقيقي هو الذي جاء محمد – صلى الله عليه وسلم – بصفاته إليهم.

ومن ثم فهو العزيز، ولأن العرب تفهم معنى العزة التي تتضمن معنى القهر والغلبة، فإنه طمأنهم أن هذا الإله على عزته فإنه رحيم، ولذا رأينا أن (العزيز الرحيم) دارت في القرآن الكريم ثلاث عشرة مرة كانت في جميعها في الخواتم المكية، ولم ترد في الخواتم المدنية.

إن مخاطبة العرب في ذلك الوقت كانت قائمة على تخويفهم من جهة، وترغيبهم من جهة أخرى، لذلك نرى (الواحد القهار) تكررت ست مرات، خمس منها كانت مكية، ومع هذا التخويف ورد أيضا تجاور رائع جميل مطمئن إلى حد بعيد (الغفور الودود) وهو تجاور ورد في القرآن الكريم مرة واحدة كانت في القرآن المكي، ترغيبا لهؤلاء المنغمسين في ضلالهم إلى الدخول في واحة الإيمان، وأن ربهم ليس شديد العقاب فحسب، بل غفور ودود ورحيم ودود.

ولأن المولى سبحانه يعلم داخلهم وما يشكل الرزق لهم من قضية مهمة في حياتهم وحياة البشر، الذين جبلوا على ذلك: ﴿وَسُحُبُونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ (الفجر: ٢٠)؛ فإنه تكفل لهم بالرزق، وأبان التجاور الجميل (الرزاق

ذو القوة المتين) عن أن قضية الرزق بيد الله القوي فقط. فليست الأصنام هي التي ترزق، وإنما الرزاق هو الله، قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (الذريات: ٥٨).

هكذا إذن كانت الأسماء الحسنى المكبية – إن جاز أن نطلق هذا المصطلح – تركز على هدم معاني الشرك، وتقويض أركان الوثنية، وغرس عقيدة التوحيد، والكشف عن صفات الكمال والجلال للمولى .

الملاحظة الثانية:

ولكننا إذا انتقلنا إلى القرآن المدني سنجد ملاحظة أخرى تستوقفنا، وهي أن هناك مجموعة من الأسماء دارت على نحو لافت ضعف ما دارت في الخواتم المكبية، وهي المبينة في النموذج السابق الثاني.

ولو تأملناها لوجدنا أنها تنتظم كحبات الدر في سمط واحد، وتكرارها المضاعف على هذا النحو في القرآن المدني إنما يشير إلى أن ثمة مناسبة بينهما.

فهي أولا قد نزلت بعد الهجرة، بعد قيام دولة الإسلام، حيث أن عقيدة التوحيد الصحيحة قد استقرت في نفوسهم، واختبروا عليها، وابتلوا وصبروا.

فقد آن الأوان إذن إن تنتزل تفاصيل التشريع، وضوابط السلوك، وتحديد أنواع العلاقات للدولة الإسلامية، وتنظيم علاقة الفرد والأسرة والمجتمع، من خلال مجموعة من الأوامر والنواهي، والتحليل والتحريم، والندب، والكراهة، وهي كلها تحتاج إلى التركيز على أسماء حسنى معينة تدور مع الأحكام حيث دارت؛ لذا نجد أن (العليم) كان حاضرا بشكل ملفت وواضح، لأنها أحكام ما خرجت إلا من عليم، فهو سبحانه عليم بخفايا النفوس وتكوينها، وأحوال المجتمعات وتقلباتها، وتغير الأمم وتبدلها، ومن ثم فهي أحكام قائمة على العلم المطلق من العليم.

وهو المعنى ذاته الذي نعلل به تكرار (العليم الحكيم) في سبع وعشرين موضعا في القرآن المدني، وتقلبه فقط أربع مرات في القرآن المكي، فالعليم الحكيم ما صنع شيئا إلا بعلم وحكمة أرادها، وما جاء أمر، ولا حل نهى إلا بعلم وحكمة، ف(العليم) و(العليم الحكيم) كأنها تحمل معنى التعليل للأحكام بشكل عام.

إن هذه الأحكام التي تشتمل الأوامر والنواهي إنما جاءت لضبط السلوك الإنساني وتنظيمه، واستقامة أحوال المجتمع على قواعد ثابتة واضحة.

فإذا ما اطمأن الإنسان إلى حقيقة أن هذه الأحكام من العليم الحكيم، صار عليه أن يلتزم بها، ويضبط سلوكه وفقها، لذا نجد أن دوران الأسماء الحسنى (الخبير والبصير والشهيد والسميع العليم) تأتي على نحو تؤكد فيه رقابة المولى للبشر، وأنهم تحت دائرة سمعه وبصره

وعلمه، وأنه خبير بنواياهم، شهيد على أعمالهم، ودوران هذه الأسماء الجليظة الكريمة في القرآن المدني على هذا النحو يجعل العبد دائما في مراقبة لمولاه، ومحاسبة لنفسه، ليستقيم عمله، وتخلص نيته، ويتقبل الله التزامه وطاعته.

وهو في مجالدته نفسه لضبط سلوكه وفق شرع الله، تقع منه أخطاء هنا، وذنوب هناك، فلا يتركه المولى لذنبه، ولا يسلمه لشيطانه، وإنما يدخله في رحابه، ويشمله بمغفرته، وهذا هو التعليل لدوران (الغفور الرحيم) على هذا النحو من الكثرة في القرآن المدني، وهو معنى كنت قد استنتجته في غير موضع من هذا البحث، وأفضت الحديث فيه.

الخاتمة

وبعد رحلة البحث المتواضعة هذه، وجولتنا مع آيات الله الكريمات يمكن أن نخلص إلى جملة من النتائج منها:

١ - أسماء الله الحسنى ليست محدودة بعدد معين، وإنما هناك أسماء استأثر الله بها نفسه في علم الغيب، ولم يطلع أحدا من البشر عليها، وهذا المذهب لا يتعارض مع حديث النبي - صلى الله عليه وسلم: "إن لله تسعة وتسعون اسما، مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة".

٢ - لم يرد حديث صحيح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - في تعيين الأسماء الحسنى، وإن ما ورد لا يعدو أن يكون من إدراج الرواة، أو أن يكون حديثا ضعيفا ضعفه أهل العلم.

٣ - جل العلماء الذين اجتهدوا في تعيين الأسماء وإحصائها، كانت تحذوهم الرغبة في الأجر والثواب، عملا بقوله صلى الله عليه وسلم: "... من أحصاها دخل الجنة" وعليه فليس كل ما ورد من تعيين الأسماء مسلم به، ولا كل ما خرج عن إحصائهم مردود، وإنما هو اجتهاد وفق ضوابط وقواعد معينة، يكون الإحصاء على أساسها، وتختلف تلك القواعد من عالم الآخر، وهم على اختلافهم في تعيينها وإحصائها إلا أنهم متفقون على أنها توقيفية لا يحق لأحد أن يعمل عقله في اشتقاقها.

٤ - أسماء الله الحسنى ليست مترادفة من حيث دلالتها على الصفة، ولكنها من حيث دلالتها على ذات المولى كالمترادفة.

فالسميع يدل على صفة السمع، والبصير على صفة البصر، وهما ليسا مترادفين من هذه الجهة، وأما من جهة دلالتها على المولى فهما مترادفان؛ لأنهما يشيران إلى المولى سبحانه وتعالى .

٥ - كل اسم من الأسماء الحسنى له بناء صرفي خاص، وكل بناء صرفي له دلالة بنائية تختلف عن البناء الآخر، تزيد أو تنقص، تظهر أو تختفي، وغن كانت تنتمي إلى

مادة لغوية واحدة؛ لأن كل عدول من صيغة بنائية إلى صيغة أخرى يلحقه عدول من معنى إلى آخر.

٦- ازدان النص القرآني بجملة من الأسماء الحسنى ذات الأصل اللغوي الواحد، والتركيب البنائي المختلف، كالغافر والغفار والغفور، والقادر والمقتدر والقدير. وقد كان لكل بناء دلالة ينفرد بها الاسم عن أخيه في النص القرآني، وحيث وقع في ختم الآية كانت مناسبته للسياق واضحة جلية، وانتج حضوره في مكانه جملة من الإشارات الدلالية والطاقات الإيحائية.

٧- تحركت الأسماء الحسنى في النص القرآني وفق نسق معين، ونظام محكم دقيق يتعلق بمعنى الاسم ودلالته من جهة، وعلاقته بالسياق العام الذي ورد فيه من جهة أخرى.

ويمكن القول أن حضور الأسماء الحسنى في خواتم الآيات لم يكن حضورا عابثا أو في غير مغزى، وإنما كان بسبب مناسبتها للمعنى والحركة الذهنية النشطة التي ينتجها السياق، ولم يكن أيضا بسبب مناسبته لمراعاة رؤوس الآي، أو توافق الفواصل كما ذهب بعض الدارسين.

٨- هناك مجموعة من الخواتم كانت مناسبة الختم بالاسم الشريف فيها واضحة جلية، وهناك خواتم أخرى احتجب فيه وجه الحكمة من الختم بالسم الشريف؛ فصار غير ظاهر، واحتاج تبين وجه الحكمة فيه إلى تأمل عميق، وهذا الاحتجاب انتج حركة تأملية ذهنية نشطة لتأمل كتاب الله.

٩- فضلا عن أنه لكل اسم شريف من أسمائه الحسنى معنى جليل، إلا أن تجاور اسمين معا في السياق القرآني يضيف عليهما حسنا وإطلاقا وجلالا يليقان بالمولى سبحانه وتعالى، فيجعل التجاور الاسم الشريف صفوا خالصا يدل على كمال صفات الله وجلالهما في أروع ما يكون.

١٠- يأتي التجاور للأسماء الحسنى في الخواتم في أحد أشكال تجلياته، لدفع وهم ناشئ، أو هدم معان مهمة في لحظة سياقية معينة.

١١ - اشتملت الخواتم القرآنية على أساليب توكيد متعددة، تراوحت بين مؤكد واحد ومؤكدين وثلاثة مؤكدات.

وجاء التوكيد في حركة مرنة وتنوع يتناغم مع حركة المعنى ورسوخه في النفس الإنسانية، فهو يكشف عن دخائل النفوس حين تحتاج إلى ما يزيل ترددتها من جهة، ويعمق معاني الأسماء الحسنى والصفات العليا التي توشّت بها من جهة أخرى.

١٢ - حظيت الخواتم القرآنية بأحد أهم أركان علم المعاني ، وهو التقديم والتأخير، وقد جاء على صورة واحدة وهي تقديم المتعلق على المسند، وقد أنتج هذا التقديم مجموعة من الأغراض البلاغية التي كانت هي الأساس له، إضافة لما قدم من جماليات التشكيل الصوتي لقفل خواتم الآيات بما يتناسب مع جلال المعاني وعظمتها من جهة ومراعاة رؤوس الآي من جهة أخرى.

١٣ - كذلك كان للالتفات حضور في خواتم الآيات، لكنه جاء صورتين فقط من صور الالتفات الستة:

أ- صورة الالتفات من الغيبة إلى الخطاب.

ب- صورة الالتفات من الخطاب إلى الغيبة.

وقد أنتج مجموعة من اللطائف البلاغية والدلالات المهمة الخاصة إضافة إلى غرضه العام في تطرية نشاط السامع، وإيقاظ إصغائه. والالتفات الملقب بـ (بشجاعة العربية) في التصرف والاتساع في الكلام.

١٤ - التكرار ظاهرة بلاغية فريدة في خواتم الآيات على خلاف العلماء في وجوده ، ويمكن القول إن التكرار من حيث تكرار المعاني والألفاظ كما هي بدون غرض لم يرد في القرآن وإنما التكرار الذي نعنيه هو الذي ينتج في كل مرة دلالات جديدة، وإيحاءات متنوعة، تستوقف المتأمل لإمعان النظر، وإجالة الفكر وإطالة الوقوف مع آيات الكتاب العزيز.

١٥ - الإظهار في موضع الإضمار شكل مظهرا بلاغيا جديرا بالدراسة والتحليل، لما قدم من جمل ذات ملامح استقلالية تامة، تقوم على الوفاء للمعنى في غير انتظام في السياق، بمدلول واضح مشحون بكل الرموز الذهنية المرتبطة بالاسم الجليل، الباعث

على الارتياح، وتربية النفوس على المهابة، فضلا عن التلذذ بسماعه، والتشديد في الوعيد.

١٦ - لبناء الخاتمة في الآيات الكريمات شأن خاص، ونظام له ملامح ثابتة، حتى انه يمكن القول: إن طريقة بناء الخاتمة تشكل ظاهرة بلاغية، حيث جاءت في أغلبها جملة اسمية: المسند إليه كان فيها هو لفظ الجلالة (الله)، أو الضمير الذي ينوب عنه في أداء المعنى في الجملة. والمسند هو اسم من أسمائه الحسنی أو وصفا، الأمر الذي جعل المسند يلصق بالمستند إليه ويلتحم به على وجه الثبوت والدوام، لأن الجملة الاسمية تدل على ثبوت المعنى، والفعلية تدل على التجدد.

١٧ - ولما كانت صفات الله وأسماءه أزلية مطلقة ثابتة، دائمة هذا شأنها، كان التعبير عنها بأفضل ما يدل عليها، فكانت الجملة الاسمية وفيه في التعبير وقادرة على أن تنبئ عن أزليتها وثبوتها.

١٨ - أشار الإحصاء للأسماء الحسنی إلى أن مجموعة من الأسماء حظيت بقدر عال من الدوران في الخواتم كالعليم الذي تطوف على الخواتم في مائة وأربعة وخمسين موضعا، وهناك أسماء قلت، فلم ترد إلا في موضع واحد مثل (الأحد) و (الأكرم) .. وهناك عشرة أسماء دارت في الخواتم ما يزيد عن أربعين مرة.. وهي على الترتيب: العليم (١٥٤)، الرحيم (١١٤)، الحكيم (٩١)، الغفور (٩٠)، العزيز (٨٧)، السميع (٤٥)، القدير (٤٤)، الخبير (٤٣)، البصير (٤٢).

١٩ - كما أشار الإحصاء للأسماء الحسنی في القرآن المكي أن ثمة مجموعة من الأسماء وردت في القرآن المكي ولم ترد في المدني مطلقا، وحين نتأملها نجد أنها أسماء تتعلق بصفات الذات العلية: (الأكرم، الأعلى، الأحد، الصمد). وهو أمر يمكن فهمه من خلال فهمنا لطبيعة المجتمع الجاهلي.

٢٠ - أبان الإحصاء عن أن هناك مجموعة من الأسماء الحسنی دارت في القرآن المدني على نحو لافت ، ضعف ما دارت في الخواتم المكية مثل: العليم والخبير والبصير والشهيد والسميع و (العليم الحكيم) و(الغفور الرحيم).

الفهارس

أولاً - فهرس الآيات

ثانياً - فهرس الأحاديث الشريفة

ثالثاً - فهرس الأشعار

رابعاً - فهرس الأعلام

خامساً - فهرس الكتب

سادساً - فهرس المصادر والمراجع

سابعاً - فهرس الموضوعات

أولاً : فهرس الآيات القرآنية الكريمة

سورة الفاتحة (١)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
١	٢٧٨،٢٨٢
٢	٢٦٦
٣	١٦٨،٢٠٤،٢٦٦،٢٧٨،٢٨٢
٤	٢٦٦،63
٥	٢٥٣،٢٦٦

سورة البقرة (٢)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
١٤	٢٣٥،٢٩٩،٣٠٠
٢٠	٧٧،٢٣٦،٢٥٤،٢٥٧
٢٣	
٢٩	٤١،٧١،٢٩٨
٣٠	٣٠٣
٣٢	١٩١
٣٧	١٨٨

۱۸۸	۵۴
۷۲,۷۶	۹۵
۸۰,۲۷۱	۹۶
۱۷,۹۶	۱۰۵
۷۷,۲۴۰	۱۰۶
۲۴۰	۱۰۹
۸۰,۲۶۲	۱۱۰
۱۹۵	۱۱۵
۴۱,۱۷۸,۲۴۹	۱۲۷
۱۸۸	۱۲۸
۲۳۶,۲۴۲,۲۹۱	۱۴۳
۱۰۰	۱۴۴
۷۷	۱۴۸
۲۱۱	۱۵۸
۱۸۸	۱۶۰
۱۰۵	۱۶۳
۱۴,۹۰,۲۹۳	۱۶۵
۱۷۹	۱۸۱
۱۸۱	۱۸۶
۸۷,۸۹,۲۹۲	۱۹۶
۱۶۷	۱۹۹
۱۷,۹۳	۲۰۲
	۲۰۴
۹۵,۳۰۴	۲۰۷
۸۷	۲۱۱
۴۲,۷۴	۲۱۵
۲۵۳	۲۲۲
۱۷۱,۲۹۸	۲۲۵
۸۵,۲۶۲	۲۳۴

١٧١,٢٤٢	٢٣٥
١٩٥	٢٤٧
٩٢,٦٩,١٨٣	٢٥٥
٣٠٥	٢٥٦
٢٦٠	٢٥٩
١٤١,٢٤١	٢٦٠
١٩٥	٢٦١
١٨٥,٣٠٥	٢٦٣
٢٧٢	٢٦٥
٨٦	٢٧١
١٠٣,٢٩٠	٢٨٢
٧٥	٢٨٣
٣٠,٤,٣١٣,٣١٩,٧٨	٢٨٤
١٩٧	٢٨٦

سورة آل عمران (٣)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
٢	٢٨,٣١,٢١٥
٤	١٥٥
٦	١٤٠
٨	٢٣,٩٧,٢٥٠
٩	٣٩
١١	٨٧
١٩	٩٣,٢٩٤
٢٠	٨٠,٢٩٩
٢٦	٦٣
٣٠	٩٥,٣٠٥
٣٥	١٧٨,٢٤٩

٩٩	٣٨
٢٧٢	٤٨
٢٥٠	٦٢
٩٧	٧٤
١٠١	٩٧
٦٧،٢٥٧	١٢٠
١٣٧	١٢٦
٣٠٥،٣٢٢	١٢٩
٨٥	١٥٣
١٧١	١٥٥
٢٦٢،٢٩٣	١٥٦
٧٧،٨٨	١٦٥
١٦،١٠٧	١٧٣
٨٦،٢٦٨،٢٧١	١٨٠
٧٨	١٨٩
٩٣	١٩٩

سورة النساء (٤)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
١	٢٤،١٠٨،٣٠٨
٦	١١٠
١١	٣٠٨
١٦	٣١٠
١٧	٣٠٦
٢٦	١٩١،٣٠٥
٢٩	١١١
٣٤	١٨٢
٣٩	٧٢
٤٣	٢٠٧
٤٥	١١٣،٢٨٢
٤٨	٩٠،١٢٥
٥٢	١١٤
٥٦	٢٩٥
٥٨	١٨٠،٢٩١
٦٤	١٨٨،٣٠٩
٧٩	١٠٤

١٠٦	٨١
١١٥,١١٧	٨٤
٣٢,١١٥,١١٧,٣٠٦,٣٠٧	٨٥
١١٠	٨٦
٨٤,٢٦٢	٩٤
١٩٨	٩٩
١٦٧	١٠٦
٦٧	١٠٨
٣٨,١٥٨	١١٠
٦٧	١٢٦
٨٥	١٢٨
١٩٦	١٣٠
١٨٤	١٣١
١٠٦	١٣٢
٧٧,٢٥٩,٣١٣	١٣٣
٨٤	١٣٥
١١٤,٢١٢	١٤٥
٢٥,٤٩,٢١١	١٤٧
١٧٩	١٤٨
١٩٩	١٤٩
١٤٢	١٥٨
١٠٥	١٦٦
٧٥	١٧٦

سورة المائدة (٥)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
٢	٨٨
٣	١٧٠
٤	٩٣
٦	٢٥٣
٧	٤٢,٧٣,٢٣٩
٨	٨٤
١٧	٧٨,٢٩٥
١٩	٧٧
٣٤	١٦٨
٣٨	١٤٩

١٦٧	٣٩
٧٨	٤٠
٣٢٢	٧٤
١٧٧	٧٦
١٥٥	٩٥
١٤٠١٦٨٠٢٤١٠٣١٨	٩٨
١٧١	١٠١
٢٢٠١١٨	١٠٩
١١٨٠٢٤٩	١١٦
١٠٤٠٢٥٧	١١٧
١٤٥	١١٨
٧٨٠٢٥٨	١٢٠

سورة الأنعام (٦)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
٣٧	٤٤٠٤٥
٥٩	٨
٧٣	٤١
٩٦	١٥٣
١٠١	٧٢
١٠٢	٤٧
١٠٣	٢١٠٢٠٦
١٣٣	٥٢
١٤٥	١٧٠
١٤٧	٥٢
١٦٥	٦٤٠٢٤٣

سورة الأعراف (٧)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
٨٠	٥٩
١٥٣	١٦٨
١٦٧	٩٤٠١٦٩٠٢٤٤
١٨٠	٢
١٩٣	٣٠٢
٢٠٠	١٧٧٠٢٤٧

سورة الأنفال (٨)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
١٠	١٣٧
١٣	٨٧
٢٥	٨٨،٩٠
٢٩	97
٣٩	١١٣،٢٨٣
٤٠	٦١،١١٣،٢٨٢،٢٨٣،٢٥
٤٧	

سورة التوبة (٩)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
٣١	٥٨
٤٠	١٣٧،٣٠٥
٤٤	٧٣
٤٧	٧٢
٤٩	٦٩
٧١	١٤٧
٧٨	١١٨
٩١	١٧٠
١٠٢	١٦٧
١٠٤	١٨٨
١١١	١٣٥
١١٤	١٢٦
١١٧	٥٢،٢٠٢
١٢٨	٩،١١،٥١

سورة يونس (١٠)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
٢٢	٦٩،٢٦٧
٣٦	٧٤
٤٠	٥٧،١٢٧
٦٥	١٧٩
٩٢	١٦٣

سورة هود (١١)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
١	١٩٣
٤	٧٧،٢٥٩
٥	٧٣

١٦٦	٤١
١٢١،٢٥٧	٥٧
٢٥،٣٢،٢٢٢	٦١
٢١٨	٧٣
٢٦	٧٣
٦٩	٨٤
١٩٤	٩٠
٦٧	٩٢
٣٠	١٠٧

سورة يوسف (١٢)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
٦	١٩١
١٩	٧٤،٢٦١
٣٩	٥٧،٥٨،١٢٦،٢٠٦
٥٣	٢٩١
٨٣	١٩١
١٠٠	٢٠٦

سورة الرعد (١٣)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
٦	٦٥،٨٧
٩	٢٩،٣٢،٥٨،٢٢٠
١١	٦١
١٣	٨٨،٩٠
١٦	٤٧،١٠٣

سورة إبراهيم (١٤)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
١	١٥٦
٤	١٤٣
١٢	٢٥٣
٢٢	٢٢٤
٣٩	٩٩
٤٢	١٥٥
٤٧	١٥٥
٤٨	٢٠٣

سورة الحجر (١٥)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
٩	٣١٢
٨٥	٢١٠
٨٦	٢١٠

سورة النحل (١٦)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
٣	٥٨
٧	٢٠٢
١٨	١٦٦
٢٨	٢٦٣، ٢٣٩
٤٣	١٣٥
٥٨	١٤٤
٦٠	١٤٣
٦١	٢٠١، ١٤٤
٧٠	٤٥، ١٩٢، ٣١٣
١١٠	٢٣٦

سورة الإسراء (١٧)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
١	١٨٠، ٢٧٣
٢٦	٥٣
٣٠	٢٢٨، ٣٠٦
٤٠	٢١٣
٤٤	٢١٢، ٢٨٧
٥٥	٥٧، ١٢٧
٦٥	١٠٦، ٢٦٠
٦٦	١١١، ٣١٠
٦٧	٣٠٦
٧٥	١١٤
٨٥	٣١٦
١٠٠	١٦٤
١١٠	١٩، ٥١

سورة الكهف (١٨)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
١٨	٣٠١
٤٥	١٢٣، ١٢٤، ٣٠٦
٥٨	٥٢
٧٧	٢٩٠

سورة مريم (١٩)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
٩	٢٥٤
٤٧	٢٧، ١٢٥، ٢٦٠
٥٠	٥٦
٥٧	٥٦
٨٨	٢٦٨
٨٩	٢٦٨

سورة طه (٢٠)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
٣٥	٢٦٦
٤٥	١٧٩
٤٦	٨١، ١٧٩
٥٢	٨
٦٨	٢٤٦
٨٦	٥٠

سورة الأنبياء (٢١)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
٨٣	١٠٠

سورة الحج (٢٢)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
٣	٢٥٠
١١	٦٢
١٢	٦٢
١٣	٦٢
١٧	١٠٤

٢٥٩	٣٩
٢٠٩	٤٠
٢٥٠	٥٥
١٩٨	٦٠
١٧٩	٦١
١٨٢،٢٤٦	٦٢
٢٠٦	٦٣
٢٥٠	٦٤
٢٠٢،٢٤٢	٦٥
٦١،١١٣	٧٨

سورة المؤمنون (٢٣)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
١٥	٢٣٣
١٦	٢٣٣
٢٧	٣٠٣
٥١	٧٠
٧٥	١٦٤
٩٥	١٢٤

سورة النور (٢٤)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
١٠	١٨٩
١٩	٢٠٢
٢٠	٢٠٢
٢١	٢٩٠
٢٤	٢٢٣
٢٥	٢٨٠،٣١٠،٢٢٣
٢٨	٧٠
٣٠	٨٤
٣٥	٢٩٤،٣٠٤
٣٩	٩٣
٤١	٢٦٣،٢٨٧
٥٣	٨٦،٢٦٣،٢٧٠
٦٢	١٦٧
٦٤	٣٠١

سورة الفرقان (٢٥)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
٢	١٠،١٣
٣٠	٢٢١
٣١	٣٣،٢٢١،٢٨٢
٥٨	٨٤

سورة الشعراء (٢٦)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
٤	١٥١،٢٥١
٩	١٥٠،١٥١،٢٥١،٢٨٢،٢٨٤
٥٧	١٥٢
٥٨	١٥٢،٢٣٥
٥٩	١٥٢
٦٢	٢٢٢

سورة النمل (٢٧)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
٦	١٩٠
١١	١٦٨،١٨٨
٤٠	٤٨،١٤٦
٦٣	٥٨
٧٦	١٥٤
٧٨	١٥٤
٨٤	٦٩

سورة العنكبوت (٢٩)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
٦	١٠١

٣٠٣	٣١
٢٥٣	٣٨
١٤٤	٤٢
١٧٧	٦٠
٧٤	٦٢

سورة الروم (٣٠)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
٣٩	٢٦٨
٥٤	١٩٢

سورة لقمان (٣١)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
١٢	١٠،١٨٤
١٦	٢٠٦
٢٣	٧٣
٢٦	٢٤٥
٢٧	١٤٣
٣٠	٥٦،١٨٢

سورة السجدة (٣٢)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
٦	١٥٢
٧	١٠،٤٨

سورة الأحزاب (٣٣)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
٢	٨٤،٢٦٩

٢٠٩،٣٠٩	٢٥
٣٠٦،٣٠٩	٢٧
٢٠٦	٣٤
١١٥،٢٩٥	٣٩
٩،٥٢،١١١	٤٣
١٠٦	٤٨
١٧٠	٥٠
١٠٨،٢٥٧	٥٢
٣١٠	٧٣

سورة سبأ (٣٤)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
٢	١٩٣
٦	١٥٧
١٣	٥٠
١٥	٢٠٠
٢١	١٢١،١٢٢
٢٥	٢٢٧
٢٦	٣٠،٢٢٧
٤٣	١٨١
٤٨	١١٨،١١٩
٥٠	١٨١

سورة فاطر (٣٥)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
٨	٤٢
٩	٢٧٣

٣١٩	١٠
١٨٥	١٥
١٦٠	٢٨
١٧٣	٣٠
١٧٣	٣٣
١٧٣	٣٤
٢١٤	٤٠
٢١٣	٤١
١٩٢	٤٤

سورة يس (٣٦)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
١٣	٢٣٢
١٤	٢٣٢
١٥	٢٣٢
١٦	٢٣٢
٣٨	١٥٣
٥٨	١٩٩
٨١	٢٤،٤٥،٤٧،٢١٠

سورة الصافات (37)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
٤	١٢٧

سورة ص (38)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
٨	١٦١
٩	١٦١

٩٨،٢٤٩	٣٥
١٩	٦٥
٣٨،١٥٩	٦٦

سورة الزمر (٣٩)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
١	١٣٨،٢٣٤
٤	٢٠٣
٥	٢٢،١٥٩
٦	٤٨
٣٦	١٥٦
٣٧	١٥٦
٥٣	٣٨،٣١٨،٣٢٢
٦٢	١٠٦
٦٦	٢٥٣

سورة غافر (٤٠)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
٢	١٥٤،٣١٧
٣	٣٨،٣١٨
٨	٢٤٩
١٢	١٨٢
١٦	٤٦،٢٠٣
٢٠	٢٤٦
٣٨	٢٨١
٣٩	٢٨١
٤٢	١٥٩
٤٤	٢٣٩

١٧٨	٥٦
-----	----

سورة فصلت (٤١)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
٢	٢٠٤
١٢	١٥٣
٣٢	١٦٦
٣٣	٢٤٧
٣٤	٢٤٧
٣٥	٢٤٧
٣٦	١٧٧، ٢٥٧
٥٤	١٨، ٦٧

سورة الشورى (٤٢)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
٣	١٤٣
٤	١٢٩، ١٨٣
٥	١٨٣، ٢٣٦
١٢	٧٥
١٩	٢٠٢
٢٣	١٧٣
٢٥	١٩٧
٢٧	٢٢٨
٢٨	٦٠، ١١٩
٢٩	٤٥
٥٠	١٩٢
٥١	٥٦، ١٨٤

سورة الزخرف (٤٣)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
٣١	١٦١
٤٢	٤٦، ١٢٣، ١٢٤، ٢٢٥

سورة الدخان (٤٤)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
٤٩	١١

سورة الجاثية (٤٥)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
٢	١٣٨
١٩	٦٠

سورة الأحقاف (٤٦)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
٢	١٣٨

سورة محمد (٤٧)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
٤	٣٠٢
١١	٦١
١٩	٣١٦
٣٨	١٥، ١٠٢

سورة الفتح (٤٨)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
١١	٨٦
٢٤	٢٦٩
٢٦	٨٤
٢٨	١٠٥

سورة الحجرات (٤٩)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
٥	١٦٨
١٢	١٨٨

سورة ق (٥٠)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
١٦	٢٥
١٨	١٠٩

سورة الذاريات (٥١)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
٢٤	٢٩٩
٢٥	٢٩٩
٣٠	١٩١
٥٦	٢٨٦
٥٨	٢٩،٣٢،٢٤٦،٢٢٧

سورة الطور (٥٢)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
٢٦	٢١٧
٢٨	٢٧، ٢١٦

سورة القمر (٥٤)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
١٧	٢٨٠
٤٢	٤٦، ١٢٤، ١٦٢
٥٤	٢٢٥
٥٥	٢٣، ٣٣، ٧٣، ٢٢٥

سورة الرحمن (٥٥)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
١٣	٢٧٧، ٢٨٠، ٢٨١
٢٧	٢٤

سورة الواقعة (٥٦)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
٥٨	١٢٩، ٢٨٦
٥٩	٢٨٦
٦٣	١٢٩
٦٨	٢٨٦
٧٠	٢٨٦
٧١	١٢٩، ٢٨٦
٧٢	٢٨٦

١٢٨،٢٨٢،٢٨٦	٧٤
١٢٨	٩٦

سورة الحديد (٥٧)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
١	١٣٩،٢٨٧
٢	٧٨
٩	٢٠٢،٢٤٣
٢١	٩٧
٢٥	٢٠٨
٢٩	٩٧

سورة المجادلة (٥٨)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
١	١٨٠
٢	١٩٨
٦	٣٠٤
١١	٨٤
١٢	١٦٩
٢١	٢٠٩

سورة الحشر (٥٩)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
١	١٣٩،٢٨٦
٤	٨٧
٧	٨٨،٩٠
١٨	٢٩٥

٢٠٤	٢٢
١٣٩	٢٤

سورة الممتحنة (٦٠)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
٥	١٤٨
٦	١٨٥
١٢	١٦٧

سورة الصف (٦١)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
١	١٣٩، ٢٨٢، ٢٨٧

سورة الجمعة (٦٢)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
١	٣٠، ٣٣، ٢٣٤، ٢٨٧
٤	٩٧

سورة المنافقون (٦٣)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
٨	٣١٩
١٠	٢٧٠
١١	٢٧٠

سورة التغابن (٦٤)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
١	٢٨٧
٦	١٨٥
١١	٧٥، ٢٩٨
١٧	٢١٧

سورة الطلاق (٦٥)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
١٢	٧٠

سورة الملك (٦٧)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
١	٧٨
٢	١٦٠
١٣	٢٠٧
١٤	٢٠٦
١٩	٨٠، ٨٢

سورة الحاقة (٦٩)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
١	٢٩٠
٢	٢٩٠
٣٣	١٢٨، ١٢٩
٥٢	١٢٨

سورة المدثر (٧٤)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
١٩	٢٧٩
٢٠	٢٧٩

سورة القيامة (٧٥)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
٣٤	٢٧٩
٣٥	٢٧٩

سورة الإنسان (٧٦)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
١	
٢	١٢، ٢٥٩
٢٣	٢٣٥

سورة عبس (٨٠)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
١٦	٢٧

سورة الانفطار (٨٢)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
٦	٢٥، ٤٨

سورة البروج (٨٥)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
٨	١٥٧
١٤	٢٦،١٧٤
٢٠	٦٧

سورة الطارق (٨٦)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
٨	٣٠،٤٥

سورة الأعلى (٨٧)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
١	٢٥،٩٢،١٢٦،٣٢٦

سورة الفجر (٨٩)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
٢٠	٣٢٦

سورة الليل (٩٢)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
٢٠	٥٧،١٢٦

سورة الضحى (٩٣)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
٨	١٥

سورة العلق (٩٦)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
١	٣١٧، ٣٢٦
٣	٢٧، ٥٧، ١٢٧، ٣١٧، ٣٢٦
٤	٣١٧

سورة القارعة (١٠١)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
١	٢٨١
٢	٢٨١
٣	٢٨١

سورة التكاثر (١٠٢)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
٣	٢٨٠
٤	٢٨٠

سورة الكافرون (١٠٩)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
١	٢٧٧، ٢٧٨

سورة النصر (١١٠)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
٣	٢٣٩، ٣٠٧، ٣١٠

سورة الإخلاص (١١٢)

رقم الآية	رقم الصفحة التي وردت فيها
١	٢٧،٥٩،٣٢٦
٢	٢٩،٣٢٦

ثانياً — فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

الحديث الشريف	رقم الصفحة التي ورد فيها
" ما أصاب عبد قط هم ولا حزن "	٢
" إن لله تسعة و تسعين اسماً "	٢
" خرج إلينا رسول الله ﷺ فقال : أقرأ عليكم ثلث القرآن ... "	١٣٠
" اجعلوها في ركوعكم ... "	١٣٠،٢٨٦
" جاء إعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال له علمني كلاماً ... "	١٣٣
" قيل لرسول الله ﷺ علمني الدعاء ، فقال: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ... "	١٦٥
" لو أنكم لا تخطئون لأتى الله بقوم يخطئون فيغفر لهم ... "	١٦٥
" يا أيها الناس أربعوا على أنفسكم ... "	١٨١
" يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله ... "	٢١٥

٢١٧	" ما من أحد يدخله عمله الجنة ... "
٢١٩	" قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ... "
٢٢٢	" بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم ... "
٢٧٩	" أن بني هشام بن المغيرة استأذنوني ... "
٢٧٩	" الكريم ابن الكريم ابن الكريم ... "

ثالثاً – فهارس الأشعار

(ت)	
عجز البيت	رقم الصفحة التي ورد فيها
وكننت على مساء ته مقيتا	١١٦
(ر)	
وأن نعوذ بمولانا من النار	١٥٠

٢٨٩	نغص الموت ذا الغنى والفقيرا
(ف)	
٤٣	نحو اكتسبت السوء بالتعرف
(ق)	
٢٩٦	إن الحديث عن الحبيب تلاق
(ل)	
٢٢٦	فإن لكل زمان رجالا
١٠٧	برد الأمور الماضيات وكيل
(م)	
٢٦٥	بعود بشامة سقي البشام
٢٢٨	سوى ما يراه فهو في هذه أعمى
(هـ)	
٤٣	حلت له نقم فألفاها

رابعاً – فهرس الأعلام

(أ)	
الاسم	رقم الصفحة التي ورد فيها

إبراهيم أنيس	٣٤,٣٥
إبراهيم عليه السلام	٩٩,١٠٠,١٢٥,١٤١
أبو السعود	١٤٣,١٧٢,١٩٠,٢٠١
أبو العلاء المعري	١٥٠
أبو المنذر	٢١٥
أبو حيان	٦٨,٧٦,٨٥,٨٩
أبو عبيد	٢١٦
أبو علي الفارسي	٣٤
أبو عمر الداني	٢٦٩
أبو نواس	٤٣,١٢٣
أبو هريرة	٣,١٣٠
أبو هلال العسكري	٣٤,٣٥,٧٠,٨٨
الأصمعي	٢٨,٣٤,١٢٥,٢٦٥
الأعرج	٢٧١
الألباني	٣
الألوسي	٨٠,٩٨٥٣,٧٩
أيوب عليه السلام	١٠٠
ابن أبي بن كعب	١٣٠
ابن الأثير	٢٥٣,٣٢,٤٢
ابن الأعرابي	٢٨٨,٣٠٧
ابن الأنباري	١٠٧
ابن الزبير الغرناطي	٢٤٨
ابن القيم الجوزية	١٩٤
ابن الوزير	١٣٤
ابن تيميه	٣,١٧٥
ابن جني	١٦٣,٢٣٨,٢٦٥
ابن حزم الظاهري	٤
ابن خالويه	٢٦٩

١٣٠	ابن خزيمة
١٢٠،١٢٤،١٢٥،١٣٨،١٣٩	ابن عاشور
١٣١،١٩٦،٢٢٧	ابن عباس
٣٤	ابن فارس
٢٧٧	ابن قتيبة
٤٧،١٦٩،٢١١،٢٦٩	ابن كثير
٣،٤،٥،٣٦	ابن ماجة
٢	ابن مسعود
٥،٦	ابن منده
٤،٦،٨،٩	الغزالي
(ب)	
١٦٥،١٧٤،١٨١،٢١٨	البخاري
١٧٧،١٨١،١٩٢	البقاعي
١٠٦،١٢١،١٧٢	البيضاوي
	البيهقي
(ت)	
٣،٤،٥	الترمذي
(ث)	
٢١٢،٢١٩	الثعالبي
٣٤،١٨٠	ثعلب
(ج)	
٢٥٢،٢٨٠،٣٠١	الجرجاني
(ح)	
١٣٠	الحاكم
٢٧١	الحسن
٢٢٦	الحطيفة
٢٦٨	حفص
٢٩٧	الحموي

(د)	
الدامغاني	٥٣,١٠٥,١٠٨,٣٠٧
(ر)	
الرازي	٢٥٦,٢٨٣,٢٠١,٣٠٠
الرضواني	٤
(ز)	
الزجاج	
الزركشي	٢٢٧,٢٣٨,٢٤٠,٢٧٣
زكريا عليه السلام	٩٩,٩٩
الزمخشري	٢٥٦,٢٣٥,٢٥٤
الزهري	٢٧٢
(س)	
السكاكي	٢٥٤
السهيلي	٢٤٥
سواد بن عدي	٢٨٩
سيبويه	٢٥٢,٣٠٨
السيوطي	٢٣٨,٢٤٠,٢٤٤,٢٥٦
(ش)	
الشعراوي	٧٩,٨١,٩٤,١٠١,٧٨
شعيب عليه السلام	١٩٤
الشوكاني	١١٢,١٢٥,١٣٢,١٣٥
(ص)	
صالح عليه السلام	٢٢٢,٢٢٣
صبحي الصالح	٣٤,٣٥
صلاح الخالدي	٣٤
(ط)	
الطاهر بن عاشور	١٢٠,١٢٤,١٢٥,١٣٢

٨١،١١٣،١٢١،١٣٢	الطبري
٢٥٤،٢٩٩	الطوفي
(ع)	
٣٤	عائشة عبد الرحمن
٤	عبد الملك الصنعاني
١٥٠	عبد الوهاب المالكي
٢٣١،٢٣٢،٢٥٥،٢٦٦	العلوي
٢٧٩	علي رضي الله عنه
٢٢٨	عماد الدين ابن القضاوي
١٠٤،١٤٣،١٤٦	عيسى عليه السلام
١٦٤	العيني
(غ)	
٤،٦،٨،٩،٢٤	الغزالي
(ف)	
٢٧٦	فضل عباس
٣٤،٨٣	الفيروز أبادي
(ق)	
	قتادة
٦١،٦٣،٦٧،٨١	القرطبي
(ك)	
٢١٦	الكسائي
(ل)	
٢٨٤	لوط عليه السلام
٢٨،١٢٥	الليث
(م)	
٥٣،٩٠،١٠٥،٢٠٥،٢١٩،٣٢٦	محمد عليه الصلاة والسلام
١٢٧	مسلم
٥٠،١٧٩،١٨٤،٢٠٠،٢٢٢	موسى عليه السلام

(ن)	
٢١٦،١١٦	نافع
٥١،١٧٠	النسفي
٢٨٤،١٦٦	نوح عليه السلام
(هـ)	
١٢١	هود عليه السلام
(و)	
٣،٤	الوليد بن مسلم
(ي)	
٢٧١،٢٧٩	يعقوب عليه السلام
٢٦١،٢٩١	يوسف عليه السلام

خامساً - فهرس الكتب

(أ)

اسم الكتاب	رقم الصفحة التي ورد فيها
الأسماء والصفات	٥١٠
الإتقان في علوم القرآن	
أسرار التكرار في القرآن	٢٨٠
(ب)	
بصائر ذوي التمييز	٥٢
باب الصدقة	٢١٨
باب أحوال المسند إليه	٢٨٨
(ت)	
التحرير والتنوير	١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٢، ١٣٤، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٤، ١٤٦، ٤
شرح التحفة (التحفة)	٢٠١

(ح)	
الحجة في القرآن السبعة	٢٦٩
(ض)	
ضعيف بن ماجه	٣
(ط)	
الطراز	٢٥٥
(ف)	
الفروق اللغوية	٣٩
فيض التقدير	٤٣
(ك)	
الكشاف	٥١
(ل)	
اللسان	٨،٩،١٠،١٢
(م)	
المحرر الوجيز	٧٤

سادساً — قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- ابن أبي العز الحنفي: شرح العقيدة الطحاوية، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٣٩١.

- ابن الأثير، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري: النهاية في غريب الحديث والأثر، تح. طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطن، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩-١٩٧٩.
- ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن عبد الكريم: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٥م.
- ابن تيميه، أحمد بن عبد الحلیم: الفتاوى الكبرى، تحقيق حسنين محمد مخلوف، دار المعرفة، بيروت.
- ابن تيميه، أحمد بن عبد الحلیم: النبوات، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٨٦هـ .
- ابن جني، أبو الفتح عثمان: الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب بيروت.
- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد: زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ .
- ابن الحاجب، جمال الدين أبي عمرو عثمان بن عمر الدويني: الشافية في علم الصرف، تحقيق حسن أحمد العثمان، المكتبة المكية، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.
- ابن الحجاج القطفي، شيث بن إبراهيم بن حيدة: حز الغلاصم في إفحام المخاصم عند جريان النظر في أحكام القدر، تحقيق عبد الله عمر البار ودي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥م.
- ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر علي بن عبد الله: خزانة الأدب وغاية الأرب، تحقيق عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.
- ابن خالويه، الحسين بن أحمد: الحجة في القراءات السبع، تح، عبد العال سالم مكرم، دار الشروق، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠١هـ .

- ابن خزيمة، أبو بكر محمد بن إسحاق: كتاب التوحيد واثبات صفات الرب عز وجل، تحقيق د. عبد العزيز بن إبراهيم الشهوان، مكتبة الرشيد، الرياض، الطبعة الخامسة، ١٩٩٤.
- ابن زنجلة، عبد الرحمن بن محمد: حجة القراءات، تحقيق سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٢ - ١٩٨٢ م.
- ابن السراج، أبي بكر محمد بن سهل: الأصول في النحو، تحقيق د. عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٨.
- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي: إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، تح. محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٥ - ١٩٧٥ م.
- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي: بدائع الفوائد، تحقيق هشام عبد العزيز عطا، عادل عبد الحميد العدوي، أشرف أحمد، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م.
- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي: جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام، تحقيق شعيب الأرنؤوط؛ عبد القادر الأرنؤوط، دار العروبة، الكويت، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي: روضة المحبين ونزهة المشتاقين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.
- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، تحقيق محمد بدر الدين أبو فراس النعساني الحلبي، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨ - ١٩٧٨ م.
- ابن القيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعتلة، تحقيق د. علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤١٨ - ١٩٩٨ م.

- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي: طريق الهجرتين وباب السعادتين، تحقيق عمر بن محمود أبو عمر، دار ابن القيم، الدمام، ١٤١٤-١٩٩٤م.
- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر: عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، تحقيق زكريا علي يوسف، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٣-١٩٧٣ م.
- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي: مفتاح دار السعادة ومنثور ولاية العلم والإرادة، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر: تفسير القرآن العظيم.
- ابن مندة، محمد بن إسحاق: كتاب التوحيد ومعرفة أسماء الله عز وجل وصفاته على الاتفاق والتفرد، تح. محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ابن منظور، محمد بن مكرم: لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.
- ابن الوزير، مجمل بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل الحسني القاسمي: إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م.
- أبو حيان، محمد بن يوسف: البحر المحيط في التفسير، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٢م.
- أبو السعود، محمد بن محمد العمادي: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- أبو موسى، محمد: خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، دار التضامن، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٠-١٩٨٠م.
- أحمد ابن إبراهيم: توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٦هـ.

- اسماعيل، محمد بكر: أسماء الله الحسنى آثارها و أسرارها، دار المنار، الطبعة الأولى، ١٤٢١م — ٢٠٠٠م.
- الأشعري، علي بن إسماعيل بن أبي بشر: الإبانة عن أصول الديانة، تحقيق د. فوقية حسين محمود، دار الأنصار، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٩٧هـ .
- الأصبهاني، أبي عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى: كتاب التوحيد ومعرفة أسماء الله عز وجل وصفاته على الاتفاق والتفرد، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت — لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢م — ٢٠٠١م .
- الأصفهاني، أبي الفرج: الأغاني، تحقيق سمير جابر، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية.
- الأصفهاني، الحسين بن محمد بن الفضل: معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، دار الكتب العلمية، بيروت — لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٨م — ١٩٩٧م.
- الألباني، محمد ناصر الدين: ضعيف ابن ماجه، مكتبة المعارف، الرياض.
- الألوسي، محمود أبو الفضل: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- الأنباري، أبو بكر محمد بن القاسم، تحقيق: حاتم صالح الضامن، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد العراق، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م.
- الأنصاري، زكريا بن محمد بن أحمد: فتح الرحمن شرح ما يلتبس من القرآن، تعليق الدكتور يحيى مراد دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م — ١٤٢٤هـ.
- الإيجي، عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد: كتاب المواقف، تحقيق د. عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
- البخاري، محمد بن إسماعيل: الجامع الصحيح المختصر، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ١٤٠٧م — ١٩٨٧م.

- البجلي، على بن عباس: القواعد والفوائد الأصولية و ما يتعلق بها من الأحكام، تحقيق محمد حامد الفقي ، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٣٧٥هـ — ١٩٥٦م.
- البغوي، حسين بن مسعود: معالم التنزيل.
- البقاعي، برهان الدين بن أبي الحسن إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات و السور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ٢٠٠٣-١٤٢٤هـ.
- البيضاوي: تفسير البيضاوي.
- البيهقي، أبو بكر بن الحسين بن علي: الأسماء والصفات، تح. عبد الله بن عامر، دار الحديث القاهرة.
- البيهقي، أحمد بن الحسين: الاعتقاد والهداية إلي سبيل الرشاد علي مذهب السلف وأصحاب الحديث، تحقيق أحمد عصام الكاتب، دار الأفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ .
- الترمذي، محمد بن عيسى: الجامع الصحيح سنن الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء المعرفة، بيروت.
- الثعالبي، عبد الرحمن: الجواهر الحسان في تفسير القرآن، مؤسسة العلمي للمطبوعات، بيروت.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: البيان والتبيين، تحقيق المحامي فوزي عطوي، دار صعب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ.
- الجر جاني، ركن الدين محمد بن علي بن محمد: الإشارات والتنبيهات، تعليق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٢٣-٢٠٠٢م.
- الجر جاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن: دلائل الإعجاز في علم المعاني ، تح. عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢-٢٠٠١م.
- حسن، عباس: النحو الوافي، دار المعارف، الطبعة الحادية عشرة.

- الحصني، أبو بكر : دفع شبهه من شبه وتمرد ونسب ذلك إلي السيد الجليل الإمام أحمد، تحقيق محمد زاهد بن الحسن الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة.
- الحكمي، حافظ بن أحمد: معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، تحقيق عمر بن محمود أبو عمر، دار ابن القيم، الدمام، ١٤١٠ - ١٩٩٠ م.
- الحلبي، أحمد بن فهد أبو العباس: المقام الأسنى في تفسير أسماء الله الحسنى.
- الدمغاني، الحسين بن محمد : الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان الطبعة الأولى، ٢٠٠٣ - ١٤٢٤ هـ.
- الدينوري، عبد الله بن مسلم بن قتيبة: تأويل مشكل القرآن، تعليق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية ،بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٣ - ٢٠٠١ م.
- الراجحي، عبده: اللهجات العربية في القراءات القرآنية، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ - ١٩٩٩ م.
- الرازي ، محمد الرازي فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر : تفسير الفخر الرازي دار الفكر، بيروت ،لبنان ، ١٤٢٣ - ٢٠٠٢ م.
- الرضواني، محمود عبد الرزاق: أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب و السنة، مكتبة دار الرضوان، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٥ - ٢٠٠٤ م .
- الزجاج، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد: تفسير أسماء الله الحسنى، تحقيق أحمد يوسف الدقاق، دار الثقافة العربية، دمشق، ١٩٧٤ م.
- الزركشي، محمد بن بهادر بن عبد الله: البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩١ هـ.
- الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد: الكشف عن حقائق غوامض التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل، تح. محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥ م.
- الزهري، ابن شهاب: تنزيل القرآن، تح. صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الحديث، بيروت.

- السامرائي، فاضل صالح: التعبير القرآني، دار عمار، عمان، الطبعة الثانية، ١٤٢٢-٢٠٠٢م.
- السامرائي، فاضل صالح: لمسات بيانية في نصوص التنزيل، دار عمار، عمان، الطبعة الثانية، ١٤٢٢-٢٠٠١م.
- السامرائي، فاضل صالح: معاني الأبنية في العربية، جامعة بغداد، الطبعة الأولى، ١٤٠١-١٩٨١م.
- السجستاني، سليمان بن الأشعث: سنن أبي داود، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، تعليق كمال يوسف الحوت، دار الفكر.
- السيوطي، عبد الرحمن بن الكمال: الدر المنثور، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣.
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد: لباب النقول في أسباب النزول، دار إحياء العلوم، بيروت.
- الشعراوي، محمد متولي: أسماء الله الحسنى، أخبار اليوم، القاهرة، مصر.
- الشعراوي، محمد متولي: تفسير الشعراوي، أخبار اليوم، القاهرة، مصر.
- الشوكاني، محمد بن علي: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير.
- الشيباني، أحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد بن حنبل، مؤسسة قرطبة، القاهرة.
- شيخون، محمود السيد: من أسرار البلاغة في القرآن، مكتبة الكليات الأزهرية، الطبعة الأولى، ١٤٠٤-١٩٨٤م.
- الصابوني، محمد علي: مختصر تفسير ابن كثير.
- الصغير، أحمد عبد الهادي: التوثيق الرقمي لأسماء الله الحسنى في القرآن الكريم، دار اليمان، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، ١٤٢٤-٢٠٠٤م.
- الصنعاني، محمد بنم إسماعيل: أصول الفقه المسمى (إجابة السائل شرح بغية الآمل)، تح. القاضي حسين بن أحمد، د. حسن محمد مقبولي الأهدل، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.
- الطائي، حبيب بن أوس: ديوان الحماسة، تح. محمد عبد القادر
- الطاهر، محمد بن عاشور: التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر.

- طبق، عبد الجواد محمد: دراسة بلاغية في السجع والفاصلة القرآنية، دار الأرقم، الطبعة الأولى، ١٤١٣-١٩٩٣م.
- الطوفي، سليمان بن عبد القوي بن عبد الكريم: الإكسير في علم التفسير، تح. عبد القادر حسين، دار الأوزاعي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٩-١٩٨٩م.
- عامر، فتحي أحمد: المعاني الثانية في الأسلوب القرآني، منشأة المعارف، الإسكندرية.
- عباس، فضل حسن وسناء فضل: إعجاز القرآن الكريم.
- عبد الخالق، عبد الرحمن: منهج جديد لدراسة التوحيد، الدار السلفية، حولي، تونس .
- العثيمين، محمد بن صالح: القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، تح. هاني الحاج، مكتبة العلم، طبعة الأولى، ١٩٩٩-١٤١٩م.
- العسقلاني، الحافظ أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دار مصر للطباعة، الطبعة الأولى، ١٤٢١-٢٠٠١م.
- العظيم آبادي، محمد شمس الحق العظيم: عون المعبود شرح سنن أبي داود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ.
- علوان، محمد ونعمان شعبان: دراسات في البلاغة العربية (من بلاغة القرآن) المعاني والبيان والبدیع، الدار العربية، الطبعة الثانية، ١٩٩٨م.
- العلوي، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم: الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، تح. محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٥-١٩٩٥م.
- العيني، بدر الدين: عمدة القاري شرح صحيح البخاري.
- الغرناطي، أحمد بن إبراهيم بن الزبير: ملاك التأويل القاطع بروي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، تحقيق سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٨٣-١٤٠٣هـ .
- الغرناطي، محمد بن يوسف: البحر المحيط في التفسير، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤١٢-١٩٩٢م.

- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد: جواهر القرآن، تحقيق د. محمد رشيد رضا القباني، دار إحياء العلوم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م.
- الغزالي، محمد بن محمد: المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، تحقيق بسام عبد الهاب الجابي، الجفان والجابي، قبرص، ١٤٠٧ - ١٩٨٧م.
- الفار، معين مصطفى خليل: الترادف و التشابه في النظم القرآني دراسة أسلوبية (رسالة ماجستير) إشراف محمد علوان، الجامعة الإسلامية غزة ١٤٢٥-٢٠٠٤م.
- الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق الأستاذ محمد علي النجار،، المكتبة العلمية، بيروت.
- الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب: القاموس المحيط.
- القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر: الجامع لأحكام القرآن، محمد بن إبراهيم الحفناوي، دار الحديث، القاهرة. ٢٠٠٢م.
- القرزويني: الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبدیع (مختصر تلخيص المفتاح)، تح. رحاب عكاوي، دار الفكر العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.
- القزويني، محمد بن يزيد: سنن ابن ماجة، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.
- القطان مناع خليل : مباحث في علوم القرآن، المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٢١ - ٢٠٠٠م.
- قطب، سيد: في ظلال القرآن، دار الشروق، مصر، الطبعة الشرعية الثالثة والثلاثون، ١٤٢٥ - ٢٠٠٤م.
- الكرمانی، محمود بن حمزة بن نصر: أسرار التكرار في القرآن، تح. عبد القادر أحمد عطا، دار بو سلامة ، تونس الطبعة الأولى.
- الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني: الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٩ - ١٩٩٨م.

- المباركفوري ، محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم: تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى، دار الكتب العلمية، بيروت.
- محمد، أحمد سعد: التوجيه البلاغى للقراءات القرآنية، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٢١-٢٠٠٠م.
- محمود، سليمان سامى: النور الأسمى فى شرح أسماء الله الحسنى، دار الصابونى، القاهرة.
- مطلوب، أحمد: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مطبعة المجمع العلمى العراقى، ١٤٠٧-١٩٨٧م.
- المناوى، عبد الرؤوف: فيض القدير شرح الجامع الصغير، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٥٦هـ.
- النسفى: تفسير النسفى.
- النيسابورى، محمد بن عبد الله: المستدرک على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١-١٩٩٠م.
- النيسابورى، مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم، تحقيق وتعليق محمد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربى، بيروت.
- الواحدى، على بن أحمد: الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز.

سابعاً : فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
أ	الإهداء
ب	شكر وتقدير
ت	المقدمة
١	الفصل الأول : الإعجاز البياني لأسماء الله الحسنى
٢	أولاً- حصر أسماء الله الحسنى الواردة فى خواتم الآيات
٨	ثانياً - معاني الأسماء

٣٤	ثالثاً - الدلالة البنائية لأسماء الله الحسنى
٣٧	١ - الغافر والغفار والغفور
٣٧	٢ - عالم الغيب - علام الغيوب - العليم
٤٤	٣ - القادر والمقتدر والقدير
٤٦	٤ - القاهر والقهار
٤٧	٥ - الخالق والخالق
٤٨	٦ - الكريم والأكرم
٤٩	٧ - الشاكر والشكور
٥٠	٨ - الرحمن والرحيم وذو الرحمة
٥٥	٩ - العلي و الأعلى والمتعالي
٥٨	١٠ - الواحد والأحد
٥٩	١١ - الولي و الوالي والمولى
٦٣	١٢ - المالك والملك والمليك
٦٤	١٣ - القوي ذو القوة
٦٦	الفصل الثاني : تجاور الأسماء الحسنى وترتيبها
٦٧	أولاً - حركة الأسماء المفردة
٦٧	١ - المحيط
٦٩	- وقفة بين المحيط والعليم

الصفحة	الموضوع
٧١	٢ - العليم
٧١	أ. محور الخلق
٧٢	ب. الأحوال
٧٣	ج. الأعمال
٧٤	د. توزيع الأرزاق والحظوظ على البشر
٧٥	هـ. الأوامر والنواهي
٧٦	٣ - التقدير

٨٠	٤ - البصير
٨٣	٥ - الخبير
٨٧	٦ - الشديد
٩٢	٧ - السريع
٩٥	٨ - الرؤوف
٩٦	٩ - ذو الفضل العظيم
٩٨	١٠ - الوهاب
٩٩	١١ - السميع
١٠١	١٢ - الغني
١٠٢	١٣ - الشهيد
١٠٥	١٤ - الوكيل
١٠٨	١٥ - الرقيب
١٠٩	١٦ - الحسيب
١١١	١٧ - الرحيم
١١٣	١٨ - النصير
١١٥	١٩ - المقيت
١١٨	٢٠ - علام الغيوب
١٢١	٢١ - الحفيظ
١٢٣	٢٢ - المقتدر
١٢٥	٢٣ - الحفي
١٢٦	٢٤ - الأعلى
الصفحة	الموضوع
١٢٧	٢٥ - الواحد
١٢٨	٢٦ - العظيم
١٢٨	٢٧ - الصمد
١٣٢	ثانياً : تجاور اسمين في خواتم الآيات
١٣٢	١ - العزيز الحكيم
١٣٦	- نسق عام
١٤٥	- آيات تحتاج إلى تأمل

١٤٥	- الآية الأولى
١٤٧	- الآية الثانية
١٤٨	- الآية الثالثة
١٤٩	- الأعرابي وآية السرقة
١٥٠	٢- العزيز الرحيم
١٥٣	٣- العزيز العليم
١٥٤	٤- عزيز ذو انتقام
١٥٦	٥- العزيز الحميد
١٥٨	٦- العزيز (الغفار ، الغفور)
١٦١	٧- العزيز الوهاب
١٦٢	٨- العزيز المقتدر
١٦٤	٩- الغفور الرحيم
١٦٦	- المحور الأول : دفع وهم استحقاق النعم بسبب الإيمان
١٦٧	- المحور الثاني : المناسبة اللفظية
١٦٧	- المحور الثالث : بعد إحداث الذنوب ترغيباً في التوبة
١٦٨	- المحور الرابع : قرن الترغيب بالترهيب
١٦٩	- المحور الخامس : الإباحة لدفع الحرج
١٧١	١٠- الغفور الحليم
١٧٣	١١- الغفور الشكور
١٧٤	١٢- الغفور الودود
١٧٦	١٣- السميع العليم
الصفحة	الموضوع
١٧٩	١٤- السميع البصير
١٨١	١٥- السميع القريب
١٨٢	١٦- العلي (الكبير، العظيم ، الحكيم)
١٨٤	١٧- الغني (الحميد ، الحليم ، الكريم)
١٨٧	١٨- التواب (الرحيم ، الحكيم)
١٨٩	١٩- العليم الحكيم ، العليم القدير ، الحكيم العليم
١٩٢	٢٠- الحكيم العليم

١٩٣	٢١ - الرحيم (الغفور ، الودود)
١٩٥	٢٢ - الواسع (العليم الحكيم)
١٩٧	٢٣ - الغفو (الغفور القدير)
١٩٩	٢٤ - رب (رحيم غفور)
٢٠١	٢٥ - رؤوف رحيم
٢٠٣	٢٦ - الواحد القهار
٢٠٤	٢٧ - الرحمن الرحيم
٢٠٥	٢٨ - اللطيف الخبير
٢٠٨	٢٩ - القوي العزيز
٢١٠	٣٠ - الخلاق العليم
٢١١	٣١ - الشاكر العليم
٢١٢	٣٢ - الحليم الغفور
٢١٥	٣٣ - الحي القيوم
٢١٦	٣٤ - البر الرحيم
٢١٧	٣٥ - الشكور الحليم
٢١٨	٣٦ - الحميد المجيد
٢١٩	٣٧ - الولي الحميد
٢٢٠	٣٨ - الكبير المتعالي
٢٢١	٣٩ - الهادي النصير
٢٢٢	٤٠ - القريب المجيب
٢٢٥	٤١ - الملك المقتدر
الصفحة	الموضوع
٢٢٧	٤٢ - الفتاح العليم
٢٢٨	٤٣ - الخبير البصير
٢٣٠	الفصل الثالث : ظواهر بلاغية في خواتم الآيات
٢٣١	أولاً - التأكيد
٢٣١	- أهميته ونسبته
٢٣٣	- طرائق التوكيد
٢٣٦	- التأكيد في خواتم الآي

٢٣٧	- التأكيد بـ (إن ، أن)
٢٤٢	- التأكيد بـ (إن ، اللام)
٢٤٤	- التأكيد بـ (إن ، ضمير الفصل)
٢٤٨	- التأكيد بـ (إن ، ضمير الفصل أنت)
٢٥٠	- التأكيد بـ (إن ، اللام ، ضمير الفصل)
٢٥٢	ثانياً : التقديم والتأخير
٢٥٤	- تقديم المتعلق على المسند
٢٥٧	— تقديم شبه الجملة (على كل شيء)
٢٦٠	— تقديم (بما تعملون) على المسند
٢٦٥	ثالثاً : الالتفات
٢٦٩	١ - صورة الانتقال من الخطاب إلى الغيبة
٢٧٠	٢ - صورة الانتقال من الغيبة إلى الخطاب
٢٧٢	٣ - صورة الانتقال من الغيبة إلى التكلم
٢٧٦	رابعاً : التكرار
٢٨٠	- أغراض التكرار
٢٨٢	- التكرار في خواتم الآيات
٢٨٢	- تكرار اللفظ في خاتمة
٢٨٤	- تكرار الآية الكاملة
٢٨٨	خامساً : الإظهار في موضع الإضمار
٢٩٨	سادساً : بناء الخاتمة في الآية
٣٠٦	- (كان) في بناء الخاتمة
٣١١	الفصل الرابع : الدلالة الإحصائية لأسماء الله الحسنى في الخواتم
٣١٣	أولاً : دلالة الإحصاء للأسماء في القرآن الكريم
٣١٣	١ - الأسماء المفردة
٣٢٠	٢ - الأسماء المتجاوزة
٣٢٣	ثانياً : الأسماء الحسنى بين الخواتم المكية و المدنية
٣٢٥	- الملاحظة الأولى
٣٢٧	- الملاحظة الثانية
٣٢٩	الخاتمة

	الفهارس
٣٣٤	أولاً : فهرس الآيات القرآنية
٣٥٦	ثانياً : فهرس الأحاديث النبوية
٣٥٧	ثالثاً : فهرس الأشعار
٣٥٨	رابعاً : فهرس الأعلام
٣٦٣	خامساً : فهرس الكتب
٣٦٤	سادساً : فهرس المصادر
٣٧٣	سابعاً : فهرس الموضوعات